

قصة الحضارة

ول وايريل ديورانت

بداية عصر العقل

مراجعة
عماد أدهم

ترجمة
محمد علي أبودرة

الجزء الثالث من المجلد السابع

٣٠



تونس



بيروت

فهرس الجزء الثالث من المجلد السابع

الصفحة	الموضوع
	الفصل السابع عشر - ثورة الأراضى الوطيفة (١٥٥٤ - ١٦٤٨)
١	١ - مسرح الأحداث
٦	٢ - مار جريت بارما (١٥٥٩ - ١٥٦٧)
١٤	٣ - دوق الغافى الأراضى الوطيفة (١٥٦٧ - ١٥٧٣)
٢٣	٤ - ركويسانس ودون حيوان (١٥٧٣ - ١٥٧٨)
٢٩	٥ - بارما واورانج (١٥٧٨ - ١٥٨٤)
٣٤	٦ - النصر (١٥٨٤ - ١٦٤٨)
	الفصل الثامن عشر - من روينز إلى رامبرانت (١٥٥٥ - ١٦٦٠)
٤٢	١ - الفلمينكيون
٤٤	٢ - الفن الفلمينكى
٤٨	٣ - روينز (١٥٧٧ - ١٦٤٠)
٦١	٤ - فانديك (١٥٩٩ - ١٦٤١)
٦٦	٥ - الاقتصاد الهولندى
٧٠	٦ - الحياة والأدب فى هولنده
٧٥	٧ - الفنون الهولندية
٨٠	٨ - فرانس هالس (١٥٨٠ - ١٦٦٦)
٨٤	٩ - رامبرانت هارمنز فان رين (١٦٠٦ - ١٦٦٩)
	الفصل التاسع عشر: ظهور دول الشمال (١٥٥٩ - ١٦٤٨)
٩٧	١ - الدنمرك دولة عظمى

(٥)

الصفحة	الموضوع
	٢ - السويد (١٥٦٠ - ١٦٥٤)
١٠٠	١ - المذاهب المتصارعة (١٥٦٠ - ١٦١١)
١٠٤	٢ - جوستاف أدولف (١٦١١ - ١٦٣٠)
١٠٧	٣ - الملكة كريستينا (١٦٢٢ - ١٦٥٤)
	٣ - بولنده تكفر عن ذنبا (١٥٦٩ - ١٦٤٨)
١١٤	١ - الدولة
١١٨	٢ - المدنية
	٤ روسيا المقدسة (١٥٨٤ - ١٦٤٥)
١٢٣	١ - الشعب
١٢٦	٢ - بوريس جودونوف (١٥٨٤ - ١٦٠٥)
١٢٩	٣ - زمن الشدائد (١٦٠٥ - ١٦١٣)
	الفصل العشرون - الإسلام يتحدى (١٥٦٦ - ١٦٤٨)
١٣٤	١ - الأتراك
١٤٠	٢ - معركة ليبنتو
١٤٥	٣ - اضمحلال السلاطين
١٤٨	٤ - الشاه عباس الأكبر (١٥٨٧ - ١٦٢٩)
١٥٤	٥ - فارس تحت حكم الأسرة الصفوية (١٥٧٦ - ١٧٢٢)
	الفصل الحادى والعشرون - هرجمبون (١٥٦٤ - ١٦٤٨)
١٦٦	١ - الأباطرة
١٦٩	٢ - الإمبرطورية
١٧٦	٣ - الأخلاق وآداب السلوك

الصفحة	الموضوع
١٨٠	٤ - الآداب والفنون
١٨٧	٥ - المذاهب المتصارعة
	٦ - حرب الثلاثين سنة
١٩٥	١ - طور بوهيميا (١٦١٨ - ١٦٢٣)
١٩٩	٢ - فالنشتين (١٦٢٣ - ١٦٣٠)
٢٠٤	٣ - قصة جوستاف البطولية (١٦٣٠ - ١٦٣٢)
٢٠٩	٤ - إنحلال (١٦٣٣ - ١٦٤٨)
٢١٥	٧ - صلح ويستفاليا
	الفصل الثاني والعشرون - العلم في عصر جاليليو (١٥٥٨ - ١٦٤٨)
٢٢٢	١ - الخرافة
٢٢٩	٢ - إنتقال المعرفة
٢٣٨	٣ - أدوات العلم ومناهجه
٢٤٢	٤ - العلم والمادة
٢٤٨	٥ - العلم والحياة
٢٥١	٦ - العلم والصحة
٢٥٥	٧ - من كوبرنيكس إلى كبلر
٢٥٩	٨ - كبلر (١٥٧١ - ١٦٣١)
	٩ - جاليليو (١٥٦٤ - ١٦٤٣)
٢٦٤	١ - الفيزيائي
٢٦٨	٢ - الفلكي
٢٧٣	٣ - في المحاكمة
٢٨٠	٤ - الشيخ الجليل

(و)

الصفحة	الموضوع
	الفصل الثالث والعشرون - الفلسفة تولد من جديد (١٥٦٤ - ١٦٠٠)
٢٨٣	١ - الشكا كون
٢٨٨	٢ - جيوردانو برونو (١٥٤٨ - ١٦٠٠)
٣٠٠	٣ - فانيي وكبائلا
	٤ - الفلسفة والسياسة
٣٠٤	١ - جوان دي قاريانا (١٥٣٦ - ١٦٢٤)
٣٠٩	٢ - جان يودين (١٥٣٠ - ١٥٩٦)
٣١٤	٣ - هوجو جرو شيوس (١٥٨٣ - ١٦٤٥)
٣١٨	٥ - الكاهن الايقورى
٣٢٠	٦ - رينيه ديكارث (١٥٩٦ - ١٦٥٠)
٣٤٤	المراجع

فهرس الصور

٣٣٨	١ - فرانس هالس (ص ٨٠)
٣٣٩	٢ - انتوني فاندليك (ص ٦٠)
٣٣٩	٣ - سجادة عجمى - متحف المتروبوليتان بنيويورك (ص ١٦٤)
٣٤٠	٤ - امستيفن باثورى - ملك بولنده (ص ١١٦)
٣٤١	٥ - جامع السلطان أحمد - القسطنطينية (١٣٩)
٣٤١	٦ - شاعر يجلس في الحقيقة باصفهات (١٦٠)
٣٤٢	٧ - الشاه عباس الأكبر (ص ١٤٨)
٣٤٣	٨ - مدخل ميدان مسجد الشاه - اصفهات (ص ١٥٢)
٣٤٣	٩ - حالبليو - متحف الفن بفلورنس

الفصل السابع عشر

ثورة الأراضى الوطية

١٥٥٥ - ١٦٤٨

١ - مسرح الأحداث

في يوم ٣٠ أكتوبر ١٥٥٥ نقل الإمبراطور شارل الخامس مقاليد الحكم في الأراضى الوطية إلى ابنه فيليب ، وفي السادس والعشرين ، وأمام الجمعية التشريعية في بروكسل ، تلقى فيليب أيمان الولاء ، وأقسم بدوره أن يحافظ على حقوق المقاطعات السبع عشرة وإمтиازاتها ، وفق ما تقضى به التقاليد والمعاهدة والقانون ولقد هيأت هذه العهود والمواثيق المتبادلة المسرح لاحدى المسرحيات الكبرى في تاريخ الحرية .

وكان المشهد معقدا . كانت الأراضى الوطية آنذاك تضم بلجيكا الحالية وملكة هولنده القائمة الآن . ولم تكن الهولندية — وهى أصلا إحدى اللهجات الألمانية السائدة في وهاد شمال ألمانيا والأراضى الوطية — هى اللغة التى تتحدث بها المقاطعات السبع الشمالية (وهى هولنده ، زيلنده ، أوترخت ، فريزلند ، جروننجن ، أو فرييسل . حيدرلند ، فحسب ، بل كانت كذلك لغة أربع مقاطعات أخرى (هى فلاندرز ، برابانت ، مكلين . لبرج) فى شمالى د بلجيكا ، . على حين كانت د الوالون ، — وهى إحدى اللهجات الفرنسية — هى اللغة التى يتحدث بها الأهالى فى ست مقاطعات جنوبية (هى أرتوا ، وألون ، فلاندرز ، كمبراي ، تورنى ، اينو ، نامور) . وكانت هذه المقاطعات كلها ، بالإضافة إلى دوقية لكسمبرج المجاورة ، تحت حكم آل هابسبرج د وكانت السكاثوليكية^(١) هى ديانة الأغلبية الساحقة من الأهالى فى ١٥٥٥

ولكن - كاثوليكييتهم - كانت من النوع العطوف الموسوم بالروح الإنسانية الذي نادى به أرزم قبل ذلك بنصف قرن من الرمان، والذي كانت تدن به رومه في عصر النهضة بصفة عاهة، وليست من ذلك النوع الكشيب المتشدد من الكاثوليكية الذي ساد في أسبانيا لعدة قرون كانت تحارب فيها المسلمين والكفار، وبعد ١٥٢٠ تسربت اللوثرية ومذهب القائلمين بتجديد عماد البالغين ورفض عماد الأطفال من ألمانيا، تسربت بعد ذلك بشكل أكبر الكلفنية من ألمانيا وسويسرا وفرنسا. وحاول شارل الخامس أن يقصى على غارات هذه المذاهب الغربية التي اقتحمت عليه كاثوليكييته، بأدخال محاكم التفتيس البابوية أو الأسقفية، وبذشر أعلانات تتوعد بأشد العقوبة أى إنحراف خطير عن الكاثوليكية الصحيحة. ولكن قل أن نفذت هذه العقوبات بعد أن أضعف صلح باسو ١٥٥٢ من قوته. وفي روتردام ١٥٥٨ تمكن حشد من الأهالى من إنقاذ عدد من أنصار تجديد العماد من الأعدام حرقا. فجزع فيليب لتفاقم الهرطقة وجدد نشر الأعلان عن العقوبات.. وساد الخوف من أنه يعتزم إدخال محاكم التفتيس الأسبانية بكل ما فيها من قسوة ونسكال.

كان مذهب كلفن يلسم كل الاثام مع عنصر الروح التجارية (المركنتلية، فى النظام الاقتصادى وكان ثغرا أنتورب وأمستردام هما المركز الرئيسى لتجارة شمال أوروبا، وكانا ينبضان بالحياة بفضل التصدير والاستيراد والمضاربة وسائر ألوان المعاملات المالية، حتى أن التأمين وحده عاد بأوفر الثراء على ٦٠٠ من وكلائه^(٢). وجرت فى أنهار الراين وماسى وأيسل - وشلدت ووال وليس إلى جانب مئات من القنوات - جرت فى هذه كلها مجموعة متنوعة كبيرة من سفن النقل، وأذكت التجارة روح البراعة من المهن والصناعات فى بروكسل وغنت وايرس وتورنى وفالنسين ونامور ومكلين وليدن وأوترخت وهارلم. ونظر رجال الأعمال الذين تحكوا فى هذه المدن بعين الأجلال والأكسار إلى الكاثوليكية على أنها ركيزة دعمتها التقاليد للاستقرار السياسى والاجتماعى والروحى، ولكتهم لم يسيغوا سلطانها الكهنوتى بأهته ونخامته. كما أحبوا

الدور الذي تهيئه الكلفنية لجمهور العلمانيين المتعلمين ، في إدارة الجامع والسياسة الكلفنية . وكرهوا بصفة أخص الضرائب التي فرضتها الحكومة الأسبانية على اقتصاد الأراضي الوطية .

ووقع على الفلاحين أفدج الغرم وأصابوا أقل الغنم من الثورة . ذلك أن معظم الأراضي كان ملكا لذوى النفوذ والمكانة الذين كانوا أقرب شباها بأمراء الاقطاع في ألمانيا وفرنسا ، وهؤلاء هم الذين نظموا الكفاح من أجل الإستقلال . فكان فيليب دي مونوارنسى ، كونت هورن ، يمتلك أراضي شاسعة في المقاطعات الجنوبية . كما كان لكونت اجمونت لامورال ، ضياع واسعة في فلاندرز ولكسمبرج ، فكان مركزه يخول له أن يطلب يد دوقة بافاربه ، وحارب في عدة حملات ببسالة فائقة حتى أصبح أثيرا لدى شارل وفيليب ، وهو الذي قاد جيش فيليب إلى النصر في سانت كورين (١٥٥٥) . وأظهر في قصره الفخيم من ضروب الإسراف والكرم الباذخ ماورطه في الدين . ونظر مثل هؤلاء الرجال ، ونبلاء كثيرون آخرون أقل منهم شأنًا ، نظروا في شره ونهم إلى ثروة الكنيسة ، وسمعوا والحسد يملأ قلوبهم بالبارونات الألمان الذين أثروا بالاستيلاء على أملاكها (٢) . وإتجه تفكيرهم إلى أن الملك يحسن صنعا لو أنه اقتطع من - أملاك الكنيسة أجزاء أمعقولة بخصصها لقيادات عسكرية . وبذلك يخلق ، أسلحة فرسان رائعة . . . في مكان هذه الجماعة الحاملة من الأيقوريين المنغمسين في ملذات الطعام والشراب والذين لا شغل لهم إلا التسييح (٣) .

أما أكثر كبار الملاك قدرة وكفاية وثراء فكان وليم ناسو ، أمير أورانج وكان للأسرة أملاك شاسعة في المقاطعة الألمانية ديس ناسو ، وفي الأراضي الواقعة حول ويزبادن ، وكذلك في الأراضي الوطية ، على حين اشتق لقب الأسرة من إمارة أورانج الصغيرة في جنوب فرنسا . ولما كان وليم قد رأى النور في دلتنبرج الألمانية (١٥٣٣) فإنه نشأ على مذهب لوثر حتى بلغ الحادية عشر من عمره ، وحينئذ انتقل إلى بروكسل وتحول إلى الكاثوليكية حتى يكون له الحق في أملاك ابن عمه رينيه . وقد أعجب به شارل الخامس ، وزوجة من آن.

دوقة أجمونت (وارثة كونت بورن) وأختاره ليكون بين كبار من شهدوا تنازله التاريخي عن العرش (١٥٥٥) وأوفده فيليب — وكان ولیم آنذاك شابا غض الأهاب لم يجاوز الثانية والعشرين ، ولكنه كان يتقن الفلمنكية والألمانية والأسبانية والفرنسية والإيطالية — بين مبعوثيه للمفاوضة في عقد صلح كاتو — كمبرينس ، وهناك تميز ولیم بسداد الرأي وقوة الحججة وشدة الحرص في الكلام حتى لقبه الفرنسيون « بالصامت » . وعينه فيليب عضوا في مجلس الدولة ، وفارسا من فرسان الحجة الذهبية ، ونائبا للملك في هولنده وزيلند وأوترخت . ولكن ولیم اختط لنفسه نهجا لم يغتفره له فيليب قط .

ولقد نعم الأمير الشاب اليافع بمزايا في شخصه كما نعم بوفرة المال ، وكان فارع الطول رياضيا نحيل القوام ، سحر بفصاحته وكياسته كل الناس إلا أعداءه . وكان الاخفاق حليفه قائدا عسكريا ، أما في مجال التدبير أو التخطيط السياسي فإن إصراره المقرون بالمرونة وشجاعته الموسومة بالثبات خلقت منه برغم نقائصه، شخصا آخر يقف في وجه أعتى القوى السياسية والدينية في أوروبا . وساس الرجال أفضل مما قاد الجيوش ، وثبت على الأيام أن هذه موهبة أعظم . واتهمه أعداؤه بتغيير عقيدته الدينية وفق ما تقتضيه مآربه الشخصية أو السياسية^(٥) . وربما كان هذا صحيحا ، ولكن كل الزعماء في هذا القرن استخدموا الدين — أداة للسياسة (*) .

وعاب عليه الكثيرون تعدد زيجاته . فإنه عند وفاة زوجته الأولى أجرى مفاوضات للزواج من « آن » ، أخرى ثرية ، هي ابنة موريس أمير مسكونيا البروتستانتى ، وعقد قرانه عليها وفق الطقوس اللوثرية في ١٥٦١ ، ولكنه يعلن تحوله إلى البروتستانتية إلا عام ١٥٧٣ . وأصابته آن بعض لومة من الجنون في ١٥٦٧ ، فاحتجزت في معزل مع بعض الأصدقاء ليرعوها .

(*) أن الأمراء الذين أقاموا العقيدة الدينية أو تولوا حمايتها أو عيروها ، قل أن كان لديهم في قرارة أنفسهم شيء منها ، فولثير^(٦) .

وكانت لا تزال على قيد الحياة حين حصل وليم من خمسة من القساوسة البروتستانت على إذن بالزواج من شارلوت البوربونيه ، من الأسرة المالكة الفرنسية (١٥٧٥) ، وكانت قد هربت من دير للراهبات واعتنقت مذهب الاصلاح ، وتوفيت شارلوت ١٥٨٣ . ولبس وليم الحداد عليها لمدة عام ، تزوج بعده للمرة الرابعة من لوزدى كولينى ابنة أمير البحر اللى كان قد قضى نجبه فى منبجة سانت برثليميو . وعلى الرغم من هذه الزيجات - وربما كان بسببها - كان وليم عتيا بما لديه من أراضى ، خاوى الوفاض من المال . وفى ١٥٦٠ بلغت ديونه نحو مليون فلورين^(٧) . وغسلت عليه ذات يوم نزعته إلى الاقتصاد فطرد ثمانية وعشرين من طبائخيه^(٨) .

وتخط فيليب بشكل هدام فى التعامل مع النبلاء فى الأراضى الوطيشة . أن أباه الذى نشأ وترعرع فى بروكسل ، عرف هؤلاء الرجال وتكلم لغتهم وساسهم فى حزم . على حين أن فيليب ترى فى أسبانيا فلم يتكلم الفرنسية ولا الهولندية ، وعز عليه أن ينجنى لهؤلاء الأقطاب فى لباقة وسماحة ، ويحترم عاداتهم وديونهم ، بل أنه عبس واستاء من أسرافهم وتبذيرهم وأدمانهم على الشراب ، وتبذلم مع النساء ، وتمافتم عليهم . وفوق هذا كله لم يتعمهم فيليب دعاواهم فى الحد من سلطانه . على أنهم بدورهم كرهوا منه كبريائه الكسئيب وولعه بمحاكم التفتيش وتعيينه الأسباب فى المناصب التى تدر ربحا فى الأراضى الوطيشة ، وترويد مدنهم بحاميات أسبانية . وعندما طالب بدفع الأموال هؤلاء النبلاء ورجال الأعمال ، وهم الذين يشككون الجمعية التشريعية ، استمعوا - عن طريق المترجمين - فى فتور إلى دعواه ودفاعه بأن والده وبأن الحروب الأخيرة قد خلعت فى الخزينة عجزا كبيرا ، وتولاهم الجرع لمطالبته بمليون وثلثائة ألف فلورين ، وبضريبة أخرى قدرها ١٪ على العقارات ، و ٢٪ على الأموال المنقولة، ورفضوا التصديق على هذه الضرائب ، ولكنهم أقروا فقط بمبالغ قدروا أنها تكفى لتغطية النفقات الجارية . وبعد ثلاث

سنوات من ذلك دعاهم إلى الاجتماع ثانية وطلب منهم ثلاثة ملايين جيلدر ، فوافقوا ، على شرط انسحاب القوات الأسبانية من الأراضي الوطيفة . فأقر هذا الشرط ، ولكنه محاماً في هذا التنازل من ترضية بالحصول على إذن من البابا بإنشاء إحدى عشرة أسقفية جديدة في الأراضي الوطيفة ، على أن يعين في هذه الأسقفيات رجالاً يرتضون تنفيذ القوانين التي سنّها والده ضد الهرطقة وعندما أبحر فيليب إلى أسبانيا في ٢٦ أغسطس ١٥٥٩ - إلى غير رجعة إلى الأراضي الوطيفة - كانت قد تشكلت خطوط الصراع الاقتصادي الديني الكبير .

٢ - مارجريت بارما

١٥٥٩ - ١٥٦٧

كان فيليب قد عين مارجريت دوقة بارما نائبة له . وهي ابنة شرعية لشارل الخامس من أم فلنسية . وكانت قد نشأت وترعرعت في الأراضي الوطيفة ، وعلى الرغم من طول مقامها في إيطاليا ، فإنها استطاعت أن تلم بالفلمنكية . إن لم يكن بالهولندية كذلك . ولم تكن صيقة الأفق ولا متعصبة ، ولكنها كانت كاثوليكية ورة ، حرصت على أن تغسل في الأسبوع المقدس من كل عام أقدام اثنتي عشرة من العذاري وتمنحهن مهور الزواج . وكانت مارجريت امرأة قديرة عطوفة ، ولكن عصفت بها بشكل مزعج رياح الثورة .

لقد حد المستشارون الذين عينهم فيليب من سلطان مارجريت . وكان أجموت وأورنج من بين أعضاء مجلس الدولة لديها . ومذ رأى هذان العضوان أنهما ينهزمان دائماً أمام رأى الأعضاء الثلاثة الآخرين في المجلس فإنهما امتنعا عن الحضور . وفي هذا الثالث الناشء برزت وسيطرت شخصية أنطوان برينو أسقف آراس . المعروف في التاريخ باسم الكاردينال دي جرانفل . وكان رجلاً كريم الخلق وفقاً لفلسفته وتفكيره ، وكان ينزع -

كما تنزع مرجريت - إلى الوسائل السلمية في معالجة الهرطقة ، ولكنه كان مخلصاً للكشلكة والملكية إلى حد تعذر معه أن يسيغ الانشقاق أو الخلاف الدينى . وقد غلت أيدي الكاردينال ومرجريت بإصرار فيليب على عدم اتخاذ أى إجراء هام إلا بموافقة الملك ، وكان وصول هذه الموافقة الملكية من مدريد إلى بروكسل يتطلب عدة أسابيع . وضحي الكاردينال بشخصيته في سبيل طاعة الملك . وعارض تعدد الأسقفيات سرا ، ولكنه خضع لإلحاح فيليب على أن أربع أسقفيات لا تكفى لسبع عشرة مقاطعة . ولحظت الأقلية البروتستانتية في استياء وغضب أن الأساقفة الجدد ينشرون محكم التفتيش البابوية وينشدون في إجراءاتها . وفي مارس ١٥٦٣ كتب أورانج وأجونت وهورن - وهم أنفسهم كاثوليك - كتبوا إلى فيليب يتهمون جرانفل بانهك حرمة الحقوق الإقليمية التي تعهد الملك بالإبقاء عليها واحترامها ، ورأوا أن الكاردينال مسؤل عن الأساقفة الجدد ، وحضوا على عزله من منصبه . ولم تستغ مرجريت نفسها استيلاء الكاردينال على السلطة ، وناقت إلى شيء من التراضى مع النبلاء الساخطين الذين كانوا ذوى أهمية لديها للمحافظة على النظام الاجتماعى ، وأخيرا فى سبتمبر ١٥٦٣ أوصت هى كذلك بنقل جرانفل إلى مكان آخر . وبعد مقاومة طويلة خضع الملك ، ودعا التيسيس العظيم إلى التمتع بأجازة ينقطع فيها عن عمله . وغادر جرانفل بروكسل فى مارس ١٥٦٤ ، ولكنه ظل واحدا من أعظم المستشارين الموثوق بهم لدى الملك . وعاد النبلاء إلى مجلس الدولة الخاص بمرجريت ، وباع بعض موظفيهم المناصب وأحكام القضاء وأوامر العفو ، ويبدو أن نائبة الملك ، مرجريت ، شاركت فى الغنائم^(٩) .

وانشرت محكم التفتيش ، وكان فيليب يراقبها وهو فى أسبانيا ، ويشجع على استمرارها ، ويبحث إلى مرجريت بأسماء الهرطقة المشتبه فيهم . وما كاد يمر يوم دون إعدام . وفى ١٥٦١ أحرق جيلين دى موار فى أودينارد ، وأحرق توماس كولبرج فى تورنى ، وقطع أحد أنصار تجديد العقاد أربا حتى

الموت بسبع ضربات من سيف عتيق صدىء ، في حضور زوجته التي قضت نحبها فزعا من هول المنظر^(١٠) وأثارت هذه الأعمال الوحشية حفيظة برتران لبلان فهاجم كاتدرائية تورني ، أثناء قداس عيد الميلاد واندفع إلى المذبح وانتزع القربان المقدس من يد القسيس ووطئه بقدميه ، وصاح في جمهور المصلين دأيها المظلون ، هل تظنون أن هذا هو المسيح إلهكم ومخلصكم ؟ وعذب الرجل فأحرقت يده اليمنى وقدمه حتى لم يبق منهما إلا العظام ، وقطع لسانه ، وعلق فوق نار وشوى على محصل حتى انفضأ أنفاسه ، وفي ليل أحرق روبرت أوجيبه وزوجته وأبناؤه لأنهم قالوا بأن عبادة القربان المقدس ليست إلا تجديفا وثديا^(١١) .

أما توركيمادا^(١٢) الأراضى الوطيشية أول قاض للتحقيق وعضو في محكمة التفتيش في أمبانيا د يضرب به المثل في القسوة والتعصب الذميمة . فهو بيتر تيتلمان الذى بلغت أعماله من التعسف والوحشية حداً أتهمه معه مجلس مدينة بريجز - وكه من الكانو ليك - لدى مرجريت ، بأنه متوحش انتزع الناس من بوتهم وحاكمهم دون أية ضوابط قانونية ، وأجبرهم على أن ينطقوا بما يريد هو ، وحكم عليهم بالإعدام ، كما أن القضاة فى الفلاندرز وجها إلى الملك فيليب كتابا مشيراً يرجون فيه وضع حد لهذه الأعمال الشائنة . وطالبت مرجريت فى شىء من الجبن إلى هذا المحقق أن يتدرع د بالحزم والاعتدال ، ولكن الإعدام لم يتوقف . وأيد فيليب تيتلمان ، وأمر مرجريت أن تنفذ دون رحمة ولا ابطاء القرارات التى أصدرها أخيراً بجمع ترنت (١٥٦٤) . واحتج مجلس الدولة بأن عدداً من هذه القرارات انتهك حرمة الامتيازات المعترف بها للمقاطعات ، وأوقف نشرها .

(١) ليس لنا من مصدر لثل هذه الأحداث إلا المراجع البروتستانتية المقتبسة فى

كتاب موناي (قيام الجمهورية الهولندية) ١ - ص ٢٨٣ - ٢٩٠ .

(٢) Torquemada ١٢٢٠ - ١٤٩٨ راهب دوميكاني .

وكان وليم أورانج تواقفاً إلى الأبقاء على الأراضي الوطيئة متحدة في سبيل المحافظة على حرياتهما السياسية التقليدية ، فأقترح انتهاج سياسة التسامح سابقة كثيراً لعصره وأوانه . فأعلن في مجلس الدولة ، أن الملك يخطيء إذا ظن أن الأراضي الوطيئة سوف تحمل وتساند هذه المراسيم الدموية بلا حدود . ومهما كنت شديد التمسك بعقيدتي السكاثوليكية ، فاني لأقر محاولة الأمراء أن يتحكموا في ضماير رعاياهم ، ورغبتهم في أن يسلبوهم حرية العقيدة^(١١) ، وانضم السكاثوليك إلى البروتستانت دافع هذه المراسيم بالظلم والطغيان^(١٢) وأرسل أجوننت إلى مدريد ليلتمس التخفيف من شدة هذه المراسيم ، وعززت مرجريت هذا المطلب سرّاً . ووجه أساقفه أيرس ونامور وغنت وسانت أوامر ملتصقا إلى فيليب (يونية ١٥٦٥) يرجون فيه أن يخفف الملك المراسيم ، وأن يوجه النصح إلى الشعب في شيء من الرفق والحب الأبوي ، لا بالقساوة الشرعية^(١٣) ، ورد فيليب على كل هذه الاحتجاجات بأنه يؤثر أن يضحي بمائة ألف من الأرواح على أن يغير سياسته^(١٤) . وفي أكتوبر ١٥٦٥ أرسل توجيهاته الصريحة إلى وكلاء محكمة التفتيش :

أريد فيما يتعلق بمحكمة التفتيش أن تطبق اجراءاتها وأحكامها كما كان الحال من قبل ، وكما تقتضيه كل القوانين وصعوبة كانت أو الهيئة . أن هذا يقع من نفس أحسن موقع . أريد منكم أن تنفذوا أوامري . أعدموا كل المسجونين ، ولا تتركوا لهم بعد اليوم فرصة للافلات نتيجة تقصير القضاة وضعفهم وعقيدتهم الفاسدة ، وإذا قعد الجبن ببعضهم عن تنفيذ المراسيم فاني استبدل بهم رجالاً أكثر جرأة وحماسة^(١٥) .

وأذعننت مرجريت لفيليب وأصدرت أوامرها بتطبيق المراسيم تطبيقاً كاملاً (١٤ نوفمبر ١٥٦٥) . وانسحب أورانج واجوننت ثانية من مجلسها . ورفض أورانج وغيره من النبلاء وكثير من القضاة تطبيق المراسيم : وانهاالت نشرات البروتستانت واعلاناتهم التي يستنكرون فيها الاضطهاد . واشتم التجار

الأجانب رأحة الثورة في الجو . فبدأوا ينزحون من الأراضي الوطیئة ، وأغلقت المخازن وكسدت التجارة ، وخيم شبح الموت على أنتورب وفر كثير من البروتستانت في الأراضي الوطیئة إلى إنجلترا وألمانيا . وفي إنجلترا ساعدوا على النهوض بصناعات النسيج التي نافست « المقاطعات المتحدة » في القرن السابع عشر ، وقادت الانقلاب الصناعي في القرن الثامن عشر .

واعتنق كثير من صغار النبلاء المذهب البروتستانتي خفية . وفي ديسمبر ١٥٦٥ اجتمع بعض هؤلاء — لويس كونت ناسو (وهو الشقيق الأصغر للشهيم اوليم) ، وفيليب فان مارنكس أمير سائت ألديجوند ، وأحوه جان فان مارنكس أمير تولوز ، وهندريك كونت بردرود ، وغيرهم اجتمعوا في قصر كولبرخ في بروكسل ، وحرروا « وثيقة » يستنكرون فيها لإدخال محاكم التفتيش إلى الأراضي الوطیئة ، وشكلوا عصبة تعهدت بإخراجها من البلاد . وفي أبريل ١٥٦٦ سار ٤٠٠ من صغار النبلاء إلى قصر مرجريت وقدموا لها « ملتمسا » بأن تطلب إلى الملك أن يضع حداً لمحاكم التفتيش والمراسيم في الأراضي الوطیئة ، وأن توقف تطبيق المراسيم حتى يصل جواب الملك . وأجابت مرجريت بأنها سترسل ظلامتهم إلى الملك ، ولكن ليس من سلطتها أن توقف المراسيم ، وأنها ستبذل كل ما في مقدورها لتخفيف من مفعولها . ولما رأى أحد أعضاء مجلسها شدة فزعها من عدد مقدمي الظلامة وقوة عزمهم طمأنها بقوله « عجباً يا سيدتي ، هل تخشين يا صاحبة العظمة المتسولين ؟ وتقبل المتحالفون هذا اللقب تحدياً . وارتدى كثير منهم البدة الرمادية الخشنة ، وحملوا الحقيبة والطاس اللذين تميز بهما المتسولين آنذاك . وأصبحت عبارة « فليحي المتسولين ، صيحة الحرب في الثورة . ولمدة عام كان هؤلاء النبلاء الصغار هم الذين قادوا الثورة وأذكوا نارها .

وأي بلغت مرجريت نبأ « الملتمس » ، إلى فيليب ، كما أبلغته ما يلقاه من تأييد شعبي كبير . وجددت مساعيها لحمله على الاعتدال ، فكان جوابه يحمل في

الظاهر معنى الترضية (٦ مايو ١٥٦٦) ، وعبر عن أمه في إمكان قمع الطرطقة دون أراقة مزيد من الدماء ، ووعده بزيارة الأراضي الوطيئة في موعد قريب وأرسل إليه مجلس الدولة فلورنت مومورنس . والبارون مونتيني ، ومركيز برحون ، لتعزير رجاء مرجريت . فأستقبلهم فيليب استقبالا حسنا . وفي ٣١ يولييه كتب إليها بموافقة على إلغاء محاكم التفتيش الأسقفية في الأراضي الوطيئة ، وبأنه يصدر عفوا عاما عن توصى هي بالعمو عنهم .

وانتهز السكلفنيون واللوثريون وأنصار تجديد العماد في الأراضي الوطيئة فرصة هذا الهدوء في العاصفة ليجهروا بعبادتهم ، وعاد اللاجئون البروتستانت أفواجا من إنجلترا وألمانيا وسويسرا ، وقام الوعاظ من مختلف الطبقات - الرهبان السابقون ، علماء اللاهوت ، صانعو القبعات ، بمشطو شعر الخيل ، دباغو الجلود - يخطبون في الجموع الغفيرة من النساء والرجال ، وكثير منهم مسلحون ، وكلهم يرتلون المزامير ويهتفون « فليحى المتسولون » . وبالقرب من ثورني ، ألقى أمبروزويل الذي كان قد درس مع كلفن - ألقى موعظة في ستة آلاف شخص (٢٨ يونيو ١٥٦٦) ، وبعد ذلك بيومين وفي نفس المكان . خطب قسيس آخر في عشرة آلاف ، وبعد أسبوع واحد استمع لموعظته عشرون ألفا (١٦) . وبدأ أن نصف سكان الفلاندرز أصبحوا بروتستانت . وكادت الكنائس والمدن أن تخلو من الناس في أيام الأحاد لأنهم هرعوا إلى جمعيات البروتستانت . وإذا سمع الناس في مقاطعة هولندة بأن يتر جبريل الخطيب المفوه سوف يلقي موعظة في أوفرين بالقرب من هارلم ، هرع آلاف البروتستانت إليه ، وهزوا أجواز الفضاء في الحقول بمزاميرهم . وبلغت جموع البروتستانت بالقرب من أنتورب خمسة عشر ألفا ، وقال بعضهم ثلاثين ألفا ، وكان كل الرجال مسلحين تقريبا . وأمرت مرجريت حكام أنتورب بمنع هذه التجمعات لأنها خطر على البلد ، فأجابوا بأن قواتهم المسلحة غير كافية ولا يعتمد عليها ، ولم يكن تحت تصرف مرجريت نفسها قوات منذ رحيل الحاميات الأسبانية ح . وبلغ الاضطراب في أنتورب حداً

ساعات معه الحياة الاقتصادية بشكل خطير . وطلبت مرجريت إلى وليم أورانج أن يشخص إلى المدينة لإجراء تسوية سلمية بين الكاثوليك والبروتستانت هناك . فعمل على تهدئة الأهور بحض الوعاظ على قصر اجتماعاتهم على الضواحي وإلا يحمل المجتمعون سلاحا .

وفي الشهر نفسه (يولييه ١٥٦٦) اجتمع بقيادة كونت لويس ناسوا ألقان من المتسولين ، في سانت تروند ، في أسقفية ليميج ، وسط هذا الصخب البييج ، وضعوا الخطط للمضى قدما في قضيتهم . وقرروا الاتصال بالبروتستانت الألمان ليشاركوا بينهم جيشا بهب لنجدة البروتستانت في الأراضى الوطيئة إذا هوجموا . وفي ٢٦ يولييه قدم لويس وأثنى عشر آخرون ، وهم في زى المتسولين ، إلى مرجريت ، طالبا بعقد الجمعية العمومية ، وأن تحكم هى نفسها فى نفس الوقت ، بتوجيه من أورانج وأجمونت وهورن ، ولما كان ردها ملتويا غير واضح فأنهم لمحووا إلى أنهم قد يضطرون إلى التماس مساعدة أجنبية ، ومن ثم شرع لويس ، بالواطؤ مع أخيه الأحرص منه . وليم ، فى تجهيز أربعة آلاف من الخيالة وأربعين سرية من المشاة فى ألمانيا (١٧) .

وفى ٩ أغسطس وقع فيليب وثيقة رسمية يعلن فيها أن العرض الذى قدمه للعفو العام قد انتزع منه رغم إرادته ، وأنه لا يلزمه بشيء ، وفى ١٣ أغسطس أكد للبابا أن إيقاف محاكم التفتيش مرهون بموافقة البابا (١٨) . وفى ١٤ أغسطس اقتحمت جمهرة من البروتستانت بتجريض من الوعاظ الذين استنكروا الصور الدينية ، كنائس سانت أومر الواحدة بعد الأخرى فحطموا الصور والمذابح ودمروا كل الزخارف . وفى نفس الأسبوع قامت جموع شبيهة بمثل هذه الأعمال فى ايز وكورتراى وأودينارد وفالنسيان . وفى يومى السادس عشر والسابع عشر دخلت الجماهير الكاتدرائية الكبرى فى أنتورب وحطموا المذبح والزجاج الملون والصلبان وغيرها من الصور ، ودمروا الآلات الموسيقية والزخارف وكؤوس القربان والأوعية المقدسة ، وفتحوا

الأضرحة وجردوا الجثث من حلبيها ، وشربوها النبيذ المقدس ، وأحرقوا كتب القداس الثمينة ، ووطئوا بأفئدهم التحف الفنية . وأرسلوا في طلب السلام والحبال ، ففسلقوا وجذبوا التماثيل من أماكنها وهشموها بالمطارق الثقيلة . واخترق الجمع أنثورب وهم يهتفون منتصرين ، وحطموا الصور والزخارف في ثلاثين كنيسة وديرا ، وأحرقوا مكاتب الرهبان ، وأخرجوا الرهبان والراهبات من الأديار^(١٩) ولما ترامت أنباء هذه الضراوة الكلفنية، إلى تور في إنطلقت نشرة تحطيم الصور المقدمة من عقابها هناك، وأعمل السلب والنهب في كل الكنائس . وفي الفلاندرز وحدها جردت ٤٠٠ كنيسة من الصور . وفي كولبرخ أشرف السكونت المبتهج المرح على أعمال التخريب وأطعم ببغاواته على القرايين المقدسة^(٢٠) . وفي جهات أخرى قام بعض الكهنة السابقين بتحميص رقائق الخبز على شوكات^(٢١) . ومن الفلاندرز أمتد الهياج إلى المقاطعات الشمالية، إلى امستردام وبيدن ودانفت وأوترخت ، ثم إلى جرونينجن وفريزاند . واستنكر معظم زعماء البروتستانت أعمال التخريب هذه . ولكن بعضهم ممن رأوا أن الأفراد لم يلحق بهم إلا أيسر الأذى والضرر . ذهبوا إلى أن تحطيم التماثيل والصور أقل أجراما من إحراق الأحياء ، الهراطقة ، .

وخارت قوى مرجريت بارما أمام العاصفة . فسكتبت إلى فيليب تقول : أن أى شيء وكل شئ محتمل في هذا البلد فيما عدا العقيدة الكاثوليكية^(٢٢) . وبات فيليب يتحين القرصة للانتقام . ولكن مرجريت التي تواجه الجماهير المسلحة والزعماء المغامرين أحست بأنها مرغمة على بعض التنازلات . فوعدت في ٢٣ أغسطس ، مع ممثلي المتسولين ، إتفاقا تباح بمقتضاه العبادة الكلفنية في الأماكن التي كانت تمارس فيها بالفعل ، بشرط عدم التعرض للطقوس الكاثوليكية ، وإلا يحمل البروتستانت سلاحا خارج بيوتهم . ووافق ممثلو المتحالفين على حل د عصبتهم ، إذا أوفت الحكومة بهذا الاتفاق . ونوقف الاضطهاد وساد السلام لبعض الوقت .

ولكن أيا من وليم أورانج ومالك أسبانيا لم يقنع بهدوء الحال . فإن وليم كان يرى في البروتستانتية الثائرة أداة لتحقيق استقلال الأراضي الوضيئة ، وعلى الرغم من أنه كان لا يزال كاثوليكيًا اسمًا فإنه تخلى عن كل مناصبه الحكومية ، ونظم وسائله الخاصة للتجنس ، وقصد (٢٢ أبريل ١٥٦٧) إلى ألمانيا يلتبس المدد من الرجال والمال . وبعد ذلك بخمسة أيام غادر دوق ألبا أسبانيا ، مفوضًا من الملك فيليب . في جمع ما يلزم من القوات لاستخدامها في الانتقام من المشاعين الكالفنيين ، والقضاء بلا هوادة على أية حال هرطقة وثورة وحرية في الأراضي الوضيئة .

٣ - دوق ألبا في الأراضي الوضيئة

١٥٦٧ - ١٥٧٣

هو فرناندو ألفارز دى توليدو ، دوق ألبا أو ألبا ، وكان آنذاك في التاسعة والخمسين من العمر ، وكأنه صورة أبدعتها ريشة الرسام الجريكو : طويل القامة ، نحيل القوام ، ذو عينين سوداوين ، وبشرة صفراء ، ولحية بيضاء فضية ، وكان قد ورث ، وهو في سن العشرين ، لقبه السلامع الذائع الصيت ، وضياعه الشاسعة ، وبدأ العمل العسكري في سن مبكرة ، وامتاز بالشجاعة والذكاء والقسوة . وألحقه فيليب بأخص مجالسه واستمع مغتبطًا إلى مشورته وكان حكمه في هذه الساعة العصبية هو ما يقضى به جندي درج على النظام الأسباني والورع الأسباني : اسحق الثوار العصاة دون شفقة ولا رحمة . فإن أى تنازل بقوى المعارضة . وأطلق فيليب يديه ومنحه كل السلطة ودعا له بالتوفيق .

شق ألفا طريقه إلى إيطاليا ، وهناك جمع أسامعا من الحاميات الأسبانية في نابلي وميلان صفوة الجند ليشكل جيشًا قوامه عشرة آلاف رجل ، ألبسهم أنغر الشياب وزودهم بأحدث العدة والعتاد ، وأثلج صدورهم بألفين من بنات

الهوى أحسن اختيارهن وأعدادهن وقاد الجيش عبر جبال الألب ، وعبر برحندي والورين ولسكسمرج. وفي ٢٢ أغسطس ١٥٦٧ دخل بروكسل وتلقاه جمهورت في كل الخضوع والخشوع . وقدم له جوادين نادرين هدية . ولقيته مرجريت بعروها الأسي والأسف. وهى تشعر بأن أخاها حل محلها وفرض سلطانه عليها فى نفس الوقت الذى كانت قد أعادت فيه نظاماً إنسانياً . وأحتجت مرجريت عندنا أقام ألفا حاميات أسبانية فى كل المدن . وأجاب فى فتور
« إن على استعداد لا احتمال كل الخزي والوزر ، .

واستأذنت مرجريت الملك فيليب فى الاستقالة من منصبها ، فأجابها إلى طلبها مع منحها معاشاً سخياً يضمن لها الهدوء . وفى ديسمبر رحلت عن بروكسل إلى موطنها فى بارما ، وقد حزن من أجلها الكاثوليك الذين أجلوها واحترموها ، والبروتستانت الذين تنبأوا بأنه سيمتضح وشيكا أن أشد قساوتها كانت ليناً وإعتدالاً إلى جانب وحشية ألفا المنتظرة .

وأقام نائب الملك الحاكم العام الجديد فى قلعة أنتورب ، وأعد نفسه لتطهير الأراضى الوطية من الهرطقة ، ودعا جمهورت وهورن إلى العشاء وأكرم وفادتهما . ثم ألقى القبض عليهما وأرسلهما فى حراسة مشددة إلى أحد الحصون فى غنت (٧ سبتمبر) وعين مجلس القلائل ، الذى أطلق عليه البروتستانت الجزعون من جديد اسم «مجلس الدم» وكان سبعة من أعضائه التسعة من الأراضى الوطية واثنان من الأسبان ، وكان لهذين العضوين فقط حق التصويت . واحتفظ ألفا لنفسه بالقرار الحاسم فى أى موضوع يعنيه بخاصة . وأمر المجلس بالبحث عن المشتبه فى معارضتهم للكنيسة الكاثوليكية أو الحكومة الأسبانية ، وإعتقالهم ومحاكتهم سراً ، ومعاينة من يحكم عليهم دون ترفق أو إبطاء . وانبث الوكلاء للتجسس ، وشجع المخبرين على الغدر بأقاربهم وأعدائهم وأصدقائهم وحظرت الهجرة ، وأعدم ربانية السفن الذين يساعدون ربانية عليها شنقاً (٢٣) . وحكم على كل مدينة مجزت عن قبح الثورة أو معاينة

العصاة بأنها مذنبه، وأودع موظفوها السجن أو فرضت عليهم الغرامة. وأعتقل آلاف الأفراد. وذات صباح واحد قبض على نحو ١٥٠٠ في مضاجعهم ونقلوا إلى السجنون. وكانت المحاكمات قصيرة عاجلة، وكان الحكم بالإعدام يصدر أحياناً بالجملة، على ثلاثين أو أربعين أو خمسين دفعة واحدة (٢٤). وفي شهر واحد - (يناير ١٥٦٨) أعدم ٨٤ شخصاً من سكان فالنسيان. وسرعان ما كان من العسير أن تجد في الفلاندرز أسرة غير حزينة على فرد منها قتل أو أعتقل بأمر من مجلس القاتل،. وندر أن كان في الأراضي الوطية من يجسر على الاحتجاج، فإن أيسر النقد كان يعنى الإعتقال.

وأحس ألفا بأن نجاحه قد تلطخ وتضامل بعجزه عن إيقاع وليم أورانج في حباله. وأصدر مجلس المتاعب قراراً بإتهام الأمير وأخيه لويس، وزوج أخته كونت فإن دن برج، والبارون مونتيني وغيرهم من الزعماء، بتشجيع الهرطقة والثورة. وكان مونتيني لا يزال في أسبانيا، فأودعه فيليب السجن. وكان ابن وليم، وهو فيليب وليم كونت بورن طالباً في جامعة لوفان، فاعتقل وأرسل إلى أسبانيا، وهناك نشىء تنشئة كاثوليكية متحمسة، وتبرأ من مبادئ أبيه. وصدر إعلان بأن وليم خارج على القانون، أحل لأى إنسان قتله دون التعرض لعقاب قانون.

وعمل وليم أورانج على تنظيم جيش، ووجه أخاه لويس إلى أن يخذو حذوه. واتمس العون من الأمراء اللوثرين فكبريتهمسوا للإستجابة له، ومن الملكة اليزابث التي أمسكت عن مساعدته في حذر. وجاءته الأموال من أنتورب وأمستردام وليدن وهارلم وفلشنج، وأرسل إليه كل من الكونت فان دن برج وكولمبرخ وهو جستران ثلاثين ألف فلورين. وباع هو مجوهراته وأواني الفضية ومطرزاته وأثاثه الفاخر، وجمع نحو خمسين ألف فلورين، وتوافر الجنود، لأن المرتزقة الذين تفرقوا نتيجة بعض الهدوء في الحرب الدينية في فرنسا، عادوا إلى ألمانيا مفلسين. وكان لزاماً أن ينتهج وليم سياسة التسامح. فكان

عليه أن يكسب اللوثرين والكلفنيين تحت لوائه ، كما كان عليه أن يؤكد للكاثوليك في الأراضى الوطيئة أن عبادتهم لن تفس بسوء بتحرير البلاد من ربقة أسبانيا .

ووضع أورانيخ خطة العمل لثلاثة جيوش فى وقت واحد ، قوة من الهيجونوت من فرنسا تهاجم أرتوا من الجنوب الغربى ، ويقود هو جستران جيشه ضد ماسترخت فى الجنوب ، ويقترح لويس ناسو فريزلند من ألمانيا فى الشمال الشرقى . وصدت هجمات الهيجونوت وهو جستران ، ولكن لويس انتصر على الجنود الأسبان فى هيلجرلى (٢٣ مايو ١٥٦٨) . وأمر دوق ألفا باعدام أجموت وهورن (٥ يونية) ليطلق ثلاثة آلاف من الجنود كانوا يتولون حراستهما وحماية مدينة غنت ، ليستفيد منهم . وتقدم بهذه الإمدادات إلى فريزلند ، ودحر جيش لويس الذى أصابه الوهن فى جمنجن (٢١ يولية) وأودى بحياة ٧٠٠٠ رجل وهرب لويس سبعا فى مصب نهر امز . وفى أكتوبر قاد وليم جيشا قوامه ٢٥ ألف رجل إلى برابانت ، وقد عقد العزم على ملاقات ألفا فى معركة حاسمة . ولكن ألفا بجيشه الأقل عددا والأحسن نظاما أحبط خططه ، وتجنب اللقاء فى معركة ، وعمد إلى تعويق عدوه بهجمات فى مؤخرته ورفض القتال جنود وليم الذين لم تدفع رواتبهم . فقادهم إلى مكان آمن فى فرنسا وسرحهم . ثم تنكر فى زى فلاح وشق طريقه من فرنسا إلى ألمانيا حيث تنقل من مدينة إلى مدينة ، فراراً من القتل . وبهذه الحملات المشؤومة الممتلئة بالسكوارت بدأت « حرب الثمانين عاما » التى خاضتها الأراضى الوطيئة فى ثبات ومثابرة لم يسبق لهما مثيل ، حتى قدر لها النصر فى النهاية فى ١٦٤٨ .

كان ألفا آنذاك سيد الموقف المزهو فى الميدان ، ولكنته كان خاوى الوفاض إلى حد بعيد . وكان الملك فيليب قد دبر مع أصحاب المصارف فى جنوة أن يمدوه بحراً بأربعمائة وخمسين ألف دوكت . ولكن القرصان الإنجليز أجبروا السفن على الاتجاه إلى ميناء بليموت ، وهناك وضعت الزابث يدها على المال ،

٣ - ٢ الحضارة

مع أرق الإعتذارات ، حيث لم تكن تسكره مساعدة ولیم مقابل هذا الثمن . عندئذ دعا ألفا الجمعية العمومية المكونة من النبلاء ويمثلی المدن للاجتماع في بروكسل ، واقترح عليهم (٢٠ مارس ١٥٦٩) فرض ضريبة فورية قدرها ١٪ على الممتلكات وضريبة دائمة قدرها ٥٪ على أية عملية نقل للعقارات، وضريبة دائمة قدرها ١٠٪ على المبيعات فاحتجت الجمعية بأنه لما كانت مواد كثيرة قد غيرت الملكية عدة مرات في العام الواحد فإن ضريبة المبيعات هذه تقارب أن تكون مصادرة ، وأحالت المقترحات إلى جمعيات المقاطعات ، وهناك كانت المعارضة شديدة إلى حد اضطر معه ألفا إلى إرجاء ضريبة ١٠٪ إلى ١٥٧٢ ، والاكتفاء بضريبة الواحد في المائة ، وبمنحة قدرها مليوني فلورين سنويا لمدة عامين . ولكن حتى ضريبة الواحد في المائة كانت جبايتها شاقة باهظة التكاليف ورفضت أو ترخت دفعها . فأطبقت فرقة من الجنود على المنازل والممتلكات ، واستمرت المقاومة ، ورمى ألفا كل الأقليم بالحياطة وألغى كل إعفائه وامتيازاته ، وصادر كل ممتلكات سكانه لصالح الملك .

وأن هذه الضرائب والإجراءات التي اتخذت لفرضها هي التي هزمت ألفا الذي لم يهزم حتى ذلك اليوم . وبات كل السكان تقريبا ، كاثوليك وبروتستانت ، يقاومونه ، في استياء يتفاقم أمره ، كلما عوقت وعرقلت ضرائبه نشاط الأعمال التي بنت عليها الأراضي الوطيئة ازدهارها ورخاءها . ولما كان ألفا أبرع في الحرب منه في شئون المال فإنه انتقم لإستيلاء اليزابث على الأموال التي كانت في طريقها إليه من جنوة ، بالإستيلاء على الممتلكات الإنجليزية في الأراضي الوطيئة ، وحظر التجارة مع إنجلترا . وردت اليزابث على هذا بمصادرة بضائع الأراضي الوطيئة في إنجلترا ، وتحويل التجارة الإنجليزية إلى همبرج . وسرعان ما أحست الأراضي الوطيئة بوطاة الكساد الاقتصادي . فأغلقت المتاجر أبوابها ، وازداد النعطل ، وفكر رجال الأعمال الأقوياء الذين احتملوا في صبر وتجهد شتى البروتستانت ونهب الكنائس ، ففكروا مليا وسرا في الثورة

وأخيرا مولوها . وحتى رجال الدين الكاثوليك الذين خسروا الإنهيار الاقتصادي الوطني ، ألقبوا على ألفا ، وحذروا الملك فيليب من أن الدوق يعمل على تخريب البلاد (٢٥) ، بل أن البابا - ييوس الخامس الذي كان قد اغتبط أيما اغتباط بانتصارات ألفا ، نراه الآن يشاطر الكاردينال دي جراففل اسمه لقساوة ألفا (٢٦) . ويوصى بالعمو العام عن العصاة والهرطقة النادمين التائبين - ووافق فيليب على هذا الاجراء وأبلغ به ألفا (فبراير ١٥٦٩) ، واسكن الدوق طلب التمل ، ولم يعلن العمو إلا في ١٦ يولية ١٥٧٠ . وفي تلك السنة خلع البابا على ألفا القبعة والسيف المقدسين ، وأنعم د بالوردة الذهبية ، على زوجته (٢٧) ، كما أعدم فيليب موتيني الذي كان سجيننا - (١٦ أكتوبر ١٥٧٠) .

وفي نفس الوقت ظهرت على المسرح قوة جديدة . وذلك أنه في مارس ١٥٦٨ قامت عصاة من الياثسين المستميتين عرفوا باسم د المتسولين المتطرفين ، وجها مهمم إلى نهب الكنائس والأديار وقطع أنوف القساوسة والرهبان أو آذانهم ، وكانهم عقدوا العزم على مباراة د مجلس الدم ، في وحشيته وفظائعه (٢٨) . وفيما بين عامي ١٥٦٩ - ١٥٧٢ ظهرت جماعة أخرى أطلقوا على أنفسهم اسم د متسولي البحر ، وضعوا أيديهم على ١٨ سفينة ، و تلقوا عمولة من وليم أورانج ، وأغاروا على شواطئ الاراضي الوطية ، ونهبوا الكنائس والأديار ، وسيطروا على المراكب الأسبانية ، وزودوها ثانية بالمؤن من الثغور الإنجليزية الصديقة - بل حتى من لاروشيل النائية - التي كانت في يد الهيجونوت آنذاك . وأغار د متسولو البحر على أية مدينة ساحلية لا توجد بها حامية أسبانية ، واستولوا على المواقع الحصينة ، وبفضل قدرتهم على فتح السدود بات من أخطر الأمور على القوات الأسبانية أن تقترب منهم أو تصل إليهم . فلم يعد في مقدور ألفا أن يتلقى أية امدادات أو مؤن من البحر وهكذا عسرت المدن الرئيسية في هولنده وزيلند وجلدراند وفريزلند آمتة محمية ،

ومن ثم قدمت ولاءها لوليم أورانج ، وقررت تزويده بالإمدادات من أجل الحرب (يولية ١٥٧٢) ونقل وليم مقر قيادته إلى دلفث وأعلن أنه « الأصلع الكلفنى ، وهو لقب أصدق على رأسه منه على عقيدته ، وفى تلك الآونة كتب فيليب فان مارنكس أغنية « وليم ناسو ، التى أصبحت ، ولا تزال ، التريمة الوطنية فى الأراضى الوطنية .

ومنذ لقي وليم أورانج التشجيع على هذا النحو جهز جيشا آخر وغزا برابانت . وفى نفس الوقت قام لويس ناسو ، بمعونة كوليني ، بأعداد قوة فى فرنسا ، ودخل هيبوت ، واستولى على فالنسيان ومونز (٢٣ مايو ١٥٧٢) . وتقدم ألفا ليسترد مونز ، وهو يأمل بذلك أن يثنى فرنسا عن مساعدة لويس . وتقدم وليم جنوبا لنجدة أخيه ، وأحرز بعض انتصارات يسيرة ، ولكن سرعان ما استنفد ماله من مال ، فتقاضى جنوده أجورهم بنهب الكنائس ، وتسلاوا بقتل القساوسة (٢٩) . فثارت ثائرة الكاثوليك ، حتى أنه عندما اقترب جيش وليم من بروكسل وجد الأبواب موصدة والأهالى يحملون السلاح لمقاومته واستأنف الجيش سيره ، ولكن على مسافة فرسخ من مونز فوجى الجند ، وهم نيام ، بستائة جندى أسبانى ، قتلوا من جنود وليم ثمانمائة قبل أن يتمكنوا من تهيئة أنفسهم للدفاع . واستطاع وليم الهرب بشق النفس مع بقايا قواته ، إلى مكين فى برابانت . وفى نفس الوقت قضى قتل كوليني ومذبحة سانت برتليو على كل أمل فى العون من فرنسا . وفى ١٧ سبتمبر سقطت مونز فى يد ألفا الذى هيا للويس وفالول جيشه أن يرحلوا دون أن يمسه أذى . ولكن قائد جيش ألفا ، فيليب دى نوفارم ، شنق من تلقاء نفسه مئات من الأهالى ، وصادر ممتلكاتهم وباعها بثمان عاا (٣٠) .

أن فشل استراتيجية وليم وافراط قواته التى يصعب قيادها ووحشية « المتسولين ، وفضائهم ، كل أولئك خيب آماله فى توحيد الكاثوليك والسكافنيين واللوترين ليقاوموا جميعا طغيان ألفا . فان « المتسولين ، وكانوا

كلهم تقريبا كلفنيين متحمسين أبدوا عند الكاثوليك من ضروب الوحشية والضاوة ما أبدته محاكم التفتيش ومجلس الدم نجو الثوار والحراطة . وفي كثير من الحالات لم يتركوا للأسرى الكاثوليك إلا الخيار بين الكفنية أو الموت ، وكانوا يقتلون دون تردد ، وفي بعض الأحيان بعد تعذيب لا يصدق ، كل من تمسك بأهداب العقيدة القديمة^(٢١) . وأعدم كل من طرفي النزاع كثيرا من أسرى الحرب . وكتب مؤرخ بروتستانتى يقول :

في أكثر من مناسبة روى الرجال يشنقون . . . أخوتهم هم أنفسهم الذين وقعوا أسرى في صفوف الأعداء . . . ووجد سكان الجزائر وحشية في ضروب القسوة هذه ، ولم يعد الأسباني في نظرهم فردا من بني الإنسان . وذات مرة انتزع أحد الجراحين قلب سجين أسباني ، وثبته بالمسامير في مقدم السفينة ودعا الأهالي ليغرسوا أسنانهم فيه ، وفعل كثير منهم هذا في ارتياح وحشي^(٢٢)

أن هؤلاء المتسولين ، القساء القلوب هم الذين هزموا دون ألفا . وأخذ الدوق إلى شيء من الراحة بعد الحملات التي قام بها ، وورث ابنه دوق فدريجو ألفتار دى توأيدو مهمة استعادة ومعاقبة المدن التي كانت قد أعلنت تأييدها لوليم أو استسلمت له . فبدأ ألفتار بمدينة مكليين التي أبدت أقل مقاومة ، حيث خرج القساوسة والأهالي في موكب نادمين ، يرجون الصفح والابقاء على المدينة ، ولكن ألفا كان قد أمر بانتقام تكون فيه موعظة وعبرة . فظل جنود فدريجو لمدة أيام ثلاثة ينهبون البيوت والأديار والكنائس ، ويسرقون الحلى والأردية الثمينة من التماثيل المقدسة . ويطأون الفطائر المقدسة تحت الأقدام ، ويذبحون الرجال ويستبيحون النساء ، كاثوليك أو بروتستانت على حد سواء وفي طريق تقدمه إلى جلد رلند ، تغلب جيشه على الدفاعات الهزيلة في زوتفن ، وقتل كل رجال المدينة تقريبا . وعاق بعضهم من الأقدام ، وأغرق خمسمائة منهم بربطهم زوجا زوجا ، ظهرا لظهر . والالقاء بهم في نهر ايسل . واستسلمت بلدة ناردن الصغيرة بعد مقاومة قصيرة ، وحيث الأسبان الغزاة بموائد زخرت

بالوان الطعام ، فأكل الجنود وشربوا ثم اعملوا القتل في كل الأهالى في المدينة وتقدموا إلى هارلم ، وهى مركز كلفنى أبدي حماسا خاصا للثورة . وقد دافعت حامية قوامها أربعة آلاف رجل عن المدينة دفاعا مجيدا ، إلى حد أن دوق فدريجو اقترح الانسحاب منها ، ولكن ألفا هدد بأن يتبرأ منه إذا لم يستمر في الحصار ، فتصاعدت أعمال العنف ، وهلك كل من الطرفين أسراه على أعواد المشائق في مواجهة عدوه . وأثار المدافعون حتمق المحاصرين بأن مثلوا على الأسوار الطقوس الكاثوليكية بطريقة تدعو إلى السخرية والضحك (٣٣) . وأرسل ولیم ثلاثة آلاف جندي لمهاجمة جيش دوق فدريجو ، ولكنهم أيدوا وأخفقت كل محاولة لتخايص هارلم بعد ذلك . وفي ١١ يولية ١٥٧٣ ، بعد حصار دام سبعة أشهر اقتات فيها الناس على الأعشاب والجلود ، استسلمت المدينة . ولم يبق على قيد الحياة سوى ١٦٠٠ رجل أعدم معظمهم . كما أعدم ٤٠٠ من المواطنين المتزعمين ، أما بقية الأهالى فقد أبقى على حياتهم بعد موافقتهم على دفع غرامة قدرها مائتان وخمسون ألف جلد .

وكان هذا أحر انتصارات حكومة دوق ألفا وأهبطها تكلفة . وهلك أكثر من اثني عشر ألفاً من أفراد الجيش الذى تولى الحصار متأثرين بالجراح أو بالمرض . واستنزفت الحرب كل ما حصل من ضرائب بغیضة . واكتشف فيليب الذى كان يعد النقود أكثر مما يحسب حساب الأتفس والأرواح ، أن ألفا لم يكن غير محبوب لدى الناس فحسب ، بل أنه كان كذلك ينفق أموالا طائلة ، وأن أساليب قائده كانت تعمل على توحيد الأراضى الوطیثه ضد أسبانيا وأحس دوق ألفا بأن الرياح غير مواتية له ، وأن التيار قد انقلب ضده . فطلب تنحيته وتباهى بأنه قتل ١٨ ألف نائر (٣٤) . ولكن الهراطقة كانوا في مثل القوة التى كانوا عليها عندما جاء هو إلى الميدان ، بل أكثر من ذلك أنهم سيطروا على الثغور وعلى البحر ، وأن الملك فقد مقاطعتى هولنده وزيلنده تماما . وقدر أسقف نامور أن ألفا فى سبع سنين ، ألحق من الأذى بالكاثوليكية أكثر مما ألحقه بها لوثر والسكلفنية فى جيل بأسره (٣٥) . وقبلت

استقالة ألفا وغادر الأراضي الوطية (١٨ ديسمبر ١٥٧٣) وأستقبله الملك فيليب استقبالا حسنا . وقاد، وهو في سن الثانية والسبعين الجيوش الأسبانية لغزو البرتغال (١٥٨٠) . ولدى عودته من هذه الحملة انتابته حمى متقطعة ، ولم يحفظ عليه حياته إلا ارضاعه اللبن من ثدى امرأة . وفاضت روحه في ١٢ ديسمبر ١٥٨٢ ، بعد أن عاش عاما على اللبن . ونصف قرن على الدم .

٤ - ركويسانس ودون جوان

١٥٧٢ - ١٥٧٨

وأرسل فيليب دون لويس دى ركويسانس ليحل محل ألفا ، وهو الذى كان منذ عهد قريب نائب الملك فى ميلان . ودش الحاكم الجديد لعدد الثوار والروح التى سادتهم ، فكتب إلى الملك : « لم أكن أدرك قبل وصولى كيف استطاعوا الاحتفاظ بمثل هذه الأساطيل الضخمة ، على حين أن جلالتك لم تستطع الإنفاق على أسطول واحد فقط . ومهما يكن من أمر ، فإنه يبدو أن الرجال الذين يقاثلون من أجل حياتهم وديارهم وأملآكهم وعقيدتهم الزائفة ، وجملة القول عن قضيتهم - يقنعون بالطعام دون أجور^(٣٧) . ورجا فيليب فى أن يرخص له فى إصدار عفو عام عن الجميع باستثناء الهراطقة العنيدى ، مع السماح لهم بالهجرة ، وإلغاء ضريبة العشرة فى المائة على البيوع . ولم ير ولم أورانج فى هذه المقترحات إلا لعبة لكسب الوقت ، ووسيلة جديدة لاستئصال البربرية من الأراضي الوطية ، ولم يكن يقبل السلام إلا على أساس الحرية الكاملة للعبادة ، واستعادة امتيازات المقاطعات ، وانسحاب الأسبان من الوظائف المدنية والعسكرية . واستمرت الحرب . وفى معركة (١٣ أبريل ١٥٧٧) قضى نحبه كل من أخوى وليم : لويس فى سن السادسة والثلاثين ، وهنرى فى سن الرابعة والعشرين .

وثمة حادثان شدا من أزر الثورة فى هذه الآونة : أفلاس فيليب (١٥٧٥)

وموت ركويسانس في أثناء حصار زيركزي (٥ مارس ١٥٧٦) . عين الملك أخاه غير الشقيق ، دون جوان النموسى ، في هذا المنصب البغيض . ولكنه لم يصل إلى لكسمبرج إلا في نوفمبر . وفي هذه الأثناء وقع ممثلو هولنده وزيلنده ، في دلفت (٢٥ أبريل) ، قانون التهذئة ، الذى خول وليم السلطة العليا فى البر والبحر ، وحق التعيين فى الوظائف السياسية . وعند الضرورة حق العهد بحماية الاتحاد إلى أمير أجنبي . وأهاب وليم ، من مركز السلطان الجديد ، بسائر المقاطعات أن تشارك فى طرد الأسبان من الأراضى الوطيمة . ووعد بحرية الفكر والعميدة للكاثوليك وللبروتستانت على حد سواء .

وربما لقى نداؤه بعض الاستجابة فى المقاطعات الجنوبية لولا أن الجنود الأسبان وقد خدعهم السلب والنهب فى زيركزي ، ترمدوا (يولية) وبدأوا ، دون تمييز ، حملة من السلب والنهب والعنف أرهبت فلاندرز وبرابانت . ووجه إليهم مجلس الدولة فى بروكسل تأنيبا قاسيا ولكنهم تحدوه ، فأعلن المجلس أنهم خارجون على القانون ، ولكن لم يكن لديه قوة يقاومهم بها . فعرض وليم أن يرسل قوات عسكرية لحماية هذه البلاد ، وجدد تعهده بالحرية الدينية . وتردد المجلس ، فأطاح به أهالى بروكسل ، وشكلوا مجلسا آخر تحت رياسة فيليب دى كروى الذى بدأ المفاوضات مع الأمير . وفى ٢٦ سبتمبر رحبت غنت بفرقة عسكرية أرسلها وليم لحماية المدينة من المتمردين الأسبان . واجتمع فى غنت فى ١٩ أكتوبر ، ممثلون عن برابانت وفلاندرز وهينوت ، وكانوا يكرهون تحالف ولاياتهم مع الأمير المحروم من حماية القانون ، ولكن فى ٢٠ أكتوبر اجتاح المتمردون ماسترخت ، وفى ٢٨ منه ، وقع المجتمعون للبحث والتشاور رغبة فى حماية قوات وليم لهم ، ، قانون التهذئة ، الذى صدر فى غنت ، والذى اعترف بوام حاكما على هولنده وزيلنده ، وأوقفوا كل اضطهاد للهرطقة ، واتفقوا على التعاون فى طرد الجنود الأسبان من مقاطعاتهم . ورفضت الجمعية العمومية للمقاطعات الجنوبية التى انعقدت فى بروكسل ، التوقيع على قانون التهذئة ، ، حيث اعتبرته اعلانا للحرب ضد الملك .

ودعم المتمردين مرة أخرى من حجج وليم ، ذلك أنهم في ٤ نوفمبر ١٥٧٦ استولوا على انتورب ، وأعملوا فيها السلب والنهب ، على أسوأ شكل عرفه تاريخ الأراضى الوطيفة . وقاوم المواطنون ولكنهم غلبوا على أمرهم ، وقتل منهم سبعة آلاف ، وأحرق ألف مبنى كان بعضها من روائع العمارة . وذبح الرجال والنساء والأطفال في طوفان من الدماء بأيدي الجنود وهم يرددون الصيحات : « سان جيمس ، أسبانيا ، الدم . الموت . النار . السلب ، النهب ، وطوال تلك الليلة عاث الجنود في المدينة الغنية ، وسلبوا كل بدت فيها تقريبا ، ورغبة في انتزاع الاعتراف بالذخائر المخبأة ، أصيلة أو زائفة ، عذبوا الآباء على مرأى من أطفالهم ، وذبحوا الصبية وهم في أحضان أمهاتهم ، وضربوا الزوجات بالسياط حتى الموت أمام أعين أزواجهن . واستمر هذا العنف الأسباني ديومين ، حتى أتخم الجنود بالذهب والحلى والملابس الثمينة ، وبدأ الواحد منهم يقامر الآخر بغنائمه في الشوارع المكتظة بمجث الموتي . وفي ٢٨ نوفمبر صدقت الجمعية العمومية على « قانون التهدة » ، الذي وضع في غنت .

وكان هذا نصرا مبينا أحرزه الأمير في الوقت المناسب . وعندما أرسل دون جوان من لكسمبرج يقول أنه على وشك أن يدخل بروكسل ، أجاتت الجمعية العمومية بأنها لن تستقبله بوصفه حاكما إلا إذا وافق على « قانون التهدة » ، وأعاد امتيازات المقاطعات ، وطرد كل القوات الأسبانية من الأراضى الوطيفة . وقضى دون جوان ، الباسل في ميدان المعركة ، القليل الخبرة بالسياسة والذي أعوزه الرجال والمال ، شتاءه متسكئا في لكسمبرج ، ثم وقع في ١٢ فبراير ١٥٧٧ « المرسوم الدائم » ، الذي أدى به إلى التهدة وحريرات المقاطعات . وفي أول مارس دخل دون جوان بروكسل في احتفال رسمي ، واغتبطت المدينة إذ رأت مثل هذا الحاكم الوسيم الأعزل الضعيف . ورحلت القوات الأسبانية . وساد السلام لفترة وجيزة ربوع البلاد المنخربة .

وكانت أحلام جوان أكبر من إمكانياته المالية . وبعدهما آثره وبطولاته في لينتو وتونس أوهندت العظمة اليائسة العاجزة فورة الدم الهادر بأوهام

البطولة . وعلى مقربة منه كانت ماري ستوارت الجميلة سجينته لدى اليزابت العملاقة الرهيبة . فلم لا يحشد جوان جيشا وأسطولا ، ويعبر البحر ، ويطيح بعرش ملكة ويتزوج الأخرى ، ويصحح ملكا على إنجلترا واسكتلنده ، ويعيد هذه الأقاليم الغافلة إلى أحضان الكمنيسة الأم ، أن فيليب الذى خشى الهوة بين الأموال والأحلام ، اعتبر أخاه ساذجا مخدوعا . وقدم جوان البرهان على ذلك ، فإنه غادر بروكسل فجأة (١١ يونية) ، على رأس فرقة من الوالون (سكان جنوب بلجيكا) الكاثوليك ، وأنكر دقانون التهدئة ، . وبعد مفاوضات عقيمة مع جوان ، دعت الجمعية العمومية وليم إلى العاصمة ، ولدى وصوله (٢٣ سبتمبر) رحب به جمهور كبير من المواطنين الكاثوليك على أنه الرجل الوحيد الذى يستطيع أن يقود الأراضى الوطيئة إلى الحرية . وفى ٨ أكتوبر أبلغت الجمعية العمومية دون جوان أنها لم تعد تعترف به حاكما ولكن يمكن أن تقبل في مكانه أميرا من الأسرة المالكة . وفى ١٠ ديسمبر ١٥٧٧ انضمت المقاطعات كلها - عدا نامور - إلى اتحاد بروكسل ، . وطلب الأعضاء الكاثوليك فى الجمعية العمومية ، الذين كانوا يخشون كلفنية وليم ، إلى ماتياس أرشيدوق النمسا أن يكون حاكما على الأراضى الوطيئة . وقدم الشاب ابن العشرين وتقلد المنصب (١٨ يناير ١٥٧٨) ولكن أنصار وليم أغروا الحاكم الجديد بتعيين وليم نائبا له - ومن الوجهة الفعلية صاحب الأمر والنهى فى الإدارة والسياسة .

وكان يمكن للتسامح المتبادل فى الخلافات الدينية وحده إن يبقى على هذا الاتساع أو الترابط ، ولكن التعصب مزقه . فإن السكلفنيين فى هولنده والكاثوليك فى أسبانيا اعتقدوا جميعا بأن الكفار وحدهم هم الذين يستطيعون أن يبدوا تسامحا . وقال كثير منهم صراحة بأن وليم أورانج ملحد (٢٨) ، واتهمه الواعظ الكلفنى بيتر داتينوس ، بأنه جعل من السلطة معبوده الوحيد ، وأنه يغير عقيدته كي يغير الناس ملابسهم (٣٩) . وكان السكلفنيون (وظلوا

حتى ١٥٨٧) يشكلون عشر السكان فقط في مقاطعة هولندا ، ولكنهم كانوا نشيطين طموحين ومسلحين . وكانت لهم السيطرة على الجمعيات السياسية ، فأحلوا حكاما وقضاة بروتستانت محل الكاثوليك ، وفي ١٥٧٣ حظر مجلس المقاطعة العبادة الكاثوليكية في هولندا^(٤٠) ، على أساس أن أي فرد كاثوليكي يحتمل أن يكون خادما لأسبانيا . ولم تأت ١٥٧٨ . إلا وقد عمت الكلفنية زيلندة تقريبا ، وكانت من الوجهة السياسية - لا العرقية - متسلطة في فريزلند واكتسحت موجات تحطيم الصور المقدسة هولنده وزيلنده ١٥٧٢ ، ومقاطعات أخرى ، حتى الفلاندرز وبرابانت ، بعد ١٥٧٦ . وأنكروا أي ربط بين الدين والفن باعتباره عملا وثنيا دنسا . وجردت الكنائس من الصور والتماثيل والصلبان والزخارف ، وصهرت الأواني الذهبية والفضية ، ولم يبق إلا الجدران العارية ، وعذب المتسولون ، القساوسة الكاثوليك ، وأعدموا نفرا منهم^(٤١) .

واستنكر ولهم كل هذه التصرفات ، ولكنه تغاضى^(٤٢) عن استيلاء الأقليات الكلفنية المسلحة على السلطة السياسية في بروكسل وأيبر وبروجز وكل شمال الفلاندرز^(٤٣) . وفي غنت سجن الكلفنيون المتصرفون أعضاء المجلس ، ونهبوا الكنائس والأديار وأتلفوا أجزاءها الداخلية ، وصادروا أملاك الكنيسة ، وحرموا إقامة الطقوس الكاثوليكية ، وأحرقوا الرهبان في ساحة السوق^(٤٤) ، وأقاموا جمهورية ثورية (١٥٧٧) . وفي امستردام اقتحم الكلفنيون المسلحون دار البلدية (٢٤ مايو ١٥٧٨) ، وطردها القضاة والموظفين ، وأحلوا محلهم كلفنيين ، وخصصوا الكنائس التي جردوها لمذهب الإصلاح . وفي اليوم التالي قامت ثورة نائلة بمثل هذا العمل في هارلم . وفي أنتورب التي كانت آنذاك مقر قيادة ولهم أخرج البروتستانت القساوسة والرهبان من المدينة (٢٨ مايو) ، وأنب الأمل أتباعه تأنيبا شديدا على هذا العنف . وخصصهم على السباح باستئناف الطقوس الكاثوليكية . ولكن في ١٥٨١ حرمت كل عبادة كاثوليكية في أنتورب وأوترخت . واتهم الكلفنيون

القساوسة بأنهم كانوا يخدعون الناس بالمخلفات الزائفة والكرامات التي يفتعلونها - عرض قطع من الصليب الحقيقي ، وعظام قديمة للتعبد على أنها رفات القديسين ، وإخفاء الزيت في رؤوس التماثيل حتى ترشح في الوقت المناسب (٥٥) .

على أن وليم تولاه الحزن والأسى حين رأى سنوات كفاحه من أجل الوحدة تختم بالفرقة والفوضى والبغضاء . إن الديموقراطية الكفنية التي كانت قد استولت على جملة مدن تتردى الآن في وهدة من الفوضى ، بدأ معها الملاك البروتستانت والكاثوليك على حد سواء يتسامون هل كان المذهب الجديد وكل ما يتصل به من دعايات أشد وبالاً عليهم من الديانة القديمة . وسرى شعور الاستياء وواجه وليم هذه الرغبة المتزايدة في إعادة النظام بالتفاوض مع فرنسوا دوق أنجو ليتولى منصب الحاكم العام بدلا من ماتياس العاجز التافه . ولكن اتضح أن أنجو خائن حقير . وزاد الطين بلة في محنة وليم ، أن جيشا أسبانيا جديدا قوامه عشرون ألفا من الجنود المدربين أحسن تدريب ، كان يتجه شمالا بقيادة أقدر قواد العصر . ذلك أنه في ديسمبر ١٥٧٧ قدم الساندرو فارنيزي دوق بارما بجيشه إلى دون جوان في لكسمبرج . وفي ٣١ يناير ١٥٧٨ هزموا القوات التي كان يعوزها النظام ، التابعة للجمعية العمومية ، في جمبلو . وفتحت لوفان واثنتي عشرة مدينة صغيرة أخرى ، أبوابها أمام الفاتح الجديد ، وفرت الجمعية العمومية للأراضي الوطنية من بروكسل إلى أنتورب . إلا أن دون جوان الذي استشعر مجداً جديداً ، اثابته حمى خبيثة ، وقضى نحيبه في نامور ، في أول أكتوبر ١٥٧٨ ، وهو في سن الثالثة والثلاثين . وعين فيليب دوق بارما حاكما عاما مكانه ، وبدأ فصل جديد .

٥ - بارما وأورانج

١٥٧٨ - ١٠٨٤

الساندرو فارينزي، الذي يبلغ الثالثة والثلاثين، هو ابن نائبة الملك السابقة من جريت بارما . تربى في أسبانيا وأقسم يمين الولاء لفياب ، وحارب في لينتو وقضى الأربعة عشر عاماً الأخيرة من حياته في الإبقاء على الأراضى الوطيمة الجنوبية في حوزة الملك فيليب . وفي ١٥٨٦ ورث دوقية بارما ولقبها ، ولكنه لم يجلس على عرش الدوقية قط . وكان له عينان حادتان ، ووجه أسمر ، وشعر أسود قصير ، وأنف كأنف النسر ، ولحية كثرة ، كل أولئك كشف عن شيء يسير من مقدرته وشجاعته وبراعته . وجمع بين كل الفن العسكري الذي أمتاز به دوق ألفا ، مع إثارة من قسوته ، وقدر أكبر بكثير من المهارة في المفاوضة والحديث . وبات القتال من أجل الأراضى الوطيمة ، آنذاك ، صراعاً بين دبلوماسية بارما وأسلحته تسانده أموال الكاثوليك وآمالهم . بين صمود أمير أورانج البطولى ، يموله التجار الهولنديون ويشدون أزره . ويعرقل جهوده ، في وقت معاً ، تعصب أصدقائه .

وفي ٥ يناير ١٥٧٩ شكل جماعة من النبلاء الكاثوليك ، من هينوت ودوا وأرتوا وليل ، بإيحاء من أسقف آراس ، شككوا عصبية آراس للحماية عقيدتهم وامتلاكاتهم وفي ٢٩ يناير شككت مقاطعات هولنده وزيلنده وجروننجن وأوترخت وجلدلند ، د اتحاد أوترخت ، للدفاع عن عقيدتهم وحررياتهم . وسرعان ما انضم إليهما فيرنلند ، وأوفريسيل . ومن هذه المقاطعات المتحدة ، السبع تتكون اليوم الأراضى الوطيمة الهولندية ، وأصبحت المقاطعات الباقية هى د الأراضى الوطيمة الأسبانية ، وصارت في القرن التاسع عشر بلجيكا وحدد تقسيم المقاطعات السبع عشرة إلى أمتين على هذا النحو . سيطرة الكاثوليك في الجنوب والبروتستانتية في الشمال ، من ناحية ، إلى جانب الفصل الجغرافى بينهما ، لوجود الخليج والأنهار الكبيرة التى هيأ اتساعها

وسدودها التي يسهل التحكم فيها ، ثغورا يمكن الدفاع عنها ، وتأوى إليها الأساطيل والأسلحة الأسبانية .

وفي ١٩ مايو وقعت عصابة آراسى مع بارما اتفاقا ، التزمت فيه بالآ تقبل غير الكاثوليكية مذهباً ، وارتضت بمقتضاه السيادة الأسبانية شريطة استعادة امتيازات المقاطعات والوحدات الإدارية الصغيرة (السكومونات) وسرعان ما أعاد الدوق ، بالإغراء أو الرشوة أو القوة ، كل المقاطعات الجنوبية تقريرا إلى حظيرة أسبانيا ، وتخلي الزعماء الكلفنيون في بروكسل وغنت ولير عن فتوحاتهم وولوا الأدبار إلى الشمال البروتستانتى . وفي ١٢ مارس ١٥٧٩ قاد بارما جيشا كبيرا ضد ما سترخت الواقعة في موقع حصين على النهر المسمى باسمها . وأتى الفريقان كلاهما بالأعاجيب من أعمال البطولة وضروب الوحشية وحفر المهاجمون أميالا من الممرات تحت الأرض ليبتشوا الألغام ويفتحوا المدينة ، كما حفر المدافعون - النساء والرجال جنبا إلى جنب - عمارات ليقابلوهم ؛ ودارت رحى القتال حتى الموت في باطن الأرض . وسب الماء المغلى في الأنفاق ، وأشعلت الحرائق لتألفها بالدخان . واحترق مئات المحاصرين المهاجمين أو اختنقوا حتى الموت . وانفجر أحد الألغام قبل أوانه فأودى بحياة خمسمائة من رجال بارما . وعندما حاول جنوده تسلق السور قابلتهم الجمرات المحترقة ، وقذفت حول أعناقهم أطواق النار الملتهبة . وبعد أربعة أشهر من الجهد المضنى والضراوة والعنف ، أحدث المحاصرون ثغرة في السور ، نفذوا منها خفية في الليل ، وفاجأوا المدافعين المنهوكين وهم نيام وذبخوا منهم ستة آلاف من الرجال والأطفال والنساء ولم يبق من سكان المدينة البالغ عددهم ثلاثين ألفاً ، على قيد الحياة آنذاك سوى أربعائة . وعمرها بارما من بعدهم بالمولون الكاثوليك .

تلك كانت كارثة عظمت حلت بالبروتستانت . ووجه اللوم فيها بحق إلى حد ما ، إلى وإيم الذى حاول عبثا إنقاذ المدينة ، لعجزه وإبطائه . واتهمه

الآن نفس المتطرفين الذين أحبطوا سياسة التوحيد التي اتهم بها ، بتعصبهم وعنفهم - أتهموه بخيانة قضيتهم في مفاوضاته مع دوق أنجو الكاثوليكي ، وأشاروا إلى أنه لم يؤد الشعائر الدينية طوال العام الماضي ، واتهم الملك فيليب هذه الفرصة ليصب اللعنة على أوراج (١٥ مارس ١٥٨١) . وبعد أن أسهب فيليب في بيان عقوف الأمير وخيائته وزيجاته وجرائمه ، استرسل يقول :

ومن ثم ... نسبة الأعمال السيئة الشريرة التي رتبها وأنه يعكس صفو السلام العام ، وأنه شخص بغيض ، فإننا نحرمه من حماية القانون ، ونحظر على كل رعايانا أن يتعاملوا معه أو يتصلوا به في السر أو العلن ، أو أن يزودوه بالطعام أو الشراب أو الوقود أو غيرها من الحاجيات الضرورية . أننا نعلن على الملأ أنه عدو للجنس البشري . وندين بملكاته لمن يضع يده عليها . ورغبة في الإسراع في تخليص شعبنا من ظغيبانه وظلمه ، فإننا نعد ، وعد ملك خادم للرب ، أي فرد من رعايانا ، وأتى من النخوة والشهامة ما يستطيع معه أن يجد الوسيلة لتنفيذ هذا المرسوم ، وتخليصنا من هذا الإنسان البغيض ، سواء بتسليمه لنا حياً أو ميتاً ، أو بإزهاق روحه على الفور ، نعد بأن نمنحه هو أو ورثته من الأرض أو المال ، وفق مشيئته ، ما قيمته خمسة وعشرون ألف كراون ذهباً . وسوف نصدر العفو عن أية جريمة ارتكبها أيا كان نوعها ، وترفعه إلى مرتبة النبلاء إذا لم يكن نبيلاً^(٤٦) .

وكان جواب مجلس المقاطعات على هذا الجرم ، تعيين ولیم حاكماً عاماً على هولنده وزيلنده (٣٤ يولية ١٥٨١) وبعد ذلك بيومين وقع ممثلو هولنده وزيلندرز وجولدرلند وأوترخت وفلاندرز وبرابانت ، في لاهاي قرار الاستنكار الذي طرحوا فيه بشكل مهيب ولاءهم لملك أسبانيا . وفي وثيقة مشهورة في التاريخ الهولندي ، شهرة وثيقة إعلان الحقوق ، التي أصدرها برلمان إنجلترا في ١٦٨٩ في التاريخ الانجليزي ، أعلنوا أن الحاكم الذي يعامل رعاياه معاملة العبيد ويقضى على حرياتهم ، يجب ألا يعتبر بعد اليوم مملكتهم الشرعية ويحق قانوناً

عزله (٧). وكان رد وليم على هذا الحرمان في صيغة دفاع حرره له قسيسه ، أرسل إلى الجمعية العمومية وإلى كل بلاط في أوروبا ، ورحب بالحرمان على أنه وسام شرف له . واتهم فيليب بسفاح ذوى القربى والزنى وقتل زوجته وابنه . وأبدى استعداده للتخلي عن كل مناصبه ومغادرة الأراضى الوطيفة بل حتى للتضحية بحياته ، إذا كان هذا في مصلحة بلده ، ومهر الوثيقة بشعاره « سوف أتثبت » .

ولم يلبث فيليب طويلا حتى جنى ثمار الحرمان ، الذى أصدره (١٨ مارس ١٥٨٢) . فان جين جوريجى أغرتة بالجائزة الموعودة ، فسلح بمسدس واستعان بالله ، ونذر للعذراء بعض الغنيمة . واتخذ سبيله إلى وليم أورانج فى أنتورب . وأطلق الرصاص على رأسه ، فدخلت الرصاصة تحت الأذن اليمنى ونفذت إلى الفم ، ثم إلى الخد الأيسر . ولقى القاتل على الفور حتفه بيد أتباع وليم ، ولكن بدا أن المهمة قد نفذت . ولعدة أسابيع بدا أن الأمير على شفا الموت . ودعا فارنيزى المقاطعات الثائرة ، وقدمات زعيمها العنيد ، إلى المصالحة مع مليكهم الرحيم . ولكن وليم تمائل للشفاء فى بطء بفضل سهر زوجته شارلوت على العناية به . وهى التى قضت نجحها فى ه يونية بسبب الإرهاق والحمى . وفى يولية وضع متآمران مغموران خطة لدس السم لأمير أورانج ودوق أنجو كليهما . واكتشفت المؤامرة واعتقل المجرمان وانتحر أحدهما فى السجن ، وأرسل الثانى إلى باريس وحوكم وأدين ، ومزق أربا بربطه فى أربعة خيول ، تتجاذبه فى كل اتجاه .

وفى أثناء عام ١٥٨٢ جمع أنجو حوله بعض قوات فرنسية فى أنتورب . ولم يكن الدوق ليقنع بقلبه ، وداعبه الحلم بأن ينصب نفسه ملكا . وهب أتباعه جفاة فى ١٧ يناير ١٥٨٣ ، وهم يهتفون « فيلجى القداس ، وحاولوا أن يسيطروا على المدينة . فقاومهم الأهالى ، وهلك فى هذه الثورة الفرنسية ، قرابة ألفى شخص . وأخفقت هذه الثورة وهرب أنجو . وعانى وليم من

فقدان قدر آخر من شعبيته لأنه ظل طويلا يؤيد أنجو ويسانده . ووقعت في مارس محاولة أخرى للقضاء عليه . فلم يطمئن للاقامة في أنتورب ونقل مركز قيادته إلى دلفت . عندئذ عقدت مقاطعتا جرونينجن وجلدزلاند الصلح مع بارما ، ولم يبق مع وليم إلا اثنتين من المقاطعات (المتحدة) : وهما هولنده وزيلنده . ولكلتهما اثبتتا ولاءهما بأن جعلتا منصب الحاكم العام ، وراثيا في أسرته (ديسمبر ١٥٨٣) ، وبهذا وضعت أسس بيت أورانج الذي كان يمكن أن يغزو وأن يرث نصف إنجلترا في ١٦٨٨ .

وأصر القتلة ولم تفتقر عزيمتهم . وفي أبريل ١٥٨٤ حاول هانز هانزون من فلشنج أن يودي بحياة الأمير ، ولكنه أخفق وأعدم . واستبد الخماس الديني بيلتازار جيران من برجندى ، كما اشتهر به التفكير في الخمسة والعشرين ألف كراونه . وقصد إلى دوق بارما يعرض عليه قتل أمير أورانج ، ولكن الدوق قدر أن شابا في العشرين من عمره غير صالح الاضطلاع بهذه المهمة ، وأبى عليه المبلغ المتواضع الذي طلبه سلفا ، ولكنه وعده بالجائزة كاملة إذا حالفه التوفيق . وقصد جيران إلى دلفت ، وتسكر في زى كلفى مسكين تقي ، وتلقى من وليم اثني عشر كراون صدقة . وصوب إلى جده ثلاث رضاصات (١٠ يولية ١٥٨٤) فصرخ وليم «يا الهى ، رحمتك بي وبالشعب المسكين» . وفاضت روحه في بضع دقائق . وقبض على جيران وحوكم أمام قضاة المدينة ، وأبدى فرحه واعتباطه بنجاحه فيما قصد لإليه ، ثم لقي أشد العذاب وقتل شر قتلة . وورى وليم التراب في دلفت ، بأسمى مظاهر التكريم بوصفه «أبا البلاد» . ولما كان قد ضحى بكل ما يملك في سبيل الثورة فإنه لم يخلف لابنائه الاثني عشر شيئا تقريبا . وهذا شاهد صامت على ما درج عليه من نبل وشرف .

* أكد رانك في كتابه «تاريخ البابوات» (١ - ص ٤٧٢) أن أحد الجزويت شجع جيران على فعلته . كما أكد موتلى في كتابه «قيام الجمهوريه الهولنديه» ولكن أنكره باستور في كتابه : «تاريخ البابوات» (الفصل العشرون ص ١٩-٢٠) .
٣-٣ الحضارة

ودفعت الجائزة كاملة لأبوى جيرار ، وابتهج كأثوليك الأراضى الوطيئة ،
قائلين أن الجريمة انتقام إلهى لانتهاك حرمة الكنائس وقتل القساوسة .
وأرسلوا رأس القاتل إلى كولون باعتباره من الخلفات الثمينة ، ولمدة نصف
قرن بذلوا أقصى الجهد لإعلانه قديسا . (٤٩)

٦ - النصر

١٥٨٤ - ١٦٤٨

وهنت بموت وليم روح من بقى من أتباعه فى الغلاندرز وبرابانت .
واستولى بارما على بروجز وغنت وبروكسل ومكلىن وأنتورب ، ولم ينته
١٥٨٥ حتى وقعت الأراضى الوطيئة جنوب نهر ماس - فيما عدا أوستند
وسلين - فى يد الأسبان ، على أن المتسولين ، ظلوا يسيطرون على
الشغور والبحر .

وكم أهابت المقاطعات الشمالية بالملسكة اليزابث لنجدتهم . واستجابت
الآن للنداء . فقد أدركت أن ثورة الأراضى الوطنية منعت أسبانيا من اعلان
الحرب على إنجلترا ، وما كان فى مقدورها أن توقف هذه الفرصة التى هياأتها
العناية الإلهية - منع أسبانيا عن اعلان الحرب - هدا بالإضافة إلى أن
الهولنديين سيطروا على سوق الصدف الإنجليزى . وفى ديسمبر ١٥٨٥
أرسلت إلى هولنده قوة كبيرة بقيادة ليستروسير فيليب سدنى . وأخذ ليستر
لنفسه ، باعتباره حاكما عاما للمقاطعات النائرة ، كل سلطة الملك تقريبا .
ومذ رأى أن المقاطعات الجنوبية تستورد كل الحاجيات الضرورية للحياة من
المقاطعات الشمالية فإنه حرم كل اتجار مع الممتلكات الأسبانية ، ولكن
التجار الهولنديين كانوا يعيشون على هذه التجارة ، وصدروا بضائهم إلى
أسبانيا أثناء حربهم معها . ومن ثم رفضوا الخضوع لما نهى عنه ليستر ،
الذى حلت به الهزيمة فى زوتفن (٢٢ سبتمبر ١٥٨٦) فغادر هولنده مشمئزا ،
شاعرا بالخذى والعار . وسادت الفوضى فى الشمال لعدة عام كامل . وأنقذت

الجمهورية الصغيرة بفضل اشتراك فيليب لدوق بارما في خطته لغزو إنجلترا ،
وبفضل هجمات بارما المضللة ضد هنرى نافار في فرنسا ، وتحكم الهولنديين
في البحار ، وثروة التجار الهولنديين و صمودهم ، وعبقريه جان فان أولدنبار
السياسية ، ثم بفضل ما أوتى موريس فاسو ، ابن وليم الصامت ، من
عبقريه عسكريه .

وفور وفاة وليم الصامت اختير ابنه موريس حاكما عاما على هولنده
وزيلنده وفي ١٥٨٨ ، وهو في الحادية والعشرين ، عين قائدا عاما وأميرا للبحر
في المقاطعات المتحدة . وفي ١٥٩٠ أسلمته أوترخت وأفرجسجل وجلدزاند
مقاليد الحكم فيها . وأفاد موريس من محاضرات سيمون ستيفن في الرياضيات
في ليدن . فطبق العلم الحديث على القذائف والهندسة والحصار . ودرّب الجيش
الهولندي على أساليب جديدة للالتحام والنظام . وفي سلسلة من الحملات التي
اشتهرت بسرعة الحركة والاستراتيجية المفاجئة (١٥٩٠ - ١٥٩٤) استرد
موريس زوتفن ودفنتر وتيميغن وجروتجن . أما بارما الذي ضيع مهاراته
وأمواله في هجمات فيليب العقيمة على إنجلترا وعلى هنرى الرابع ، فإنه قضى
نحبه في سبا ، بسبب الاعياء والجراح (٢٠ فبراير ١٩٥٢) .

وعين فيليب خلفاه الأرشيدوق ارنست النمساوى الذى لم يلبث أن
أدركته المنية ، ثم الكاردينال الأرشيدوق البرت الذى تخلى عن منصبه
الدينى ، وتزوج ايزابل كلارا أوجينيا ، ابنة الملك . وقبل وفاة فيليب
(١٥٩٨) بفترة وجيزه ، منح البرت وايزابل حق السيادة على الأراضى
الوطنية ، شريطة أن يعود هذا الحق إلى أسبانيا إذا ماتا دون عقب . وأثبت
الاثنان أنهما حاكمان قديران رحمان . عجزا عن اخضاع المقاطعات الشمالية ،
ولكنهما أقاما في الجنوب حكما متحصرا ازدهرت في ظله الفنون الكنسية
في انسجام جميل مع صور روبنز العارياة .

وظهر على مسرح الحوادث في ١٦٠٣ شخصية جديدة . وكان البرت قد
استمر يحاصر أوستند عامين كاملين دون أن يصيب أى نجاح ، وجاء أحد

رجال المصارف الايطاليين ، هو امبروزيودى سبينولا ، ووضع كل ثروته في خدمة اسبانيا ، وجمع جيشا قوامه ثمانية آلاف رجل ، وجهزه بالسلاح وبالعتاد ، وحاصر أوستند واستولى عليها . ولكن ثراه العريض لم يعدل ثروة التجار الهولنديين ، الذين ثابروا على بناء وتجهيز الاساطيل التي أقضت مضاجع البحريه الأسبانية ، وهددت بقطع شريان الذهب الذى يتدفق بين أمريكا وأسبانيا . وإذا أرهق الحصار والقتل البرت وايزابل فانهما استحثا المفاوضات مع الهولنديين ، وأقرهما عليها الملك فيليب الثالث الذى أرقه العسر والاملاق . وبرغم اعتراضات موريس حض أولدنبار نقلت الهولنديين على المصالحة . وفي ١٦٠٩ عقدت هدنة هيأت للأراضى الوطيئة الراحة من عناء الحرب لمدة اثني عشر عاما .

بيد أن الوثام في الداخل شيء مختلف كل الاختلاف عن السلام الخارجى . لقد حنق موريس على أولدنبار نقلت هيمنته على مقاليد الأمور في الجمهورية . ومن الوجهة العملية كان الأكبر الموظفين راتبا في هولنده السلطان والسيطرة على هذه المقاطعة وحدها ، ولكن مذ كانت ثروة هولنده والضرائب التى تدفعها للجمعية العمومية تعدل ما تملكه وما تدبعه سائر المقاطعات المتحدة مجتمعة ، فان أولدنبار نقلت مارس في الاتحاد سلطة تتكافأ مع تلك الثروة ، كما تتكافأ مع رجاحة عقله وشخصيته وخلقه . أضف إلى ذلك أن الملاك الذين حكموا المقاطعات والتجار والأغنياء الذين حكموا السكوميونات أحسوا بانعطاف نحو أولدنبار نقلت الذى نبذ الديموقراطية مثلهم ، وقال : انه لمن الأفضل أن يحكمنى سيد مطلق من أن يحكمنى الرعاع ، (٥٠) وولى موريس وجهه شطر الشعب ليحصل على تأييده ، ووجد أنه يمكنه أن يكسب الشعب إلى جانبه إذا جعل من القساوسة الكلفنيين أصدقاء له .

وكانت القضية الدينية التى أهاجت الجمهورية الآن قضية مثاشة الجوانب : فهناك المعارضة المتزايدة بين الكنيسة والدولة ، وهناك الصراع بين الكاثوليك والبروتستانت ، وهناك أخيرا حرب النظريات بين البروتستانت

أنفسهم . وسعت المجالس الكنسية الكلفنية إلى أن تحدد النهج السياسي ، وتتخذ من الحكومة أداة لتقوية مذهبهم . وارتابت الجمعية العمومية في المجالس الكلفنية على أنها نماذج سيئة وبذور حظيرة ملوامة الديمقراطية . وقد جلب أولدنبار نفلدت على نفسه عداوات كثيرة حين أمر رجال الدين بأن يتركوا الحكومة للسلطات المدنية . وقد يكون غريبا أن نقول أن الغالبية الساحقة من السكان في ١٦٠٩ كانوا من الكاثوليك حتى في المقاطعات الشمالية^(٥١) . كانت القوانين تحرم العبادة الكاثوليكية ، ولكنها لم تكن تنفذ ، وكان هناك ٢٢٢ قسيسا يتلون الشعائر الكاثوليكية^(٥٢) ، وأمر مجلس المقاطعة في أوترخت القساوسة أن يتزوجوا النساء اللاتي يستخدمونهن في إدارة شؤون منازلهم ، ولكن الامتنال لهذا الأمر لم يكن تاما ، ولم يلق قبالا .

وحدث الصراع داخل المجموعات البروتستانتية بين الكلفنيين و المتحررين ، . وهم أقلية . وأطلق هذا الاسم على هؤلاء ، لأنهم أباحيون في حياتهم . بل لأنهم جذبوا الحرية الدينية حتى للكاثوليك ، كما أيدوا تفسيراً إنسانياً متحرراً للاهوت البروتستانتى . هؤلاء هم ورثة تقاليد أرزم (الذين كان ينسب إليهم وليم أورانج) . وكان المتزمتون معتنقوا الكلفنية القديمة ، الذين تمسكوا بمذهب الجبرية الصارمة ، وأحسوا بأن عقيدتهم يجب أن تكون إجبارية في كل المقاطعات المتحدة^(٥٣) . نقول كان هؤلاء المتزمتون يرمون المتحررين بانهم « بابويون » ، في الخفاء . ودافع ديرك كورنهرت الذى كان سكرتيرا لى وليم أورانج . عن حرية العبادة في كتاباته التى أرست أسس اللغة الأدبية فى هولندا . وانبرى واعظ من أمستردام ، هو ج كوبس أرمنيوس . لفنيد آراء كورنهرت ، ولكنه تحول إليها واعتنقها بينما كان يدرس ليرد عليها . وحينما عين أستاذا للاهوت فى ليدن ، صدم المتزمتين بارتياحه فى الجبرية ، ولإثباته أن الإنسان تمقذه أعماله الصالحة بقدر ما ينقذه إيمانه ، وهذا يخالف ما قال به لوثر وكلفن . وسلم بأن الوثنى المتمسك

بأهداب الفضيلة قد ينجو من الجحيم . وذهب إلى أن كل الناس في النهاية سيخلصون ودمغه أستاذ زميل له في الجامعة ، فرانسيسكس جورماروس ، بأنه مهرطق ماكر .

ومات أرمنيوس ١٦٠٩ ، وكان قد كسب إلى جانبه آنذاك أتباعا من ذوى النفوذ ، من بينهم أولاد نبار نفلدت وهو جو جروتوس أكبر موظفي روتردام وفي ١٦١٠ صاغ هؤلاء المتحررون ، احتجاجا على نظريات الجبرية والاصطفاء والرفض أو الإخراج من زمرة الأبرار ، واقترحوا عقد مجلس وطني يضم رجال الدين وغيرهم من العلمانيين لإعادة تحديد عقيدة الاصلاح وتعريفها . وصاغ المتزمتون احتجاجا مضادا ، أكدوا فيه من جديد المذهب السكاثوليكي :

« إن الرب ، بعد خطيئة آدم ، حفظ نفرا معيننا من البشر من الدمار ، وقدر لهم الخلاص في المسيح . . . وفي هذا الاصطفاء لم يعتبر الرب الإيمان أو الارتداد ، ولكنه يعمل كيف يشاء . وأرسل الرب ابنه يسوع لتخليص هؤلاء المصطفين وحدهم (٥٤) . »

وأصر أتباع جورماروس على أن هذه القضايا لا يعالجها إلا رجال الدين وحدهم ، وبذلك نجحوا في دمج المحتجين بأنهم من أنصار البابا أو من أتباع بلاجيوس (الذين ينكرون نظرية الخطيئة الأصلية ويرون أن الإنسان منحير) أو من الموحدين (الذين لا يدينون بالتثليث ، ، إلى حد أن أغلبية كبيرة من السكان البروتستانت انحازت إلى جانب المتزمتين ، وكان موريس ناسو يغفل شأن هذه المنازعات اللاهوتية احتقارها ، ولكنه تحرك الآن ليصادق مؤقتا جماعة المذهب القديم ، لأنهم يهيئون له ركيزة شعبية لمحاولة استعادة الزعامة الوطنية .

وأعقبت ذلك معركة بالخطب والعظات والشرارات قاربت أن تكون حربا . وعكرت الاضطرابات العنيفة صفو الهدنة . وهوجمت بيوت المتحررين

في لاهاي ، وأخرج الوعاظ الكلفنيون المتشددون من روتردام . وجهزت هولندا جيشا للدفاع عن ديارتها ، وسرعان ما تبعتها مقاطعات أخرى ، وبدأن الحرب الأهلية توشك أن تقضى على الجمهورية في مهدها ، وفي ٤ أغسطس ١٦١٧ اتخذ أولدنبار نفلدت في مجلس هولنده قراراً خطيراً — رآه موريس خطيراً حقاً — يعلن فيه سيادة الدولة على الأمور الدينية ، ويوجه مدن المقاطعة إلى تسليح نفسها حماية لها من عنف أنصار الكلفنية ، وقصد إلى أوترخت حيث أقنع مجلسها بإعداد القوات لتأييد هولنده . وفي ٢٥ يولية ١٦١٨ دخل موريس ناسو بوصفه القائد الشرعى للجيش ، أوترخت على رأس قوة مسلحة . وأرغم الفرق المجندة حديثاً على أن يتفرقوا . وفي ٢٩ أغسطس أصدرت الجمعية العمومية للمقاطعات المتحدة أمراً بالقبض على أولدنبار نفلدت وجروتويس وغيرهما من زعماء المحتجين . وفي ١٣ نوفمبر اجتمع مجمع كنيسة الإصلاح في دور درخت (دورت) ، واستمع لأراء اللاهوتيين المحتجين وحكم بأنهم مهرضقون ، وأمر بطرد قساوسة المحتجين من وظائف الكنيسة والتعليم . وصبت اللعنة على أنصار أرمنيوس — مثلهم في ذلك مثل الكاثوليك — وحرّم عليهم عقد الاجتماعات أو إقامة الصلوات العامة . وفر كثيرون منهم إلى انجلترا حيث أحسنت الكنيسة الرسمية استقباهم ودعمواهم مركز الأنجليكانيين المتحررين .

وحكم أولدنبار نفلدت أمام محكمة خاصة لم تهيم له أى سند قانوني . واتهم بأنه بطريفة مدموعة بالخيانة أشاع الفرقة في الاتحاد وعرضه للخطر ، وبأنه سعى إلى تكوين دولة داخل الدولة . وفي خارج المحكمة أمال سبيل من النشرات تذيع على الملأ أخطاء حياته الخاصة . ودافع هو عن نفسه دفاعاً قويا بليغاً إلى حد أن أبناءه أقاموا أمام سجنه عمود مايو المزدان بالأشرطة والزهور واحتفلوا بالإفراج المرتقب عنه ، وكلهم ثقة في ذلك . وفي ١٢ مايو ١٦١٩ أقرت المحكمة إدانته ونفذ فيه حكم الإعدام في اليوم التالي . وحكم على

جروتيوس بالسجن مدى الحياة ، ولكنه بفضل براعة زوجته هرب من السجن وعاش ليؤلف كتاباً يستحق الذكر .

وعلى الرغم من هذا الانتصار الذى أحرزه التعصب ، نمت الحرية فى المقاطعات . وبلغ الكاثوليك من الكثرة حداً يتعذر معه وقف نموهم . ولم يكن من المستطاع تنفيذ القرارات النظرية التى صدرت عن مجالس دورت . وفى عام ١٦١٩ نفسه أسس المنونايتين (يعارضون حلف اليمين وعماد الأبطال والخدمة العسكرية وقبول الوظائف العامة) ، فى حرية تامة ، طائفة الطلبة الجامعيين ، وهى تشبه الكويكرز ، فى ريجنسبرج وقد وجد عندهم سينيوزا ملجأ آمناً . وفى ١٦٢٩ امتدح ديكرات حرية الفسكرك التى نعم بها فى امستردام ، وفى نهاية القرن السابع عشر أصبحت هولنده ملاذ المهرة الذين لجأوا إليها من بلاد كثيرة .

وفى ٩ أغسطس ١٦٢١ استؤنفت الحرب مع أسبانيا . ذلك أن الأرشيدوق ألبرت مات دون أن يخلف عقباً . فعادت المقاطعات الجنوبية إلى أسبانيا . وأغار سينيولا على المدن الهولندية الواقعة على الحدود . فسار إليه موريس ناسو ، ولكن سنوات النضال كانت قد أنهكت قواه ، فمات فجأة (١٦٢٥) وهو فى سن السابعة والخمسين . واستولى سينيولا على بريدا ، وبذلك فتح الطريق إلى امستردام ، وهياً للمصور فيلاسكوزين موضوع لوحة .

ونمض الهولنديون من كبوتهم وامتردوا قوتهم فى إصدار وعناد . وأدهش فردريك هنرى الذى خلف أخاه فى منصب الحاكم العام ، الأعداء والأصدقاء على السواء ، بما كان يخفى حتى الآن من مواهب رجل دولة وقائد وبفضل دبلوماسية فرانسيس آرسنز استطاع أن يحصل من ريشيايو على متحة سنوية قدرها مليون ليرة ، وجمع جيشاً جديداً ، وبعد حصار طويل استولى على هرتوجنبوخ وما سترخت وبريدا . ولحسن الحظ كان سينيولا قد استدعى إلى لومبارديا .

وفي نفس الوقت استخدام التجار الهولنديون أموالهم في بناء السفن ،
لأن كل انتصار في البحر كان يعنى توسيع مجال التجارة . وفي عام ١٦٢٨
أسر أسطول هولندي صغير تحت أمره ييبست هين أسطولا أسبانيا كان يحمل
الذهب من المكسيك وهاجم أسطول هولندي آخر قوة أسبانية مكونة من
١٣ سفينة في نهر سلاك ، فدمرها وأسر ٥٠٠٠ رجل (١٦٣١) . ولكن
أروع هذه الانتصارات البحرية هي المعركة التي خاضها قائم مقام أمير البحر
مارتن هاربتزون ترومب في القنال الإنجليزي (بين دوفر ودبل) وكان
الأسبان قد عقدوا العزم على استعادة السيطرة على ثغور الأراضي الرطبة من
الهولنديين . فأعدوا أسطولا ضخما جديداً من ٧٧ سفينة عليها ٢٤ ألف رجل
فلما أبصر به ترومب في القنال . أرسل في طلب المدد ، وفي ٢١ أكتوبر ١٦٣٩
أبحر ومعه ٧٥ سفينة حتى صار على مقربة من مواقع العدو ، فأغرق أو أعطب
أو أسر كل الأسطول الأسباني فيما عدا سبع سمن . وقتل ١٥ ألفاً من الملاحين
الأسبان في المعركة أو أغرقوا . وتحتل معركة القنال الإنجليزي في تاريخ
هولنده نفس المكانة التي تحتلها هزيمة الأرمادا (١٥٨٨) في تاريخ إنجلترا .
فقد وضعت حداً لكل دعاوى أسبانيا في السيادة على البحار ، وقطعت شريان
الحياة بين أسبانيا ومستعمراتها ، وأسهمت مع انتصار فرنسا على أسبانيا
في معركة روكروا (١٦٤٣) واحتتمت الحقبة التي هيمنت فيها أسبانيا على أوروبا .
مذ انهمكت أسبانيا انهماكاً تاماً في حرب الثلاثين عاماً فإنها قررت أن
تنزل للهولنديين عن كل شيء ، حتى تتفرغ للحرب مع فرنسا . وفي مونستر
في ٣٠ يناير ١٦٤٨ وقع المندوبون الأسبان معاهدة وستفاليا التي أنهت ثمانين
عاماً من الحرب في الأراضي الوطية . وأعلن أن المقاطعات المتحدة غير
مستقيدة بأى رباط مع أسبانيا . وتم الاعتراف بفتوحاتها . ولا تصل تجارة
الراين إلى بحر الشمال إلا عن طريق الثغور الهولندية وحدها . وخول التجار
الهولنديون حرية التجارة في جزر الهند الشرقية والغربية . وهكذا انتهى أطول
وأشجع وأقسى صراع من أجل الحرية في التاريخ بأسره .

الفصل الثامن عشر

من روبرت إلى رمبرانت

١٥٥٥ - ١٦٦٠

١ - الفلمنكيون :

أنه لما يثير الدهشة أنه في قطعة صغيرة من أوروبا ، مثل الأراضي الوطيفة نشأت ثقافتان متضادتان مثل الفلمنكية والهولندية ، وعقيدتان متنافرتان مثل الكاثوليكية والكلمنية ، وفنانان مختلفان كل الإختلاف في المزاج والأسلوب مثل روبرت ورمبرانت ، وفانديك وهاس .

ولانستطيع أن نفسر التباين بإختلاف اللغة لأن نصف الفلاندرز* ، مثل كل المقاطعات المتحدة ، تحدثوا اللغة الهولندية . وربما نبغ بعض التباين من اقتراب هولنده من ألمانيا البروتستانتية واقتراب الفلاندرز من فرنسا الكاثوليكية . وربما ينجم جزء من الإختلاف من إرتباط أسبانيا الكاثوليكية الملكية الارستقراطية إرتباطا وثيقا بروكسل وأنتورب . وورث إقليم الفلاندرز ديانة العصور الوسطى وفنها وأساليبها ، على حين كانت هولندا أفقر ، حتى هذا الوقت ، من أن تكون لها ثقافة خاصة بها . ويمكن أن تكون الشمس المشرقة في المقاطعات الجنوبية قد نزعت بأهلها إلى حياة شهوانية غير متمسكة بقواعد الأخلاق ، على حين أن الغيوم والمصاعب في الشمال شجعت أهله على اعتناق عقيدة صارمة وواقية رزينة . أو على الأرجح ،

(*) تستخدم هنا ، تيسيرا ، لفظتا الفلاندرز والفلمنكيين Flanders , Flemish

للدلالة على الأراضي الوطيفة الأسبانية ، ولفظتا هولنده والهولنديين Hoesep Outeh

للدلالة على المقاطعات الشمالية أو المتحدة .

أن الجيوش الأسبانية انتصرت في الجنوب ، وأندحرت في الشمال نتيجة الأنهار
المعتزة والثروة الهولندية ؟

لا بد أن أنتورب كانت جميلة عندما اكتمل صرح كاتدرائيتها بأبراجها
وواجهاتها وفنما الزخرفي ، على حين على مقربة منها ضجت البورصة بكل
حيوية التجارة وحيلها ، ورقصت المياه بكل سفن العالم . ولكن الحرب
أندلعت بعد ذلك ، فإن ضراوة دوق ألفا ومحاكم التفتيش أخرجت الصناع
المهرة والتجار البروتستانت إلى هولندا وألمانيا وإنجلترا ، وصرامة الكافينية
أتلقت الكنائس ، وعذب الأسبان نهب البيوت وأحرق القصور ، كأن ضراوة
فرنسا أفرغت عجزها في الدماء ، والحصار الذي ضربه فانز لمدة أربعة عشر
شهرًا أهات الكاثوليك والبروتستانت جوعًا على حد سواء . وأخيرًا انصم
الكاثوليك إلى البروتستانت في الخروج من المدينة ، وانقلت نجارة أنتورب
إلى إمستردام وروتتردام وهارلم وهمبرج ولندن وروان .

ولكن وحشية الإنسان متقطعة ، وسهولة التكيف عنده باقية .
وقد يكون لنا بعض السلوى في أن نتبع كيف أن بعض الأمم والمدن استطاعت
بسرعة أن تنهض من دمار الحرب ووبلاتها . وتلك كانت حال الفلاندرز
بعد ١٥٧٩ . بقيت صناعة النسيج ، وظل الطلب كبيرًا على المنخرمات الفلمنكية ،
وظلت الأمطار تحيي الأرض وأضفي كدح الناس البهائم والفخامة على الحاشية .
واستمتعت أنتورب وبروكسل ، تحت حكم الأدواق الذين أحبوا حياة الترف
ولكن مع روح إنسانية ، بيعت ونشور جديرين بالذكر . وعادت الفلاندرز
إلى كاتدرائياتها وأعيادها الدينية ومهرجاناتها الوثنية . وربما بالغ روبنز
في هذا في مهرجان اللوفر العاصف ، ولكن استمع أيها القارئ إلى تقرير
الكاردينال أنفانت فرديناند ، من أنتورب إلى فيليب الرابع ١٦٣٩ :
« أقاموا بالأمس إحتفالهم الكبير . . . أنتقل موكب طويل إلى الريف
مع عربات كثيرة تحف بها مظاهر النصر . وبعد العرض هرغ للناس إلى الطعام
والشراب ، حتى شمل الجميع آخر الأمر ، وبدون هذا لا يعتبرون أنه إحتفال

أو عيد^(١)، بل أن الكاردينال نفسه عندما قدم من أسبانيا إلى بروكسل (١٦٣٥) استقبلوه بالمهرجانات التي دامت لعدة أيام، وسط زخارف ضخمة صممها روبنز نفسه. ووصف زائر إيطالي مدن الفلاندرز قبل الثورة بأنها «سلسلة لا تنقطع من الاجتماعات البهيجة والأعراس وحلبات الرقص»، مع أنغام الموسيقى والأغاني المرححة في الشوارع^(٢)، ولم تستسلم كل هذه الروح للحرب. فإن الألعاب التي صورها بروجل كانت لا تزال تقام في الشوارع، واستمعت الكنائس مرة أخرى للقداسات المتعددة النغمات والأصوات التي كانت قد جعلت المنشدين الفلمنكيين، يوها، مرغوبا فيهم في كل بلاد. ودخلت الفلاندرز أبهى عصورها.

٢ - الفن الفلمنكي :

تضافرت الحاشية والكنيسة، والنبلاء وأبناء الشعب في البذل من أجل إحياء الفن الفلمنكي، ورعى البرت وايزابل وشجعا كثيرا من الفنانين، إلى جانب روبنز. وكانت أنتورب لهتره من الزمن مركز الفن في أوروبا، واستعاد قاش بروكسل المزركش (النسيج المنطرز بالسكانفاه) امتيازه وتفوقه، مستعينا برسوم روبنز البطولية. وكان صانعو الزجاج البنادقة قد جلبوا فنهم إلى الأراضى الوطنية في ١٥٤١، وأنتج الصناع المهرة المحليون منه الآن قطعاً هشة آية في الإعجاز، كان بعضها محل إعزاز وإعجاب إلى حد أنها غالبت قرونا من الفتنة والشغب فغلبتها، وأبدع صناع المعادن أعاجيب من نسج أفكارهم وأيديهم، مثل الأنية المعدنية الفاخرة التي تحفظ فيها الذخائر الدينية، التي يمكن أن توجد في الكنائس الكاثوليكية في بلجيكا، وألحت الارستقراطية التجارية في طلب القطع الفنية: وجلسوا أمام المصورون، وشيدوا قصورا ضخمة، ودورا البلدية، لمثل تلك التي شادها كرنيل دي فرندت تمجيدا لأنتورب (١٥٦١-١٥٦٥) قبل العاصفة. ولما جرد المتعصب الذميم الكنائس من

آيات الفن ، بات هؤلاء التجار الأرستقراطيون يشدون من أزر المراسم ويرعونها في لطفة وحماس ، يلجئون في طلب التماثيل واللوحات ليصوروا العقيدة للشعب .

ولم يزدهر فن النحت هنا ، لأن فرانسوا دو كيسنوى ، ابن بروكسل ، أنجز معظم أعماله في رومه حيث نحت تماثلاً ضخماً لسانت أندروز بداخل كنيسة القديس بطرس ، وإن نقرأ قليلاً من السائحين الذين يحرصون على رؤية دأقدم مواطني بروكسل ، ، نافورة مانكن بس Manneken Pis (١٦١٩) - تمثل برونزى لصبي يزيد في مياه المدينة من موارده الخاصة - يعلمون أن هذا هو أبقي روائع دو كيسنوى على الزمن .

أما المصورون الفلمنكيون فإتهم يحلون عن الحصر ، وواضح أن كل بيت في الأراضي الوطیئة كان عليه أن يقطنى لوحة أصلية ، وأكب ألف فنان في مائة مرسم على تصوير الأشخاص والمناظر الطبيعية والحيوانات والمؤن والأساطير والعائلات المقدسة و صلب المسيح ، أما إسهامهم المتميز في تاريخ الفن فهو صور جماعية للبيئات البلدية ، وصور تمثل الحياة المنزلية أو القروية وتأثر هؤلاء الفنانون في أول الأمر بالطرز الإيطالية ، فقد أبحرت السفن الإيطالية كل يوم إلى أنتورب ، وافتتح التجار الإيطاليون متاجر لهم فيها . وجاء الفنانون الإيطاليون ليهزأوا ويسخروا فأقاموا إيرسموا ، وقصد كثير من الرسامين الفلمنكيين إلى إيطاليا للدراسة ، واستقر المقام ببعضهم هناك ، ومن هؤلاء جوستوس سوسترمانزا أحد أبناء أنتورب ، الذى أصبح مصورا للأشخاص ، مقر باوذا حظوة لدى أدواق تسكانيا العظام ، وأن بعضاً من أجمل اللوحات في قصر بتي هي بريشة هذا الفلمنكى المقيم بالحويوة ، وعاد فرانس فلوريس من دراسته مع ميكلانجلو في رومه ، وأطلق على نفسه بصراحة أنه « روماني ، واستساخ التشریح وأخضع اللون للنخط ، وظل مرسمه في أنتورب لمدة جيل (١٥٤٧ - ١٥٧٠) كعبه للتصوير الفلمنكى وذروته ، وقد يكون

جديرا أن نزور كاي انرى في مة حقمها لوحته الرائعة الضخمة « زوجة صيادالباز ، وعاش فرانس في ببحوحة من العيش . وشاد لنفسه قصرا ، وأسرف في العطاء وفي الشراب ، وبات فقيرا ، وكان كورنلس دى فوز أقدر أفراد أسرة كبيرة من المصورين ، وعندما كان يتزاحم ذوى المسكاة أمام روبنز ليصورهم كان يرسل بعضهم إلى فوز ، مؤكدا لهم أنهم سيظهرون منه بمثل ما يرجون من روبنز نفسه ، ولا يزال في مقدورنا أن نشاهد لوحة تمثل كورنلس وزوجته وابنتين جميلتين لهما ، معلنة في متحف بروكسل .

وذبت الفتنة الإيطالية حوالى نهاية القرن السادس عشر ، واستأنف الفنانون الفلمنكيون موضوعاتهم وأساليبهم المحلية . وعاد دافيد تنيير الأكبر إلى أنتورب . برغم أنه درس في رومه ليرسم «المطبخ الهولندي» و«مهرجان القرية»^(٢) ، ثم علم ابنه حتى تفوق عليه ، وشكل سليل العجوز درول يزانته بيتر بروجل أسرة من المصورين توفرت على تصوير المناظر الطبيعية المحلية والمشاهد الريفية، ومنها ولداه بيتر بروجل «الجحيم» ، وجان بروجل «المحمل» ، وحفيدها جان الثانى وأمبروز ، وحفيد حفيده أبراهام ، وحفيده الأكبر جان بابتست بروجل ، وقد امتد بالأسرة العمر قرابة قرنين من الزمان (١٥٢٥ - ١٧١٩) ، ولنوضح سجل أعمالهم هنا نقول بأنهم ورثوا عن سلفهم العظيم النزعة إلى المشاهد الريفية والمهرجانات القروية ، ورسم بعضهم خلفيات مناظر طبيعية لروبنز المثقل بالممل .

وأخرج فنانون الأراضي الوطيفة الفن من الكنيسة والدير إلى البيوت والحقول والغابات ورسم دانييل سيجرز الأزهار والفاكهة في تفصيل محبب إلى للنفس ، وخص العذراء بأكاليله المصورة ، وانضم إلى الجزويت ، وبعث فرانس ستيدرز الحياة والتعبير في جوانب العديد من المتاحف بمناظر الصيد المشيرة ، والمفرعة أحيانا ، وبالكثير من أطباق لحم الطرائد والفاكهة ،

ولا يزال ، كما وصفه روبنز ، أعظم مصوري الحيوان ؛ لم ينافسه أحد في روعة تظليل فراء الحيوان أو ريش الطير .

وعاد أدريان بروور Brouwer إلى فلاحى بروجل ، فأبدعت فرشاته تصويرهم وهم يأكلون ، ويشربون ، ويغنون ، ويرقصون ، ويلعبون الورق ، والنرد ، ويقاثلون أو يعربدون في احتفال صاحب ، أو يغطون في النوم . ومن أدريان نفسه بألوان كثيرة في حياته التي لم تتعد اثنين وثلاثين عاماً ، فإنه درس مع هالس لفترة وجيزة ؛ وفي سن الواحدة والعشرين أصبح أستاذاً مسجلاً في نقابة الرسامين في أنتورب ، وكان ينفق أكثر مما يحتمل دخله ، وسرعان ما غرق في اللديون ، وأودعه الاسبان السجن لأسباب غير معروفة الآن ، ولكنه كان يحيا فيه مترفة ، ثم استرد حريته وسدد ديونه بفضل صور صغيرة . زاخرة بالحياة ممتازة فنياً من ناحية الرسم الحسى وحركة الضوء الرقيقة ، إلى حد أن روننز ابتاع منها سبعة عشرة رسماً ، ورميرانت ثمانية ، ولا يبدو فلاحوه سعداء قط إلا إذا ثملوا بالنبيج القوي أو الخمر الرحيصة ، على أن بروور آثر فلاحاً يغنى مع كأسه على أمير منافق يرفل في الحرير ، وفي سن الثانية والثلاثين عثر عليه وقد فارق الحياة خارج باب إحدى الحانات .

وكان جاكوب جوردانز أكثر وقاراً واتزاناً ، نقش في إحدى لوحاته « تحذيراً للظلم » : « إن أشبه شيء بالمجتنون هو المخمور » . واختار أن يرسم رجالاً يستطعون احتساء الخمر دون هذيان أو خبل ، ونساء برفلن في حفيف الحرير في إجلال وعظمة . ولد جاكوب في ١٥٩٣ وعمر حتى الخامسة والثمانين مع كمال الوعي والإدراك . ورسم لنا شخصه في لوحة « الفنان وأسرته » (٤٠) ، رجل منتصب القامة . واثقاً بنفسه ، رشيقاً ، ثرياً ، يمسك بزهو ، وزوجته مطمئنة في الطوق المكشكش الخائق حول رقبتها ، وابنة لطيفة بدأت لتوها ريعان شبابه كما تبدأ تتفتح أزهار الغلاندرز ، وبنثاً صغيرة سعيدة بالبيت الهادئ والمذهب المريح انظر إلى الصليب المتدلى على صدرها . وتحول جوردانز إلى البروتستانتية ، ولكن في سن الثانية والستين . ورسم عدة لوحات دينية ،

ولكنه آثر مشاهد الحياة اليومية والأساطير ، وفيها يستطيع أن يبرز الرؤوس الضخمة والصور المتألقة التي كان قد رآها في أروقة البيوت في أنتورب ، مثل لوحة د الملك يحتمس الخر (٥) ، أو أفضل منها ارحمة د قصة الخصب (٦) ، وهنا ، وسط الفاكمة (التي رسمها سنيدرز صديق جا كوب) والفرشات ترو عننا فتاة عارية فاتنة ، تشاهد من مسقط خلفي فقط ، وليكنها في كل نضارة الشباب ورشاقته ، ترى أين عثر جوردانز على نموذج لهيفاء مثل هذه في الفلاندرز على عهد روينز ؟

٣ - روينز

١٥٧٧ - ١٦٤٠

ولد أعظم المصورين الفلمنكيين في ١٥٧٧ ، من سلسلة طويلة من رجال أعمال موفقين ، وتابع هو السلسلة . ودرس أبوه ، جان روينز ، القانون في بادوا ، وتزوج من ماريا بيلينسكس . وانتخب عضوا في المجلس التشريعي في أنتورب وهو في سن الحادية والثلاثين وأتهم بالبروتستانتية فاستبعد بالذات من العفو العام الذي صدر ١٥٧٤ ، وهرب مع زوجته وأطفاله الأربعة إلى كولين ، وهناك اختارته مستشارا قانونيا ، آن السكسونية (روجة وليم أورانج التي افرقت عنه) ، وارتكب معها الفحشاء ، فأودعه الأمير السجن في ولنبرج ولكن ماريا غفرت لزوجها زلته وبعثت إليه برسائل رقيقة مؤثرة (*) ،

(*) مثال ذلك : زوجي العزيز الحبيب ، إن خطابا منك . . . أتلاج صدرى ، لأنني علمت منه أنك واض عن صفحي عنك ، ولم يدبر بجلدي قط أنك اعتقدت أن هناك أية عقبة تحول دون ذلك من جانبي ، والحق أني لم أعتد إلى شيء من هذا . وكيف يطاوعني قلبي أن أعضب عليك في هذه الحنة ، في الوقت الذي أضحي فيه بحياتي لأنك ؟ . . . وكيف تنجح أية كراهية مريية ، بمنل هذه السرعة في القضاء على حيننا العميق ، حتى تجعل من المستحيل أن أغفر لك هذه الخطيئة اليسيرة التي ارتكبتها ضدي ، على حين أنه يجدر بي أن أدعو الله أن يغفر لي الخطايا الجسام الكثيرة التي اقترفتها ضده في كل حين (٧) .

وقدمت الالتماسات وكالفت من أجل الإفراج عنه . حتى تم لها ذلك بعد عامين من المحاولة ، شريطة أن يبقى جان تحت المراقبة في سجن في وستاليا ولحقت به هناك في ١٥٧٣ ، ومن المحتمل أن يتربول رأى النور هناك ، وعمد الطفل وفق الطقوس اللوثرية ، ولكن . وهو لا يزال في المهدي ، تحولت الأسرة إلى الكشلكة . وفي ١٥٧٨ انتقل جان مع أسرته إلى كولون حيث اشتغل بالقانون وأثرى وازدهر ، وعند موته (١٥٨٧) قصدت ماريا مع أطفالها إلى أنتورب للإقامة فيها .

وتلقى روبنز تعليمه الرسمي حتى سن الخامسة عشر فحسب ، ولكنه زاد عليه بالدأب على القراءة وبالخبرة والتجربة . وظل لمدة عامين وصيفا في خدمة كوتس لا لنج في أودينار ، والمفروض أنه تعلم هناك الفرنسية والسلوك الرفيع الذي تميز به عن معظم فناني عصره . ولما لحظت أمه ميله إلى الرسم ، ألحقته للتدريب على يد طوييا فرهاخت ، ثم آدم فإن نورت ، وأخيراً أوتوفايينوس ، وكان رجلا واسع الثقافة لطيف الحديث ، وبعد قضاء ثمان سنوات في كنف هذا المعلم الممتاز ، قصد روينز ، وهو الآن في سن الثالثة والعشرين ، إلى إيطاليا ليدرس الروائع التي هزت شهرتها النفوس المتعلقة بالتصوير . وفي فينيسيا عرض أعماله الخاصة على رجل في حاشية فنسيزو جوزاجا دوق ماتتوا . وسرعان ما التحق روبنز بقصر الدوق في ماتتوا ، رساما للبلاط وهناك أبدع لوحين قاربنا الكمال الفني : « جوستوس لبيوس وتلاميذه »^(٨) ، وكان بين التلاميذ فيها بطرس وأخوه فيليب ، ثم لوحة تمثله هو نفسه^(٩) ، أمى روبنز ، وهو نصف أصلع في الخامسة والعشرين . ولكنه ملتج جرى . ويقظ . وقام برحلات قصيرة إلى روبر ليمسوخ للدوق بعض الصور ، وإلى فلورنسه حيث شهد (ورسم فيما بعد بشكل مثالي) زواج ماريا مديتشي من هنري الرابع الغائب . وفي ١٦٠٣ أوفده الدوق في مهمة دبلوماسية إلى أسبانيا يحمل هدايا إلى دوق ليرما ، وتقبل الوزير الرسوم التي كان روبنز قد قام بنسخها على أنها لوحات أصلية ، وعاد الفنان إلى ماتتوا دبلوماسيا فاجحا .

وفي رحلة فائبة إلى رومه استقر به المقام فيها مع أخيه الذي كان أمين مكتبة كاردينال ، وأبدع بيتر آنذاك عدة لوحات للقديسين ، منها لوحة « القديس جريجورى يصلى للعرزاء »^(١٠) ، وقد اعتبرها أولى روائعه . وفي ١٦٠٨ سمع بمرض أمه ، فاستحث السير شمالاً إلى أنتورب ، وتأثر أشد التأثر حين وجد أنها قد فارقت الحياة . وكان حبها الموسوم بالحكمة والصبر قد ساعد على خلق مزاجه المرخ الذي سعدت به حياته . وفي نفس الوقت كان قد تعلم الكثير في إيطاليا . فإن لون البنادقة المغرى البديع ، والشهوانية الحسية في لوحات جيوليورومانو الجصية في مانتوا . والجمال الأخاذ الهادىء في رسوم النساء التي أبدعتها يد كوريجيو في بارما ، والفن الوثني في رومه الوثنية المسيحية معا وارتضاء المسيحية للاستمتاع بالخير والنساء والغناء — كل أولئك امتزج بدمه وفنه . حتى أنه عندما عينه الأرشيدوق ألبرث مصور البلاط ، في أنتورب ١٦٠٩ ، اختفت كل بقايا الفن القوطى في التصوير الفلمنكى ، واكتمل انصهار الفن الفلمنكى والفن الإيطالى معا .

وكان ضرباً من الحكمة على غير قصد منه أنه كان متغيباً عن الأراضى الوطنية طوال ثمانية أعوام الحرب ، وأنه تلقى قرار تعيينه في أول أعوام الهدنة ، ففي السنوات الإثنتى عشرة التالية على وجه التحديد استعادت أنتورب وبروكسل حياتهما الثقافية . ولم يكن روبنز بالعنصر اليسير في هذا البعث . ويحصى مؤرخ سيرته ١٢٠٤ من اللوحات الزيتية و ٣٨٠ من الرسوم له^(١١) ، ولا يستبعد أن كثيراً غير هذه وتلك لم يسجله التاريخ . وليس لهذا الخصب مثيل في تاريخ الفن . ويكاد الأمر يكون كذلك بالنسبة لتنوع الموضوعات وسرعة التنفيذ . وكتب روبنز يقول : « إن موهبتي من طراز معين ، ولم تروغنى معه أية مهمة مهما عظم حجمها أو تشعبت موضوعاتها »^(١٢) ، — لقد أنجز في خمسة وعشرين يوماً اللوحات الثلاث التي تمثل « النزول عن الصليب ، لسكائدرائية أنتورب ، وفي ثلاثة عشر يوماً لوحة « عبادة الملوك ، الضخمة الموجودة الآن في متحف اللوفر . وبالإضافة إلى رانبه السنوى في البلاط

وقدره ٥٠٠ فلورين كان يتقاضى أجرأ عن كل إنتاج فردى . لأنه قبض مبلغاً ضخماً ، ٣٨٠٠ فلورين (٤٧,٥٠٠ دولاراً) عن التحدثين السابق ذكرهما ، أى بمعدل أجر يومية قدره ١٠٠ فلورين (١٢٥٠ دولاراً) . وذهب جزء من هذا المبلغ بطبيعة الحال إلى المساعدين العديدين الذين كان كثير منهم مسجلاً في نقابة الفنانين بوصفهم أمانذة . ورسم جان بروجل ، الخمل ، الأزهار في لوحات روبنز ورسم جان ولدنز المناظر الطبيعية والحواشي الثانوية ، ورسم بول دي فونز المعادن والغاكمة ، أما فرانس سنيدرز فقد صور بطريقة نابضة بالحياة الرأس المستدق بشكل دقيق للكلب في لوحة «ديانا عائدة من الصيد»^(١٤) وللسنا ندرى نصيب سنيدرز ونصيب روبنز في مناظر الصيد الهائلة في قاعات درسدن وميونخ ومتحف المتربوليتان في نيويورك . وفي بعض الحالات رسم روبنز الأشخاص ، وترك لمساعديه الدهان . وكان روبنز يقدم لربائنه بياناً صادقاً عن درجة إسهامه بنفسه في اللوحات التي باعهم لهاها^(١٥) . وهذه الطريقة وحدها استطاع أن يواجه الطلبات التي انتهت عليه . وأصبح رسمه مصنوعاً يعكس أساليب العمل في اقتصاد الأراضي الوطیئة ، وأدى الخصب في الإنتاج والسرعة في الإنجاز إلى الخط من نوعيته ، ولسكنه قارب الكمال إلى حد يصبح معه لاله الفن الفلمنكى .

وأحس روبنز بالظماً نينة فتزوج في ١٦٩٠ . وكانت إيزابلا برانت ابنة محام وعضو المجلس التشريعى في أنتورب ، ومن ثم كانت شريكة صالحة لابن محام وعضو في المجلس التشريعى في المدينة نفسها . وأقام روبنز في بيت أبيها حتى يتم إعداد داره الفخمة المظلة على قناة وابنز . وفي واحدة من أجمل لوحاته^(١٦) نرى بيتر وايزبللا تنمرها سعادة الأيام الأولى من الزواج ، أما هي فتراها مكسوة بأردية فضفاضة مشدودة الخصر بصدار مزدان برسوم الأزهار ، وقد وضعت يدها على يده في ثقة واستئثار ، وبرز وجهها المنعم بالحيوية من هلوق رقية مكشكش أزرق هائل ، وتوج رأسها بقبعة فارس ، أما هو فتراها مكتمل الرجولة والنجاح ، ذا ساقين قويين ولحية بيضاء وعلاخ

وسيمة ، يرتدى قبة مزدانة بالأشرطة . ولم تعمر إيزابلا بعد الزواج أكثر
سبعة عشر عاماً ، واسكنها أنجبت له أبناء سهر على تربيتهم ورسمهم في حب
ولعزاز ، فهناك لوحة الولد المجدد الشعر في متحف قيصر فردريك ، برلين ،
وهو يمتلئ الجسم جميل سعيد ، يلعب ببيامة ، ويمكن أن نراه مرة أخرى
في لوحة د أبناء الفنان ، (١٧) ، وقد كسسته السنوات السبع التي سلخها من عمره
بالرصانة ، وما يتسنى إلا لرجل فاضل بارع أن يرسم مثل هذه اللوحات .

وكان روبنز في نفس الوقت وثنياً أساساً ، ولو عاد دون تورخ أو خجل
بجسم الإنسان ذكراً أو أنثى ، في كل نشوة الفتوة عند الرياضي القوى ، أو
في هدوء المتقوس المنحنى ، وكان معروفًا عن الفلاندرز أو رمزاً عليها أنها
استمتعت بأساطير الوثنية الدنسة - طقوس وعادات الجسم الطليق - على
حين رحبت الكنائس بتأويله للموضوعات الدينية أو تفسيره لها . ولم يستطع
أن يفرق بين مريم العذراء وفينوس : ولعله لم يحس بأى تعارض بينهما ،
فكلتاها جلبت له المال . وفي لوحة د عبادة فينوس ، (١٨) كان العنصر الوثني
غير مقيد - مجموعة من كاهنات إله الخمر باخوس ، يخفين في تواضع وخفر
معصماً أو ركبة ، يعانقهن إلهة معربدون شهوانيون ، على حين يرقص اثني عشر
غلاماً حول تمثال إلهة الحب . ولو أن هذه الموضوعات الوثنية تعكس أثر
مقامه في إيطاليا ، إلا أن صور فينوس يعوزها الخط الكلاسيكي ، فهي لا تستطيع
الحياة في الشمال ، على الشمس والهواء والخمر كما كان حالها في الجنوب ، بل
أنها يجب أن تأكل وتشرب لتبقى المطر والضباب والبرد . والطبيعة البشرية
التيوتونية ، مثل الويسكي البريطاني - انجلىزى أو اسكتلندى - دفاع مناخى
وكان عنوان إحدى لوحات روبنز - وفيها ثلاث نساء عاريات متورمات -
د قينوس بلا خبز ولا نبيذ تشعرون بالبرد والضعف (١٩) ، وتلطف الفنان فلم يقل
د بلا لحم ولا جمعة ، وكذلك لم ير مجافاة للياقة في لوحته د راع يغازل ، (٢٠)
وهي تمثل راعياً يحاول أن يغوى فتاة بدينة تزن ثلثمائة رطل ، فليس ثمة حسن
أوردى ، جميل أو قبيح ، ولكن البيئة هي التي تحدد هذا أو ذلك : وليس

في لوحة « اغتصاب السابين » (٢١) الأكل ما يستطيع أن يفعله جباران قويان
رومانيان ليرفعا على ظهر جواد امرأة تسحر اللب من أسرارهم . وحتى في لوحة
« عواقب الحرب » (٢٢) ليس ثمة ضعف . و « ديانا عائدة من الصيد » (٢٣) ، لم
تكن إلهة أغريقية أنيقة طاهرة ، بل ربة بيت فلمنيكية عريضة الكتفين قوية
العضلات ذات مكانة اجتماعية ، وفي كل هذه الصورة الضخمة الممتلئة لا ترى
تحجلاً إلا الكلب . وغابات روبنز ملأى بأطسة يعتصرون أنقلا ، كما في
« أكسيون وهير » (٢٤) ، و « أربعة أركان الدنيا » (٢٥) ، وكما يمكن أن نكون
قد توقعنا لم يكن « أصل الحجر » (٢٦) ، - فرضية مستديمة ، بل ربة بيت بدينة
تفيض سيلا من اللبن من ثديى تمتلىء . أما « الرباب الأخوات الثلاث » (٢٧) ،
فهن تحيلات رشيقات ، نسبياً ، على أية حال . وفي « محاكمة باريس » (٢٨) ، (ابن
ملك ترواده الذي خطف هيلانه - في الأساطير اليونانية) نرى سيدتين فقط -
يشا كل زيهما الأزياء المتأخرة ، وأخرى تعد من أجمل صور النساء في الفن .
وفي هذه الرسوم الوثنية عادة يوجد شيء أبعد كثيراً من الجسد ، فإن روبنز
أسبغ عليها من فيض خياله الخصب الممتلىء بالحيوية والمرح ، فهناك مائة من
الملحقات السكالية تملأ المنظر ، مخططة في حرص ولكن دون دراسة ، تبهر
عين الناظر إليها باللون والدفء والحياة . كما أنه ليس ثمة شيء يشير الشهوة
في العرض المتفخ ، وأنه مجرد حيوية حيوانية ، فليس هناك رسم واحد يشير
الشهوة الجنسية . أن روبنز نفسه كان يتجلى بسلوك قويم إلى حد غير قياسى ،
بالنسبة لفنان شديد التأثر والحساسية بالضرورة للون والشكل ، وعرف عنه
أنه زوج فاضل و « رب أسرة موثوق » ، لم تمسه شائبة من التودد للنساء
أو المخادعة (٢٩) .

واعترف رجال الكنيسة في الفلاندرز ببراءة الناحية الحسية في رسوم
روبنز ، فلم يحسو بالحرج أو بوخز الضمير في أن يطلبوا منه أن يصور ثانية
قصص العذراء والمسيح والقديسين ، وقد أجابهم إلى سؤلهم ، ولكن بطريقته

غير المهتذلة ، ومن خلفائه الذين لا يحصى عددهم استطاع أن يصور في خيال أوسع ، أو يرسم في مهارة أدق ، الفكرة القديمة « عبادة الملوك »* ، ومن كان يجرؤ على تركيز العمل في تشكيل البطن السمين للأثيوبي المعمم ذي اللون البرونزي ، وهو ينظر في ازدراء واضح إلى الوجوه الشاحبة حوله ، ومن كان يحلم أن الوثني الذي يحدق النظر بعينه وبفرشاته إلى كل ركن وكل زاوية في جسم المرأة ، يمكن أن يحب الجزويت وينضم إلى طائفتهم المريمية ، ويؤدى القارين التي وضعها أجنات لهولا لتطهير النفس برؤى الجحيم (٣١) .

وفي مارس ١٦٢٠ تعاقد مع الجزويت على أن يضع قبل أن ينصرم العام ، تصميمات التسعة وثلاثين رسماً تغطي مقوف كنيسة الباروك الفخمة التي كانوا قد بدأوا تشييدها في أنتورب في ١٦١٤ . وأنجز روبنز الرسوم التي حولها فإن «بلد» ، وآخرون معه إلى لوحات ، دمرت كلها تقريباً في ١٧١٨ ، وقام روبنز نفسه بعمل صورتين مهمنيتين للمذبح الرئيسي : إحداهما « أجنات يبرىء الذين مسهم الشيطان » ، والثانية « معجزات سانت فرانسيس » . وكتباها الآن في متحف تاريخ الفن في فيينا .

مع ذلك فإن روبنز كان كاثوليكياً على النحو الذي كانت تعنيه الكنيسة في عصر النهضة . ومسيحياً بحكم المواطن . وعاشت وثنيته في ظل تقواه . ولم تكن مريماته (صور السيدة العذراء في لوحاته) سوى نسوة داعرات غليظات يبدو واضحاً أنهن أصلح لإيقاع الرجال في حباتهن . منهن لإنجاب إله . وفي لوحة « العذراء في إكليل من الزهو » (٣٣) ، تمثل السيد المسيح صبياً أجمعد الرأس ، ومريم في زى ربة بيت فلمنكية ترتدى قبعة جديدة في نزهة يوم الأحد في أحد المتنزهات . وحتى في لوحة « رفع الصليب » (الموجودة في كاتدرائية أنتورب) نجد أن اهتمام روبنز بالتشريح يتغلب على الفكرة الدينية فالمسيح رجل رياضي مكتمل القوة والنشاط ، لا إلهاً يعاني سكرات الموت .

* بلغ ثمن هذه اللوحة ألف دولار في مزاد علني أقيم في لندن ١٩٥٩ .

وفي طعنة الرمح (٣٤) ، مرة أخرى نجد التشريح هو كل شيء : فالمسيح
واللصان شخوص ضخمة ، والنساء تحم الصليب يتخذن وضعاً خاصاً أمام
فنان ، أكثر منهن مغمى عليهن من الحزن ، فإن روبنز لم يستشعر هول
الموقف .

وفي خمس مرات على الأقل تحدى روبنز الرسام الفينيسي تيشيان في صعود
العذراء ، ، وفي أشهر هذه المحاولات (٣٥) ، تبدو العذراء ميةة لأحياة فيها ،
والأفراد الأحياء هم المجدلية والحواريون الجزعون عند المقبرة الخالية ، وأجمل
منها اللوحة الثلاثية (٣٦) التي أهدتها الأرشيدوقة إيزابل إلى جمعية الدفونسو
الدينية في بروكسل : ففي الصورة الوسطى نزلت العذراء من السماء لتقدم لرئيس
أساقفة توليدو . رداء من الجنة مباشرة ، والقديس في خشوع تام ديلت من
العبادة ، ، على حين أنه في الصورتين الجانبيتين نرى إيزابل وألبرت قد وضعا
تاجيهما جانبا د وركما للصلاة ، وهنا في هذه اللوحة الثلاثية . أضفى روبنز
لوهلة قصيرة . بعض الحياة على التقوى أو صورها أحسن تصوير . وفي لوحة
سانت أمبروزو الإمبراطور تيودوسيوس (٣٧) ، - أدرك روبنز ونقل إلى
الصورة سطوة الكنيسة وسلطانها الخفيين : ففيها ترى رئيس أساقفة ميلان
الذي لم يتسلح إلا بعدد من الكهنة وفندلفت (مساعد كاهن) ، ولكنه متمسم
بالجلال والعظمة ، يطرد من الكاتدرائية الإمبراطور الذي يحف به حرس
رهيب ، ولكنه مثقل بالقساوة التي لا تتغفر وقلما أخفق روبنز مع كبار
السن من الرجال ، ففيهم ، وبخاصة في الوجه ، تبرز قصة حياتهم ، كأن الوجه
يعرض الشخصية والخلق واضحين أمام الفن المدرك الواعي . انظر إلى رأس
الأب في لوحة دلوپ وأسرته يغادرون سودوم (٣٨) ، . وهي واحدة من أروع
لوحات روبنز في أمريكا .

وعاد في حيوية بالغة إلى الموضوعات الدينية ، مختلطة بالأساطير ،
عندما عرضت عليه ماري دي مديشي أكثر العقود إغراء في حياته . ووقع

في ١٦ فبراير ١٦٢٢ اتفاقية ، يرسم بمقتضاها ، في مدى أربعة أعوام ، إحدى وعشرين صورة كبيرة وثلاث صور شخصية ، تخذل ذكرى الأحداث في حياة ماري وزوجها هنري الرابع ، ودعته الملكة للحضور ليعيش في البلاط الفرنسي ولكن هداه تفكيره السليم إلى البقاء في وطنه . وفي مايو ١٦٢٣ صحب معه إلى باريس اللوحات التسع الأولى ، وأحببت ماري هذه اللوحات . كما أعجب بها ريشليو . وأكلت المجموعة في ١٦٢٤ ، وقصد روبنز بالبقية إلى باريس حيث رآها موضوعة في قصر لاسمبريج . وفي ٢٨٠٢ نقلت اللوحات إلى اللوفر ، حيث انفردت تسع عشرة لوحة منها بقاعة خاصة بها . وإن ينكر كل من رآها أو درسها على روبنز العشرين ألف كراون (٢٥٠٠٠٠ دولار) التي تقاضاها في مقابل عمله ، أو يحسده عليها ، ولا ريب أن مساعديه قاسموه فيها . وهذه اللوحات في جملتها هي أسمى منجزاته . وإذا تجاوزنا عن بعض هبات السرعة ، وارتضينا القصة التي لا تصدق - كما تفعل في أوفيد ، وشكسبير وفردى - فإننا سنجد هنا روبنز بكل سماته ، اللهم إلا تقواه العارضة . لقد أحب غمامة طقوس البلاط ، وجلال السلطة الملكية ، ولم يسأم قط النساء الممتلئات الأجسام ، والثياب الفاخرة ، والستائر وأغطية الأثاث البهية ، وكان قد عاش نصف أيامه مع الأرباب والرباب في الأساطير القديمة ، ونراه الآن يضم هؤلاء جميعاً في تخصص فياض ، مع قدرة فائقة على ابتداع الأحداث العارضة ، وغزارة في اللون وبراعة فائقة في التأليف والتصميم ، وما جعل هذه المجموعة ملجمة وأوبرا في تاريخ الرسم .

ولم يكن بعوز روبنز إلا مرتبتين اثنتين من مراتب الشرف ليبلغ ذروة التمجيد - التعيين في الوظائف الدبلوماسية ، والحصول على براءة النبالة . وفي ١٦٢٢ أوفدته الأرشيدوقة إيزابيل ليفاوض ، على أمل تجديد الهدنة مع هولندا ، وكان لدى روبنز ما يحمله على توطيد السلام ، فإن زوجته كانت طموحة في أن ترث عن عمها الهولندي مالا^(٣٦) . وأخفقت هذه الجهود ، ومع ذلك أقنعت إيزابيل الملك فيليب الرابع بأن يخلع على روبنز النبالة (١٦٢٤)

وعينه « رئيس الديوان الخاص لصاحبة العظمة » . أى إيزابل نفسها . ولكن الملك اعترض بعد فترة من الوقت على استخدامها لمثل هذا الشخص الوضيع ذى المحند غير الكريم ، فى استقبال البعثات الأجنبية ، وبحسب مسائل على قدر كبير من الأهمية^(٤٠) ، ومع ذلك أوفدت إيزابل روبنز بعد ذلك بعام (١٦٢٨) إلى مدريد ليساعد على عقد الصلح بين فيليب الرابع وشارل الأول . وأخذ الفنان معه بعض رسومه ، وعدل الملك من رأيه فى موضوع الحسب والنسب وجلس إلى روبنز ليرسم له خمس عصور شخصية ، وكان الفنان الأسباني فيلا كوينز لم يقم بما يكفى الملك فى هذا الصدد . وتوثقت أواصر الصداقة بين الفنانين ، وأسلم الفنان الأسباني ، وهو آنذاك فى التاسعة والعشرين ، القيادة للفلمنكى العبقري الأنيس ، وهو إذ ذاك فى سن الواحدة والخمسين . وأخيرا عين فيليب روبنز الوصيح النسب ، مبعوثا له فى إنجلترا ، وفى لندن نجح روبنز فى عقد معاهدة صلح ، على الرغم مما دفع ريشليو من رشوة وبث من حواسيس لعرقلة الصلح . وفى لندن رسم روبنز بعض صور شخصية إنجليزية درق ودوقة بكنجهام^(٤١) ، والوجه المهيب لتوماس هوارد أرنل أروندل ولحيته ودرعه^(٤٢) . وبعد أن مهد الطريق أمام فاندريك عاد إلى أنتورب (مارس ١٦٣٠) وقد منحته جامعة كمبردج درجة علمية ، ومنحه شارل لقب فارس .

وفى الوقت نفسه كانت زوجة روبنز الأولى قد توفيت (١٦٢٦) وطبقاً للتقاليد الفلمنكية أقيمت للاحتفال بجنائزتها مأدبة باذخة كلفت الدبلوماسى الفنان ٢٠٤ فلورينات (٢٥٠٠ دولار) أنفقها على الطعام والشراب وأدوات المائدة^(٤٣) ، فالموت فى المجتمع الفلمنكى كان ترفا يورث الحرمان والفقر . وأغرق روبنز شعوره بالوحشة والوحدة فى الدبلوماسية . وفى ١٦٣٠ ، وكان قد بلغ الثالثة والخمسين ، تزوج من هيلينا فورمنت ذات الستة عشر ربيعا . أنه كان فى مسيس الحاجة إلى جو من الجمال يحيط به ، وكان له بالفعل من حقها ودعتها ما فاض على فنه وأحلامه . ورسمها المرة بعد المرة ، فى أى زى ، ودون ثياب : فى ثوب الزفاف^(٤٤) ، وهى ممسكة بققاز^(٤٥) ، تملوها ابتسامة السعادة

في قبعة أنيقة^(٤٦)، وهي تخفى تركيبها فقط تحت معطف من الفراء^(٤٧). أما أروع الصور فهي تلك التي تمثلها تتنزه مع روبنز في حديقتيها^(٤٨) - وهذه الأخيرة هي إحدى القمم في التصوير الفلمنكي، ثم صورها مع وليدهما الأول^(٤٩)، وبعد ذلك مع طفليهما^(٥٠) - مباشرةً بالفنان دنوار (مصور فرنسي ١١٤٩ - ١٩١٩). وحدث ولا حرج عن اللوحات التي تمثلها في وضع مثير للشهوة مثل فينوس، أو متسم بالحشمة مثل أم الإله - العذراء.

ورسم بيرنز عاهليه المحبوبين البرت وإيزابل، بغير ما نفاق ولا رياء. وإذا انراها في متحف فيينا وبتى، في أغلب الظن كما كانا - يحكان بلدا قلقا مضطربا، بكل النيات الطيبة التي تلتئم مع المثل العليا الأسبانية، لقد عثر الفنان في الغلاندرز على أنماط ممتازة للرجال والنساء، فرسمها في تصويره لجان تشارلز دي كورد وزوجته الجميلة المتجهمة^(٥١)، وفي صورة ميكايل أو فوفوريوس^(٥٢) أسقف هرتوجنيوخ، وترك لنا صورة ضخمة لاسينولا الجبار^(٥٣). ولكن رسم الصور الشخصية لم يكن موطن التفوق والامتياز في روبنز، فهو لم يقدم لنا نظرات نافذة دقيقة أو إيحاءات صادرة من الأعماق، كما فعل رامبرانت. وأعظم صور الشخصية هي تلك التي رسمها لنفسه في ١٦٢٤ من أجل من صار فيما بعد شارل الأول^(٥٤): قبعة ضخمة ذات أشرطة ذهبية لا تكشف إلا عن جبهة عريضة لرأس أصلح، مع عيني محذقتين في نظرة فضولية. والأنت الطويل الحاد يبدو أنه يتفق مع العبقرية، والشارب المتصاب الحشن واللحية الحمراء الجميلة، وهذا يمثل رجلا يدرك كل الإدراك أنه في ذروة البراعة في حرفته ومع ذلك فإن شيئاً من حيورته الطبيعية. ومتعته الحسية وقناعته المهادنة، مما أشرق وتآلق في صورته مع إيزابلا برانت (زوجته الأولى) قد ذهب على مر السنين. إن الإخفاق وحده هو الذي يرهق الإنسان ويفنيه بأسرع مما يفعل النجاح.

كان روبنز رديا، وعاش عيشة باذخة، وكان بيته الفخم في أتوربي أحد

مشاهد المدينة . وفي ١٦٣٥ اشترى بمبلغ ٩٣ ألف فلورين ضيعة واسعة وقصراً لإقطاعيا في مقاطعة ستين ، تمتد ١٨ ميلا ، واتخذ لقب لورد ستين ، وقضى الصيف هناك ، ورسم المناظر الطبيعية وجرب يده المتعددة المهارات في رسم أحداث الحياة اليومية ، ووسط ضروب الترف والرفاهية ، مع خادمات ثلاث وسائسين وثلاثة جياذ ، استمر يبذل أقصى الجهد في العمل ، وهو يجد سعادته في أسرته وفي عمله ، وأحبه زوجاته وأولاده ونصراؤه ومساعدوه لصفاء روحه وسخائه ومشاركته الوجدانية العظيمة (٥٥) .

ويجدر بمن هم أقدر منا أن يحللوا المزايا الفنية في فنه ، ولسكننا نستطيع مطمئنين أن نصفه بأنه نموذج رئيسي لتصوير الباروك : أى اللون الحسى ، والحركة التي لا تحصى ، والخيال الخصب ، والزخرفة المنمقة المترفة ، على عكس ما عرف في التصوير القديم من الهدوء وتقييد الفكر والخط . ولكن في فوضى الجمال هذه ، يقول النقاد بأن هناك براعة فائقة في التخطيط والتصميم وغدت صور روبنز مدرسة من الحفارين والتقاشين الذين صنعوا الطراز الأول من اللوحات المعروفة في أوروبا المسيحية ، كما فعل ريموندى مع رسوم رافائيل ، ومن يدروبنز أو من رسمه خرجت الرسوم المشهورة إلى نساغى الأقمشة المزركشة في باريس وبروكسل ، وصنعوا هدايا ملكية أو زخارف للويس الثالث عشر وشارل الأول والأرشيدوقة إيزابيل .

وشهد العقد الأخير من سنى حياته نصرا مبينا عكسه انحطاط قواه الجسمية ولم يضارغه في شهرته الفنية سوى برنينى ، ولم يحلم أحد بأن ينازعه تفوقه في الرسم وهرع إليه التلاميذ من كل الأنحاء ، ووفدت عليه بعثات البلاط من ست ممالك ، حتى من الحاكم فردريك هنرى عبر خطوط القتال . وفي ١٦٣٦ طلب إليه فيليب الرابع أن يرسم بعض مشاهد دمتاور فوزس ، للشاعر الرومانى أوفيد لقصر الصيد فى باردو . وأنجز مرسم روبنز خمسين صورة لهذه المجموعة ، منها واحد ولاثرن مشهدا فى متحف برادو ، وبدا للكاردينال

انفانت فرديناند أن مشهداً منها هو د محاكمة باريس ، أروع ما أبدعته يدأ روبنز على الإطلاق^(٥٦) . وقد نوثر عليه د المهرجان^(٥٧) ، الصاحب الذي كان قد صوره في ١٦٣٦ - وهو مطاردة مسعورة ، ليس فيها امرأة عجوز أو بدينة إلا اختطفها رجل ما .

أما صورته الشخصية في سن الستين^(٥٨) فهي الوجه الآخر لخواتيم حياته رجل لا يزال مزهواً . يقبض بيده على سيف النبالة ، ولكن التحول يعبرو وجهه التحيل ، ويتبدل جلده ، وتحيط التجاعيد بعينيه - وهو رسم أنيق أمين وفي ١٦٣٥ أزمه داه النقرس الفراش شهراً . وفي ١٦٣٧ شل يده لفترة من الزمن ، وفي ١٦٣٩ عاقه هذا الداء عن التوقيع باسمه . وفي ١٦٤٠ ضلت كلتا يديه . وفي ٣٠ مايو ١٦٤٠ ، وقد بلغ الثالثة والستين ، قصى نخبه متأثراً بالتهاب المفاصل وتصلب الشرايين .

لقد كانت حياة روبنز تدعو إلى الدهشة . أنه لم يكن النموذج الشامل للمثل الأعلى للنهضة الأوروبية ، ولكننه حقق طموحه في أن يلعب دوراً في الدولة . وفي الرسم على حد سواء . ولم يكن فناً شاملاً مثل ليونارد وميكلائيلو ، فلم يخلف لنا نحتاً ، ولم يصمم أى منى سوى داره . ولكننه في الرسم بلغ ذروة الاهتياز في كل مجال . فإن الصور الدينية ، والصخب الوثني والإلهة والإلهات ، والعاريات والمكتسيات ، والملوك والملكات ، والأطفال والعجائز ، والمناظر الطبيعية والمعارك - كانت كلها تنساب من فرشاته ، وكأنها معين متعدد الموارد لا ينضب من اللون والشكل . لقد وضع روبنز حدأ لخضوع الرسم الفلمنكى للرسم الإيطالى ، ولكن بدون الثورة أو التمرد ، بل عن طريق الاستيعاب والاتحاد .

ولم يكن روبنز في مثل عمق رمبرانت ، ولكن أوسع أفقا ، لقد نقر من الأعماق الخفية التي كشف عنها رمبرانت ، وآثر عليها الشمس والهواء الطلق ، وتراقص الضوء ، واللون ، ومتمعة الحياة وسحرها ، وكافاً حظه السعيد

بالإبتسام للدينا ، إن فنه تعبير عن الصحة ، مثلما أن فننا اليوم يوحى باعتلال الفرد أو اعتلال الروح العامة . ويمكن ، إذا وهنت نفوسنا أو افترت حويتنا أن نفتح كتاب روبنز في أى مكان لننتعش ونجدد قوانا .

٤ - فانديك

١٥٩٩ - ١٦٤١

لقد كان من عادة روبنز أن يرحب ويشجع الموهبة المبكرة النضج لدى الشباب اليافع الوسيم ، الذى التحق برسمه حوالى ١٦١٧ . وكان أنطونى فانديك قد بدأ تدريبه وهو فى سن الثامنة عند هندريك فإن بالمن ، معلم سنيدرز . وفى سن السادسة عشرة كان له تلاميذه هو نفسه . وفى سن التاسعة عشرة سجل أستاذا فى نقابة الفنانين ، ولم يكن تلميذاً لروبنز بقدر ما كان مساعدا ذا قيمة كبيرة له . وقدر روبنز أحد أعمال فانديك الأولى بأنه يساوى فى قيمته لوحة « دانيال ، التى أنجزها روبنز فى نفس العام . واحتفظ فى مجموعته الخاصة بلوحة فانديك « المسيح يتوج بالأشواك » ، ثم تنازل عنها فى وقت متأخر ، وهو كاره ، لفيليب الرابع . ليضعها فى الأسكوريال^(٦٩) . وتأثر فانديك فى شغف بالغ بروبنز ، ولكنه كانت تعوزه حيوية الفنان العجوز فى الحركة واللون ، ومن ثم قصر عن اللحاق به فى كل شىء ، فيما عدا رسم الأشخاص . وفى صورته الشخصية الأولى (١٦١٥) (٦٠) كشف عن الخصائص التى كان يجب أن تميز وتحدد عبقريته - رقة ورشاقة وجمال ناعم ، مما لا يكاد يليق برجل . وكان زملاؤه الفنانون سعداء بالجلوس إليه لتكوين الصور التى يرسمها لهم ، سيما إذا ضاقوا بحميتهم من نسيان الناس لهم . وقد رسم صورا شخصية محبة لسنيدرز^(٦١) ودوكونسوى^(٦٢) وجان ويلدنز^(٦٣) تروجان دى وال^(٦٤) - وجساردى كريبير^(٦٥) ومارتن بينين^(٦٦) ، وكان من صفات فانديك المحمودة الكثيرة أنه أحب منافسيه . وتوحى تلك الصور الشخصية فى مرسم روبنز بروح طيبة من الزمالة لا توجد دائما فى مملكة الفن .

وفى ١٦٢٠ تلقى أرل أرونديل من أنتورب رسالة جاء فيها : « أن فانديك يقيم مع روبنز ، وتقدر أعماله بأنها تكاد تضارع أعمال أستاذه (٦٧) ، فدعا الفنان الشاب إلى إنجلترا ، فذهب فانديك وهناك تقاضى من جيمس الأول معاشاً زهيدا قدره مائة جنيه ، ورسم قليلا من الصور الشخصية ، وتمرد على ما طلبه منه الملك من نسخ حقير لصور أصيلة ، وطلب منحه أجازة لمدة ثمانية أشهر يتغيب فيها عن البلاد ، فأجيب إلى طلبه . ولكنه مد الغياب إلى اثني عشر عاما . وفى أنتورب دبر لزوجته وطفلها سبل العيش ، ثم أسرع إلى إيطاليا (١٦٢١) .

وهناك لأول مرة أسرع الخطى وثمر عن ساعد الجسد ، وترك صوراً شخصية رائعة فى كل مكان نزل به تقريبا ، وعكف على تأمل أعمال البناذقة العظام ، لا ليدرس اللون والضخامة لديهم ، كما فعل روبنز من قبل ، ولكن ليكتشف الأسرار الشعرية فى الرسوم الشخصية عند جيورجيو ونيشيان وفيرونيز . وقصد كذلك إلى بولونيا وفلورنسة ورومه ، بل حتى إلى صقلية . وفى رومه أقام مع الكاردينال جيد وبنيتوفوليو ، وكافأه بصورة شخصية (٦٨) وكره الفنانون العلمنكيون الذين كانوا يتضورون جوعا فى إيطاليا ، من فانديك كما استه ، وإن شئت تملقه وتودده ، فنعتوه بأنه « مصور الفرسان » ، وأتوا بأعمال قيحة ، إلى حد أنه رحل مسرورا بصحبة ليدى أرونديل إلى تورين . وكان الترحيب به كبيرا بصفة خاصة فى جنوة التى تذكرت روبنز ، وكانت قد سمعت بميل فانديك إلى تمجيد النبلاء ، حتى ليجعل من كل جالس أمامه أميرا . وفى متحف متروبوليتان للفن فى نيويورك نموذج لهؤلاء الاستقراطيين الجنوبيين : « المركيزة دورازو » : وجه حساس ويدان رشيقتان ناعمتان (كما هو الحال دائما فى رسوم فانديك) ، كما يحتفظ المتحف الوطنى فى واشنطن بلوحتى « المركيزة بالي » ، و « المركيزة جريما لى » - وهى مزهوة حبل . وفى برلين ولندن نماذج أخرى . واستطاعت جنوه أن

تحتفظ في قصر روضو فيها بلوحة « المركيز والمركيزة » بريولى صالحى د وعاد فاندريك إلى أنتورب (١٦٢٨) ، وقد امتلأت جيوبه وانتفخت أوداجه وتأنق في مظهره .

وصرفه مسقط رأسه عن النبلاء إلى القديسين ، وحتى يهيء نفسه لهؤلاء قدم على ما اقترب من فحشاء ، وأوصى بثروته الصغيرة لأختين من الراهبات ، وانضم إلى « الرابطة الهزوية لغير المتزوجين » ، وتحول إلى الموضوعات الدينية . ولم يستطع أن ينافس روبنز في هذا المضمار ، ولكنه تجنبه بالغات الأستاذ الغزير الإنتاج وتآلقه الشهوانى ، وأضفى على رسومه هو لمسات من الأناقة التي تعلمها في إيطاليا . وذهب رينولدز إلى أن لوحة فاندريك « صلب المسيح » في كاتدرائية مكايين واحدة من أعظم الصور في العالم ، وعلى أية حال ربما كانت هذه هي طريقة سيرجوشوا في الوفاء بالدين .

وجرب فاندريك بده في صور الأساطير . وعلى الرغم من أنه لاحق نساء كثيرات فإنه لم يقبل على رسم الصور العارية ولم يبرع فيه . وكان موطن قوته وامتيازها في الصور الشخصية . وفي هذه السنوات الأربع في أنتورب أقدم من زوايا النسيان ، بما رسم من لوحات « البارون فيليب لروى والسكلب الأمين (٦٩) » ، و « الجنرال فرانسيسكو دي مونكادا وجواده (٧٠) » ، و « التكونت رودوكافاكس (٧١) » الذي بدا كأنه سوينبرن ، و « جان منتغورت » ، الذي بدا مثل فولستاف (إحدى شخصيات شكسبير) ، وأروع رسوم فاندريك في فيينا هي صورة « روبرت الشاب أمير البلاطين القاتن » ، الذي سرعان ما خاض غمار الحرب دفاعاً عن شارل الأول في إنجلترا . ومن الرسوم القاتنة كذلك صورة « ماريا لوبزا أوف تأسيس (٧٣) » ، غارقة في ثيابها الفضفاضة المصنوعة من الأطلس الأسود والحريز الأبيض . ولا يقل روعة عن هذه الرسوم كلها لوحة فاندريك لبيتر « الجحيم » ، بروجل (الأصغر) ، وهو رجل عجوز لا يزال يضطرم قلبه بهيوية لم ينضب معينها في أسرة تثير الدهشة .

وأخذ فانديك بعض هذه الصور إلى إنجلترا حين دعاه شارل الأول إليها ليجرب حفظه فيها ثانية . وكان شارل - على عكس أبيه - ذواقه للفن . وظن أن هذا الفلمنكى الوسيم هو الرجل الذى يستطيع أن يصنع له ما كان يصنع فلاسكويز الأسبانى للملك فيليب الرابع . وذهب فانديك وسجل للأجيال القادمة صور الملك والملاسة هنريتا ماريا وأطفالهما ، وهى صور برزت فيها روعة فن فانديك بشكل لا يمحى أثره . وأشهر هذه اللوحات الملكية الخمس ، هى اللوحة الموجودة فى متحف اللوفر - وهى تمثل الملك المزهو العاجز مرتديا زى الفروسية ، واضعاً يده على خصره ، شاهراً سيفه ، وعلى رأسه قبعة أنيقة ، بالإضافة إلى لحية فانديك ، ولكن الجواد المنهوك الذى يقضم شكيمته أثناء فترات الصيد ، قد يشغف به الناظر إلى الصورة قبل أن يشغف براكبته . وتوجد فى درسدن وتورين لوحات تبارى هذه ، وهى تمثل أبناء شارل ، وهم بعد أبرياء ولا يخشى منهم أذى . وكان شارل أكثر إنسانية فى مخبره منه فى مظهره . وبرزت حرارة العاطفة عنده فى تعلقه بفانديك وإعزازه له فقد ضمه إلى طبقة الفرسان ، ووهبه دوراً فخمة فى لندن وفى الريف ومنحه معاشاً سنوياً قدره مائتا جنيه ، ومبالغاً إضافياً عن كل رسم ، وعن كل زيارة للبلاط .

وعاشر الفنان السعيد حياة تتفق مع دخله ، فأولع بالثياب الأنيقة ، وكانت له عربته التى تجرها أربعة من الخيل ، وجياده الأصيلة وخليلاته ، وملا بيوته بالموسيقى والفن . وبز توجهات روبنز فى تفويض غيره فى العمل - فترك رسم الملابس لمساعديه ، وأنجز صورة شخصية فى ساعة واحدة من رسم تخطيطى تم فى جلسة واحدة وكان يسارع إلى اغتنام الفرص قبل فوات الأوان ويروى أن شارل الأول ، حين كان يعانى من تقشير البرلمان عليه ، سأل الفنان المبذر مرة : هل تعرف ماذا يقصد بقولهم أن الإنسان يعوزه المال فأجاب فانديك ، نعم يا مولاي ، إذا مد المرء مائدة مفتوحة لأصدقائه ، وأغدق من كيس مفتوح على خليلاته ، فسرعان ما يصل المرء إلى قاع الكيس ليجمده فارغاً (٧٤) .

وإذا كان فانديك قد غرق في الديون أحيانا ، فإن ذلك لم يكن لافتقاره إلى النصرء والمحبين ورعاة فنه . فقد انتظر الارستقراطيون الإنجليز دورهم في الحصول على موافقته : مثل جيمس ستيوارت ، ودوق لينوكس (٧٥) ، الوصيم مثل كلبه ، وروبرت رتشي أرل ودروك (٧٦) ، ولورد دريتي وأسرته (٧٧) وتوماس وتورت أرل سترافورد (٧٨) الذي تحدى القدر . كذلك جاء دور الشعراء من كارو ، وكليجرو ، وسكلنج . وأخير اءاء دور أولدبار (٧٩) الذي زعم أنه بلغ من العمر مائة وخمسين عاما ، وكان يبدو عليه ذلك . اتعد رسم فانديك ٣٠٠ صورة شخصية في إنجلترا ، تميزت كلها تقريبا بالكياسة والوقار اللذين رأهما في أحد اللوردات ، حتى ولو لم يوجد شيء منهما .

وتبارت خليلته مرجريت ليمون مع الارستقراطية في توفير الخدمات له بما كلفه غالبا . واقترح الملك أن الزواج أيسر تكلفة ، وعاونه (١٦٣٩) في طلب يد ليدى ماري روثفن وهي سائلة أسرة مشهورة في تاريخ اسكتلنده ورسم الفنان لعروسه صورة جميلة (٨٠) ولكنها لا تقارن بالوجه الجميل الذي رسمه لنفسه في الصورة الشخصية للفنان (٨١) التي يعرفها العالم كله - شعر غزير متموج ، وعينان حادتان ، ونقاطيع دقيقة ، ولحية مقصوصة ، وسلسلة ذهبية تنهى بأنه فارس . هل كان فانديك يتملق سير أنطوني (نفسه) إذا كان الأمر كذلك ، فليس ثمة جدوى ، لأن صحته التي أسرف في استنزائها ، بدأت الآن تتدهور ، وكره فانديك أن يذكر بمجرد رسم الصور الشخصية فحسب ، فطلب إلى شارل أن يسمح له برسم مناظر تاريخية على جدران قاعة الولاثم في قصر هويتول ، ولكن الملك كان يعانى العوز . فعبر فانديك البحر إلى باريس (١٦٤٠) أملا في تكليفه بتصوير القاعة الكبرى في اللوفر ، وكان لويس الثالث عشر قد اختار بالفعل بوسان لهذه المهمة ، ولكنه تخلى عنها بعد فوات الأوان ، فقد مرض فانديك فأسرع إلى لندن حيث كانت تقيم زوجته وفاضت روحه (١٦٤١) ، بعد أحد عشر يوما من مولد ابنته ، ولم يكن قد بلغ بعد الثانية والأربعين .

لم يؤسس فانديك مدرسة ، ولم يترك بصمات على الفن في القارة ، ولكن أثره في إنجلترا كان بالغا . فإن الرسامين المحليين مثل وليم دويسون ، وروبرت ووكر ، وصمويل كوبر ، أسرعوا في تقليد أسلوبه المتملق الذي يدر ربحا . وعندما سادت موجة عارمة من الصور الشخصية بظهور رينولدز وجينزبرو فإن تراث فانديك كان مصدر كل تعليم وثقيف وإثارة . ولم تسكن الصور الشخصية التي رسمها فانديك عميقة . لقد كان متعجلا إلى درجة لم تنح له البحت عن الروح . وتوقف في بعض الأحيان عند الوجه أو اللحية . إن الفرسان الذين أحاطوا بالملك شارل الأول اشتهروا بسلوكهم الحميد ، وما كان متوقعا أن يبدو كثير منهم وكأنهم شعراء ، وكان من المنتظر أن تصل إلينا ، من خلال عيني فانديك وفرشاته بعض أخيلة البطولة التي نجدها في وقفاتهم إلى جانب مليسكهم . وليس من العدل أن نتوقع من هذا الشاب المزيحل المحظوظ حيوية روبنز العارمة ، أو عمق رويرانت المؤثر . ولكننا سنبقى على اعتزازنا بهذه الصور الشخصية الجنوسية والفلسفكية والإنجليزية ، على أنها معالم دقيقة ثمينة ، متألفة في تراثنا .

ه - الاقتصاد الهولندي

أية قفزة تلك التي تنقلنا من اللوردات الإنجليز الذين يفوح منهم شذا العطر إلى مواطني هارلم ولاهاي وأمستردام الإجلال الأفوياء : هناك عالم فريد خلف السدود ، عالم ماء أكثر منه عالم أرض ، عالم سفن ومغامرات تجارية أكثر منه عالم قصور وبلاط وفروسية . ولا يكاد يوجد في تاريخ الاقتصاد شيء أشد إزعاجا من ظهور الهولنديين باعتبارهم قوة دولية ، أو في تاريخ الثقافة شيء يبعث على الرضا والارتياح أكثر من تحول هذه الثروة إلى فن .

وفي ١٦٠٠ بلغ عدد سكان المقاطعات المتحدة نحو ثلاثة ملايين نسمة ، كان نصفهم فقط يفلج الأرض ، وفي ١٥٢٣ أقام نصفهم في المدن ، وصار كثير

من الأرض ملكا ملاك من سكان المدن الذين آمنوا بأن أرباحهم للتجارية يمكن أن تزال رائجتها السكرية باستثمارها في الأرض . وحتى في مجال الزراعة أحرز النشاط والبراعة الهولنديان قصب السبق على أوروبا ، وكانت السودان والخزانات الجديدة تستصلح دوما الأرض من البحر ، وأخصبت القنوات المزارع وأنعمت التجارة ، وقامت فلاحة البساتين جنبا إلى جنب ، مع تربية الماشية ، وكلتاها على نطاق واسع ، لتكمل كل منهما الأخرى . وفي آخريات القرن السادس عشر بلغ المهندسون الهولنديون بطاحونة الهواء ذروة الإتقان مثلما فعل الرسامون الهولنديون بالفن . وكان نصف الصناعة لا يزال يدويا اللهم إلا في التعدين ومعالجة المعادن ونسج الأقمشة وتكرير السكر وصنع الجمرة ، فإن هذه الصناعات كانت تتقدم على نطاق أكبر وأكثر ربحا وأقل لإسعاداً للناس ، وأبحر في كل عام من الثغور الهولندية ١٥٠٠ سفينة ذات صاريين لصيد السردين وكان بناء السفن من الصناعات الكبيرة . وفي أثناء الهدنة مع أسبانيا (١٦٠٩ - ١٦٢١) أرسلت الأراضي الوطية ١٦ ألف سفينة حاملة كل منها ٥٧ طنا في المتوسط ، علمها من الملاحين نحو ١٦٠ ألفا - أكثر من انجلترا وأسبانيا وفرنسا مجتمعة (٨٢) .

وتلف الرابطة الهولنديون على المنافذ التجارية والمواد الخام فارتادوا البحار المجهولة . وفي ١٥٨٤ وطد التجار الهولنديون أنفسهم في أركنجل ، وتقدموا برغم الثلوج المتجمدة في محاولة عقيمة للعثور على طريق شمالي شرقي ، إلى الصين ، ومن ثم يفوزون بجائزة قدرها ٢٥ ألف فلورين قدمتها الحكومة الهولندية . وإن الأسماء الهولندية في الخرائط الحديثة لأرخييل سبتسبرجن (في الزويج) لتعيده إلى الكرة رحلاته ولإيم بارنت الذي فقد حياته في الشتاء على ثلوج جزر فوفايا زيليا (١٦٩٧) . وفي ١٥٩٣ أبحر الهولنديون المغامرون صبر أنهار غانة (ساحل الذهب) في أفريقية ، وعقدوا أواصر للصدقة مع المواطنين هناك ، وبدأوا معهم تجارة واسعة نشطة .

وحتى ١٥٩١ كان التجار الهولنديون يشترون المنتجات الشرقية من أرصفة لشبونة ليعيدوا بيعها في أوروبا الشمالية . ولكن فيليب الثاني غزا البرتغال في ذلك العام فحرم الاتجار مع الهولنديين ، ومن ثم عقدوا العزم على أن يقوموا هم أنفسهم برحلاتهم إلى الهند والشرق الأقصى . وكان اليهود اللاجئون من أسبانيا والبرتغال أو ذرايرهم على علم تام بمراكز تجارة البرتغال في الشرق ، فاتفق الهولنديون بعلمهم (٨٣) . وعبر التجار الهولنديون ، حتى أثناء الحرب مع أسبانيا مضائق جبل طارق ، وسرعان ما اتجروا مع إيطاليا ، ثم مع العرب ، متجاهلين الفوارق الدينية في أصرار وثبات . وشقوا طريقهم إلى القسطنطينية ، وعقدوا معاهدة مع السلطان ، وباعوا بضاعتهم إلى الأتراك وإلى أعدائهم الفرس ، على حد سواء ، ثم ساروا إلى الهند . وفي ١٥٩٥ قاد كورنيلس دي هوتمان حملة حول رأس الرجاء الصالح ومدغشقر إلى جزر الهند الشرقية . وفي ١٦٠٢ قامت خمس وستون سفينة هولندية برحلة العودة إلى الهند . وفي ١٦٠١ أسست شركة الهند الشرقية الهولندية برأس مال قدره ستة ملايين وستمائة ألف فلورين - خمسة أمثال رأس مال الشركة الإنجليزية التي أسست قبلها بثلاثة شهور (٨٤) . وفي ١٦١٠ بدأ التجار الهولنديون التجارة مع اليابان ، وفي ١٦١٣ مع سيام ، وفي ١٦١٥ سيطروا على جزر ملقا ، وفي ١٦٢٣ على فرموزا . أنهم في جيل واحد فتحوا أمبراطورية من الجزر حكومتها من عاصمة جاوة : جاكرتا التي سموها باتافيا . وفي هذه الحقبة أدت الشركة لحملة الأسهم ربحا سنويا قدره ٢٢٪ وكان الفلفل يستورد من جزر البهار ، ويباع في أوروبا بمشرة أمثال الثمن الذي يدفع للمنتجين المحليين (٨٥) .

وحسب الهولنديون أن الأرض ملك خاص لهم . فاسلوا سفنا للبحث عن طريق شمالي غربي إلى الصين . وفي ١٦٠٩ استأجروا رباتا انجليزية هو هنري هدمن ، ليرتاد نهر هدمن . وبعد ذلك باثني عشر عاما كونوا شركة الهند الغربية الهولندية . وفي ١٦٢٣ أسسوا مستعمرة الإراضى الوطنية الجديدة

وكانت تضم الولايات الحالية : كنسكتيك ونيويورك ونيوجرسي وبنسلفانيا ودلاوير . وفي ١٦٣٦ اشترى من الهنود د أمستردام الجديدة ، (منهاتان) مقابل بعض الحلى الصغيرة التي قدرت قيمتها بأربعة وعشرون دولارا . وكانوا جادين في تطهير وتطوير هذه الأراضى ، واسكن كل ممتلكاتهم في أمريكا الشمالية وقعت غنيمة في أيدى الإنجليز (١٦٦٤) نتيجة للحرب ، وكذلك وقعت ممتلكاتهم في أمريكا الجنوبية في أيدي الأسبان والبرتغال ، ولم يتبق لهم إلا سورينام ، تحت اسم غيانا الهولندية .

وعلى الرغم من هذه الخسائر أسهمت الإمبراطورية الهولندية مع تجارة هولندا في أوروبا في تهيئة دعامة هائلة للسلطان السياسى للتجار الهولنديين ، ودورهم الفخمة ورعايتهم للفنون . وطوال النصف الأول من القرن السابع عشر عقد للمقاطعات المتحدة لواء الزعامة التجارية على كل أوروبا ، وكانت ثروة الفرد فيها أكبر من مثيلتها في سائر بلاد العالم . وقد انزعج رالى من تفوق الهولنديين على الإنجليز من حيث مستوى المعيشة والأعمال والمشروعات^(٨٦) وقال أحد سفراء فينيسيا (١٦١٨) أن كل هولندى عاش في رخاء ، ولكن يحتمل أنه لم يكن يعرف إلا القليل عن الطبقات الدنيا ، التي أدرك رمبرانت ققرها إدراكا تاما . أن أصحاب الملايين كثروا في هولنده ، وقد جمع بعضهم ثروته من بيع النفايات والبضائع الرديئة إلى الجيش والأسطول الهولنديين اللذين يدافعان عن هولنده^(٨٧) ، ومثل هؤلاء كالخو جاهدين للحيولة دون إقرار السلام^(٨٨) .

وتركزت معظم الروة الهولندية في مقاطعة هولنده التي كانت تجارتها في المياه المجاورة أضعاف تجارة سائر المقاطعات الشمالية . وكان ثمة برجوازية مزدهرة في عدة مدن في مقاطعة هولنده - روتردام ، لاهاى ، هارلم ، أوترخت - ولكن أيا منها لم يجرؤ على مباراة أمستردام . وأن نمو عدد سكانها ليحكى قصتها ، فقد كان ٧٥ ألفا في ١٥٠٠ ، وقفز إلى ٣٠٠ ألف في ١٦٢٠ ، وهرع

لأيها التجار والصناع المهرة وأصحاب المصارف أفواجا من أتتورب التي دمرتها الحرب . وبعد ١٥٧٦ نقل يهود أتتورب إلى أمستردام أنشطتهم المالية وتجارتهم وصناعة الخليء ولا يزال صياغ الماس في هذه المدينة يتزعمون هذه الصناعة في العالم . وأباح حكام المدينة للتجار قدراً كبيراً من الحرية الدينية لأن هذه هي الوسيلة الوحيدة لتشجيع التجارة مع الشعوب ذوات المذاهب المتباينة ، وكان بنك أمستردام الذي أسس ١٦٠٩ ، أقوى مؤسسة مالية في أوروبا في ذلك العصر . وكانت العملة الهولندية مطلوبة وموضع ثقة في كل الأنحاء .

٦- الحياة والأدب في هولنده

اتهم الهولنديين منافسوم بروح تجارية مسرفة وبحمى جمع المال ، وبطباع جافة خشنة ، ترتبط أحياناً بالانهماك في الحياة الاقتصادية ، ويسلم المؤرخون الهولنديون بهذه المزاعم عن طيب خاطر (٨٩) . ومع ذلك فهل نستطيع أن نقول عن ثقافة بأنها تجارية ، مع أنها أولعت ولعا كبيراً بالنظافة والزنبق (التوليب) والموسيقى والفن ، وشيدت مدرسة في كل قرية ومحت الأمية ، وخلقت جواً فكرياً مكهرباً بالجدل والأفكار ، وأباحت حرية الفكر والكلام والصحافة ، حتى أن هولنده سرعان ما أصبحت ملجأ عالمياً للعقول الثائرة ؟ المتمردة وقال ديكارت :

ليس ثمة بلد غير هذا البلد ، فيه الحرية أكمل . والأمن أعظم ، والجريمة أندر ، وبساطة العادات القديمة أروع (٩٠) ، . وفي ١٦٦٠ كتب فرنسي آخر : ليس في العالم مقاطعه تنعم بمثل هذا القدر من الحرية مثل ماتنعم هولنده وفي اللحظة التي يأتي فيها أي سيد إلى هذا البلد بأي أرقاء أو عبيد ، فإنهم يصبحون أحراراً ، ويستطيع أي فرد أن يغادر البلد متى شاء . ويأخذ معه من الأموال ما يشاء . والطرق آمنة ليل نهار ، حتى لو سار الإنسان بمفرده . ولا يباح للسيد أن يحتفظ بخادم دون إرادته . ولا يضار إنسان بسبب دينه . وكل إنسان حر في أن يتفوه بما يشاء حتى عن الحكام (٩١) .

وكان أساس هذه الحرية هو النظام . ويعكس صفاء الذهن في أناقة المنزل وحسن ترتيبه . وتميز الرجال بالشجاعة والجد والعناد ، كما تميزت النساء بالاجتهاد والبراعة الفائقة في الأعمال المنزلية . ويتسم الجنسان كلاهما بهدوء الطبع وروح المرح . واعتزل كثير من رجال الأعمال الهولنديين العمل بعد جمع ثروة معقولة ، وانصرفوا إلى السياسة والأدب والجوانف* والموسيقى والهناء المنزلية . وكتب لودوفيكو جوتيشياردينى د إن الهولنديين يفزعون من الزنى ، وأن نساءهم على أكبر قدر من الحرص والحذر ، ومن ثم ممنون قسطا كبيرا من الحرية ، فيخرجن وحدهن للقيام بالزيارات بل والرحلات ، دون أن يأتين بما يחדش سمعتهن . . . إنهن مديرات المنازل ، وإنهن يجبن بيوتهن^(٩٣) . وكان ثمة نساء كثيرات ذوات ثقافة رفيعة ، مثل ماريا شورمان ، منيرفا هوانده (ربة الحكمة والمهارة الفنية والاختراع عند الرومان) التي قرأت إحدى عشرة لغة ، وتحدثت وكتبت بسبع لغات ، ومارست الرسم والنحت جيدا ، وبرعت في الرياضيات والفلسفة . ونظمت مارياتسليشيد شعرا جميلا في مثل جمال شخصها . وترجمت قصيدة تاسو تحوير أورشليم ، ترجمة فالت ثناء العالم ، ورسمت ونحتت وحفرت ، وعزفت على القيثارة . وغنت فأطربت إلى حد أن ستة من الأعيان من بينهم قسطنطين هوجنز ، وجوست فان دن فوندل ، وجرير اندبريديرو ، كانوا يركعون تحت قدمها متوسلين إليها أن تغنى لهم . وتزوجت قبطانا بحريا ، وأصبحت ربة بيت وأما مخلصه وفيه . وتركت وراءها ذكريات لا زالت عزيزة لدى الهولنديين ، عن الذكاء والمآثر والنبيل^(٩٤) .

وكان حب الموسيقى أوسع انتشارا من تقدير الفن . إن جاك بيترزون سويلنك أحد أبناء أمستردام ، وأعظم عازف هولندي على الارغن هو الذى علم هنريج تسيديمان ، الذى علم بدوره جوهان آدم رينكن . وهذا الأخير هو الذى درس على يديه جوهان سبستيان باخ . ومع كل هذا التفوق والامتيان

(*) وبما كانت هذه للعبة من أصل هولندي ، وانتقلت إلى اسكتلندا في القرن الخامس عشر^(٩١)

دب في التجارة الهولندية بعض الفساد ، والإدمان على الخمر ، والبغاء ، والإقبال على الميسر بجميع أشكاله^(٩٥) إلى حد المضاربة بأسعار الزنبق المستقبلية^(٩٦) . وكانت هارلم مركز زراعة الزنبق . وكانت الأبخال تستورد من إيطاليا وجنوب ألمانيا ، حوالي نهاية القرن الخامس عشر ، كذلك انتشرت الزهرة في باريس وصارت بدهة محببة ورمزا للامتياز والسمو . حتى أنه في ١٦٢٣ رفض أحد الهواة اثني عشر ألف فرنك (٣٠ ألف دولار) ثمنا لاثني عشرة بصلة من الزنبق^(٩٧) . وفي ١٦٣٦ صار كل السكان تقريبا يضاربون في أزهار الزنبق وقامت أسواق خاصة يمكن لأي إنسان أن يشتري أو يبيع فيها محاصيل الزنبق الحاضرة أو المستقبلية وكان للتوليب د انهياره ، المالي ١٦٣٧ ، ففى تلك السنة بيعت نحو ١٢٠ زهرة توليب ثمينة في مزاد علني لمصلحة أحد ملاجيء الأيتام بمبلغ ٩٠ ألف فلورين .

وللى هذا الجو البهيج جاء اللاجئون من فلاندرز وفرنسا والبرتغال وأسبانيا والتجار الأجانب من نصف أمريكا المعمورة بتشكيلة مئيرة من الأساليب الغربية الدخيلة ، وضمت جامعات ليدن وفرانكر وهاردريك وأوترخت وجروننجن مشاهير علماء العالم ، وأنجبت بدورها آخرين . فكان جوستوس لبيوسى وجوزيف سكاليجر ودانبل هنسيوسى وجيرار فوسيوسى يعملون جميعا في ليدن في النصف الأول من القرن من بداية افتتاحها (١٥٧٥ - ١٦٢٥) وما جاءت سنة ١٦٤٠ حتى كانت ليدن أشهر مركز للعلم والدرس في أوروبا . وكانت نسبة معرفة القراءة والكتابة بين جمهور سكان المقاطعات المتحدة أعلى منها في أى مكان آخر في العالم . وكانت الصحافة الهولندية أول صحافة حرة . وكانت صحيفة « الأخبار ، الأسبوعية في ليدن ، وصحيفة «الجازيت ، في أمستردام تقرأ في سائر أنحاء أوروبا الغربية ، لأنهما كانتا تتحدثان في حرية تامة ، على حين كانت الصحافة في تلك الأيام في أية بقعة أخرى خاضعة لسيطرة الحكومة ورقابتها . وكانت الدمشة تتولى أى ملك فرنسى يطلب كبح جماح أى صحفى هولندى أو وقفه عند حده ، إذا علم أن هذا مطلب مستحيل تنفيذه^(٩٨) وكان رجال الأدب في هولندة كثيرين ، ولكن كان من سوء حظهم

أنهم كتبوا باللاتينية التي كانت في طريقها إلى الفناء ، أو بالهولندية التي ضيقت فضايق قرائهم . فإن الهولنديين لم يتسن لهم أن يجعلوا من لغتهم ، على غرار بحريتهم واسطه مشتركة لنقل الأدب والفكر . واعتقد ديرك كورنهرت وهيدريك سنيجل أن اللغة الوطنية المفعمه بالحويه أداة لنقل الفكر والادب ، وكافحا لتتقيتها من الإضافات الغريبه الدخيلة غير المتجانسه وغير الملائمة — وكان كورنهرت — وهو فنان ، وكاتب ، ورجل دولة وسياسه ، وفيلسوف — أول وأقوى شخصيه في التفتح الثقافي الذي توج الثورة السياسيّه . وبوضفه أميناً عاماً للديته صاغ بيان ١٥٦٦ لوليم أورانج ، فأودع السجن في لاهاي ، ثم هرب إلى كليفز وكسب قوته من مهارته في الحفر غلى الخشب والمعادن ، وترجم الاوديسيّه وأعمال بوكاشيو وشيشرون والعهد الجديد (الانجيل) . ولما عاد إلى هولنده كافح في سبيل نشر التسامح الديني ، ورمز إلى التاريخ الفكري في القرن التالي — السابع عشر — حين تخلى عن عقيدته التي رأى أنها قد تشوهت وتلوّثت بالصراعات الداميه إلى حد كبير . وأصبح د لا أوريا ، معترفاً بأن الإنسان لم يستطيع أن يعرف الحقيقة^(٩٩) ، وعرض في كتابه الاساسي د فن الحياه الطيبه ، مسيحيه بغير لاهوت ، أي منهجا أخلاقيا مستقلا عن المذاهب الدينيه . وتتيجه اشياء من الاغضاء أتيح له أن يموت ميتة طبيعيه (١٥٩٠) . وتميزت هولنده بأن رجال الاعمال فيها كثيرا ما خلطوا بين الادب وبين شئونهم الماديه ، من ذلك أن رومرفسكرك . وهو تاجر ثرى في أمستردام ، ساعد صغار الكتاب وأكرم وفادتهم ، وجعل من بيته منتدى (صالونا) يبارى منتديات فرنسا ، ونظم هو نفسه شعرا أ كسبه لقب «الهولندي الشجاع» أما بيتر هوفت فقد جعل من قصره في بيدون على الزينرزي ملاذا لعصر النهضه في هولنده ، فاستقبل بالترحاب في د حلقه ميودين ، الشعراء ورجال العلم والديبلوماسيين والقواد والأطباء . وفي العشرين سنه الاخيره من حياته ، كتب هو نفسه د تاريخ الأراضى الوطيئه ، روى فيه قصة ثورة الأراضى في نثر قوى رائع ، جعل هولنده تكرمه وتحتفل به وكأنه يمثل المؤرخ الروماني « تامبستس » ، في هولنده .

ومن بين مائة شاعر في هولنده سما ثلاثة باللغة العامية إلى ذروتها الأدبية. منهم جاكوب كاتس المتقاعد الكبير لمدة اثنين وعشرين عاما، الذي بسط حكمة الأمثال السائرة في شعر شعبي متبل بالحكايات الطريفة المفعمة بالحياة، حتى ظلت كتابات « الأب كاتس »، لعدة قرون، من مقتنيات كل بيت يعرف أهله القراءة والكتابة في هولنده، أما جوست فان دن فوندل فقد تغلب على كل المحن وكل الأعداء، حتى تبوأ مكانة عالية في الأدب الهولندي. وكان أبوه صانع قبعات نفي من أنتورب بسبب آرائه المؤيدة لمذهب تجديد العباد. وولد جوست في كولون. وفي ١٥٩٧ استقر بالأسرة المقام في أمستردام، وافتتح والده، الذي تقلب من مذهب إلى مذهب، محلا لصناعة الجوارب، وورث جوست عمل أبيه ولما كنه ترك إدارته لزوجته وابنه، على حين عمل هو على تعويض ما فاتته من التعليم الرسمي بدراسة اللاتينية والإيطالية والفرنسية والألمانية، وكتب رواياته الثمان والعشرين وفق نماذج أغريقية وفرنسية، وحرص فيها على انماح نظام الوحدات بدقة. وسخر من فكرة الجبرية أو القضاء والقدر ومن الجدل بين الشيع البروتستانتية. وافتن بجمال الشعائر الكاثوليكية، وبماريا تسالكاد التي كانت كاثوليكية وجميلة معا. وبعد موت زوجها (١٦٢٤) وموت زوجته هو (١٦٣٥) توثقت أو اصر الصداقة بينهما: وفي ١٦٤٠ اعتنق المذهب الكاثوليكي. واستمر ينتقد بشدة الأحقاد الدينية والمخادعات والحيل الاقتصادية والفساد السياسي، وكسب قلوب الهولنديين بالتغنى بشجاعة الأراض الوطيئة ومجدها. وفي ١٦٥٧ أفلست صناعة الجوارب التي أساء ابنه إدارتها، وهرب الإبن إلى جزر الهند الشرقية، وباع الشاعر كل ممتلكاته المتواضعة ليرضى دائنيه، وظل لعشر سنين يكسب قوت يومه من العمل بوظيفة كاتب لدى مقرض نقود، وأخيراً أجزت عليه حكومته معاشا، وقضى في هدوء الثلاثة عشر عاما الأخير من عمره الذي بلغ اثنين وتسعين عاما.

أما أعظم الشخصيات جاذبية في أدب الأراض الوطيئة في هذا العصر،

فهو قسطنطين هيوجنس ، وهو هولندي جمع بين كل مظاهر وجوانب النهضة في إيطاليا . وكان أبوه كريستيان جنس سكرتير مجلس الدولة في لاهاي أما ابنه كريستيان فمكان أعظم رجال العلم في القارة على عهد نيوتن ، وبين الوالد والولد حافظ قسطنطين على ما اشتهرت به الأسرة من قدرات ومواهب ولد قسطنطين في لاهاي في ١٥٩٦ . وُلِقي فيها وفي ليندن وأكسفورد وكمبرج قسطا وإفرا من التعليم ، وكتب الشعر باللاتينية والهولندية ، وبرع في الألعاب الرياضية ، وأصبح موسيقيا وفنانا عظيما . وفي سن الثانية والعشرين التحق ببعثة دبلوماسية إلى إنجلترا ، وعزف على العود أمام جيمس الأول ، وأحب جون دون الذي ترجم فيها بعد قصائده إلى الهولندية . وفي سن الثالثة والعشرين أرسل في بعثة دبلوماسية إلى البندقية ، ولدى عودته كاد يفقد حياته عندما كان يرقى قسمة برج الكماندراثة في ستراسبورج . وأصبح في ١٦٢٥ سكرتيرا لطاقفة من الحكام على التعاقب . وفي ١٦٣٠ عين في المجلس المخصوص . وفي نفس الوقت أصدر عدة دواوين من الشعر تميزت بجزالة الأسلوب ورقة الشعور . وآذن موته في سن التسعين (١٦٨٧) بانتهاء أزهى عصور الأراضي الوطيئة .

٧ - الفنون الهولندية

أحس الهولنديون البروتستانت بأن عمارة كنييسة العصور الوسطى وزخارفها كانت أشكالا تغذي النفوس بما يؤيد الأساطير ويدعمها ، وتبسط الفكر وتعوقه ، ومن ثم عقدوا العزم على أن يعبدوا الله بالصلوات والعظات . لا بالفن ، ولم يحتفظوا في طقوسهم إلا بفن الانشاد . ولذلك كانت هندسة بناء الكنائس عندهم تكاد لا تهدف إلا إلى البساطة الصارمة المطلقة . بل إن الكاثوليك أنفسهم لم يشيدوا في المقاطعات المتحدة كنائس جديدة بالذکر وفي القرن السادس عشر جلب تجار ما وراء البحار ، ربما من سوريا أو من

مصر ، فكرة القباب البصلية الشكل . وانتشر هذا الطراز من هولنده وروسيا إلى ألمانيا ، وأصبح أحد معالم عصر الباروك في أوروبا الوسطى .

إن رجال الأعمال ، لرجال الدين ، هم الذين سيطروا على هندسة البناء . وعمدوا أول ما عمدوا إلى تشييد مساكن راسخة البناء لأنفسهم — تكاد تكون كلها متشابهة ، لا تبعث على الخوف مثل قصور فلورنسه ، ولا تثير الحقد والحسد ، لأن كل مظاهر البذخ والترف والفن كانت داخل جدران البيت ، وفي حدائق الزهور التي عنوا بها أكبر عناية . أما المئذنتان المدنية فقد أباحا فيها بعض الزخرف والأبهة . ففي دار البلدية التي شادها ليفن دي كى لمدينة أنتورب ، جمع في انسجام تام بين عناصر من فرنسا ومن ألمانيا ومن عصر النهضة ، ودار نقابة القصابين في هارلم ، التي شادها ليفن نفسه ، تضارع في فخامتها وأبهتها أية كاتدرائية قوطية . وتظهر دار البلدية في هارلم كيف أن هولنده طوحت الطراز الكلاسيكي (القديم) تماما حتى بات يتمشى مع أهدافها ونزعاتها .

وكان ميكلانجولو هولنده في العمارة والنحت في ذلك العصر هو هندريك دي كيزر الذي أصبح وهو في سن التاسعة والعشرين المهندس المعماري لمدينة أمستردام (١٤٩٤) ، وهناك صمم الكنييسة الغربية وسوق المال ومبنى شركة الهندسة الشرقية في طراز يجمع بين طرز إيطاليا وهولنده وعصر النهضة . وفي دلفت بنى دار البلدية والنصب التذكارى لوليم الأول ، وفي ١٦٢٧ في روتردام ، صب من البرونز تحفته الرائعة . ألا وهي تمثال أرزم الرانع الذي قبع ساكنا لم يمس بأذى لعدة سنوات بين أنقاض الحرب العالمية الثانية . ودمر بعض من أجمل المئذنتان الهولندية التي يرجع تاريخها إلى تلك الحقبة نتيجة الاخفاق في إدارة شؤون الدولة .

وتألفت صناعة الخزف بين الفنون الصغيرة . وفي روتردام ودلفت سما الذوق الرفيع بصناعة القرميد حتى جعل منها فنا . وأقبل الناس على

استخدام خزف دلفت المزخرف في كل بيت في الأراضي الوطيفة تقريبا .
وحوالى ١٦١٠ ، فور افتتاح التجارة الهولندية مع الشرق ، بدأخزافو دلفت
في تقليد الخزف الصينى ، وأنتجوا نوعا من السيوليق (خزف مزخرف مطلى
بالمينا) الرقيق الأزرق أسموه د البورسلين الهولندى^(١٠٠) ، وسرعان ما عرض
تصف أوروبا الغربية خزف دلفت على الجدران أو على الأرفف .

أما أعظم الفنون جميعا في الأراضي الوطيفة فكان الرسم . وليس في
التاريخ المعروف لدينا بلد غير هذه البلاد - ولا نستثنى من ذلك إيطاليا النهضة -
حظى فيه أى فن يمثل هذه الشعبية العارمة . وتضم فهارس الفن فيما بين عامى
١٥٨٠ - ١٧٠٠ خمسة عشر ألف رسم هولندى^(١٠١) ، وتأثر الفن الفلمنكى تأثرا
شديدا بالفن الإيطالى ، ولكن في المقاطعات الشمالية أثار المقاومة الموقفة
لسلطان أسبانيا روحا قومية وكبرياء قومية . لم تكونا تحتاحان إلا إلى الثروة
المستعمدة من التجارة فيما وراء البحار ، لتحدثنا انفجارا ثقافيا . فتحولوا بالفن
إلى معارج جديدة من التطويح لحياتهم ومن الواقعية بعد أن كاهت تنقلص عنه
تماما الرعاية الكنسية والأرستقراطية ، وأصبح رعاة الفن وحماته الجدد هم
التجار وعمد المدن والمحامون والمؤسسات والنقابات والكوميونات
والمستشفيات ، بل حتى المنشآت الخيرية ، ومن ثم كانت الرسوم الشخصية
والرسوم الجماعية ومشاهد الحياة اليومية . وكان لكل مدينة هولندية تقريبا
مدرسة الفنانين الخاصة بها ، تحت رعاية محلية : هارلم ، ليدن ، أوترخت ،
أمستردام ، دوردرخت ، دلفت ، لاهاي . أما المواطنون البسطاء الذين ربما
كانوا في بلاد أخرى أميين من حيث الفن ، عالة على الكنيسة ، فإنهم هنا
زينوا بيوتهم بلوحات اشتروها أحيانا بثمان عال ، من ذلك أن خبازا أثبت
سلامة ذوقه ، بدفع ٦٠٠ فلورين (٥٧٠٠٠ دولار ؟) ثمنا لصورة واحدة
للفنان فرمير^(١٠٢) ، وكادت التزعة الدنيوية أن تكون عامة شاملة ، فلم يعد
للقدسين وجود في الرسوم ، وجاء التجار ، وانتصرت رسوم البيت والحقل
على الكنيسة وازدهرت الواقعية ، فنظر البرجوازي بشئ قليل من التقدير

إلى لوحة تمثله هو وزوجته ، ولكن السدود والكشبان الرملية وطواحين الهواء والأكواخ والسفن الشراعية والأرصفة الزاخرة بالبضائع ، كل هذه أحيت صورها على الجدران في سرور بالغ ، ذكريات أشياء فعلية عامة . ولقيت مناظر السكارى المرحين ورواد الحانات بل حتى المواخير ، ترحيبا في بيوت ربما كانت تعاق منذ قرن مضى صبور الشهداء القديسين وأبطال التاريخ أو آلهة الوثنيين . ولم تكن الصور العارية من سمات هذا العصر ، حيث لم يبتهج لها الناس في مثل هذا المناخ الرطب مع الأجسام الضخمة . وبدا في هذه البيئة الجديدة أنه ليس ثمة محل لما تميز به الفن الإيطالي من عبادة الجمال والرقرة والتهديب والوقار ، حيث لم تتطلب هذه البيئة من الفن شيئا أكثر من إخراج الحياة اليومية والمشاهد المألوفة .

وثمة جانب كئيب حزين في صورة الأئمة التي أغرمت بالرسوم إلى حد الجنون . وذلك أن الفنانين الذين رسموا لها عانوا في أغلب الأحيان من الفقر ولم يحظوا إلا بأقل التقدير . على حين أن الأرشيديوق واللوردات والأساقفة في الفلاندرز أجزلوا العطاء لمن اصطفوا من الفنانين . أما في هولنده فكانت المنافسة بين الفنانين فريدة ، فانتجوا للسوق العامة ، ووصلوا في معظم الأحوال إلى العملاء عن طريق وسطاء نشأوا بين المنتجين والمستهلكين المشترين ، وعرفوا كيف يشترون بضمن بخس ويبيعون بسعر عال . وقبلها حصل الفنانون الهولنديون أثمنا عالية ، فإن رهبرانت في ذروة شهرته لم يقبض إلا ١٦٠٠ جيلدر ثمنا للوحته « حراسة الليل » ، ولم يحصل فان جوريين إلا على ٦٠٠ جيلدر ثمنا للوحته « منظر لاهاي » ، وحصل الباقرن على أقل من هذا بكثير ، فإن جان ستين رسم ثلاث صور شخصية مقابل ٢٧ جيلدر ، وباع ايزاك فان أومستاد ثلاث عشرة صورة مقابل مبلغ مماثل . وكان على الفنانين الهولنديين أن يلجأوا إلى مختلف الأعمال ليكسبوا قوت يومهم ، فباع فان جوريين الزنق ، واشتغل هو بيا بعباية الضرائب ، وأدار ستين فرزلا ،

وكان الفنانون أنفسهم من الكثرة إلى حد أنهم أغرقوا سوقهم وأنجموها .
أن قائمة بأسماء مشاهيرهم لتمام صفحات ، وأن ثبتا بأعمالهم المكشورة ليزحم
كتابا ، فهلا أزوجينا لهم الشكر في الهامش (*) .

(*) - ألبرت كيب : رعاة يمزفون على المزمار (بيوريوك)

- كارل فبريتوس : صورة شاب (روتردام)

- جان فان جويين ، وهو أعظم هذه المجموعة : مناظر طبيه غايه في الزوعه ،
محفوظة في كثير من المتاحف ، من بينها قاعة كوركوران في واشنطن .

- ديرك هالس - الأبخ الأصفر لفرانس : الصعبة المرحه (لندن)

- جيرار فان هنتورست : حفلة موسيقية (أنتجراد)

- توماس دي كيزر - ابن هندريك : صور شخصية جميلة في درسدن ، نابلي ،

اللاور ، نيديوروك وسيقت لوحته « درس التشريح للدكتور فريج » ١٦١٩

بزم طويل ، لوحة رميرانت « درس التشريح للأستاذ تولب » ١٦٣٢

- كارل فان ماندر : كتب في ١٦٠٤ « كتاب رسامى الأراضى الوطيه - »

الذى كاد ينافس التوذج الذى احتذاه فاسارى .

- ميشيل فان ميرفانت : صور شخصية في كثير من المتاحف

- أدريان فان أوستاد : عازفو الكمان المجائر والمدخون (كلاهما في نيوريورك)

- ايزاك فان أوستاد : السوق (مجموعة ولاس)

- فرانس بويريس الأكبر : صورة سيد مهذب (مجموعة ولاس)

- فرانس بويريس الأصغر : صورة شاب (قاعة بقى)

- بيتر بويريس : ولجة مجازية (مجموعة ولاس)

- هر كبوليز بيجرز : منظر رينين (برلين)

٨ - فرانس هالس

(١٥٨٠ - ١٦٦٦)

عاش أسلافه لمدة قرنين من الزمان في هارلم . وكان أبوه قاضياً هناك ، ولكن لأسباب غير معروفة ولد فرانس في أنتورب ، ولم يعد إلى هارلم ليقوم فيها إلا بعد بلوغه التاسعة عشرة من العمر . ولم نسمع عنه شيئاً قط إلا في ١٦١١ ، حيث سجلت إحدى كنائس هارلم تعميد هرمان بن فرانس هالس وزوجه آنك . أما ما عرف عنه بعد ذلك ، فكان من سجلات محكمة شرطه (١٦١٦) حيث تروى أن فرانس هالس قبض عليه بتهمة ضرب زوجته ضرباً مبرحاً ، فأنب تأنيباً قاسياً ، ثم أفرج عنه بعد تعهده بأن يكون مهذباً وأن يتجنب صحبة السكارى . وماتت آنك بعد ذلك بسبعة شهور . وبعد خمسة أشهر أخرى (١٦١٧) تزوج فرانس من إليزبت رينيرز . وبعد تسعة أيام أنجبت له أول أولاده العشرة (١٠٤) . وقد خلف لنا لوحه رائعة تمثله مع زوجته الثانية (١٠٥) التي عاشت معه طوال السنوات الأربع والسبعين التي بقيت في حياته ، واحتملت أملاكه وعوزه وسكره وعربدته . وليس ثمة ما يجذب الانتباه فيه إلا أنه كان رساماً عظيماً ذا روح مرحة .

وكان قد بلغ السادسة والثلاثين حين حقق نجاحاً هائلاً في لوحته «مأدبة نقابة رماة سانت جوربس» (١٠٦) ، وهي إحدى لوحات «دولين ، الخمس التي هيأت لفرانس مكانته العالية ، ويقصد بلفظ «دولين ، مقر المتطوعين ، الذين مارسوا الرماية وأقاموا المباريات وعقدوا التبادلات الاجتماعية ، وكانوا بمثابة قوات نظامية في الكوميونات . وكان ضباط مثل هذه النقابات أحياناً يأجرون فناناً ليرسم لهم صورة جماعية ، ولكن يصر كل واحد منهم على أن يتناسب بروزه في الصورة مع رتبته في الجماعة ومع إسهامه في تكلفتها . فهنا هؤلاء الضباط في أبهى حلة ، يتجمعون حول مأدبة ، ويرفع أحدهم علم فرقة الغنى بالألوان . وحصل هالس على أجره لأن كلامه هذه الرؤوس فرد يمثل شخصية قوية ، تختلف عن الأخرى ، كما يمثل سيرة حياته وتحفة رائعة .

ولم نسمع عن مهمة مماثلة أخرى إلا بعد إحدى عشرة سنة من ذلك التاريخ ،
ولكن هالس أنتج في هذه الحقبة رسوما تعد من روائع الفن الهولندي . من
ذلك ، بائع السردين^(١٠٧) ، وهي مرة أخرى تاريخ يتمثل في وجه ، ود الثالوث
المرح ، ديونكر رامب وصديقتة ، وكلاهما في نيويورك ، واللوحة المشهورة
« الفارس الضاحك^(١٠٨) » - تتجسد فيها الثقة بالنفس ، في ثياب ذات أهداب
مع طوف مكشكش حول العنق . وعبلة مزدانة بالأزهار ، وابتسامة تكاد تشبه
ابتسامة الجيوكندا في رقبتها . وفي هذه الفترة (١٦٥٤ ؟) رسم فزانس د صورتة
الشخصية^(١٠٩) ، وجه قوى مايح ، وعيمان حزينتان تنكران زهو الملابس
الجميلة والذراعين المطويين . لقد كان الرجل منهوكا تتقاذفه الهممة على الإتيان
والسكال ، والظما إلى الخمر .

وفي ١٦٢٧ جماعت مجموعة دولين الثانية : لوحة أخرى د لنقابة ضباط
سان جوريس^(١١٠) ، ولم تكن في صفاء وإشراق اللوحة الأولى ، فإن هالس
تحول عمدا ، ولبعض الوقت ، عن البريق الهاديء للألوان القوية إلى التلاعب
الاشق بالأساليب الثانوية - الألوان النصفية (لاداكن ولا فاتح) والظلال
الرمادية ومخطوط الكسافية الرقيقة . وثمة لوحة دولين أخرى في هذا العام
د نقابة رماة سانت أوريان^(١١١) ، وهي كذلك في أساليب مخففة . ولا بد
أن الرماة اغتبطوا لأنهم كلفوا هالس أن يرسم لهم لوحة أخرى^(١١٢) . وهنا
استرد الفنان ألوانه وأبرز عبقريته ليجعل من كل وجه شيئا متمعا فريدا . وفي
١٦٣٩ رسم لوحة أخرى د لضباط نقابة سانت جوريس^(١١٣) ولكن هذه في جملتها
أروع صور المجموعات في كل العصور ، هي توضح انطلاق الطبقة الوسطى
على مدلنرج الظهور الموسوم بالفخار والزهو ،

وفي الفترة الثانية (١٦٣٦ - ١٦٥٠) رسم هالس صورا تنادى بتخليد
ذكارها . منها د السكير المرح^(١١٤) ، يضع فوق رأسه قبعة كبيرة تكني لتغطية

رؤوس حشد من السكارى : ود الذي يعدو فوق الرمال ، (١١٥) ، وهو أشعت
أخبر ، في أسمال بالية ، وليكنه فاتن ، ود المتشردة أو العجرية ، تبسم وتنتفخ
في اللوفر ، ود المهرج ، في أمستردام ، وبلتازار كريمان الوهمي ، في واشنطن
أها تحفة فترة ذروة النضج هذه ، فهي لوحة هالس البانعة الاهتياز ، القائمون
على مستشفى سانت اليزابث (١١٦) ، ، وهي تماثل ، أولا تماثل لوحة رمبرانت
مذبوب نقابة تجار الأقمشة التي رسمت بعدها بإحدى وعشرين سنة .

أن إسراف هالس في الشراب بغير حدود . ولو أفة يبدو أنه لم يسيء إلى
فنه ، أضر بموقفه حتى في بلد وفي عصر لجأ فيه الناس إلى الشراب بين الحين
والحين ابتعانا للرح والفرح . وظل يرسم صوراً ربما كانت كبقية بأن ترفع
أى فنان إلى قمة الشهرة : د ساحرة هارلم (١١٧) ، ، و د ديكرات (١١٨) ، الذي
يحرر من الوهم ، في حاجبين كبيرين وأنف ضخمة وعينين تمان عن الشك ، ثم
رسم في سن الثمانين صورة د شاب في قبعة مترهلة (١١٩) ، . وليكن في الوقت
نفسه تكاثر الأرزاء على الفنان ، ففي ١٦٣٩ أرسل ابنه بيترا إلى مصحة
الأمراض العقلية على نفقة البلدية ، وفي ١٦٤١ وضعت ابنته الكبرى المتمردة
في إصلاحية الأحداث بناء على طلب أمها . وما جاء عام ١٦٥٠ حتى كان فرانس
معدماً . وفي ١٦٥٤ أقام الخباز المحلي ضده الدعوى يطالبه بسداد مائتي جلد
وحجز على أدوات الرسام . وفي ١٦٦٢ توسل الشيخ الهرم المهتم للحصول
على معونة وأجيب إلى طلبه . وبعد ذلك بعامين قرر له مجلس مدينة هارلم معاشاً
سنوياً ، ووهبه فوراً ثلاثة أحمال من الخث ليوقد مدفأته .

ويحتمل أنه رغبة في منح فرانس مزيداً من الصدقات ، كلف في هذا العام
(١٦٦٤) برسم لوحتين : د مدير واملجأ الفقراء ، ود مديرات ملجأ الفقراء ، .
ويظهر في لوحة الرجال أثر اليد المضطربة للفنان في سن الرابعة والثمانين ، فإن
معظم التقاطيع والملاحح فيها ملطخة بشكل غامض ، على تقيض اللوحة الأخرى
التي تمثل النساء ، فإنه مما يشير الدهشة أن المهارة القديمة عادت سيرتها الأولى :

فهنأ خمس أنفس ارتسمت على خمسة وجوه ممثلة مذعنة ، خمس نساء عجائز أرهقتهن الأعمال غير العادية ، عابسات متجهبات متزومات ، كما يقتضى نظامهن البيوريتانى ، وقد نسين مرح الشباب وبهفته . ومع ذلك ، ألقى بشكل ما فى هذه التقاطيع الكالحة عطف هادىء ومشاركه وجدانية حزينة . وهاتان الصورتان الأخيرتان هما آخر لمسآت جرت بها يد الفنان أو ومضات لمعت فى فنه ، وهما الآن ، إلى جانب لوحات مجموعات الدواين ، ، فوجودتان فى متحف فرانس هالس الذى شادته مدينة هارلم فى مكان هلجأ الفقراء .

مات هالس فقيراً معدماً (١٦٦٦) ولكنهم احتفلوا بدفنه احتفالاً مهيباً فى هيكل كنيسة سانت باتون فى المدينة التى اعتمدت شهرتها على الحصار الذى قاومه طويلاً ، وعلى أعمال أعظم أبنائها . ولمدة قرنين من الزمان بعد وفاته كاد النسيان يحجر عليه ذبوله ، وبيعت لوحاته بأبخس الأثمان ، أو فى المراتب ، أو بلا شىء مطلقاً ، وإذا كان مؤرخو الفن قد تذكروه ، فإذآك إلا لأنهم تنبهوا إلى ضيق مجال فنه . فلم يكن ثمة صور دينية ولا أساطير ولا صور تاريخية ولا مشاهد طبيعية ولا عور عارية . أو إلى العجلة المدموغة بالإهال والتهاون فى طريقة عمله ، حيث لم يكن ثمة مخططات تمهيدية ، بل لطخات من ألوان متناثرة اعتمدت على التخمين وعلى ذاكرة الرأى ليملاها بالتماصيل . واليوم يتعالى الهتاف للفنان ، بشكل قد يكون مبالغاً فيه ، مما يتوازن مع طول إغفال شأنه كما يعتبر نقد كريم أن هالس ألمع رسام للصور الشخصية رآه العالم (١٢٠) . وما دام الزمن ، وهو أجدر القضاة بالثقة ، يتذبذب فى حكمه ، فلننقع نحن بالإعجاب .

٩ - رمبرانت هارمنز فان رين

١٦٠٦ - ١٦٦٩

ولد في ليدن لأب طحان ثرى . هو مجريّت هامنز الذى أضاف إلى اسمه « فان رين » ربما لأن بيته كان يطل على نهر الراين . ولا بد أن الفنان أحب أباه حبا جما لأنه رسمه إحدى عشرة مرة أو أكثر ، فى قبعة وسلسلة ضخمتين (١) وكصراف نقود (١٢٢) وكسلا فى نديل (١٢٣) - وجه قوى حسن التقاطع يحف به الوقار - ورسمه فى ١٦٢٩ رجلا علته السنون بالسكابة والإرهاق (١٢٤) . كما رسم أمه اثنتى عشرة مرة ، أجدرها بالذكر لوحة « المرأة العجوز » فى متحف فيينا قلقة منهو ككونزاهافى متحف أمستردام منكبة على الكتاب المقدس . وإذا كانت الأم - كما يعتقد البعض - « منونية » (تنسب إلى طائفة بروتستانتية مزمومة) فقد ندرك من هذا ميل رمبرانت إلى التوراة ، وصلته الوثيقة باليهود .

وفى سن الرابعة عشرة التحق بجامعة ليدن ولكنه أنعم النظر فى أشكال أخرى غير الأفكار أو الألفاظ ، وترك الجامعة بعد عام واحد ، وأقنع أباه بالسماح له بدراسة الفن . وخيرا ما فعل ، فإنه فى ١٦٢٣ أرسل إلى أمستردام ليتلذذ على بيتز لاستمان الذى كان يعتبر آنذاك آبلرز (رسام لإغريقى) العصر وكان لاستمان قد عاد من رومه إلى هولنده بتوكيد كلاسيكى على الرسم الصحيح ويحتمل أن رمبرانت تعلم منه أن يكون مخططا ممتازا . ولكن بعد قضاء عام واحد فى أمستردام عاد الشاب القلق مسرعا إلى ليدن متلهفا على الرسم بطريقته الخاصة . فرسم أو صور كل ما وقعت عليه عيناه تقريبا ، بما فى ذلك الحمامات الساخنة والقذارات المخزية (١٥٢) ، وتابع النهوض بفننه عن طريق تجارب عزيزة لديه فى تصوير شخصه فكانت المرأة هى النموذج أمامه وترك لنا صورا شخصية (٦٢ على الأقل) أكثر مما ترك كثير من كبار الرسامين من صور . ومن بين هذه الصور الشخصية الأولى رأس جميل فى لاهاي : وهى لوحة تمثل رمبرانت فى الثالثة والعشرين ، وسيا مليحا بطبيعة الحال (وهذا هو

شأن كل المرايا - تظهرنا في أجمل صورة) يتطاير شعره هنا وهناك دون مبالاة ، في ترفع الشباب عن التقاليد والأعراف ، تنبئ عينا عن اليقظة والزهو بما ثبت من قدرته وكفائته .

والحق أنه كان بالفعل قد وطد مركزه . وفي ١٦٢٩ نقده أحد الخبراء ١٠٠ فلورين اجراً للصورة - وهذا أجر مناسب لمناس صغير في بلد كان فيه عدد الرسامين كبيراً مثل عدد الخبازين ، ولكنهم لا يشبهون بطونهم مثلهم . وكانت موضوعاته - بعد شخصه ووالديه - مأخوذة من الكتاب المقدس . وفي لوحته دأرميا - يرثي لخراب أورشليم^(١٢٦) ، تجلت الهالة الصوفية التي تميزت بها لوحات رمبرانت الدينية . أما لوحة ، سمعان في الهيكل^(١٢٧) ، فإنها تعبر تمييزاً صادقا عن روح ما جاء على لسان هذا الشيخ في الإنجيل : « الآن نطلق عبدك يا سيد حسب قولك بإسلام ، (إنجيل لوقا ٥ : ٥٩) . وكلف من أمستردام بأعمال كثيرة إلى حد أنه عاد إليها في ١٦٣٨١ . وقضى هناك بقية أيام حياته .

وفي خلال سنة من وصوله إليها رسم إحدى روائع الدنيا وهي « درس التشريح للأستاذ نيقولا تواب^(١٢٨) » ، وكان ثمة تشريحات كثيرة في التصوير الهولندي ، ولم تتمهن السوابق ، أو يخدش التواضع حين كلف الجراح الممتاز الذي كان أربع مرات عمدة لمدينة أمستردام ، رمبرانت أن يرسمه ، وهو يقدم عرضاً في التشريح في قاعة نقابة الجراحين ، معتزماً أن يهدي الصورة إلى النقابة تذكاراً لاسناديته ، وربما كان دكتور تولب هو الذي اختار سبعة من الطلبة ، ليكونوا معه في الصورة ، وواضح أنهم لم يكونوا طلبة ، بل رجالاً ناضجين من ذوى المسكاة في الطب أو في مجال آخر ، وانهز رمبرانت الفرصة ، كل الفرصة ، ليرز الوجوه منالقة بالشخصية والذكاء . وتبدو اللجنة منفتحة على نحو غير ملائمة ، واتخذ اثنان من المتفرجين وضعا تشبه الأجيال القادمة ، ويمضى دكتور تولب في عمله في هدوء رجل متمرس واثق . أما الرجلان اللذان

يحدقان النظر فوق رأس الجثة فكانا يمثلان حب الاستطلاع والانتباه بأجلى ممانهما ، وكان التلاعب بالضوء على اللحم والأطواق إعلانا عن ميزة رمبرانت .

وانهالت الطلبات على رمبرانت ، حتى بلغت أربعين في عامين . أما وقد امتلأت الآن جيويه بالمال ، واستبد به الظمأ إلى النساء فقدحان الأوان للزواج (١٦٣٤) . وكانت ساسكيا أولنبرخ ذات وجه جميل وعينين راقصتين وشعر حريري ناعم ذهبي اللون وقوام أهيئ وثراء كاف ، وما أجمل صورة «ساسكيا» في مدينة كاسل الألمانية ، وكانت الابنة اليتيمة لحمام وقاض ثرى . وربما كان عمها - وهو وسيط في تجارة التحف الفنية - هو الذى أغراها بالجلوس أمام رمبرانت ليرسمها ، وكانت جلستان فقط كإفيتين للتقدم لطلب يدها . وقدمت العروس صداقا قدره أربعون ألف جيلدر ، أصبح بذلك مفلس المستقبل واحدا من أغنى الفنانين في التاريخ . وأصبحت ساسكيا زوجة صالحة على الرغم من ثروتها . وتحملت في صبر وجهد عبقرية شريك حياتها المستغرقة في العمل . وجلست إليه ليرسم لها صوراً كثيرة ، ولو أنها أبرزت جسمها الآخذ في التفتح والامتلاء ، وكان يدثرها في أزياء غريبة ليرسم لها «فلورا آلهة الأزهار» المشرقة الباسمة الموجودة الآن في لندن ، و «فلورا» الحزينة ، الأيسط مشكلا ، الموجودة الآن في نيو يورك . وفي إحدى اللوحات في درسدن نراه وقد غمرته السعادة ، وهو يمسك بها وهي جالسة على ركبته ، تفيض منه الابتسامة على الوجه ، رافعا كأسا عالية ابتهاجا بموفور الصحة والمال .

وفي سنين اليسر هذه (١٦٣٤ - ١٦٤٣) أخرج الفنان التحفة تلو التحفة . واستمر يرسم نفسه . فنراه في «صورة الفنان» (١٦٣٤) وهي الآن في اللوفر - وسيما مبهتجا ، في قبعة مزدائه بالجواهر . وسلسلة ذهبية على صدره ، ورسم في السنة نفسها «الضابط» (١٦٣٩) ، وهو فيها جميل مهيب يضع على رأسه قبعة تغزو العالم ، ورسم لنفسه في ١٦٣٥ صورة في قبعة رائعة يكاد ريشها يداعب

السماء . ومسيحا وراء الشخصية الأجل ، (١٦٣٤ د السيدة العجوز ، التي لا تبالى بنا وهي معلقة في المتحف الوطني بلندن في وجه ملأته السفون بالتجاويد . وبعد ذلك بعام واحد رسم د المرأه العجوز على الكرسي ذى الذراعين ، وهي موجوده في نيويورك . وعثر في خرائب أمستردام على رجل في الثمانينات ، ألبسه عمامة وثيابا ورسم له لوحة د رجل شرقي (١٣٠) ، وكان له ولع بجمع الثياب والمجوهرات والسيوف والقبعات والأحذية الغربية ، تستطيع أن تراها جميعا ، فيما عدا السيف في لوحة د ملدين داي (١٣١) ، بالأربطة والأشرطة على قفازه ، والأهداب على ثيابه والتروس فوق خذائه . والآن أيضا ، رسم موضوعات دينيه عتيقة في صورة صادقة جديدة متخذة نماذجه من الرجال العجائز والشابات اللاتي فابلهن في الشوارع - كل منها تلفت النظر في أسلوب من معالجة التفاصيل ، تأخذ بالألباب في التلاعب بالضوء ، وتثير المشاعر بتدفق العاطفة فيها الى حد أن أية لوحة منها يمكن الدفع بأنها أبداع مارسم الفنان ، ومثال ذلك لوحة «تضحية إبراهيم» (١٣٢) ، الملك روفائيل يهجر طويلا (١٣٣) . وجاءت هذه السفوات المباركة بعدد من أشهر الصور والشخصية مثل د السيدة ذات المروحة (١٣٤) ، و د الرجل ذو القفاز (١٣٥) ، وكلتاها تجل عن الوصف ، وتقدر عنها أية ألفاظ .

وآخر الرسوم في هذه الحقبة ، وربما أعظم انجازات رمبرانت على الإطلاق ، هي اللوحة الضخمة (١٤ × ١٢ قدما) تعرف في التاريخ باسم « حراسة الليل » ، والأكثر احتمالا أن اسمها د جماعة كابتن كوك الرماة (١٣٦) (١٦٤٣) . ولا ينقص هذه الرقعة الهائلة أية تفاصيل ، وليس فيها أى ظل للظلام أو أى مسقط للضوء إلا حسب حسابه ، أو أى تباين في اللون إلا وهو مدروس . ويقف الكابتن المزهو في الوسط في لون أسمر وأبيض وأحمر ، وإلى يساره قائمقام في أحذية عالية وسترة وقبعة صفراء ذهبية اللون ، والسيوف تبرق والرماح تلمع والأعلام ترفرف ، وإلى يمين الكابتن فرقة

النأي والطبول . وتغادر الجماعة مقرها إلى ما يبدو واضحا أنه عرض في أحد المهرجانات . وتعاقد رمبرانت مع كل من الأشخاص الستة عشر الذين سيصورهم ، على أن يدفع كل منهم مائة فلورين . وأحس كثير منهم بأن المساواة في الأجر لم تقابلها مساواة في التآلق والعظمة في الوحة ، وشكا بعضهم من أنه وضعهم في الظل ولم يسلط عليهم الأضواء ، أو أنه قصر في تحديد ملاحظهم حتى يسهل على أصدقائهم التعرف عليهم . ولم يشتد الطلب بعد ذلك على الصور الجماعية في رسمه ، وبدأ نجمه يأفل .

ولابد أن المال كان وفيراً لديه في ١٦٣٩ لأنه اشترى في تلك السنة داراً فسيحة في شارع جودن - بريد الذي كان يقطنه أثرياء اليهود . وكلفته الدار ثلاثة عشر ألف فلورين . وهو مبلغ ضخم لم ينجح قط في دفعه كاملاً . وربما قصد ألا تتسع لأسرته فحسب ، بل لتلاميذه ولرسمه ومجموعته المتزايدة من التحف القديمة والأشياء الغريبة والفن . وبعد دفع نصف ثمن الشراء في السنة الأولى من شغل الدار ، وبقاء النصف الثاني ديناً عليه ، ارتفعت فائدته التي لم تدفع إلى حد جره إلى هاوية الافلاس .

وفي الوقت عينه كانت صحة حبيبته ساسكيا آخذة في التدهور ، وكانت قد أنجبت له ثلاثة أولاد ، مات كل منهم في سن الطفولة . وهدت ولادتهم العسرة ونهايتهم الأليمة من كيائها . وفي ١٦٤١ أنجبت له إبناً أسماه تيتوس ، وقد بقي على قيد الحياة ، واسكن أمه فأرقت الحياة في ١٦٤٢ . وأوصت بكل ما تملك إلى رمبرانت ، شريطة أن تزول ببقية التركة إلى ولدها إذا تزوج والده ثانية . وبعد سنة من وفاتها رسم لها رمبرانت صورة من الذاكرة العامرة بحبها . وكدرت هذه الخسارة صفو حياته . وبدأ منذ ذلك الوقت أن يفكر الموت تستبد به وتقلقه . وعلى الرغم من أنه كان شديد التعلق بأسرته ، فإنه كان دائماً يؤثر الوحدة على الرفقة ، أما الآن فقد ، أوى إلى عزلة كشيبة . وكان وهو يرسم يصرف المشاهدين الأغرار عنه قائلاً : أن رائحة الطلاء

تضر بالصحة (١٣٧) ، . ولم يكن رجل الدنيا المثقف أو المهذب مثل روبنز .
وقرأ قليلا : ولم يكذب يقرأ شيئا سوى الكتاب المقدس ، وعاش في ملكة
اللون والظل والضوء التي لا تنبس ببنت شفة . وهي متنوعة مثل دنيا الأدب
ولكنها غريبة عنها فريدة . وكان من الصعب عليه أن يقوم بالواجبات
الاجتماعية إذا قدم عليه من يجلسون أمامه ليرسمهم ، أو أن يتبادل معهم
أحاديث قصيرة بقصد تسليتهم والاحتفاظ بسكونهم وهدوئهم . وقل المترددون
عليه حين وجدوا أن رمبرانت مثل معظم أسلافه ، لم يكن يرضى أن يرسم
لهم رسما تخطيطيا في جلسة أو جلستين ، ثم يكمل الصورة من هذا الرسم
التخطيطي ، بل آثر أن يرسم مباشرة على القماش ، الأمر الذي يتطلب جلسات
كثيرة ، هذا فوق أنه كان له طريقة انطباعية في أن يرسم ما يفكر فيه
أو يحس به ، لا مجرد ما يرى ، ولم تكن النتيجة دائما مرضية .

ولم يكن عونا له أن تقع داره في حى اليهود . وكان قد عقد منذ ذلك
الوقت صداقات مع كثير منهم . وكان قد نقش صورة لنفسه بن إسرائيل
(١٦٣٦) . والآن في ١٦٤٧ حفر على الخشب الوجه الداكن للطبيب اليهودي
أقرايم بونس . ولما كان الفنان محاطا باليهود من كل جانب تقريبا ، وواضح
أنه أحبهم ، فإنه وجد موضوعات تزايد يوما بعد يوم ، بين اليهود الأسباب
والبر تغالين في أمستردام . وربما تعرف على باروخ سبينوزا الذي عاش في
هذه المدينة من ١٦٣٥ . وذهب بعضهم إلى أن رمبرانت نفسه كان يهوديا .
وهذا غير صحيح لأنه عمد ونشأ على المذهب البروتستانتى . وكانت ملاحظته
تنطق بأنه هولندي ، ولكن لم يعرف عنه أى تمييز ملحوظ بالنسبة للدين
أو الجنس . وثمة عمق خاص لفنائه الموسوم بالعطف في رسومه لليهود .
لقد افقتن بشيوخهم ولحاهم التي تقطر منها الحكمة وعيونهم التي تشف عن الحزن
والأسى . وإنك لتجد نصف العذاب النفسى عند العبرانيين ماثلا في وجه
اليهودى العجوز ، وهي اللوحة التي رسمها رمبرانت ١٦٥٤ والموجودة الآن

في الارميتاج (لنجراد) ، وفي لوحة «الخبز» ، (الخاصة) (١٦٥٧) في لندن
وفي هذه اللوحة الأخيرة صورة الخبز الذي وأسى رمبرانت بعد وقوعه في
الضائقة المالية وأمدّه بمعونة مادية .

وتراه في ١٦٤٩ يرسم هندريكا ستفلز في المخدع ، (١٣٨) ، وتدرك أنه
اتخذ خلية . وكانت وصيفة ماسكيا ، وبقيت مع الفنان الأرميل وعينت به
عناية فائقة ، وسرعان ما سرت عنه بجملة جسمها . أنه لم يتزوجها لأنه كره
أن يتخلى عن تركه ماسكيا لابنة تيس الذي كان بعد صبياً في الثامنة من العمر .
وعندما رسم هندريكا في ١٦٥٥ (١٣٩) ، كانت جميلة بدرجة مقبولة ذات عيني
تلازمها هفة مكتئبة ، وربما كانت هي التي جلست أمامه مرتين لتجربة
أو دراسة فن رسم العاريات : في ١٦٥٤ «باشيا في الحمام» (١٤٠) و «امرأة
تخوض» (١٤١) وكلتاها آية في العظمة من حيث الألوان والاتساع . وفي يولية
من هذا العام دعيت للمثول أمام شيخ الكنيسة ، حيث أنبت تأنيبا قاسيا على
اقترافها الزنى ، وحرمت من تناول القربان المقدس . وفي أكتوبر وضعت له
طفلا اعترف رمبرانت ببذوته ، ودبر أمر تعميده بسلام ، وعرف كيف يجب
خليته حبا عميقا كما أحب زوجته ، وإلا كيف كان يتسنى له أن يملأ وجهها
بكل هذه الرقة حين صورها ١٦٥٨ في رداء أحمر يلتئم مع شعرها (١٤٢) .
وكانت زوجة أب فاضلة لتيس الذي أخذ يتزعزع صبيا فائنا . ويمكن أن
تراه في متحف متربوليتان للفن ، وهو في الرابعة عشرة ، جميلا كالبنات ،
ذا عيني تتمثل فيهما حيرة الشباب ، تريكة الحياة ، يجد شيئا من الطمأنينة
والآمان في حب أبيه ، وتراه مرة أخرى في مجموعة ولاس ، وقد سلخ عاما
آخر من العمر . وقد نتصور كل التصور كيف أنه كان عزاء وسلوى لأبيه
رمبرانت الذي انصبت على رأسه الكوارث المالية في هذه السنة .

وبذل الفنان جهداً جباراً ليقتصد في الإنفاق ويصل إلى الموازنة بين موارده
ونفقاته . وثمة لوحات دينية عظيمة يرجع تاريخها إلى هذه الحقيقة - حقبة

الزنى والديون (١٦٤٩ - ١٦٥٦) منها ويعقوب يبارك حفيدته (١١٣) ، ،
والمسيح عند التبوع (١١٤) ، ، و المسيح وامرأة سامرأ (١٤٥) ، ، و النزول
من الصليب (١٤٦) ، . ومهما يكن من أمن فإن الصور الكنتسية لم تكن مطلوبة
في هولنده البروتستانتية . ومن ثم جرب يده في الأساطير ، ولكنه لم ينجح
إلا حين استطاع أن يكسو الأشخاص . ولم تكن لوحة داناى (١٤٧) ،
جذابة . أما د آتينا (١٤٨) ، و د مارس (١٤٩) ، فسكانتا فريدتين في باهما .
وظل يرسم صوراً شخصية تأخذ بمجامع الألباب . فإن صورة د نيقولا
بروننج (١٥٠) ، قد التقطت في لحظة مشرقة بالحياة والفكر . وصور د جان
سكس (١٥١) ، تمثل عمدة المدينة الهولندى في ذروة قوته وأسعد أوقاته ، كذلك
فإن رمبرانت رسم في هذه الفترة بعض أشخاص غير ذوات أسماء ، بعد دراسة
عميقة : د الرجل ذو الخوذة الذهبية (١٥٢) ، ، و د الراكب البولندى (١٥٣) ، ،
و د كوزيلوس فائد المائة (١٥٤) ، . وتبدو معظم اللوحات الشخصية الأخرى
إلى جانب هذه ، ذات بريق سطحي .

وكان رمبرانت في سن الخمسين حين وقعت الكارثة . أنه قلما اهتم بأن
يحسب ماله وما عليه . واشترى دون مبالاة الدار والفن ، بل أسهم شركة الهند
الشرقية (١٥٥) . والآن وقد تخلفت معونات نصرائه ورعانه كثيراً عن الوفاء
بمتطلباته ، فإنه وجد نفسه وقد أثقلته الديون لدرجة تدعو إلى اليأس . وفي
١٦٥٦ ، ورغبة في حماية تيتس ، نقلت د محكمة الأيتام ، في أمستردام ، ملكية
البيت الأبيض إلى الابن ، ولو أنه سمح للوالد في الإقامة هناك لبعض الوقت .
وفي شهر يولية أعلن افلاس رمبرانت ، وبيع أثاثه ولوحاته ورسومه ومجموعاته
في عجلة كلفته كثيراً (١٥٦٧ - ١٦٥٨) . ولكن العائدات كانت أقل كثيراً
من أن تفي بائتماناته . وفي ٤ ديسمبر ١٦٥٧ طرد من الدار ، فتنقل من بيت
إلى بيت حتى استقر به المقام في روزنبراخت في د حارة اليهود ، . وأخذ من
هذا الحطام نحو سبعة آلاف فلورين من أجل تيتس ، الذى كون مع هندريكا
رغبة منهما في حماية رمبرانت ، ثمرة أمكن بواسطتها بيع أعماله الباقية دون

أن تقول إلى دائنيه . ويبدو أنهما أوليا الفنان الذي تتقدم به السنون ،
عناية كبيرة .

واستمر زمبرانت وسط هذه البلايا والمحن ينتج الروائع : درجل على
ظهر جواد ، وقد بيعت حديثا إلى المتحف الوطني في لندن مقابل ٤٠٠ ألف
دولار ، واللوحة العجيبة « رأس رجل عجوز » (١٥٦) ، - وكأنه كارل ماركس
في الثمانينات متحرراً من الأوهام ، واللوحة الطبيعية المنعممة بالحيوية بدرجة
مدهشه « امرأة تقص أظافرها » (١٥٧) ، - وربما تطلبت بعض الطقوس الدينية
تنظيف الجسم كله ليلة السبت . وربما رسم آنذاك أيضا بعض صور مروعة
للفنان نفسه مثل : « زمبرانت وكراسة رسومه التخطيطية » (١٦٥٧) ، وهي
موجودة في درسدن ، ثم اللوحة الأكثر شهرة التي يبدو فيها وجه العائس المتحهم
وجسمه البدين المدثر (١٦٥٨) وهي في مجموعة فريك في نيويورك ، وصورته
بكامل جسمه (١٦٥٩) وهي في فيينا ، وصورة الوجه الذي يعرفه القلق
والهموم (١٦٥٩) في واشنطن .

وفي العقد الأخير من عمره (١٦٦٠ - ١٦٦٩) سهر للبقاء على حياته
ابنه وخليته . ولسكن كان مسكنه ضيقا ومرسمه سيء الإضاءة ، ولا بد أن
يديه فقدتا بعض أترانها وثباتهما نتيجة كبر السن والشراب ، فلوحة « القديس
متى الإيجيلي » (١٥٨) ، غير مصقولة في تركيبها ، ولسكن الملاك الذي يهمس في أذنه
لم يكن سوى تيتس الذي بلغ الآن العشرين من العمر ، ولا يزال جميلا
كالعروس . ثم جاءت في تلك السنة (١٦٦١) آخر رواائع الفنان : « خبراء
نقابة تجار الأقمشة » (١٥٩) ، فإن فاحصى القماش والمرافين كلفوا الفنان بأن يخلد
ذكرهم بصورة جماعية تعلق في دار رابطتهم . وربما كنا نغتفر بعض التردد
في التركيب ، وبعض الفجاجة في التفاصيل وبعض التقصير في إسقاط الضوء
ولكن النقد في حيرة من الأمر ليعثر على غلطة في الصورة . فإن أمامية الصورة
وخلفيتها اللتين تمسكن منهما الرسام جعلتا الشخوص الخمسة الرئيسية تقفز إلى

عين الرأى دكل منها شخص واحد منفصل ، ، ولكنهم جميعا التقطوا فى نفس اللحظة الحية التى التقى فيها تفكيرهم . وفى كثير من الوحات التى رسمت فى سنوات التهدم والتدهور هذه ، يجد الخبراء علامات على الإنهيار الطاقه وإنحطاط الأسلوب بساطة الألوان ، إهمال التفاصيل ، العجلة فى جريان الفرشاة وعدم الصقل . ولكننا ، حتى فى هذه الأيام نجد صوراً أخاذة ، مثل دعود السخى (١٦٠) ، - وهى تشخيص لاينسى للصفح المحبب إلى النفس ، ود العروس اليهودية (١٦١) ، وتلك ثمرة عجيبة مدهشة تأتى من شجرة تذوى وتذبل .

ولكننا لم نذكر شيئاً عن مناظر الطبيعة ورسومه وحفره . ولم يبرز أو يتفوق إلا القليل من المناظر الطبيعية ، ولكن الرسوم بلغت القمة بين مثيلاتها وثمة رسمان مشهوران : د مشهد أمستردام ، بالقلم والخبر . الموجود فى فيينا . ود المرأة المعجوز جالسة ، فى برلين . ويعد إنتاجه فى الحفر مضارعا لأحسن ما أنتج فى ، اونج هذا الفن الشاق المجهد . وعرف أحد أعماله فى هذا الفن د المسيح يشفى المرضى ، ، بأسم القطعة ذات المائة جيلدر ، لأنها اشترت بثمن لم يسبق له مثيل (١٢٠٠ دولار ؟) . على أن نسخة منها على أيبه حال قدرت فى ١٨٦٧ بمبلغ ٣٥ ألف فرنك (٢٠ ألف دولار ؟) .

أن ٣٠٠ من أعمال الحفر ، ٢٠٠ من الرسوم و ٦٥٠ من اللوحات منجزات رمبرانت لاتزال باقية ، تكاد تكون مشهورة مثل شهرة روايات شكسبير ، وتكاد تكون متنوعة أصيلة عميقة مثلها . وكلها تقريبا من صنع يديه ، فعلى الرغم من أنه كان له مساعدون ، فإن أحدا منهم لم يشاركه سره فى الكشف عما خفى وما لا يرى (١٦٢) . وكانت بعض أعماله رديئة وبعضها مفترأ ، مثل د الثور المسلوخ ، فى اللوفر . وكان أحيانا يستنفد كل جهده فى الأسلوب الفنى وفى أحيان أخرى يتجاوزه من أجل الرؤيا ، أى رؤيا الفنان نفسه . . . وكان ، مثل الطبيعة ، يتخذ موقفا محايدا بين الجمال والقبح ، لأن الصدق عنده كان قوة

الجمال، وإن الصورة التي تمثل القبح حقا وصدقا هي صورة جميلة . وأبى أن يرضى أشكالا مثالية على الشخص في لوحاته الدينية ، وأرتاب في أن يكون العبرانيون الوارد ذكرهم في التوراه على مستوى جمال اليهود في أمستردام ، فصورهم على هذا النسق، ومن ثم أبعثوا من عالم الاساطير أو التاريخ إلى الحياة . ولزاد شيئا وشيئا مع تقدمه في السن ، حبه للسطاء من الناس حرله ، لاجب من جردهم السعي وراء الكسب من الروح الإنسانية . وعلى حين أن بعض الفنانين ، مثل روبنز ، التمسوا موضوعاتهم بين أبواب الجمال أو السعداء أو الأفوياء وأصحاب السلطان ، فإن رمبرانت كان يسخر بفننه الخنون على المنبوذين والمرضى والمؤساء ، حتى المشوهين ذوى العاهات ، وعلى الرغم من أنه لم يسخر من الدين أو يهزأ به ، فقد بدا أنه على غير وعى منه ، يجسد موقف السيد المسيح وويتان تجاه أولئك الذين أحققوا ، أو أبوا أن يشتركو ، في صراع كل إنسان مع سائر بني الإنسان .

ولدى نظرة أخيرة عليه في صورته الشخصية في شيخوخته . وليس هنا زهو أو خيلاء ، بل على النقيض ، أنها قصة حياة الفنان بمرشاته هو ، في أيام الحنية والهزيمة . أنه عندما صور نفسه ١٦٦٠ ،^(١٦٣) كان لا يزال يواجه الحياة بمزيج من الشجاعة والاستسلام ، فإن الوجه القصير السمين غير الخلق كان ساخرا ولم يكن حزينا ، وكان لا يزال يتحرك قدما . ولكن في صورة أخرى^(١٧٤) في نفس العام ، كانت ثمة نظرة قلقة حائرة تعتم الوجه ويكسوه بالتجاعيد حول الأنف الضارب للحمرة وفي ١٦٦١ رأى نفسه^(١٧٥) في نفس الحيرة والإرتباك . ولكنه لم يبال بالتجاعيد بطريقة فلسفية . وصور نفسه في عامه الأخير^(١٦٦) ، وكأنما وجد الطمأنينة وهدوء البال في إرتضاء قيود الحياة وحدودها ومرحها الساخر . وماتت هندريكا ١٦٦٢ ، ولكن ظل تبس يمتعه بمنظر الشباب ، وفي ١٦٦٨ ابتهج الشيخ العجوز بزواج ابنه . ولما لحق الابن بالخلية في هذا العام نفسه ، فقد الفنان قدرته على التشبث بالحياة . وجاء في سجل

الوفيات في الكنيسة الغربية في ٨ أكتوبر ١٦٦٩ مبرانت فان رين - الرسام...
يترك طفلين . .

وكاد معاصروه ألا يلاحظوا وفاته . ويحلم أحد منهم قط بوضعه في مرتبة روبنز ، أو حتى فانديك . وكتب عنه معاصره - جويشم (يواقيم) فون ساندرات أن ما كان يعوزه أساسا هو المعرفة بإيطاليا وغيرها من الأماكن التي تهىء الفرص لدراسة القديم ودراسة نظرية الفن . (ويبدو لنا الآن أن هذا هو سر عظمته) . ولو أنه عالج أموره بمزيد من الحزم والتعقل ، وأبدى مزيدا من اللباقة في المجتمع ، فلربما أصبح أكثر ثراء ، ولقد عانى فنه من ميله إلى صحبة السوقة (١٦٧) . وانفق رسكدين مع مؤرخ الفن الألماني حيث قال : « أن الفظاظه والتبلد والتجرد من التقوى تعهدا دائما عن نفسها في الألوان السمراء والرمادية ، كما هو الحال مع مبرانت أن هدف أحسن الرسامين أن يصوروا ما تقع عليه أعينهم في وضع النهار أو في ضوء الشمس ، ولكن مبرانت كان يسمى إلى رسم أقدر الأشياء التي يراها وأبشعها - في ضوء شمعة ، (١٦٨) . ولكن يوجين دى لاكروا الذي عكس التطورات الديقراطية في فرنسا قال وربما يأتي يوم نجد فيه مبرانت رساما أعظم من رافاييل . وأنى لاكتب الآن - دون تحيز - هذا التجديف الذي لا بد سوف يسبب إلتصاب شعر الأكاديميين غضبا ودهشة (١٦٩) . وينزع النقاد اليوم إلى رفع مبرانت فوق مرتبة رافاييل وفلاكويز ومساواته فقط بالتمنان الجريكو (١٧٠) وإنما لنذكر أن «الصدق ، هو وظيفة الزمن وتابعه .

أية سلسلة وأية هوة من روبنز إلى مبرانت - بين الضوء البهيج والظل الكئيب ، بين الهاوية والحاشية ، بين نبيل أنتورب السعيد بانغماسه في اللهو والفجور في وطنه في القصور مع الملوك ، ومفلس لمستردام الذي عرف أحط الأعماق ، ولازم الحزن والأسى . إنك إذ ترى هذين الرجلين هلى أنهما عنصرى

طباق في تناغم قوى ، إنما تحس بطريقة أخرى بعظمة أمه صغيرة صارت
إمبراطورية عملاقة، كما تحس بعمق المدنية التي استطاعت أن تنتج ، في ناحية،
ثقافة كاثوليكية تزين إبتهاج مذهبها الذي لا يرقى إليه الشك ، بالأساطير
وأضرحتها العزيرة عليها بالفن ، وفي الناحية الأخرى ثقافة بروتستانتية
استطاعت أن تفدى وترى أعظم فنان وأعظم فيلسوف في ذلك العصر .

الفصل التاسع عشر

ظهور دول الشمال

١٥٥٩ - ١٦٤٨

١ - الدمرك دولة عظمى :

فانلق نظرة على الخريطة . فإن الخرائط مثل الوجوه ، هي شارات التاريخ وتوقعاته .

عندما ارتقى فردريك الثانى العرش ١٥٥٩ كانت الدمرك من أقوى الدول وأكثرها امتدادا فى أوربا ، ولم تكن تعلمت بعد أنه من الخدق والحكمة أن تكون صغيرة . وفى الصراع الطويل الأمد بينها وبين السويد من أجل السيطرة على التجارة بين بحر الشمال والبلطيق ، كانت الدمرك هى المنتصرة فى بداية الأمر ، حتى امتد حكمها عبر الاسكاجراك إلى النرويج ، وعبر السكاتينجات إلى ما هو الآن جنوب السويد . واستولت على المدن الاستراتيجية كونهاجن وهلسينور فى الجانب الغربى ، ودالمو وهلسنبورج فى الجانب الشرقى من الأوريسوند أو السوند - أى المياه العاصفة التى لا يزيد اتساعها فى مكان واحد فقط على ثلاثة أميال ونصف الميل . والتى تفصل الآن الدمرك عن السويد . واستولت فى أقصى الشرق ، فى معظم هذه الفترة . على جزر بورنهم وجوتلاند وأوسل ، وبذلك تحكمت فى بحر البلطيق . وكانت تضم فى الجنوب دوقى شلزوويج وهولستين ، كما حكمت فى أقصى الشمال الغربى أيسلنده وجرينلند وكانت الضرائب والرسوم التى فرضتها الدمرك على التجارة المارة عبر المضائق بين البحار هى المصدر الأساسى لموارد المملكة والسبب الرئيسى فى حروبها . وكانت السلطة السياسية فى أيدي ثمانمائة من النبلاء ملكو نصف الأرض

وجعلوا من الفلاحين أرقاء ، وانتخبوا الملك ، وحكموا البلاد عن طريق
الريشستاخ أو الديت الوطنى (الجمعية التشريعية) والريجستاد أو مجلس الدولة .
وأفادوا من حركة الإصلاح الدينى بامتصاص معظم الممتلكات التى كانت
تابعة للكنيسة من قبل . وفى مقابل إعفائهم من الضرائب ، كان متوقعا منهم
ولكنهم رفضوا فى أغلب الأحيان ، أن يسلموا فلاحهم ويقودهم إلى
الحرب ، إذا استنزم الملك . ولم يحظ رجال الدين البروتستانت المحرومين من
الثورة إلا بمكانة اجتماعية هزيلة ونفوذ سياسى ضئيل ، ومهما يكن من أمر فإنهم
سيطروا على التعليم وأشرفوا على الأدب ، ومن ثم لم ينتج إلا لاهوتا وتراتيل .
ونعم جمهور السكان . وقد بلغ عددهم نحو مليون ، بالاسراف فى الطعام
والشراب ، حتى لقد نصح حلاق جراح عملاءه قائلا : « إبه لمن الأفضل للناس
أن يشربوا الخمر إلى حد التل مرة فى كل شهر ، وعندى لهذا أسباب قوية ،
فإنه يقويهم ويساعدهم على النوم العميق ، ويسهل التبول والتنفس ويحلب
السعادة الرفاهية عامة (١) .

وظهر فى هذه الحقبة شخصيتان ذمركيتان من حقهما على التاريخ أن
يذكرهما : تيكوبراهى أعظم الفلاسكين فى هذا الجيل ، وكريستيان الرابع
الذى لم يكن ملكا على الدنمرك لمدة ستين عاما (١٥٨٨ - ١٦٤٨) فحسب ، بل كان
يمكن كذلك أن يتزعم الناس بصرف النظر عن الأصل الملكى . ولإنا نمر مرورا
بها براهنا بوالده فردريك الثانى لنذكر أن المهندس المعمارى الفلمنكى أنطونيوس
فان أوبرجر صمم له (١٥٧٤ - ١٥٧٥) حصن قصر كرونبورج فى
هلسينور - « السينور هملت » .

وعنما مات فردريك ١٥٨٧ كان كريستيان صبيا فى الحادية عشرة ، فتولى
الحكم لمدة ثمان سنوات أربعة أوصياء من النبلاء ، ثم قبض كريستيان على
زمام الأمور ، وطيلة نصف القرن التالى . نعم بحياة مترفة فى بذخ وحيوية
ونشاط متعدد الجوانب ، بما أدهش كل أوروبا ، وبز الملك توجيهات الحلاق

الجراح سالف الذكر ، لأنه كان بانتظام في حاجة إلى من يعاونه في العودة إلى قصره بعد أمسية صاخبة مخمورة . وبلغ دنسه وتهتكه جدا لم يتفوق عليه فيه إلا لقليل من رعاياه . وخلق عدد أولاده غير الشرعيين مشكلة في علم المحاسبة . وغض شعبه النظر عن هذه الأخطاء العادية ، وأحبوه لأنه كان يرقص في أعراسهم واشترك في أعمالهم وخاطر بحياته كثيرا لخدمتهم ، وأضاف إلى هذا كله معرفته باللاتينية والعلوم ، وتدوفا مثقفا للفن ، وعقيدة دينية ميسرة لم تثر أى جدل حول الجدير وغير الجدير بالتصديق والثقة ، أو أى وخز للضمير حول المزاح والهزل . وساعد في أوقات فرغه على أن يجعل من كوبنهاجن (مرفأ التجار) إحدى العواصم الأكثر جاذبية وفتنة في أوروبا ، وضاعف برنامجها للبناء من محيط المدينة^(١٢) وفي عهده شيد قصر روزنبورج ، وسرعان ما قامت بعده سوق الأوراق المسالية (البورصة) بواجهتها الممتدة امتدادا كبيرا ، وارتفع برجها اللؤلؤي عاليا . وأصلح كريستيان حكومة النرويج وطور صناعتها وأعاد بناء عاصمتها التي حملت اسمه لمدة ثلاثة قرون : دكريستيانا ، (سميت أوسلو ١٩٢٥) . وفي الدنمرك أصلح الإدارة ونهض بالصناعات ونظم الشركات التجارية وأسس الكليات والمدن ، ورفع من مستوى الفلاحين في الضياع الملكية .

وأضح الطمع بالملك ، ذلك أنه كان يراوده حلم توحيد اسكنديناوه بأسرها تحت حكم رجل واحد ، أى تحت حكمه هو . ولكن النبلاء اعترضوا بأنه من المتعذر غزو السويد ، ولم يمنحوه تأييدهم وعونهم وشن بالجنود المرتزقة أساسا حرب السكلار على السويد (١٦١١ - ١٦١٣) . وما أن قامت حرب الثلاثين عاما حتى وجد نفسه على كره منه ، متحالفا مع السويد ، دافعا عن قضية البروتستانت . وبرغم هذا الخطر المحدق به استأنف الحرب مع السويد (١٦٤٣) ولو أنه كان في السابعة والستين من العمر . وقاد قواته الهزيلة في حماسة رومانتيكية . وفي معركة كولبرج البحرية (١٦٤٤) قاتل طوال يوم كامل على الرغم من أصابته بعشرين جرحا ، وفقد إحدى عينيه ،

وأحرز نصرا مؤقتا . وثبت في آخر الأمر أن السويد أقوى ، وحررها
صلح برومسيرو ١٦٤٥ من دفع الرسوم على تجارتها في مياه السويد ، وتخلي
لها عن جوتلند وأوزل وثلاث مقاطعات في شبه جزيرة اسكنديناوه . وعندما
مات كريستيان الرابع ، بعد خمسين عاما من أعمال بناءة وحروب هدامة
كانت مملكته أصغر مما كانت عليه حين اعتلى العرش . ودالت دولة الدنمرك
وسطوتها .

٢ - السويد : ١٥٦٠ - ١٦٥٤

١ - المذاهب المتصارعة : ١٥٦٠ - ١٦١١ :

فيما بين جوستاف فاسا مؤسس السويد الحديثة وجوستاف أدولف منقذ
البروتستانتية ومخلصها ، تلبد تاريخ السويد بسحب الصراع بين الشيع والدينية
من أجل السلطة السياسية . وكان المليك (الفاسا) الأول قد حرر السويد من
نير الدنمرك . ووجد البلاد تحت حكم ملكية وراثية قوية . على حين أن
أولي جاركيات النبلاء ساعدت على ضعف الدنمرك وبولندية وعلى الاقطاع
فيهما . وكان الفلاحون في السويد أحراراً ، وكانوا يمثلون في مجلس المدينة
(الركدساج) مع النبلاء ورجال الدين ويمثل المدين . وكانت لفظه
بوند Bondo التي كانت تعني في الدنمرك الرقيق ، تعني في السويد لقباً كريماً
للرجل الحر الذي يفلح أرضه الخاصة به . ولكن المناخ كان يحد من موارد
الأرض بشكل قاس ، كما كان يحد منها قلة عدد السكان ، وسيطرة الدنمرك
على ثلاث مقاطعات في شبه الجزيرة الاسكنديناوية وعلى مياه السويد .
وامتلات قلوب النبلاء غيظاً بسبب خضوعهم من جديد للملك ، وكانت
الكنيسة قد جردت من أملاكها في السويد ، فدأبوا على تدبير المؤمرات
للاستحواذ على الشعب واسترداد أملاك الكنيسة والاستيلاء على العرش .

ولم يكن أريك الرابع عشر - ابن جوستاف فاسا - (١٥٦٠ - ١٥٦٨)

مؤهلا لمواجهة هذه المشاكل . لقد كان يتحلى بالشجاعة والمقدرة ولكن طبعه العنيف أفسد عليه دبلوماسيته ، وأدى به إلى القتل والجنون . وأثار حفيظة النبلاء بقتل خمسة من زعمائهم ، قتل هو أحدهم بيده . وواصل ضد الدنمرك ، حرب السنين السبع الشمالية (١٥٦٣ - ١٥٧٠) . ومهد بغزو ليفونيا لحروب مقبلة . ونفر منه أخاه جون باعتراض سبيله في زيجة كان يمكن أن يجعل منه وريثا لعرش بولنדה ، فلما تزوج جون ، رغم أنف أخيه ، من الأميرة كاترين جاجالون ، احتجزه أريك في قلعة جريشولم . وجاءت كاترين لتشاطر جون ويلات السجن ، وأغرته باعتناق المذهب الكاثوليكي . وفي ١٥٦٨ أرغم أريك أخوته على التخلي عن العرش . وبعد ستة أعوام قضاهما في السجن أعدم بأمر من الملك الجديد .

وعقد جون الثالث (١٥٦٨ - ١٥٩٢) صلحا مع الدنمرك ومع النبلاء ، وأذكى نار الخلاف الديني من جديد . فإن زوجته كانت تغريه في الليل ، أكثر منها بالنهار ، باعتناق الكاثوليكية . وبإذن منه دخل الجزويت إلى السويد متنكرين ، وأخذ أقدارهم ، وهو أنطونيو بوسيفون ، على عاتقه تحويل الملك لإيها ، وكان وخز الضمير قاسيا كلما تذكر جون موافقته على قتل أخيه ، وأن عذاب النار هو العقاب الذي لا مفر منه لخطيئة مثل هذه . ولكن بوسيفون أغراه بأنه لا متجاة من هذا الحجم الذي ينتظره إلا بالاعتراف وطلب الغفران في الكنيسة التي يعتقد الناس جميعا بأن السيد المسيح هو الذي أقامها . وأذعن جون وتناول القربان المقدس وفق الطقوس الكاثوليكية ، ووعده بأن يجعل الكاثوليكية دين الدولة شريطة أن يرخص البابا لرجال الدين السويديين في الزواج ، وأن يقام القداس باللغة الوطنية ، وأن يقدم القربان المقدس بالنبيذ والحبز على السواء . وقصد بوسيفون إلى رومه ولكن البابا رفض الشروط . فعاد الجزويتى صفر اليدين . وأصدر جون أوامره إلى الجزويت بتناول القربان بكلتا نوعية وبتلاوة القداس باللغة السويدية فرفضوا ورحلوا . وماتت كاترين الكاثوليكية في ١٥٨٤ . وبعد ذلك بعام واحد

تزوج جون من سيدة بروتساتفية رده ثانياً إلى المذهب اللوثرى ، في الليل أكثر منها بالنهار .

وفي أغسطس انتخب لإبنه الكاثوليكى لعرش بولندة تحت اسم سيجسمند الثالث . ووفقا لقانون كالم اتفق الوالد والولد على أنه بعد وفاة جون يصبح سيجسمند ملكا على بولندة والسويد معا . ولكن سيجسمند آلى على نفسه أن يحترم استقلال السويد السياسى والمذهب البروتستانتى . وعند وفاة جون (١٥٩٢) انعقد مجلس الديت تحت رياسة أخيه الدوق شارل فى مدينة أبسالا (٢٥ فبراير ١٥٩٣) وكان يضم ٣٠٠ من رجال الدين و ٣٠٠ من العلمانيين - النبلاء وعمثلو المدن وعمال المناجم والفلاحين ، واتخذ مذهب أوجزبرج اللوثرى ١٥٤٠ مذهباً رسمياً للكنيسة والدولة فى السويد . وأعلن هذا المجتمع التاريخى (مجمع أبسالا) أن الأمة لن تتقبل غير اللوثرية وان تتسامح مع غيرها ، وألا يعين فى المناصب الكنسية أو السياسية إلا اللوثرىون الأقحاح وألا يتزوج سيجسمند فى السويد إلا بعد قبوله لهذه المبادئ . وفى الوقت نفسه اعترفوا بالدوق شارل نائبا للملك عند غيابه عن العرش .

ولكن سيجسمند الذى تلقى تعليمه على أيدي الجزويت ، كان يحلم بضم السويد وروسيا إلى حظيرة الكاثوليك . ولما وطأت قدماه أرض ستوكهلم (سبتمبر ١٥٩٣) وجد كل الزعماء السويديين تقريرا مجمعين على طلب أوثق ضمان لإمثاله لإعلان أبسالا . وظل خمسة أشهر يبحث عن حل وسط ، ولكن الزعماء بقوا على عنادهم ، وجمع الدوق شارل جيشا . وأخيرا أعطى سيجسمند التعهد المطلوب ، وتوجه أسقف لوثرى فى أبسالا (فبراير ١٥٩٤) . ولكن سرعان ما أصدر سيجسمند بيانا احتج فيه بأنه أكره على هذا التعهد تحت الضغط والتهديد ، وعين ستة من كبار الموظفين لحماية الكاثوليك الباقين فى السويد ، وفى أغسطس عاد أدراجه إلى بولنده .

وأعد الدوق شارل وأنجر مانوس رئيس أساقفة أبسالا العدة لتنفيذ

قرارات المجمع . ودعا مجلس الديت في سودر كوينج (١٥٩٥) إلى القضاء على كل عبادة كاثوليكية ، ونفى كل الطوائف المعارضة المذهب البروتستانتي ، وأمر بأن يضرب بالعصا كل من يتخلف عن حضور الصلوات اللوثرية ، ووقع هو العقوبة بنفسه عند زيارته للسكناس (٣) . وأغلق كل ما بقي من الأديار ، وأزيلت كل الأضرحة الكاثوليكية .

وتوسل إلى مسجسمند مستشاروه أن يغزو السويد بجيش كبير . ورأى هو أن خمسة آلاف جندي تفي بالغرض . وخطط رحاله بهم في السويد (١٥٩٨) واشتباك معه شارل في متجرج فهزم . وفي اشتباك آخر في ستانجبرو انتصر الدوق . ووافق مسجسمند من جديد على إعلان أبسالو وعاد إلى بولنده . وفي يولية ١٥٩٩ خلعه الديت السويدي ، وأصبح الدوق شارل الذي ما زال نائبا للملك ، الحاكم الفعلي للدولة . وأقر مجلس الديت (١٦٠٤) قانون الوراثة الذي نص على ألا يتولى العرش إلا كل ذكر أو أنثى من أسرة فاسا يرتضى العقيدة اللوثرية المقررة وأن كل مخالف لها لا يحق له الإقامة أو التملك في السويد . وفشل أمير ينجرف عن مبادئ أوجزبرج لا بد بطبيعة الحال أن يفقد تاجه (٤) ، ومن ثم كان الطريق معبدا لاعتلاء جوستاف أدولف ابن شارل عرش السويد ، ولتخلي حفيدته كريستينا . وفي ١٦٠٧ توج شارل التاسع ملكا .

وأصلح شارل الحكومة المختلفة ، ونهض بالتعليم والتجارة والصناعة ، وأسس مدن كارلستاد فيليبستاد وماريستاد وجوتبورج ، وهيأت هذه الأخيرة للسويد منفذا طيبا إلى بحر الشمال ، متغلبة بذلك على سيطرة الدنمرك على المضائق . وأعلن كريستيان الرابع الحرب (أبريل ١٦١١) وغزا السويد . وتحدى شارل ، وهو في الحادية والستين من العمر ، كريستيان لمبارزة فردية . فرفض هذا الأخير . ومات شارل في أكتوبر ١٦١١ ، والقتال على أشده ، ولكن قبل موته وضع يده على رأس ابنه وقال « أنت لها ، . وقد كان لها فعلا (٥) .

٢ - جوستاف أدولف ١٦١١ - ١٦٣٠ :

وكان أعظم شخصية رومانتيكية في تاريخ السويد ، وهو في سن السادسة عشرة آنذاك . وكانت أمه ألمانية ، ابنة الدوق أدولفوس هولتين جوتورب . ولقنه أبوه وأمّه تعليماً صارماً في اللتين السويديّة والألمانية وفي المذهب البروتستانتي . وما أن بلغ الثانية عشرة حتى كان قد درس اللاتينية والإيطالية والهولندية . والتقط بعد ذلك شيئاً من الإنجليزية والأسبانية ، بل حتى البولندية والروسية ، وأضيف إلى هذا كله جرعة قوية من الأدب القديم انسجم مع تدريبه في الألعاب الرياضية والشئون العامة وفنون الحرب وبدأ في سن التاسعة يشهد جلسات الديت ، واستقبل السفراء في الثالثة عشرة وفي الخامسة عشرة حكم إحدى المقاطعات ، وفي السادسة عشرة اشترك في القتال . وكان طويل القامة وسيماً دمثاً كريماً رحيماً ذكياً ، بأسلاً . وماذا يتطلب التاريخ أكثر من هذا في الرجل ؟ وكانت له في السويد شعبية عارمة إلى حد أن أبناء النبلاء الذين أعدمهم شارل التاسع بتهمة الخيانة ، سارعوا طائعين مختارين إلى خدمته .

ولم تبرز في جوستاف أدولف نزعة آل فاسا إلى المزاج الفردي والعنف ولكنها برزت في حبه للحروب . لقد ورث عن أبيه حرب الكلمر ضد الدنمرك ، ففض الحرب عليها في حماسة بالغة ولكنه أحس بأن هذه الحرب تسلك مسيلاً بعيداً عن الرشد والهدوء ، فدفع للدنمرك في ١٦١٣ مليون طالير (عملة ألمانية قديمة - ١٠ مليون دولار) مقابل السلام بينهما ومقابل حرية السفن السويدية عبر المضائق ومياه السويد . وفي هذه المرحلة من نشاطه كان مهتماً بإبعاد روسيا عن البلطيق ، فكتب إلى أمه يقول : « إذا أدركت روسيا قوتها في أية لحظة ، فإنها لا تستطيع اجتياح فنلندا (وكانت آنذاك جزءاً من السويد) من الجانبين فحسب ، بل تستطيع كذلك حشد أسطول في البلطيق ، يعرض أرض الأجداد للخطر (٦) فأرسل أعظم قواده دهاء - جاكوب

دى لاجاردى - ليغزو انجريا ، وفي ١٦١٥ حاصر بنفسه بسكوف . وكانت المقاومة الروسية مرهقة ولكن بالتهديد بالتحالف مع بولنده ، استطاع جوستاف أن يقنع القيصر ميكائيل رومانوف بعقد صلح (١٦١٧) يعترف بسيطرة السويد على ليفونيا واستونيا وشمال غربى انجريا ، بما فى ذلك لشجراد الحالية . وسدت بذلك منافذ البلطيق أمام روسيا . وكان جوستاف يفخر بأن روسيا لا تستطيع تسيير سفينة واحدة فى البحر دون إذن من السويد .

ثم ولى وجهه شطر بولنده حيث كان هليسيكها سحسمند الثالث لا يزال يطالب بعرش السويد . وكانت الكاثوليكية آنذاك منتصرة فى بولنده ، ومتلطفه على فرصة تسنح للسيطرة على السويد ، وفوق ذلك كانت بولنده بما لها من ثغور قوية فى دانزج وميل ولييو وريغا ، منافسا أقوى من روسيا ، فى السيطرة على البلطيق والتحكم فيه . وفى ١٦٢١ قاد جوستاف ١٥٨ سفينة و ١٩ ألف جندى لحصار ريفا التى كان يمر بها ثلث صادرات بولنده ، وكانت غالبية سكانها من البروتستانت ، وقد لا يستأون من غزو سيد أجنبي لها . فلما استسلمت دون مقاومة ، عاملها جوستاف فى رفق ولين ليضمن وقوفها إلى جانبه ، وفى أثناء الهدنة التى استمرت ثلاث سنوات مع بولنده ، استطاع هو أن يقوى روح جيشه وضمبطه ونظامه ، وجعل - مثل معاصره كرومويل - من التيق والورع أداة للخلق العسكرى . ودرس فن موريس ناسو العسكرى ، وتعلم كيف يمكن كسب المعارك بسرعة الحركة والاستراتيجية البعيدة النظر . واستقدم من هولنده خبراء فنيين ليعلموا رجاله تكديك الحصار واستخدام المدفعية . وفى ١٦٢٥ عبر البلطيق مرة ثانية واستولى على دوريات ، وثبت سيطرة السويد على ليفونيا ، وأوجد البلطيق تماما فى وجه لتوانيا . وبعد سنة أخرى أخضعت جيوشه بروسيا الشرقية والغربية ، وكانتا خاضعتين للتاج البولندى . ولم تصمد سوى دانزج . وصارت الأقاليم المفتوحة مقاطعات سويدية وطردها الجزويت . وجعلت للوثرية المذهب الرسمى . وكانت

أوروبا البروتستانتية ترنو إلى جوستاف ، على أنه منقذها المنتظر في الحرب
السكبرى التي كانت تجتاح ألمانيا آنذاك .

وفي أوقات السلم واجه جوستاف مشكلات الإدارة الداخلة بذكاء وحنكة
أقل منهما في الحرب . وكان أيام غيابه في المعارك يعهد بحكومة البلاد إلى النبلاء
وكان يبيح لهم ، ضمانا لولايتهم ، احتكار المناصب وشراء أراضي التاج الشاسعة
لقاء ثمن زهيد . ولكنه وجد فسحة من الوقت لتثبيت دعائم الموارد المالية
 وإعادة تنظيم المحاكم والخدمات البريدية والمستشفيات وتحسين أحوال الفقراء .
 وأسس المدارس المجانية وجامعة دوربات ، وأغدق بسخاء على جامعة أوبسالا ،
 ونهض بالتعدين وعلم المعادن . ولم يكن نجاحا يسيرا ، من بين ما حققه من
 نجاح في مجالات مختلفة ، أن السويد توافرت فيها الموارد والخبرات والمهارة
 لصناعة الأسلحة . وشجع التجارة الأجنبية عن طريق منح الاحتكارات ،
 ومنح شركة البحار الجنوبية السويدية امتيازاً . وروع وزيره أوكسنستيرنا ،
 الذي عرف بهدوئه في مواجهة الأزمات ، بطاقة مليسك ونشاطه فقال : دإن
 الملك يشرف على المناجم والتجارة ، والصناعات والجمارك ويوجهها كما يدير
 موجه الدفة سفينته^(٧) ، وتوسل إلى جوستاف أن يخفف من نشاطه ، فأجابه
 الملك بقوله : دلو كنا جميعا في مثل رودتك لتجمدنا ، فرد عليه الوزير بقوله
 دلو كنا جميعا في مثل حرارة جلاتسكم لاحترقنا^(٨) .

وكان الآن لزاما أن تندس الحمى المدمرة التي تضطرم بين جنبي الفارس
السويدي إلى دحرب الثلاثين ، ، فقد قال : دإن كل حروب أوروبا يعلق
 بعضها ببعض^(٩) ، وكان قد لاحظ بقلق بالغ انتصارات ولشنتين وتقدم جيوش
 آل هيسبرج في شمال ألمانيا وانهيار مقاومة الدنمرك ، وتحالف بولنده مع
 النمسا ، وهما كاثوليكيان ، ومن ثم فسرعان ما قد تسعى قوات آل هيسبرج
 إلى السيطرة على البلطيق . وبذلك قد تصبح تجارة السويد وعتيدتها وحياتها
 تحت رحمة الإمبراطورية والبابوية . وفي ٢٠ مايو ١٦٢٩ أرسل جوستاف
 إلى مجلس الديت السويدي تحذير من خطه ولشنتين في أن يجعل من البلطيق

بحيرة يتحكم فيها آل هبسبرج . وأوصى بالهجوم على أنه خير وسيلة للدفاع ، وأهاب بالأمة أن تهب لمساندته وتمويل دخوله في معركة فاصلة (هر مجدون مع سهل مجدو - العهد الجديد رؤبا يوحنا ١٦ : ١٦ - معركة فاصلة بين الخير والشر) تحدد مصير المذاهب اللاهوتية . وكانت السويد مثقلة فعلا بأعباء حملاته ، ولما كان مجلس الديت والشعب إستجابا لندائه وبمونة ريشايو أقنع بولنده بعقد هدنة مدتها ست سنوات (سبتمبر ١٦٢٩) . وقضى أسعة شهور في جمع السفن والمؤن والجنود والحلفاء . وفي ٣٠ مايو ١٦٣٠ خطب في الديت خطبة وداع مؤثرة بليغة ، وكأنما كان قلبه يحدته بأنه لن يرى السويد ثانية . وفيما بين ٢٦ - ٢٨ يونية ألفت سفنه من اسيا على جزيرة على مسافة من شواطئ بو مير انيا ، وأطلق جوستاف إلى ساحة المجد والموت معا .

٣ - الملكة كريستينا ١٦٣٢ - ١٦٥٤ :

عين جوستاف ، عندما كانت ابنته وريثة عرشه طفلة في الرابعة - واحدا من أقدر رجال الدولة والسياسة في هذا العصر الزاخر بالعبارة . هو الكونت أكسل أو كسنسترا ، وصيا . وقد وصفته كريستينا فيما بعد بقولها : د لقد درس وتعلم كثيرا في شبابه ، ودأب على الدرس في زحمة العمل . وكانت قدرته ومعرفته بشئون العالم وأحواله عظيمنتين جدا . وعرف مواطن القوة والضعف في كل دولة في أوروبا . وكان طموحا ، ولكنه كان كذلك مخالصا غير قابل للفساد أو الرشوة ، ومن ناحية أخرى بطيء متوان بارد المزاج لايبالي ، إلى حد كبير ، (١٠) . وعرف عن الكونت أنه - صموت ، وأما عدم إفصاحه عن شيء . حتى وهو يتحدث ، فهذا هو نصف في اللبوماسية . وعلى مدى عامين حكم الكونت السديد حكما صالحا حين كان الملك جوستاف يخرج للحرب في أماكن بعيدة . ثم ، بوصفه وصيا على كريستينا ، وجه جيوش السويد في ألمانيا ، كما أدار دفة الأمور في الداخل ، ولم تنعم أية دولة في أوروبا طيلة هذه الأعوام الاثني عشر بحكومة أفضل من حكومة السويد . وفي ١٦٤٣ صاغ ما يعرف بشكل الحكومة ، حدد فيه تشيكيل كل فرع في الإدارة وصلاحياته وواجباته . وهذا هو أقدم نموذج معروف للمستور مسطور .

وفي ١٦٤٤ أحست كريستينا ، وهي الآن في ربيعها الثامن عشر ، أنها قادرة على حكم هذه الأمة الشديدة الحساسية النابضة بالحياة ، والتي بلغ عدد سكانها المليون ونصف المليون من الأتقياء . والحق أنها تحلمت بكل قدرات ومواهب رجل ذكي مبكر النضج . وقالت هي عن نفسها : « خرجت إلى الحياة وكل سلاحى شعري ، وكان صوتى قويا خشنا ، مما جعل النساء يفكرن أنى صبي ، وعبرن عن فرحن بهتافات ضللت الملك فى أول الأمر (١١) . » . وقابل جوستاف نبأ اكتشاف أنها أنثى فى رجولة مهذبة ، وأحبها حبا عميقا حتى بدأ أنه راض عن أن تكون هى وريثة سلطانه وعرشه . على حين أن أمها ماريا الينورا أوف براندنبرج لم تغفر لها قط كونها أنثى . وربما أسهم استياء الأم فى أن كريستينا صارت أكثر شها بالرجل قدر ما كان يسمح لها جسمها وتكوينها بذلك ، فأهملت شخصها عن عمد ، واحتقرت التزين ، وأقسمت كما يقسم الرجال ، وأحبت أن تترى بزيمهم ، واعتادت على ألعايمهم ، وركبت منفرجة الساقين بأقصى سرعة ، وأصطادت فى تهور واندفاع ، وجندلت فريستها من أول طليقة . ولكنها كانت تقول : لم أقتل مرة حيوانا إلا وأحسست بالشفقة نحوه (١٢) . » .

وعلى الرغم من هذا كله ، تحلمت فى كريستينا بعض مفاتن النساء . وفى ١٦٥٣ كتب بيير هيوت الذى أصبح فيما بعد أسقف آفرانش يقول : « وجهها دقيق جميل ، وشعرها ذهبى وعيناها براقتان . . . يرسم التواضع على وجهها ، ويبدو عندما تحمر وجنتاها خجلا لدى سماع أية لفظة نائية (١٣) . » . وقال قسيس الاعتراف الجزويتى لدى السفير الأسباني : « ولم تكن تطيق فكرة الزواج ، لأنها ولدت حرة طليقة ، وسوف تموت حرة طليقة كذلك (١٤) . » . ويبدو أنها كانت تحس أن الاتصال الجنسى ليس بالنسبة للمرأة إلا ضرابا من المذلة والهوان . ولا ريب فى أنها أدركت — كما أدركت اليزابث ملكة انجلترا ، أن زوجها لا بد أن يطمع فى أن يكون ملكا . وكانت تعى أخطاها بشكل بالغ الحساسية وتعترف بها فى شجاعة وجرأة . كمنت قليلة الثقة بالناس ،

شكا كل طموحة إلى حد الإفراط ، حادة الطبع ، غفورة مغرورة ، هزدرية للناس ، هجاء ، لم أرحم أحدا ، مغطورة على الشك ، قليلة التعصب أو التحمس للدين (١٥) ، واكبتها كانت كريمة إلى حد الإسراف ، مخلصه في عملها . ويقول القسيس الجزويتي ، كانت لا تنام أكثر من ثلاث أو أربع ساعات ، فإذا استيقظت قضت خمس ساعات في القراءة . ولم تشرب قط إلا الماء القراح ، ولم تسمع قط تتحدث عن طعامها فهو جيد أم ردى الطهى وكانت تحضر إلى مجلسها بانتظام وانتابها الحمى مرة لمدة ثمانية وعشرين يوما لم تهمل فيها قط شؤون الدولة واتصل السفراء بها وتعاملوا معها مباشرة ، فلم يمر وقت يوما على سكرتير أو وزير (١٦) .

ولم تتطلع إلى أن تنافس الشبان في ألعابهم ورياضتهم ، ورجال البلاط في مجال السياسة فحسب ، بل أنها أرادت كذلك أن تنافس العلماء في علمهم ، لا في اللغات والآداب وحدها ، بل في العلوم والفلسفة أيضا . وما أن بلغت الرابعة عشرة حتى كانت قد درست الألمانية والفرنسية والإيطالية والأسبانية وفي الثامنة عشرة درست اللاتينية ، وبعد ذلك بقليل اليونانية والعبرية والعربية ، وقرأت للشعراء الفرنسيين والإيطاليين وأحبتهم ، وحسدت فرنسا على مدنيها التي تفيض حيوية ونشاطا ومرحا . وراسلت في لهفة وحماسة ، الباحثين ، ورجال العلم والفلسفة في عدة بلاد ، وجمعت مكتبة ضخمة تضم مخطوطات قديمة نادرة ، هرع الطلبة للرجوع إليها والتزود منها من كل حذب وصوب . وعند وفاتها تأثر الخبراء بذوقها الرفيع الذي تجلج في اقتناء اللوحات والتماثيل والقطع الفنية المزخرفة بالمينا والمنقوشة على الخشب والمعدن ، والتحف الأثرية . لقد جمعت العلماء ، كما جمعت روائع الفن . وتاقت إلى رؤية العلماء والنقاد والمفكرين يحيطون بها ، وجذبت إلى بلاطها كلوديوسى سالما سيوسى وايزان فوسسيوسى . وهو جو جروشيوس ونيقولا هذسيوس ، وأجزلت لهم العطاء في سخاء . ومن لم يستطع منهم الحضور أرسلوا إليها كتبهم مع شكرهم وتقديرهم - مثل سكارون وجى دى بلزاك ومد موازيل

دى سكود يرى . أما ملتون الوقور فإنه - على حين كان يشن هجوما عنيفا على سالما سيوس سالف الذكر - صرح بأنها دصالحة لحكم العام بأسره ، لا أوربا وحدها^(١٧) . وأرسل إليها بسكال آلتة الحاسبة مع رسالة بالغة الرقة يهنئها ويمتدحها بأنها متربعة على عرش بملسكة العقل والحكم معا^(١٨) .

وكان غرامها شديدا بالفلسفة ، وراسلت جاسندى ، الذى هناها - كما هناها مائة غيره ، بأنها حققت حلم أفلاطون فى وجود ملوك فلاسفة . وجاء فيلسوف العصر المشهور ، رينيه ديكارت ، ورأى ، وعجب إذ سمعها تستنتج أفكاره الأثيرة لديه عن أفلاطون^(١٩) . فلما حاول أن يقنعها بأن كل الحيوانات آلات ، ردت عليه بقولها أنها لم ترقط ساعة يدها تلد ساعات د أضفالا^(٢٠) ، أى ساعات صغيرة . ومثل هذا كثير فيما بعد .

ولم تهمل كريستينا المواهب المحلية . فقد كانت السويد متعددة جوانب الثقافة الحقة . فكان جورج سترنهم عالما لغويا . متضلعا فى القانون ، من رجال العلوم ، رياضيا ، مؤرخا ، فيلسوفا ، أبا للشعر السويدي . ومركزا للحياة العقلية فى هذا العصر . وأبجت به جوستاف أدولف رفعة إلى مرتبة النبلاء . وعينته كريستينا شاعر البلاط ، حتى لحق بأعدائها^(٢١) .

وفتنت بنظريات جون كومنيوس فى التربية ، فاستقدمته إلى ستوكهلم ليصالح نظم التعليم فى السويد . ومثلا فعلت إيزابيث بالنسبة لآ كسمورد وكبرديج ، زارت كريستينا جامعة أفسالا لتشجع بحضورها الأساتذة والطلبة ، واستمعت إلى سترنهم وغيره يحاضرون فى النص العبرى للتوراة . وشادت كلية فى دوريات وأهدتها مكتبة ، وأسست ست كليات أخرى . وطورت إلى جامعة ، الكلية التى كان أبوها قد أسسها فى آبو (توركو) فى فنلنده . وأرسلت الطلبة للدراسة فى الخارج ، وبعثت بنفر منهم إلى شبه جزيرة العرب ليدرخوا علوم الشرق . واستقدمت بعض الهولنديين المشغولين بالطباعة ليؤسخوا دارا للنشر فى ستوكهلم . وشجعت زجال العلم السويديين على الكتابة باللغة

الوطنية ، حتى ينتشر العلم بين أفراد الشعب . ولا نزاع في أنها كانت من أعظم الحكام المستنيرين في التاريخ .

وهل وهبت هذه الملكة عقلا خاصا بها ، أم أنها كانت مجرد وعاء لا يميز تندفق فيه كل التيارات العقلية والفكرية التي تدور حولها ؟ لقد انعقد الاجماع عن أنها فيما يتعلق بالحكومة كانت تتصرف بمحض تفكيرها ، وصنعت قراراتها بنفسها ، وحكمت وملكت سواء بسواء (٢٢٢) . وسنرى في فصل لاحق كيف أنها اعترضت على سياسة أوكسنسترن العسكرية ، وكالفت من أجل السلام ، وساعدت على انهاء حرب الثلاثين عاما . أن قصاصات مذكراتها فاتنة مفعمة بالحياة ، وليس في الحكم والأمثال التي تركتها بخط يدها شيء مبتذل ، ومثال ذلك :

إن قيمة المرء على قدر ما يستطيع أن يحب .

ويجدر أن نخشى الحق البلاء أكثر مما نخشى الأوغاد .

إنك تسيء إلى الناس إذا لم تخدعهم .

المواهب الخارقة جريمة لا تغفر .

هناك نجوم يوحد بين الناس من الطراز الأول ، رغم أن العصور والمسافات تفرق بينهم .

أن الزواج ليحتاج إلى شجاعة أكثر مما تحتاج الحرب .

إن المرء ليرتفع فوق كل شيء إذا لم يخشى شيئا ، ولم يحسب لأي شيء

حسابا .

إن الذي يغضب من الدنيا أشبه بمن تعلم كل ما تعلم دون هدف أو غاية .

إن الفلسفة لا تغير الناس ولا تصلحهم (٢٢٣) .

وأخيرا ، وبعد اختيار عدد من الفلسفات ، وربما بعد أن امتنع عن أن تكون مسيحية ، أصبحت كريستينا كاثوليكية أنها مهمة بأنها رضعت

لبان الإلحاد والكفر من طيبيها بورديلوت^(٢٤) . وذهب مؤرخ سويدي - وكرر فولتير قوله^(٢٥) - إلى أن تحولها إلى الكيشلوك كان تمثيلية هزلية مقصودة ، وبناء على هذه النظرية ، تكون كريستينا قد انتهت إلى النتيجة التي تقول بأنه هادامت الحقيقة شيئا لا يمكن معرفته أو الوصول إليه ، فللمرء أن يختار الديانة التي تستهوى قلبه وتتفق مع فكرة الجمال أكثر من غيرها^(٢٦) ، وتوفر أكبر قدر من الطمأنينة للناس . ولكن الارتداد إلى الكاثوليكية رد فعل صادق مخلص بعد التشكك المفرط ، فقد يحفز التصوف جذوره في أعماق الشك . لقد كان في كريستينا عناصر صوفية خفية ، فكل مذكراتها موجهة إلى الله في إخلاص بالغ . إن الإيمان ثوب واق . وإن التجرد الكامل منه ليترك الإنسان في حالة عري فكري يتطلع إلى السماء والدفء . وأي ثوب أذفاً من كاثوليكية فرنسا وإيطاليا الحسية النابضة بالحياة ؟ وتساءلت الملكة : وكيف يكون المرء مسيحياً دون أن يكون كاثوليكيًا^(٢٧) ؟ ، .

وفكرت كريستينا ملياً في هذه المسألة وفي المضاعفات التي ينطوي عليها ارتدادها فإنها إن تركت اللوثرية ، فلا بد لها ، بمقتضى قوانين مملكتها ووالدها الحبيب - أن تتخلي عن عرشها ، وأن تغادر بلادها كذلك . وأية نكسة مروعة يكون هذا التحول في العقيدة لدفاع والدها البطولي عن أوروبا البروتستانتية ، ولكنها ضاقت ذرعا ولاقت نصبا من واجباتها الرسمية ومن خطب الوعاظ والمستشارين الرنانة ، ومن الثالوث المتحدلق من العلماء والأثريين والمؤرخين . وربما تعبت منها السويد وضاقت بها ذرعا كذلك . وقد أفقرها وهبط بمواردها تخليها من أراضي التاج وهداياها وهباتها السخية لذوى الخطوة لديها والقربيين منها . وتكتملت أغلبية النبلاء ضد سياستها . وفي ١٦٥١ كان ثمة هبة توشك أن تكون ثورة . ولكن زعماءها أعدموا على عجل^(٢٨) . ولكنها خلقت وراها امتعاضاً شديداً ، ولكن انتابها المرض آخر الأمر ، لقد أضرت هي بصحتها . وربما كان السبب في ذلك كثرة العمل والدرس .

وكم من مرة أصابتها الحميات الخطيرة ، مصحوبة بأعراض التهاب الرئتين . وكم من مرة غشيتها اعمامة ، وظلت فاقدة الوعي لمدة ساعة . واشتد عليها المرض في ١٦٤٨ فقالت أنها أقسمت أن تتخلى عن كل شيء وتصبح كاثوليكية إذا برئت من سقامها وحفظ الله لها حياتها^(٢٩) ، . إنها كانت ابنة البحر المتوسط فارتعدت فرائصها من برد الشمال القاسي في الشتاء ، وتاقت نفسها إلى سماء إيطاليا ومتنديات فرنسا . فكلم يكون جميلا أن تلحق بالنساء المثققات اللاتي بدأن مهمتهن الفذة في رعايه الحياة الفكرية والعقلية في فرنسا ، إذا استطاعت أن تحمل معها ثروة كافية !!

وفي ١٦٥٢ بعثت سرا إلى رومة بأحد الملحقين في سفارة البرتغال ليطلب قدوم بعض الجزويت ليناقشوا معها اللاهوت الكاثوليكي ، فجاءوا متنكرين . ولكن فت في عضدهم وثبط من همتهم بعض الأسئلة التي وجهتها إليهم - هل يوجد إله حقا ، هل تبقى الروح بعد فناء الجسم ، وهل ثمة تمييز بين الصواب والخطأ إلا عن طريق المنفعة . فلما أوشكوا على الرحيل - ياسا - هدأت من روعهم بقولها : ماذا نرون لو أني كنت أقرب إلى أن أصبح كاثوليكية مما نظنون ؟ ، وقال أحد الجزويت تعقيبا على ذلك : فلما سمعنا هذا أحسنا بأننا بعثنا من مرقدنا^(٣٠) ، .

وكان اعتناق الكشلكة قبل التخلي عن العرش أمرا محظورا قانونا . ولكنها رغبت قبل التخلي عن العرش ، في الحفاظ على الطابع الوراثي للملكية السويدية ، عن طريق إقناع الديت بالتصديق على اعتبارها لابن عمها شارل جوستاف . خلفا لها . ولكن طول المفاوضات أجل نزولها عن العرش حتى ٦ يونيو ١٦٥٤ . وكان الاحتفال الأخير مؤثرا قدر ما كان تخلي شارل الخامس عن العرش مؤثرا قبل ذلك بتسعين عاما . فإنها نزع التاج عن رأسها ، وطرح كل الشارات الملكية ، وخلعت العباة الملكية ، ووقفت أمام الديت في ثوب بسيط من الحرير الأبيض ، وودعت بلدها وشعبها بخطاب فجر

بالدموع عيون النبلاء العجائز الرابطة الجأش ، ويمثلي المدن القليلي الكلام .
ووفر لها المجلس الموارد للمستقبل . وأباح لها الاحتفاظ بحقوقها الملكية
على حاشيتها .

وغادرت ستوكهولم عند الغسق ، بعد خمسة أيام من تخليها عن العرش .
وتوقفت في نيكوبنج لزيارة أخيرة لأهها . ثم مضت في طريقها ، ولما لم تذق
طعم النوم لمدة يومين ، فإنها مرضت بذات الجنب ، فلما برئت تابعت المسير
إلى هامستاد . وهناك كتبت إلى جامندي ، بأنها تمنحه معاشا وتبعث إليه
بسلسلة ذهبية . وفي اللحظة الأخيرة ملقت عرضا بالزواج من الملك شارل
العاشر الذي توج حديثا ، فرفضت في عطف وكياسة وتنكرت في زى رجل
تحت اسم كونت دونا ، وركبت البحر إلى الدنمرك ، دون أن تدري أنها لمدة
خمس وثلاثين سنة أخرى ستلعب دورا في التاريخ .

٣ - بولنده تكفر عن ذنبها : ١٥٦٩ - ١٦٤٨ :

في هذا العصر عقدت بولنده أيضا أواصر السلام مع الكنيسة
الكاثوليكية . وقد يكون من المفيد أن نرى كيف استردت الكاثوليكية
بسرعة في هذه المملكة تقريبا كل ما كانت قد فقدته من مكانة في حركة
الإصلاح الديني ، ولكن فلنمر أولا مرورا عابرا ، كالمعتاد ، بالخلفية السياسية
لهذا التطور الثقافي .

١ - الدولة :

تبدأ الفترة بحدث بارز تم لإنجازه في فن الحكم . كانت دوقية لتوانيا
الكبيرة تقع إلى الجنوب الشرقي من بولنده ، يحكمها أدواقها ، وتمتد من
البلطيق عبر كييف وأوكرانيا إلى أودسا والبحر الأسود . وكان نمو قوة
روسيا يعرض استقلال لتوانيا للخطر . وعلى الرغم من توافق عقيدتها

الأرثوذكسية اليونانية إلى حد كبير مع ديانة روسيا ، فإنها أقرت كارهة أن الاندماج مع بولندا الكاثوليكية قد يكون أفضل للحفاظ على حكمها اللداني من معانقة الدب الروسي . وميز سجنسند الثاني عهده بتوقيع اتحاد لوبلين ، التاريخي (١ يولية ١٥٦٩) . واعترفت لتوانيا بملك بولندا دوقا أعظم ، عليها . وبعثت بمندوبين أو ممثلين لها إلى البرلمان في وارسو ، وارتضت أن يكون لهذا البرلمان حق السيطرة على علاقتها الخارجية ، ولكنها احتفظت بعقيدتها وقوانينها وحق التصرف في شئونها الداخلية . واتسعت أطراف بولندا وبلغ عدد سكانها الآن إحدى عشر مليوناً من الأنفوس ، من دانزج إلى أوديسا ، ومن البحر إلى البحر . فكانت إحدى الدول العظمى دون منازع .

وبموت سجنسند الثاني دون عقب ذكر (١٥٧٢) انتهت أسرة دجاجالون ، التي كانت قد بدأت في ١٣٨٦ ، وهيأت لبولندا خطاً متصلًا من ملوك اتسموا بالحقاق والإبداع ، وحضارة قامت على التسامح الديني واستغاظة قوامها الروح الانسانية . وكان النبلاء يكرهون الملكية الوراثية ، على أنها إهدار لحقوقهم وحررياتهم الاقتصادية ، فاستقر عزمهم الآن على الاحتفاظ بالسلطة في أيديهم عن طريق ملكية انتخابية ، فأسسوا جمهورية من النبلاء وجعلوا ملوك بولندا القادمين خدما أو أتباعا للبرلمان . ولما لم يكن البرلمان يضم كبار النبلاء أو الأعيان فحسب ، بل كان يضم كذلك ضغائر النبلاء ، فقد بدأ أن هذه الخطة تحقق المثل الأعلى لأرسطو في حكومة تمتزج فيها العناصر الملكية والأرستقراطية والديمقراطية ، في قيود وضوابط متبادلة . ومهما يكن من أمر ، فإن الدستور الجديد ، في نطاق ذلك العصر ، لم يكن يعني إلا انتكاسة إقطاعية ، تفتيت السلطة والزعامات ، على حين كانت منافسة بولندا في البلاطيق — السويد وروسيا — تنهصران في وحدات عسكرية بفضائل الملكيات الوراثية التي كان يهتق لها أن تفكر على أساس الأجيال . وبات انتخاب الملك الآن في بولندا مزادا لأصوات النبلاء تعطى لمن يدفع أكثر من بين المرشحين

الذين تمولهم ، عادة الدول الأجنبية . وبذلك استطاع عملاء فرنسا بتوزيع العطايا والأموال باليمين وبالشمال ، شراء تاج بولنדה للمنجل المنحرف هنري قالوا (١٥٧٣) ليعيدوه بعد ذلك بعام واحد ليحكم فرنسا حكماً سيئاً فاسداً تحت اسم هنري الثالث .

وأصلح مجلس الديت الذي يتولى الإلتخاب خطأه ، بعد فترة خلا فيها العرش وعمت الفوضى ، باختياره مستيفن باثوري ملكاً (١٥٧٥) . وكان ، بوصفه أميراً على ترنسلفانيا ، قد اشتهر بالفعل في مجال السياسة وميدان الحرب وكان عملاؤه في وارسو قد وعدوا بأنه سيسدد إذا انتخب، الدين الوطني، ويمد الخزانة بمائتي ألف فلورين . ويسترد الأراضي التي كانت بولنדה قد نزلت عنها لروسيا ، ويضحي بحياته في ميدان القتال ، إذا اقتضى الأمر من أجل شرف بولنדה ومجدها ، ومن ذا الذي يستطيع أن يقف في سبيل هذا العرض ؟ . وعلى حين أيدت قلة غنية من النبلاء ترشيح مكسميليان الثاني النمسوي ، نادى سبعة آلاف عضو من الديت المنتخب ببأثوري ، فقدم معه ٢٥٠٠ جندي ، وكسب قلوب كثير من الناس بزواجه من أناجاولون ، وقاد جيشاً ضد دانزج (التي رفضت الإعراف به) وأرغم الثغر المغرور على دفع غرامة قدرها مائتي ألف جولدن للخزانة الوطنية .

وعلى الرغم من كل هذا لم يستوثق النبلاء من أنهم يجوبون الملك الجديد ، بعينه الحاد بين النافذتين . وتفسكيره الواقعي ، وشاربه المروع ، وحيته التي توحى بالاستبداد والدكتاتورية . لقد احتقر الأبهة والمواكب والاحتفالات ، وارتدى ثياباً بسيطة ، بل لبس الملابس المرقعة ، وكان طعامه المفضل من لحم البقر والسكرنب . ولما طالب بالمال لتجهيز حملة على روسيا أمده النبلاء بقدر غير كاف ، وهم متذمرون . وتقدم معتمداً على معونات ترنسلفانيا ، بجيش صغير ، وحاصر بسكوف ثلاثة مدن روسيا آنذاك من حيث الحجم . وأحس إيفان الرابع على الرغم من أنه كان يرهب شعبه ، بأنه أكبر سناً من أن يلاقى عدواً في مثل

هذه الحيوية والنشاط ، فطلب الصلح ونزل على ليفونيا لبولنדה ، وسلم بأبعاد روسيا عن البلطيق (١٥٨٢) . وعندما أدركت إيفان المنية (١٥٨٤) اقترح باثوري على سكستس الخامس أن يغزو كل روسيا ويوحدها مع بولنדה ، ويطرده الأتراك من أوروبا ، ويعيد كل أوروبا الشرقية إلى حظيرة البابا . ولم يعترض البابا . ولكن في غمرة هذه الاستعدادات الشاقة لحملة صليبية ، فارق باثوري الحياة (١٥٨٦) . واعترفت بولنדה ، بعد مماته وبعد أن كف عن إرهابها بأنه من أعظم ملوكها .

وبعد سنة من المساومة خلع الديت العرش على سيجسمند الثالث ، الذي يمكن بوصفه وريثا لعرش السويد ، أن يوحد البلدين لسطرا على مياه البلطيق ويعوقا توسع روسيا . وقضى سيجسمند كما رأينا ، نصف مدة حكمه في مجالات عقيمة لتشييت سلطانه . وتدعيم المذهب الكاثوليكي في السويد . وسنحت فرصة أخرى لسيجسمند بموت بوريس جودونوف المفاجيء (١٦٠٥) ، حيث سمت روسيا حالة من الفوضى أصبحت معها عاجزة عن الدفاع عن نفسها ودون استشارة البرلمان البولندي أعلن سيجسمند ترشيح نفسه للعرش المسكوفي وسار بجيش إلى روسيا . وعلى حين قضى هو عامين في حصار سمولنسك ، هزم قائده ستانلاس زلكوسكي الروس في كلوشينو وتقدم نحو موسكو ، واقنع النبلاء بقبول لادسوس بن سيجسمند ملكا عليهم (١٦١٠) . ولكن هذا الأخير أنكر هذه الترتيبات ، فيجب أن يكون القيصر هو لابنه . فلما استولى آخر الأمر على سمولنسك (١٦١١) ، تقدم نحو موسكو ، ولكنه لم يصل إليها قط ، فقد أهمل الشتاء بمعوقاته . وتمرد جنوده الذين لم يتقاضوا رواتبهم . وفي ١٢ ديسمبر ١٦١٢ ، أي قبل نابليون بقرنين من الزمان ، تقهقر جيشه وسط سوء النظام والفتنة ، من روسيا إلى بولنדה . ولم يتبق من هذه الحملات الباهظة التكاليف إلا امتلاك سمولنسك وسفيرسكي ، بالإضافة إلى نفحة قوية من تأثير بولنדה على الحياة الروسية .

وكانت بقية حكم سيجسمند سلسلة من الحروب الفاجعة ، فقد ورطه تحالفه مع آل هسبورج - بما اشتهر له الامبراطور - في صراع كلفه غالبا مع الأتراك لم تبيح منه بولندية إلا بفضل مهارة قوادها وشجاعة جنودها . واستفاد جوستاف أدولف من انشغال بولنده في الجنوب في غزو ليفونيا . وبمقتضى صلح ألنارك (١٦٢٩) سيطرت السويد على ليفونيا وعلى البلطيق . وقضى سيجسمند نحبه محطما متهدما (١٦٣٢) .

وخلع الديت تاج بولنده على ابنه لادسلاس الرابع ، الذي كان الآن في السابعة والثلاثين ، وكان قد كشف عن نشاطه واهمته وجلده كقائد ، وكسب صداقات كثيرة بفضل خلقه الصريح المرح . وأسماه إلى البابا بتسامحه مع البروتستانتية في بولنده ومع الأرثوذكسية في لتوانيا . وأباح في ثورن قيام حوار عام سلمى بين رجال الدين الكاثوليك واللوثرين والكلفنيين (١٦٤٥) وشجع الفن والموسيقى . واشترى لوحات روبنز وأقشنة جوبلان المزركشة وأقام أول مسرح بولندى دائم ، ومثل عليه الأوبرا الإيطالية ، وتبادل الرسائل مع جاليليو في سجنه ، ودعا العالم البروتستانتى جروشيوس إلى بلاطه وفارق الحياة (١٦٤٨) في الوقت الذي هدت فيه الدولة البولندية ثورة صارمة في القوزاق .

٢ - المدينة :

كان الاقتصاد البولندى لا يزال يتسم بسماة العصور الوسطى . وكانت التجارة الداخلية في أيدي الباعة المتجولين ، والتجارة الخارجية مقصورة إلى حد كبير على دانزج وريغا ، ولم تكن طبقة التجار تتمتع بثراء يذكر ، وقبلها سمح لأفرادها بعضوية البرلمان ، فإن النبلاء تحكموا في الديت وفي الملك وفي الاقتصاد ، وسيطروا على هؤلاء جميعا . وكان يفلح الضياع الواسعة مزارعون خاضعون لتنظيمات إقطاعية أقسى من بعض الوجوه بما كان عليه الحال في

مزارع فرنسا في العصور الوسطى . وكان النبيل المالك يضع هذه التنظيمات بنفسه ، ويفرضها بقوة جنوده ، ويحرم على مستأجره مغادرة نطاق ولايته دون موافقته ، ويتقلمهم من مكان إلى مكان ، ويزيد من الأرض أو ينقص منها وفق مشيئته ، ويفرض عليها في كل عام أيام عمل لا يتقاضون عنها أجرا ويرغمهم على أن يبيعوه أو يشتروا منه وحده ، وعلى أن يتناعوا منه كل عام قدرا من الجعة الرديئة الصنع . وكان يستطيع تجنيد أبنائهم لخدمته في زمن السلم والحرب . كان هؤلاء المزارعون أحراراً . قانونا لهم ، حق التملك والتوريث ، ولكن ، الأب ، الجزويقي سكارجا نعمتهم بأنهم أرقاء (٢١) .

وكانت الحياة قروية في معظمها . وكان النبلاء يتجمعون في وارسو لإملاء إرادتهم الجماعية ، ولكنهم عاشوا في ضياعهم ، يصطادون ويتشاجرون ، ويستمتعون باطيب المتع ، ويتبادلون المآذب الباذخة ، ويتدربون على الحرب وكانت الزيجات تتم عن طريق الوالدين . وقلما سئلت البنت رأيها ، وقلما عارضت ، فالمفروض أن الحب الذي يولده الزواج والأبوة أقوى على البقاء والدوام من الزواج الذي ينشأ عن الحب . وكان النساء متواصعات جادات نفسيات . وكان آداب السلوك الجنسي مرعية كل الرعاية . ولم نسمع بقصص غرام خارج نطاق الزوجية قبل القرن الثامن عشر (٢٢) . وكان الرجال . لا النساء ، هم الذين يضعون قواعد السلوك . باستثناء سيسيليا ريناتا التي تزوجت من لاديسلاس الرابع ١٦٣٧ ، والتي أحيت الآثار الإيطالية التي استوردتها الفنانون ورجال الدين في أزمنة سابقة ، ولويزماري جونزاج التي تزوجها ١٦٤٨ ، والتي جلبت معها موجة من قواعد السلوك الفرنسية والكلام الفرنسي بقيت حتى القرن العشرين ، وكان في الرقصات البولندية رقة مهيبة . حدثت برجل فرنسي في ١٦٤٧ إلى التحدث في إعجاب عن البولنديات .

ولم يقدر للفن البولندي أن يلاحق المستوى الذي كان قد وضعه فيت ستوس في كراكاو ١٤٧٧ . لقد نسجت أقشة سحجسمند الثاني المرزكشة في الفلاندرز

وأقام مهندسون معماريون ونحاتون إيطاليون التماثيل لسجسمند و باثورى وأنا
جاجللون فى كاتدرائية كرا كاو ، وكنايس الجزويت الباروكية فى كرا كاو
ونيزويو وعامود سجسمند الثالث الشهير فى وارسو، وأصاب الوهن التصوير
فى بولنده تحت هجمات البروتستانت على الصور الدينية ، ولكن مارتن كوبر
رسم صورة شخصية ملهمة للملك باثورى .

وعانى التعليم - كما عانت الفنون التخطيطية من الإضطراب الدينى . ومرت
جامعة كرا كاو بفترة انحطاط عابر . ولكن باثورى أسس جامعة ولنو
(١٥٧٨) ، وفى كرا كاو وولنو ويوزنان وريجا وغيرها أسس الجزويت
كليات بلغ من أمتيازها وتفوقها أن كثيراً من البروتستانت أثروا لتنشئة
أبنائهم عقليا وخلقيا . وخير من كل هذه مدرسة طائفة «الموحدين» فى
كرا كاو التى جذبت إليها ألف طالب من مختلف الملل . وأعد جان ذا موسكى
مستشار باثورى ذو النزعة الإنسانية ، فى زاموسك جامعة جديدة خصصت
أساسا للدراسات الكلاسيكية .

وكانت ثمة وفرة فى الأدب فى بولنده . وكانت الخلافات الدينية فظة فى
النحوت مهذبة معقولة فى الشكل ، ومن ثم فإن ستماتسلاس أورزيكوسكى ، الذى
كان يدافع عن الكاثوليكية ، ناضل من أجلها بضراوة وتعصب عنيف ، وفى
لغة بولندية رائعة ، تعد من أحسن ما كتب فى تاريخنا (٣٣) ، ولم يكن يقل عنها
شهرة فى الأسلوب «رجل البلاط البولندى» (١٥٦٦) الذى ألفه لوكاز جورنيكى
وهو تعديل لكتاب كاماستليونى «رجل البلاط» . وبرز الجزويى بيترسكارجو
فى الشعر والنثر والتعليم والسياسة . وانتقل من رئاسة جامعة ولنو إلى منصب
كبير الوعاظ فى البلاط الملكى وقضى فيه أربعة وعشرين عاما كان فيها «بوسويه»
بولنده ، واستنكر فيها غير وهاب ولا وجل الفساد الذى رآه يستشرى من
حواله . وتنبأ بأنه إذا لم تصل الأمة إلى حكومة أكثر استقرارا ومركزية فإنها
لا بد أن تقع فريسة للدول الأجنبية ، ولكن نادى بمسئولية مقيدة

ومحددة بالقانون . وظل شعر كوكا نوسكى دون منافس في مجاله وفي لغته حتى القرن التاسع عشر ، ولا يزال شعبيا مألوفا حتى اليوم . وقد بلغ الشاعر ذروة الأثارة والإلهام في رثائه وحزنه على أبنته أورشولا التي ماتت في نضارة الطفولة .

وعوق الصراع الدينى كل نواحي الثقافة البولندية في ذلك العصر . ففي النصف الأول من القرن السادس عشر بدأ أن البروتستانتية قدر لها أن تسيطر على بولندا، وعلى ألمانيا والسويد أيضا . وكسبت إلى جانبها كثيرا من النبلاء تمردا على سلطة الملك وفساد الكنيسة ، ووسيلة لانتزاع أملاكها (٢٤) . ومنح سيجسمند الثانى بلاده تسامحا دينيا واسع النطاق . وبعد عام من وفاته صاغت لجنة من الديت (٢٨ يناير ١٥٧٣) «اتحاد وأرسو الكونفدر إلى، الذى يضمن الحرية الدينية لكل الشيع والفرق بلا استثناء . فلما عرض المشروع للتصويت عارضه الأعضاء الأسقفىون فى المجلس . ولكن أقره بالإجماع الأعضاء العلمانيون الثمانية والتسعون . بما فى ذلك واحد وأربعون كاثوليكيًا (٢٥) ، وهذا يمثل نقطة بارزة فى تاريخ التسامح ، لأن أى إعلان رسمى سابق من هذا القبيل لم يصل إلى هذا المدى . وأنتعشت فى ظل هذه الحماية العريضة عدة طوائف متباينة ، اللوثرىون ، والكلفنىون ، وأتباع زونجلى ، وأنصار تجديد العهد ، والأخوة البوهيميون ؛ وغير القائلين بالثلاثية . وفى ١٥٧٩ قدم إلى بولندا فاومس سوسينس ، وبدأ يؤسس كنيسة قائمة على مذهب التوحيد ولكن أهالى كراكاوا أخرجه من داره ودمروا مكتبته ، وكادوا يقتلونه لولا أن المدير الكاثوليكي للجامعة هب لنجدته (١٥٩٨) (٢٦) ، واتحد الكلفنبون مع اللوثرين فى المطالبة بطرد الموحدين أتباع سوسينس من بولندا . وأمر الديت فى ١٦٣٨ بإغلاق مدارس الموحدين ؛ وفى ١٦٥٨ نفى أفراد هذه الطائفة من البلاد . ففروا إلى ترانسلفانيا والمجر وألمانيا وهولنده وانجلترا ؛ وأخيرا إلى أمريكا ؛ ليجدوا أعظم معبر عنهم فى شخص أمرسون .

أن التعصب الشعبي والتربية الجزوية وبقية والنظام الكاثوليكي والسياسة الملكية والتشيع الطائفي البروتستانتي، أجمعت كلها بعضها إلى بعض لتقضى على البروتستانتية في بولندا. فإن الطوائف الجديدة حاربت الواحدة منها الأخرى بمثل الضراوة التي حاربت بها المذهب القديم. وتعلق المزارعون بالمذهب القديم لجرد أنه قديم؛ حيث كان يمثل الأرتياح إلى العادة والعرف المألوف؛ ولما أنضم الملكان - باثوري وسجسمند الثالث - إليه، وجد كثير من البروتستانت المرتدين وأبنائهم، أنه من الأفضل لهم أن يعقدوا أواصر السلام مع الكنيسة وكان معظم الألمان في بولنده - من البروتستانت، وتلك حقيقة وجهت الشعور الوطني إلى مناصرة الكاثوليكية ومعاونتها. ومعاونت الكنيسة تعاونا جادا مع هؤلاء الأعوان المتفرقين على استرداد بولنده إلى حظيرة البابا، فأرسلت نخبة من أكثر الدبلوماسيين فيها رصافة، وأكبر الجزويت المغامرين، ليكسبوا إلى جانبها، الملوك والنساء والأطفال، بل حتى النبلاء البروتستانت أنفسهم. وحذر رجال الدولة الكهنسيون، مثل الكاردينال ستاناسل هوسوس والأسقف جيوفني كومندون، الملوك من تأسيس نظام اجتماعي أخلاقي سياسي مستقر على المذاهب البروتستانتية المائعة المتصارعة. وأثبت الجزويت قدرتهم على الدفاع عن الأمور التي كان الناس يتشككون فيها ولا يصدقونها، ضد ما امتحدث الآن من معتقدات وطقوس. وفي نفس الوقت فإن رجال الدين الكاثوليك الذين ألزموا بقرارات مجمع ترنت، خضعوا الآن لإصلاح ديني صارم مثير للأعجاب (٣٧).

ولكن الكاثوليك أيضا مشكلة. ذلك أن اتحاد لتوانيا وبولنده عمل على إيجاد تلاحم مثير للغضب بين الكنيسة الأرثوذكسية والكنيسة الكاثوليكية وكان الخلاف بين الكهنسيين طفيفا ولكن الصلوات الأرثوذكسية اتبعت الطقوس السلافية، كما اتخذت المساواة الأرثوذكس زوجات. وفي ١٥٩٦، وعن طريق اتحاد برست ليتوفسك، شكل جان زاموسكي مجموعة وسطا من

رجال الدين والعلمانيين في « كنيسة موحدية » ، اعتنقت فكرة زواج رجال الدين ، واتبعت الطقوس السلافية ، وفي نفس الوقت ارتضت المذهب الكاثوليكي الروماني واعترفت بسيادة البابا . وراود زعماء الكاثوليك الأمل في ان يؤدي مثل هذا الحل الوسط او التوفيق بين الكنيستين ، تدريجا ، إلى كسب الملتين اليونانية والروسية إلى جانب الأمتثال للبابا . ولكن الكنيسة الجديدة لاقت مقاومه مثيرة . وذبح أهل بولوك رئيس اساقفتها .

وظل ملوك بولندا طوال القرن السادس عشر ، يطبقون تسامحا دينيا أكثر تقدما منه في أي بلد مسيحي آخر . ولكن السكان الكاثوليك كثيرا ما عاودوا سيرتهم الأولى إلى سياسة العداوة الشديدة ، فانهضوا على كنيسة بروتستانتية في كراكاو ، ونبشوا قبور البروتستانت (١٦٠٦ — ١٦١٧) . وحطموا كنيسة بروتستانتية في وندو ، وضربوا — وقيل قتلوا — قساوستها (١٦١١) وفي بورنات أحرقوا كنيسة لوثرية . وفضوا اجتماعا خاصا بالاخوة البوهيمين ،^(٣٨) . ولم يشترك رجال الدين الكاثوليك في هذه المظاهرات الدينية الشعبية ، ولكنهم أفادوا منها . وتعاونت كل الظروف على تأييد الكنيسة القديمة ، حتى تم لها النصر في ١٦٤٨ .

٤ — روسيا المقدسة : ١٥٨٤ — ١٦٤٥

١ — الشعب :

قال نادزدين في ١٨٣١ : « ما عليك إلا أن تلتقي نظرة على خريطة العالم ليتولاك الرعب ازاء قدر روسيا وما قدم لها . وكانت قد وصلت في ١٦٣٨ إلى المحيط الهادي عبر سيبيريا ، وإلى بحر قزوين عبر نهر الفولجا ، ولم تكن على أية حال ، فقد وصلت بعد إلى البحر الأسود ، فقد اقتضى هذا حروبا كثيرة . ولم يجاوز عيد الميلاد عشرة ملايين في ١٥٧١^(٩٩) . وكان يمكن أن

توفر الأرض الغذاء لهذه الملايين في سهولة ويسر ، لولا أن الفلاحة الطائشة المهمله أنهكت المزرعه تلو الأخرى ، فانتقل الفلاحون إلى أرض أقوى وأخصب .

ويبدو أن هذه النزعة إلى الهجرة أسهمت في نشأة الرقيق . ذلك أن معظم المستأجرين كانوا يحصلون من النبلاء ملاك الأرض على سلفيات لتنظيف المزرعة وتجهيزها بالأدوات وأعدادها للزرع . وكانوا يدفعون على هذه القروض نحو ٢٠ ٪ (٤٠) ، فلما عجز الكثير منهم عن سداد ما اقترضوا صاروا أرقاء لهؤلاء الملاك . لأن قانونا صدر في ١٤٩٧ نص على أن يكون المدين المقصر في الدفع عبدا لدائته حتى يوفي الدين . ونفاديا لهذه العبودية هرب بعض الفلاحين إلى معسكرات القوازيق في الجنوب . وحصل بعضهم على حريته بالموافقة على استصلاح أراضي جديدة غير ممدة . وبهذه الطريقة استوطنت سيبيريا، وهاجر بعضهم إلى المدن حيث اشتغلوا ببعض الحرف ، أو اشتغلوا في المناجم أو صناعة المعادن أو صناعة الذخيرة، أو خدموا التجار، أو تجولوا في الشوارع يبيعون السلع . وشكا الملاك من أن هجرة المستأجرين عن المزارع — دون دفع ديونهم عادة — قد عرقت الإنتاج الزراعى ؛ وجعلت من المتعذر على الملاك دفع الضرائب المتزايدة التي تطلبها الدولة . وفى ١٥٨١ . وضمانا لاستمرار زرع الأرض ؛ حرم أيفان الرهيب على المستأجرين لدى طبقة الأوبرشنيكى — رجال الإدارة — أن يتركوا المزارع دون موافقة الملاك؛ وعلى الرغم من أن هذه الطبقة كانت تفقد الآن مركزها الممتاز شيئا فشيئا . فقد بقى الرقيق الذى نشأ بهذه الطريقة يعمل فى ضياعها . وسرعان ما طالب النبلاء ورجال الدين الذين تملكوا الجزء الأكبر من أرض روسيا ؛ مستأجرينهم بهذا . فكمان الفلاحون الروس فى الحقيقة ؛ إن لم يكن بمقتضى القانون ؛ أرقاء مرتبطين بالأرض (٤١) .

وكانت روسيا لاتزال لاصقة بالهمجية . فالسلوك فظ غليظ ؛ والنظافة ترف نادر؛ والامية أمتياز طبقى؛ والتعليم بدائى، والأدب فى معظمه حوليات

رهبانية أو عظات دينية أو نصوص طقسية ، والكتب الخمائة التي نشرت في روسيا بين عامي ١٦١٣ و ١٦٨٢ كانت كلها تقريبا دينية^(٤٢) . ولعلت الموسيقى دورا هائلا في الدين وفي البيت . وكان الفن خادما للعقيدة الأرثوذكسية ، وشادت الهندسة المعمارية كنائس معقدة زاخرة بأما كن الصلوات والمعابد الصغيرة الملحقة بها . وبالمباني الناشئة عنها ، وبالقباب البصلية الشكل ، مثل كنيسة عذراء الدون في موسكو ووزين فن الرسم جدران الكنائس والأديار بالرسم الجصية التي حجب الآن معظمها ، أو بالصور الدينية والأيقونات الغنية بالأبداع التصويري لا المهارة الفنية^(٤٣) ، كما هو الحال في كنيسة معجزة سان ميكايل في كراكاو . وفي ١٦٠٠ لم يعد رسم الأيقونات فنا بل أصبح صناعة تنتج قطعاً متماثلة على نطاق واسع ، للتعبد والتبتل والتقوى داخل البيوت أما الإنتاج الفني البارز في هذا العصر فهو برج الناكوس الذي يبلغ ارتفاعه مائة متر - وهو برج ايفان فليكي (جون الأكبر) الذي أقامه أحد المهندسين الألمان في ميدان الكرملين (حوالي ١٦٠٠) كجزء من برنامج بوريس جودونوف في الأشغال العامة لتخفيف حدة التعطل .

وفي الكنائس الفخمة المتألقه بالزخارف الثمينه ، المعتمه بالكآبه المتعمدة والتي تجلب النعاس بالطقوس المهيبة والتراتيل والصلوات الجهورية الرنانة ، طبع رجال الدين الأرثوذكس الناس على التقوى والطاعة والأمل المشواضع . وقل أن تعاونت عقيدة مامع الحكومة مثل هذا التعاون الوثيق . وضرب القيصر المثل في التمسك المخلص الصادق بالدين وفي البر بالكنيسة ، ولقاء هذا أحاطته الكنيسة ، بدوها ، بهالة من القداسة الرهية ، وجعلت من عرشه حرمانيا لا تقتك حرمة ، وغرست في الأذهان أن الخضوع له وخدمته واجب يلتزم به الناس أمام الله . وأسس بوريس جودونوف البطركية الروسية مستقلة عن القسطنطينية (١٥٩٨) ولده قرن من الزمان نأفس مطران موسكو المقام السامى للقيصر ومكانته العالية ، وفي بعض الأحيان تحدى سلطانه . وفي ١٥٩٤ عندما أوقد البابا كليمنت الثامن إلى موسكو ، بعثة تقترح اتحاد الكنيسة

الأرثوذكسية واللاتينية تحت زعامة البابا ، رفض بوريس الافتراح قائلًا :
« أن موسكو هي الآن رومة ذات المذهب القديم الحق (الأرثوذكسى) ، .
وجعل الجميع يواجهون الدهوات وقيمون الصلوة من أجله وهو وحده بوصفه
« الخاتم المسيحي الوحيد على الأرض » ، (٤٤) .

٢ - بوريس جود ونوف : ١٥٨٤ - ١٦٠٥

لم يكن بوريس في الواقع بعد إلا حاكمًا فقط . أما القيصر فكان فيودور
الأول إيفانوفتش (١٥٨٤ - ١٥٩٨) ، الابن الهزيل لايفان الرابع الرهيب
وآخر أفراد آل روريك ، (مؤسس روسيا) . وكان فيودور قد شهد موت
أخيه الأكبر بضربة شيطانية من أبيه ، فلم يشأ أن يتشبهت بارادته أو يعارض
في شيء ، وانزوى هربًا من مخاطر القصر ، منصرفًا إلى العبادة والتبتل ، وعلى
الرغم من أن شعبه لقبه « بالقدیس » ، فإنه أيقن أنه كانت تعوزه القوة والصلابة
ليحكم الرجال . وكان إيفان الرابع قد عين مجلسًا لتوجيه الشاب وتقديم النصيح
والمشورة له . ولكن أحد أعضائه ، وهو أخو زوجة فيودور - بوريس
جود ونوف - سيطر وقبض على زمام الأمور ، وأصبح حاكم البلاد .

وكان إيفان الرابع قد خلف من زوجته السابعة والأخيرة ، ابنا آخر ،
هو ديمتري إيفانوفتش الذي كان آنذاك (١٨٥٤) في الثالثة من عمره ، ورغبة
من المجلس في أن يجنب الطفل أخطار الدسائس - بخلاف دسائسه هو ، أى
المجلس - أرسل الطفل وأمه للإقامة في أوجليبيش ، على بعد نحو ١٢٠ ميلًا إلى
الشمال من موسكو . وهناك في ١٥٩١ قضى ابن القيصر نحبه بطريقة لم يتم التحقق
منها بعد . وتصدت إلى هذا البلدة لجنة للتحقيق في الحادث ، يرأسها الأمير
فاسيلي شويسكى أحد أعضاء المجلس ، وجاء تقريرها يقول بأن الصبي قطع
حلقومه في نوبة صرع ألمت به . ولكن أم ديمتري وجهت الاتهام بأنه قتل
بأمر من جود ونوف (٤٥) . ولكن جريمة بوريس لم تثبت قط ، ولا تزال مثار
جدل بين بعض المؤرخين (٤٦) . وأجبرت الأم على التهرب ، ونفى أقرباؤها

من موسكو ، وأضيف ديمتري إلى قائمة القديسين الأرثوذكس ، وطواء النسيان إلى حين . .

وكان بوريس — مثل ريتشارد الثالث في إنجلترا — أكثر توفيقا في الحكم أثناء وصايته على العرش ، منه بعد تربعه عليه فيما بعد . وعلى الرغم من إنه كان ينقصه التعليم الرسمي النظامي ، بل ربما كان أميا ، فقد أوتي بمقدرة جبارة ، وبيدوانه بذل جهود مضمّنة لمواجهة مشاكل الحياة في روسيا . فأصلح الإدارة الداخلية ، وحد من فساد القضاء ، وأولى الطبقات الدنيا والوسطى عطفًا ورعاية ، وكلف الأشغال العادية بتهيئة فرص العمل للفقراء من سكان المدن ، وخفف من أعباء الأرفاء والتزاماتهم ، وكان — كما يقول أحد كتاب الحوليات المعاصرين — محبوبا لدى كل الناس^(٤٧) . وحظى باحترام الدول الأجنبية وثقتها^(٤٨) . ولما مات القيصر فيودور الأول (١٥٩٨) طلبت الجمعية الوطنية من جودونوف بالاجماع أن يتولى العرش . فقبلته مع تظاهره بالمعارضة خجلا من أنه غير جدير به ، ولكن ثمة شبهة بأن عملاءه كانوا قد مهدوا السبيل في الجمعية الوطنية . ونازع جماعة من النبلاء من الذين كرهوا منه دفاعه عن طبقة العامة^(٤٩) . نازعوا في حقه في اعتلاء العرش . وتأمر واهلى خلعه . فأودع بوريس بعضهم السجن ونفى آخرين . وأرغم فيودور رومانوف (والد أول قيصر من أسرة رومانوف) . على أن يدخل في سلك الرهبنة . ومات نفر من هذه المجموعة المغلوبة على أمرها . في ظروف مؤاتية لبوريس إلى حد اتهامه بتدبير قتلهم . ولما كان يعيش آنذاك في جو من الشك والفرع . فإنه بث العيون والأرصاء هنا وهناك . وأبعد المشتبه بهم وعادر أملاكهم . وإعدم الرجال والنساء . وانهارت شعبيته الأولى . وتركته السنوات العجاف من (١٦٠٠ — ١٦٠٤) ، بغير تأييد ومساندة من الأهالي الذين يتصورون جوعا في مواجهة المسكائد التي كان يديرها النبلاء في تصميم وعناد .

وثمة مكيدة أصبحت ذات شهرة في التاريخ، والأدب والموسيقى . ففي ١٦٠٣ ظهر في بولنده شاب ادعى أنه ديمتري المفروض أنه مات . والوريث الشرعي

لعرش فيودور ايفانوفتش . واعتبر بوريس ، ال وائق من نفسه (٥٠) ، أن هذا الشاب ليس إلا جريشكا أوترييف الراهب الذي جرد من ردايه الكهنوتي ، والذي كان من قبل في خدمة آل رومانوف . أما البولنديون الذين كانوا يمشون توسع روميا ، فقد سرهم أن يحدوا بينهم وفي متناول يدهم ، من يطالب بالتاج المسكوفي ، وابتهجوا أكثر من ذلك بزواج ديمتري ، هذا من بنت بولندية ، واعتناقه السكاوليكية . وتغاضى سجنس مند الثالث الذي كان قد وقع لتوه (١٦٠٢) هدنة مدتها عشرون عاما مع روسيا . عن حشد ديمتري لمتطوعين بولنديين . وناصر الجزويت بشده قضية هذا المدعى . وفي أكتوبر ١٦٠٤ عبر ديمتري نهر الدنيبر مع أربعة آلاف رجل . فيهم المنفيون الروس ، وجنود مرتزقة ألمان ، وفرسان بولنديون . وأيده النبلاء الروس سرا ، ولو أنهم تظاهروا بالحياد . وانضم الفلاحون الآبقين إلى القوات المتقدمة ، ورحب الشعب الجائع الذي طال انتظاره للتعلل بأمل كاذب ، بديمتري الجديد ، ورفع لواء رمزا للملكية الشرعية والأمانى اليائسة . ووسط الهتاف بحرك الجمهور المتضرع نحو موسكو من الغرب ، وانقض من الجنوب القوراق المستعدون دوها للنزال . وانقلبت الحر كة إلى ثورة .

ولما رأى بوريس أن هذا بمثابة غزو بولندي ، بعث بجيشه إلى الغرب ، وهزم فصيلة من قوات ديمتري ، ولسكنه لم يدرك البقية . ولم يتاق جودونوف وهو قابع في قصر السكرملين إلا أنباء جمهور الرعاع الزاحف المتزايد عدده . والسخط الذي ينتشر ، والانحط التي يشربها البويار (النبلاء) حتى في موسكو ، في صحة ديمتري الذي أعلنوا على الشعب أنه ابن القيصر المقدس الذي اختاره الله ليكون قيصرا . وبقاة ، وبعد شكوك وآلام مبرحة معرفة لدى بوشكين وموسورحسكي ، ولا يعلم التاريخ عنها شيئا — مات بوريس (١٣ أبريل ١٦٠٥) وأوصى البطريك بسجانوف والنبلاء بأبنه خيرا . ولسكن البطريك والنبلاء تحولوا إلى المدعى . وقتل ابن جودونوف وأرملته ، وفي غيرة النشوة الوطنية رحب ديمتري الزائف ، وتوج قيصرا على روسيا بأسرها .

٣ - د زون الصدايق ، : ١٦٠٥ - ١٦١٣ :

لم يكن القيصر الجديد حاكما غير صالح ، كما هي شيمية الملوك ، ولم يكن ذا قوام يعين على الرحمة ولا بهي الطلعة ، ولكنه كان برغم هذا وذاك قادرا على امتشاق الحسام وامتطاء الخيل ، مثل أى نبيل كريم المحتد وتحلى القيصر الجديد بزجاجة العقل وسعة الإدراك وفصاحة اللسان وحلاوة الشائز ، وبساطة غير متكلفة صدمت قواعد السلوك والتشريفات في حياة القصور . وأدهش موظفيه باهتمامه الجاد بالإدارة ، كما أدهش جيشه بتوليته تربيته بنفسه . ولكن تعاليه على بيئته كان متممدا واضحا أكثر مما ينبغي . فأبدى احتقاره صراحة لخشونة النبلاء وأميتهم وجملمهم ، واقترح ارسال أبنائهم لتلقى العلم في الغرب ، وصعى إلى استقدام معلمين أجانب لتأسيس مدارس ثانوية في موسكو . وسخر من للعادات الروسية ، وأنخل الطقوس الأرثوذكسية ، وأهمل تحمية صور القديسين ، وتناول طعامه دون أن ترش مائدته بالماء المقدس ، وأكل لحم العجل الذى اعتبرته الطقوس نجسا . وأخفى - وربما لم يأخذ يوما بماخذ الجدد - نحوه إلى الكاثوليكية ، ولكنه أحضر إلى موسكو زوجته البولندية الكاثوليكية ، يحف بها أحوة فرنسيه كان ويمثل البابا . وكان في بطانته هو نفسه نفر من البولنديين والجزويت ، وأنفق في سخاء من أموال الخزانة ، فصاعف رواتب ضباط الجيش ، وخصص لأصدقائه الضياع المصادرة من أسرة جود ونوف . ولما كان لايهوى السكون ، كما كان رجلا عسكريا فإنه دبر حملة ضد خان القرم وأعلن الحرب عمليا بإرساله مسترة من جلد الخنزير إلى الحاكم المسلم . وربما تكاد أن يخلى موسكو من الجنود تماما ، بإصداره أو امره اليهم بالتحرك نحو الجنوب ، وخشى النبلاء من أنه كان يفتح العاصمة لغزو بولندى .

وبعد اعتلاء ديمترى عرش روسيا بيضعة أسابيع تأمرت زمرة من النبلاء بزعامة شويسكى على خلعه . واعترف شويسكى بأنه لم يقرأ أو يعترف بالمذمى ، إلا لجرد التخلص من جود ونوف ، أما الآن فيجب ابعاد الآداة

التي اعطت لهذا الغرض ، واجلاس نديل أصيل على العرش (٥١) . وكشف ديمتري المؤامرة ، واعتقل زعماءها ، وبدلا من الإسراع باعدامهم ، كما تقضى بذلك التقاليد ، منحهم الحق في أن يحاكموا أمام الجمعية الوطنية التي اختير أعضاؤها لأول مرة من بين جميع الصفوف والطبقات . فلما أصدرت حكمها على شويسكى وآخرين بالاعدام خفف ديمتري الحكم إلى النفي ، وبعد خمسة أشهر أباح للمنفين العودة . وكان كثير من الناس يعتقدون أنه ابن إيفان الرهيب ، ولكنهم شعروا الآن - بعد تصرفه على هذا النحو - أن مثل هذا الاعتدال أو الرفق غير التقليدي يلقي ظلالة من الشك على أبوته الملكية . وعاد المتآمرون المعفو عنهم إلى تدبير المؤامرات من جديد . واشتركت فيها أسرة رومانوف التي احتوى ديمتري بظل الانتساب إليها . وفي ١٧ مايو ١٦٠٦ اقتحم شويسكى الكرملين باتباعه المسلحين . ودافع ديمتري عن نفسه دفاعا مجيدا ، وقتل بيده كثيرا من مهاجميه ، ولكنه في النهاية غلب على أمره وذبح . وعرضت جثته في ساحة الأعدام ، وألقى على وجهه قناع حقيير ، ووضع في فمه مزمار ، ثم بعد ذلك أحرقت الجثة ، وأطلق عليها مدفع حتى تذرو الرياح رمادها فلا تبعث بعد الآن .

ونادى النبلاء المنتصرون بشويسكى قيصرا تحت اسم فاسيلي الرابع : وآلى على نفسه الا يعدم أحدا ولا يصادر أملاكها ، دون موافقة الدوما ، (مجلس النبلاء) . وأقدم في كاتدرائية أوسبنسكى أغلظ الإيمان بأنه « لن يلحق بأى انسان أذى دون موافقة المجلس دأى الجمعية العمومية التي تضم كل الطبقات . وغالبا ما انتهكت هذه الضمانات ، ولكنها كانت على أية حال خطوة تاريخية على طريق تطوير الحكومة في روسيا .

وأخفقوا في تهدئة تلك العناصر الكبيرة من السكان التي تولاهم الحزن والأسى لخلع ديمتري . فاندلعت ثورة في الشمال ، ونصب زعيما لها ديمتري ، زائف آخر ، أمده سيجسمند الثالث ملك بولنده بعون غير رسمي . فالتبس

شويسكى العون من شارل التاسع ملك السويد ، عدو سيجسمند ، وأرسل شارل قوة سويدية إلى روسيا ، فأعلن سيجسمند الحرب عليها ، واستولى قائده زالكوسكى على موسكو ، وخلق شويسكى (١٦١٠) وحمل إلى وارسو حيث أرغم على التهرب في أحد الأديار . وانفقت زمرة من النبلاء على الاعتراف ببلادسلاس - ابن سيجسمند ، البالغ من العمر أربعة عشر عاما قيصرًا على روميا ، شريطة المحافظة على استقلال الكنيسة الأرثوذكسية ، ومساعدة الجيش البولندى للنبلاء في اخماد الثورة الاجتماعية التي كانت تهدد الحكومة الارستقراطية في روسيا .

وكانت الثورة في بداية أمرها استنكارا دينيا ووطنيا لتنصيب قيصر بولندى ، ومنع هرموجنس بطريك الأرثوذكسية الشعب من حل يمين الولاء للملك كاثوليكي . وقبض البولنديون عليه ، وسرعان ما قضى نحبه في سجنه ، ولكن زاده جعل من المتعذر على لادسلاس أن يحكم البلاد . ودعا الزعماء الدينيون الشعب إلى طرد البولنديين بوصفهم كاثوليك مهرطقين . وبدأ أن الحكومة تنهار ، وعمت الفوضى روسيا . واستولى الجيش لسويدي على نوفجورود واقترح أن يتولى عرش روسيا أمير سويدي . ورفض الاعتراف ببلادسلاس الملاحين في الشمال والجنوب ، والقوازق في الجنوب ، واماوا حكاما خاسا بهم في المقاطعات . وأعملت عصابات قطاع الطرق لسلب والنهب في القرى والمدن ، وتكلمت بكل من يقاوم . وتعطلت الزراعة ، ونقص انتاج الأعذية ، واختلت وسائل النقل ، وعمت المجعة ، واضطر السكان في بعض الأقسام إلى أكل لحوم البشر^(٥٢) . ودخل جمهور نثر موسكو ، وفي غمرة العوضى والشغب أشعل الحريق فأتت النار على معظم المدينة (٩ مارس ١٦١١) ونهقرت الحامية البولندية إلى الكرملين ، ترف عبثا قدوم سيجسمند لنجدتها .

وفي نثرى نوفجورود نظم قصاب يدعى كوزمانين ، جيشا ثوريا آخر ، يحدوه الأحلاص للأرثوذكسية ، ودعا كل أسرة إلى التنازل عن ثلث مائة

لغزو بل الهجوم على المعاصرة . وتم هذا بالفعل ، ولكن الناس لم ينقادوا إلى زعيم غير ذي لقب . فدعا ميتين الأمير ديمتري بوجارسكى ليتولى القيادة ، فقبل المهمة ، وانطلق رجال الجيش الجديد إلى موسكو صائحين ضارعين ، وما أن وصلوا حتى حاصروا الحامية البولندية في النكرملين ، وصعدت الحامية إلى حد أنهم أكلوا الفيران ولحم البشر ، وكانوا يفلون المخطوطات اليونانية ليحطوا على المرق ، ثم استسلموا وفروا (٢٢ أكتوبر ١٦١٣) وظلت ذكرى هذا العام حية عزيزة في أذهان الروس ، على أنه عام التحرير ، وعندما أجهل الفرنسيون بعد ذلك بقرنين من الزمان ، عن موسكو التي جلاها رماد الحريق مرة ثانية ، أقام الروس المنتصرون نصبا تذكاريًا للميتين وبوجارسكى ، الجزار والأمير اللذين ضربا لهما أروع مثل للبطولة في ١٦١٢ .

ودعا بوجارسكى والأمير ديمتري تروبتسكوى بمثلين علمانيين ودينين عن كل أجزاء الامبراطورية إلى مجلس لانتخاب ملك جديد . واستخدمت مختلف الأسرار نفوذها بطريقة خفيفة لتحقيق أغراض خاصة ، ولكن كانت الغلبة آخر الأدر لأسرة رومانوف ، واختار المجلس ميكائيل الذي لم يتجاوز الخامسة عشرة من العمر آنذاك ، وفي ٢١ فبراير ١٦١٣ نادى به قيصرًا سكان موسكو الذين يمكن تجميعهم وتوجيههم بسرعة . وبعد أن أنقذ الشعب الدولة ، نسب الفضل في ذلك ، تواضعا . إلى النبلاء .

وقضت الحكومة الجديدة على الخلل الاجتماعي والثورة ، وثبتت دعائم الرق وتوسعت فيه وهدأت من روع السويدي بالتخلي عن أنجريا ، ووقعت مع بولندا هدنة مدتها أربعة عشر عاما ، وفككت الهدنة أسر فيودور رومانوف ، والد ميخائيل ، الذي طال أمد أسره . وكان بويريس قد أرغمه على التهرب ، وأطلق عليه اسم الراهب فيلارت . وعينه ابنه ميخائيل بطيرك موسكو ، ورحب به مستشارا لدوبلغ من القوة والنفوذ جدا أطلق معه الشعب عليه اسم «القيصر الثاني» . وتمت الحكم المزدوج الذي شارك فيه الوالد والولد

وبرغم المزيد من الثورات والحروب ؛ حققت روسيا بمد جيل من الفوضى ،
سلاما مزعوما مقرونا بالعنق والاسهيا . أن زمن الشدائد والمتاعب
الذى بدأ بموت بوريس ، اختتم باعتلاء ديتمرى العرش ، وهذا بدوره
كان ابتداء عهد أسرة رومانوف التى قدر لها أن تحكم روسيا حتى
عام ١٩١٧ .

الفصل العشرون

الإسلام يتحدى

١٥٦٦ - ١٦٤٨

١ - الأتراك

في غمرة الصراعات الداخلية - سياسية ولا هوية - في العالم المسيحي أحس بعض المفكرين بالانزعاج والقلق من أن العناية الإلهية أطلت ، في حياد ظاهر ، على الصراع الأكبر بين المسيحية والإسلام . ولقد تم طرد الإسلام من أسبانيا ، ولكن دار الإسلام ، (العالم الاسلامي) كانت لا تزال شاسعة مترامية الأطراف ، ضمت أندونيسيا وشمال الهند . وألحق أن هذا كان عصر أسرة المغول الزاهر في دلهي (١٥٢٦ - ١٧٠٧) . وضم الإسلام أفغانستان وآسيا الوسطى وإيران كلها ، حيث أذنت عظمة الفن الفارسي بالغروب في هذه الحقبة . وإلى الغرب من إيران كانت دولة الإسلام هي الامبراطورية العثمانية أو التركية - التي لم يكن ينافسها آنذاك في اتساع أطرافها الا الامبراطورية الاسبانية ، واحتفظت بالسيطرة على شواطئ البحر الأسود ، وتحكمت في مصبات الدانوب ، والدنيبر والدينستر ، وساعدت حلفاءها خانات التتار ، على السيطرة على القرم ومصب نهر الدون . وأستولى الأتراك على أرمينيا وآسيا الصغرى وسوريا وبلاد العرب - الشرق الأدنى بأسره - . وهناك كان في حوزتها أشهر مدن العالم القديم والوسيط . بابل ، نينوى ، بغداد ، دمشق ، أنطاكية طرطوس ، أزميز ، نيقية ، مكة وبيت المقدس - حيث كان المسيحيون ، بترخيص من المسلمين ، يحجون إلى قبر المسيح . واستولوا في شرق البحر الأبيض على الجزر العظيمة قبرص ورودس وكريت ، وكانت الأغلبية الساحقة في شمال افريقية

من المسلمين ، من البحر الأحمر إلى الأطلسي ، فكان يحكم مصر بأشوات يعينهم السلاطين ، وكان يحكم طرابلس وتونس والجزائر ومراكش أسرات مسلمة محلية يختلف خضوعها للسلاطين باختلاف البعد بينها وبين الأستانة ، وكان هذا عهد أسرة السعديين (١٥٠٠ - ١٦٦٨) في المغرب ، وكانت عاصمتها مراكش تعج بالتجارة وتتألق بالفن . وأمتدت الدولة العثمانية في أوروبا من البسفور عبر اليونان (مما فيها أثينا واسبرطه) والبلقان والمجر ، على بعد مائة ميل من فيينا ، وعبر دالمشيا إلى أبواب البندقية ، وعبر البوسنة والباينا ، وما كان ثمة الأفقزة واحدة عبر الأدرياتيك حتى تصبح في إيطاليا البابوية . وهناك ، وفي فيينا الواقعة تحت الحصار ، لم يكن الحوار الكبير بين البروتستانت والكاثوليك بل بين المسيحية والإسلام . وداخل هذا النطاق الإسلامي عاشت المسيحية حياتها الممزقة .

ومهما كان من أمر امتداد الإسلام غربا فإنه ظل شرقيا . وكانت القسطنطينية نافذة على أوروبا ولكن جذور العثمانيين أمتدت كثيرآ إلى الورا ، إلى آسيا وبذلك استطاعت تركيا المزهوة المبتهجة أن تقلد أوروبا . وفي بعض بقاع العالم الإسلامي قتلت حرارة الصحراء أو الحرارة المدارية روح الحيوية . وعوقت المسافات الشاسعة غير المسكونة التجارة ، ولم يجد الناس في أنفسهم تحمسا إلى كسب المعرفة وتحصيلها مثل الأوربيين الغربيين ، فشحجوا الجمود وعدم التحرك ، وكانوا أكثر استعدادا للقناعة ولم يتصفوا بالطموح . وكانت الحرف والصناعات غير المتغيرة في الإسلام متقنة ، ولكنها كانت تتطلب وقتا ، وكان يعوزها الذوق ، ولم تتجه إلى الصناعة على نطاق واسع وكانت القوافل مثابرة صابرة ، ولكنها لم تقو على منافسة الأساطيل التجارية التابعة للبرتغال وأسبانيا وإنجلترا والأراضي الوطيمة التي كانت تجوب كل المسالك المائية إلى الهند . على أن بعض الثغور الواقعة على البحر المتوسط مثل أزمير ، اذدهرت بفضل نقل البضائع بين السفن والقوافل . وينفخ الإسلام في الناس روح

العجاجة المنفحة بالأمل زمن الحرب ، واسكنه كمان يغمس في نفوسهم وقت
وقتها السلم وروح التسليم بالقضاء والقدر التي تثبط من عزائمهم* ، وأغراهم بحلقات
التذكر والأحلام الضوئية . وعلى الرغم من أن الإسلام في عصر الفتوة والشباب
أجازه قدراً كبيراً من العلوم . فإنه هبط آنذاك بالفلسفة إلى حدائقه جوفاء
قوامها التعاليم والأساليب التقليدية . وعمل العلماء من رجال الدين الذين سنوا
القوانين على أساس القرآن الكريم ﷺ على تنشئة الأطفال على الدين القويم ،
وحرصوا على كل الحرص حتى لا يطل عصر العقل برأسه على العالم الإسلامي .
وهناك هيأ الصراع بين الدين والفلسفة نصراً حاسماً للدين .

أضف إلى ذلك أن هذا الدين تيسر له غزو البلاد التي اقتطعت من العالم
المسيحي . فقد كان للكنيسة الشرقية بطاركتها في القسطنطينية وأنطاكية ،
وأورشليم والأسكندرية ، ولسكن عدد المسيحيين فيها كان يتناقص بسرعة ،
وظل الأرمن في آسيا الصغرى والأقباط في مصر على عقيدتهم المسيحية ،
ولسكن الجماهير عامة في آسيا وأفريقية والبلقان اعتنقت الإسلام . وربما
كان لهذا أسباب عملية ، فلو أنهم بقوا على عقادتهم المسيحية لجرموا من
الوظائف العاجزة ، ودفعوا ضرائب باهظة مقابل إعفائهم من الخدمة العسكرية
وسلموا واحداً من كل عشرة من أبنائهم ليربي تربية إسلامية تؤهله للانضمام
إلى الإنكشارية ليعمل في الجيش ، أو ليتولى الوظائف الحكومية .

وفيا عدا هذا ، تمتع المسيحيون في العالم الإسلامي بتسامح ديني ما كان
حاكم مسيحي ليحلم بمنحه للمسلمين في أي بلد مسيحي . من ذلك ، على سبيل
المثال ، أن المسلمين كان لهم في أزمير ١٥ مسجداً ، وللمسيحيين ٧ كنائس
ولليهود ٧ معابد (١) . وكانت السلطات في تركيا والبلقان تتولى حماية
الكنيسة اليونانية الأرثوذكسية ضد أي تحرش أو ازعاج أثناء العبادة

* هذا الكلام يدل على عدم التعمق في فهم حقيقة الإسلام ؛ ولسنا نورد به نصه
توخياً للإمانة في الترجمة - (المترجم)

والصلوات^(٢) . وذهب صمويل بيدس في يومياته إلى أن معظم المجر استسلم للأتراك لأن البلاد نعمت في ظل الحكم العثماني بجزية دينية أكبر مما نعمت به في ظل الأباطرة الكاثوليك . وهذا حتى كل الحق من جانب المسيحيين المهرطقةين . فقد ذكر سير توماس أرنولد : « أن الكلفين في المجر وترنسلفانيا والموحدين في هذا البلد الأخير آثروا الخضوع للأتراك على الوقوع تحت نير آل هابسبرج المتعصبين وأن البروتستانت في سيليزيا تطلعوا إلى الأتراك ، وربما أرتضوا عن طيب خاطر أن يشتروا حريتهم الدينية مقابل الخضوع للحكم الإسلامي^(٣) » . وما يلفت النظر أو يثير الدهشة أكثر من ذلك ، حكم السلطات المسيحية القيادية على تاريخ اليونان الحديث : -

إن كثيرا من اليونان ذوى المواهب العظيمة والخلق الرفيع كانوا أكثر إدراكا لتفوق المسلمين ، حتى أنهم ، حين نجوا من سوقهم إلى خدمة السلطان في نطاق « صرية الأطفال » ، اعتنقوا الإسلام طواعية واختيارا . ولا بد من التسليم بأن السمو الخلقى في المجتمع العثماني كان له دخل كبير في هذا التحول إلى إسلام ، قدر ما كان للطموح الشخصي لدى الأفراد^(٤) .

ولكن من الصعب تحديد هذا السمو الخلقى ، لدى أتراك القرن السابع عشر . فان تافرنية الذى تجول واشتغل بالتجارة في البلاد الإسلامية في ١٦٣١ - ١٦٣٣ ، ١٦٣٨ ، ١٦٤٣ وما بعدها ، قال : « في تركيا لصوص كثيرون يتجمعون في عصابات . تقطع طريق التجار^(٥) ، وكان الأتراك معروفين بنزعتهم الهادئة إلى الخير ولكن نفس الديانة التى روضت دوافعهم غير الإجتماعية وقت السلم ، أطلقت لهم العنان فى ضراوة وعنف فى حربهم مع الكفار ، وكان استرقاق الأسرى المسيحيين مباحا . ووقعت غارات فى الأراضى المسيحية القريبة من الحدود العثمانية لاصطياد المسيحيين واسترقاقهم . ومهملا يكن من أمر ، فإن اتجار العثمانيين فى الرقيق كان أقل بكثير ، عددا وقسوة ، من الحملات التى قام بها المسيحيون لجمع الرقيق فى القارة السوداء . وكان الاتعماس فى الشهوة الجنسية فى العالم الإسلامى أشد

وأكثر أرهاقا منه في العالم المسيحي ، ولو أنه كان عادة في نطاق الحدود المنظمة لتعدد الزوجات . وكان المجتمع التركي ، عل وجه التحديد . مجتمع رجال ، ولما كان اتصال الرجال بالنساء محظورا خارج البيت . فقد أنس المسلمون بمعاشرة الغلمان ، عشرة عذرية (أفلاطونية) أو جسدية . وانتشر السحاق داخل الحرم (٨) .

وسادت حياة عقلية نشيطة ، ولو أنها مقيدة ، بين أقلية كبيرة من المسلمين . وربما كانت نسبة معرفة الكتابه والقراءة في تركيا أوربا في القرن السابع عشر أعلى منها في العالم المسيحي وربما حكمتنا على وفرة الكتب من ثبت جمعه حاجي خليفة (١٦٤٨) ، يضم أكثر من ٢٥ ألف كتاب في اللغات العربية والتركية والفارسية . وكانت هناك مئات المجلدات في الدين والفقه والعلوم والطب والبلاغة والسير والتاريخ (٩) . وكان من أشهر المؤرخين أحمد بن محمد ، غالبا ما استندنا في كتابتنا هذه إلى مؤلفه « تاريخ الأسرات الإسلامية في أسبانيا » (نفتح الطيب) . وقد عرفناه أساسا باسم « المقرئ » ، وقد اشتق اسمه من اسم مسقط رأسه في قرية في الجزائر . ومعظم كتابه عبارة عن قطع منقولة أو مختصرة من كتب قديمة ، ومع ذلك فهو إنتاج جدير بالذكر في عصره ، لم يزدنا بأخبار السياسة والحرف فقط ، بل أمدنا كذلك بشيء عن الأخلاق والقانون والنساء والموسيقى والأدب والطب . وأحيا مدونته بالتفاصيل الممتعة والحكايات والنوادر التهذيبية .

ونظم الشعر كل من عرف القراءة والكتابة في تركيا تقريبا . واشترك الحكام بحماسة في هذه المباراة (كما هو الحال في اليابان) . وألف محمد سليمان أوغلو المعروف « بالفضولي » (وهو أسم أخف على السمع) ، أرق أغاني الحب في ذلك العصر ، وربما بدت ساذجة في الترجمة . الإنجليزية الرديئة التي توفرت لنا ، ولسكننا ندرك مراميه - تميزت غادات بغداد بالدفء والحرارة والطرارة ونعومة الملمس ، والخفر والرفه حتى

يتزوجن . أما محمود عبد الباقي (المتوفى ١٦٠٠) وهو أعظم الشعراء
العثمانيين العثمانيين ، فإنه بعد أن كان المغنى الأثير لدى سليمان القانوني ، ظل
يشدو لمدة أربعة وثلاثين عاما بعد وفاة راعيه . وكتب نافع الذى عاش فى
أرضوم ، هجاء لاذعا ، لا بد أن شيئا منه صعد إلى السماء ، فإنه بينما كان
السلطان مراد الرابع يقرأ قصيدة منه نزلت صاعقة على قدميه ، فمزق السلطان
الكتاب ونفى الشاعر من القسطنطينية ، وسرعان ما أعيد إليها ، وأمكن قصيدة
هجائية أخرى لذعت الوزير بيرم باشا ، فأمر بقطع رأسه (١٠) .

وظل الفن العثمانى ينتج التحف والروائع ، فقد بنى مسجد أحمد الأول
فى ١٦١٠ يشرف على العاصمة بمآذنه الست المحلقة فى الجوى ، وسلسلة قبابه
المنتهجة (البصلية الشكل) ، وأعمدته المحززة الضخمة فى الداخل ، وأقواس
القبسفساء ، والكتابات الفخمة والزخارف المتناقة . وبعد ذلك بخمسة أعوام أهدى
السلطان لزوجته ذات الخطوة لدهيه مسجد بيتى فالدى جاميسى الرابع . وبنى فى هذه
الحقبة فى دمشق مسجدان ثمان . أما فى أدرنه فإن المهندس المعمارى الذى
لا نظير له ، سنان الذى كان قد وضع تصميم مسجد سليمان شاد للسلطان سليم
الثانى مسجدا يعده بعض الناس أعظم من أى مسجد آخر فى القسطنطينية .

ولم تتفوق أية حضارة على الإسلام فى صنع تربيعات الترميد الجميلة التى
نشاهدها ، على سبيل المثال فى مسجد أحمد الأول ، وأجمل منها تلك التى تزين
مدخل ضريح سليم الثانى بالقرب من أيا صوفيا بباقات من الأزهار البيضاء
والزرقاء وسط أغصان وأوراق خضراء وزرقاء وحمراء ، ولا يمكن أن
تسكون الزهور الحية أجمل من ذلك ، بل قد تحسد نظيراتها المصنوعة على طول
بقائها . وكانت أزيق - حيث رأس قسطنطين منذ ثلاثة عشر قرنا المجمع
التاريخى الذى ثبت العقيدة المسيحية - نقول كانت مشهورة بتربيعاتها البراقة
وثمة نماذج مقنعة منها فى متحف المتروبوليتان للفن .

وكان رسم المنمنمات فى تركيا يحاكي نظيره فى فارس التى سنتحدث عنها وشيكا
أما الخط فقد ذاع صيته (يقال أن سطرأ واحداً بخط مير عماد بيع بقطعة

من الذهب أثناء حياته) (١١) إلى حد أنه لم يطبع أى كتاب فى تركيا قبل عام ١٧٢٨. وفى النسيج كذلك كان الأتراك تلاميذ الفرس ، ولكن لم يتفوق عليهم فيه إلا هولاء . ولم يبلغ السجاد التركى درجة الإيراني فى رقة النسيج ودقة التصميم والرسم أو الثراء فى الألوان . ولسكنهم يحتلون مكانة عالية فى تاريخ هذا الفن . وكان السجاد التركى فى القرن الخامس عشر قد كسب شهرته بالفعل فى الغرب لأننا نراه فى لوحات الرسام الإيطالى أندريا ما تينيا ، وبعده فى بنتوريكيو ، وفى باريس بوردون وهولبين . وكسى كثير من قصور التيودور بالسجاد التركى ، بل إن كرومول المتشدد نفسه كان لديه اثنتان وعشرون قطعة منه (١٢) . وإننا لنجد هذا السجاد ممثلاً فى قطع النسيج المنزكش (السكافاه ، الجويلان) ، يوضح للناس حياة لويس الرابع عشر . لقد كان الغرب يدرك أن الشرق لديه الفنون والمدافع سواء بسواء .

٢ - معركة ليبنتو

ومهما يكن من شىء ، فقد كان على حكام الغرب أن يرقبوا المدافع ، لأن سلاطين آل عثمان كانوا قد أعلنوا عن عزيمتهم على تحويل أوروبا بأسرها إلى الإسلام . أن رصيدهم البشرى وثروات مملكتهم الزاحفة فى كل مكان هيات لهم أكبر جيش وأحسنه عتادا وعدة فى أوروبا . وكان عدد الانكشارية وحدهم خمسين ألفا . وربما كان خلاص الغرب وخلص المسيحية فى ترامى أطراف الإمبراطورية العثمانية على هذا النحو ، فما كانت المسافات البعيدة لتساعد على تجميع الموارد المبعثرة فى الوقت المناسب ، كما أن السلاطين ، ولو أنهم شكلوا أسرة حاكمة أبقى على الزمن من أية أسرة حاكمة مسيحية ، دب فيهم الفساد وانتابهم التدهور حينما تهيأت للحريم ، فرصة لتحقيق مآربهم ، وكانوا يكلون أمور الحكم إلى وزراء مؤقتين سريعى الزوال ، نزع بهم تززع مراكزهم إلى التخفيف من وطأة سقوطهم واعتزال مناصبهم ، بجمع الثروات أيام سطوتهم .

وهكذا كان سليم الثاني الذي خلف سليمان القانوني ١٥٦٦ ، حاكما منحلا خاملا ، لم تتجمل عبقريته إلا في أنه عهد بالإدارة والسياسة إلى وزيره القدير محمد سوكلي . وانقطعت غارات الأتراك على الإمبراطورية الرومانية المقدسة لأن الإمبراطور مكسيميليان الثاني اشترى السلام مقابل جزية سنوية قدرها ٣٠ ألف دوكات . وحول سوكلي وجهه سطر فريسة أقرب . فقد احتفظت بلاد العرب من قبل ، باستقلالها الديني ، ولكن تم الآن للباب العالي فتحها (١٥٧٠) وكانت ممتلكات البندقية لا تزال متناثرة في بحر ايجه ، تعوق أساطيل تركيا وتجارها . وقصد لا لامصطفى على رأس ٦٠ ألف مقاتل لهاجمة قبرص وأهابت البندقية بالدول المسيحية لنجدها ، فلم يستجب لندائها إلا البابا وأسبانيا . فإن بيوس الخامس لم يكن قد نسي أن الأسطول التركي في ١٥٦٦ هدد أنسكونا نغر البابا وقلعته على الإدريانيك . كما علم فيليب الثاني أن عرب الاندلس استصرخوا السلطان لإنقاذهم من ويلات الحكم الاسباني (١٥٦١) وأن السلطان رجب بمبهورئهم إليه . وكان الموقف الدبلوماسي مواتيا . ذلك أن الإمبراطور لم يكن يشترك في الحرب ضد تركيا ، لأنه كان قد وقع من فوره معاهدة سلام معها ولم يكن من الشرف ولا في مصلحة أمنه أن ينقضها . وعارضت فرنسا أية خطة يزيد من قوة أسبانيا وترفع من شأنها . ووثقت معرى للصدقة مع الأتراك عونا لها على مواجهة الإمبراطور . وخشيت إنجلترا مغبة الدخول في مغامرة مشتركة مع فيليب الثاني يجعلها تحت رحمة أسبانيا السكاثوليكية في حالة انتصارها . وساور البندقية بعض القلق من أن الانتصار قد يأتي بالقوات الأسبانية إلى الأدياتيك . فتقضى على احتسكار البندقية لهذا البحر وسيطرتها عليه . وقضى بيوس عاما كاملا في التغلب على هذه الحيرة والتردد . وكان عليه أن يرضى باستخدام البندقية وأسبانيا لأهوال السكنيسة . وأخيرا في ٢٠ مايو ١٥٧١ انضمت القوى الثلاث في «عصبة مقدسة» واستعدت للحرب .

وفي أثناء هذه المفاوضات تقدم الهجوم التركي على قبرص . مع خسائر

جسيمة تكبدها الطرفان . وسقطت فيقوميا بعد حصار دام خمسة وأربعين يوما . وأعدم بحد السيف عشرون ألفا من سكانها ، وقاومت فأما جوستا زهام عام : وعندما سقطت (٦ أغسطس ١٥٧١) سلخ البطل المدافع عنها ، مارك أنطونيو براجادينو ، حيا ، وحشى جلده بالقش وأرسل إلى القسطنطينية تذكارا للنصر .

وكانت الظروف تستحث العصبة المقدسة على العمل ، فجمعت قواتها . وأسهمت بالسفن والرجال ، كل من فلورنسة وبارما ولوكا وفرانكا وأورينيو وجنوة ، عدو البندقية القديم . وفي نابلي تسلم دون جران النمساوي لواء العمياد في احتمال هيب من الكاردينال دي جرانفل . وفي ١٦ سبتمبر ، بعد أن تناول البحارة والجنود القربان المقدس من يد الجزويت والكيوشيين الذين التحقوا بالحملة ، أنجز الأسطول الضخم (الأرمادا) من مسينا إلى جزيرة كورفو في محاذة جنوبي إيطاليا ، عبر مضيق أوترانتو . وهناك ترامت أنباء المذابح والفظائح التي اقترنت بسقوط قبرص . وتعالمت صيحات النصر ، فليحى المسيح ، عندما أصدر دون جران أوامره بالانطلاق إلى القتال .

وفي ٧ أكتوبر ١٥٧١ تحرك الأرمادا عبر خليج بتراس إلى خليج كورنث . وكان الأسطول التركي ينتظر بعيدا عن نغر ليبنتو ، وهو يضم ٢٢٢ سفينة شراعية كبيرة ، و ٦٠ سفينة صغيرة ، و ٥٧٠ مدفعا ، و ٢٤ ألف جندي ، و ١٣ ألف ملاح ، و ٤١ ألف مجدف . وكان لدى المسيحيين ٢٠٧ سفن شراعية ، وست سفن شراعية فينيسية ضخمة تحمل المدافع ، و ٣٠ سفينة صغيرة و ١,٨٠٠ مدفع . و ٣٠ ألف جندي و ١٣ ألف وتسعمائة ملاح ، و ٤٣ ألف مجدف (١٢) . ورفع الأسطول المسيحي علم المسيح مصلوبا . ورفع الأسطول التركي علم السلطان يحمل اعظ الجلالة ، الله ، موسى بالذهب . وتراجع جناح المسيحيين الأيمن أمام الأتراك ، ولكن الجناح الأيسر الذي كان يقوده البنادقة حول المقاومة الضارية إلى هجرم منظم ، وأودت مدفعيتهم

بحياة آلاف من الأتراك . وأصدر دون جوان أمره بأن تتحرك سفينة قيادته قد ماتحو سفينة أمير البحر التركي موسيناد علي . فلما ألقت السفينتان ، قفز ثلثمائة من جنود دون جوان الأسبان المحنكين إلى السفينة التركية بقيادة راهب كبوشي ، يلوح بالصليب عاليا . وتقرر مصير المعركة ، عندما أسرت السفينة ، ورفع رأس على المفصول عن جسده فوق سارية علمه (١٤) . وانهارت الروح المعنوية لدى الأتراك . وهربت ٤٠ من سفنهم ، وأسرت ١١٧ أخرى ، كما أغرق أو أحرق خمسون سفينة . ولقى حتفه في المعركة أكثر من ثمانية آلاف رجل من الأتراك ، وأسرع آلاف ، وزع معظمهم رقيقا على المنتصرين . وحرر نحو ١٢ ألفا من الأرقاء المسيحيين الذين كانوا يقومون بالتجديف على المراكب التركية . وفقد المسيحيون ، وقتل منهم ٧٥٠٠ رجل من بينهم أفراد من أعرق وأشهر الأسرات في إيطاليا . ولا نزاع في أن معركة ليبنتو كانت أعظم معركة بحرية في التاريخ الحديث . ووصفها سرفنتز الذي كان من بين الجرحى المسيحيين البالغ عددهم ٧٥٠٠ بأنها «أعظم حدث بارز جدير بالذكر شهدته العصور الخوالي أو العهود الحاضرة . وقد لا يكون له نظير في المستقبل» (*) ، (١٥) .

وكان يجدر أن تكون هذه أكبر معركة فاصلة في التاريخ الحديث ، لولا أن استنزاف المجدفين والأضرار التي لحقت بالأسطول المنتصر ، وهبوب عاصفة عنيفة ، حال دون تعقب الأتراك . فقد ناز النزاع بين المسيحيين حول اقتسام المجد والغنائم . ولما كانت أسبانيا قد أسهمت في القتال بنصف السفن والنفقات ، والبندقية بثلاثها والبابا بالسدس ، فقد وزعت الغنائم بقدر هذا الاسهام . ووزع الأسرى الأتراك بهذه النسبة ، فخص أسبانيا ٣٦٠٠

(*) طلى بعد نحو مائة ميل إلى الشمال الغربي ، قرب اكتيوم . على خليج آرثا الحالى ، انتزع اكتافيوس بأربعمائة سفينة حربية السيادة على عالم البحر المتوسط القديم من أنطونيوس وكليوباتره ، وسفنها الحربية الخمائة (٢ سبتمبر ، ٣١ ق م) .

عبد مكبلين في الأصفاد ، ومن نصيب البابا منح دون جوان ١٧ عبدا مكافأة شرفية لقاء خدماته^(١٦) . ورغب بعض الزعماء المسيحيين في الاحتفاظ بالارقاء للمسيحيين الذين حرروا من السفن التركية ، ولكن البابا بيوس الخامس حرم هذا التصرف^(١٧) .

وابتهجت أوروبا الكاثوليكية بأسرها حين وصلت أنباء النصر . وازدانت البندقية بأكاليل الزهر والتحف الفنية ، وتبادل الرجال القبلات في الشوارع ، ورسم تيشيان وتنتورنو وفيرونيز لوحات ضخمة عن المعركة ، واحتفل بالقائد الفينيسي سباستيان فنييرو وأياما وإيالي كثيرة ، وأخيرا اختبر لتولى منصب « الدوج » (القاضى الأول في جمهورية البندقية) . أما في رومه ، حيث قضى رجال الدين وعامة الناس ساعات كل يوم في الصلوات وأحر الدعوات منذ غار الارمادا مسينا ، فقد تعالت صيحات « الشكر للرب » في مرح وابتهاج وارتياح ، وكاد البابا بيوس الخامس ، منظم النصر ، أن يرفع دون جوان إلى مرتبة القديسين وأطلق عليه عبارة الإنجيل « هناك رجل أرسل من عند الله اسمه يوحنا » (إنجيل يوحنا ، ١ : ٦) وتليت القداصات وأطلقت الألعاب النارية ، ودوت طلقات المدافع . ورجا البابا من المنتصرين أن يحشدوا أمطولا آخر ، وتوسل إلى حكام أوروبا أن ينهزوا الفرصة ليتحدوا في حرب صليبية لطرد الأتراك من أوروبا ، ومن الأرض المقدسة . وأهاب بشاه إيران ، وبأمير اليمن السعيد أن ينصحا إلى المسيحيين اللانقضاض على الأتراك^(١٨) . ولكن فرنسا الحاكمة على أسبانيا اقترحت على السلطان ، عقب ليونتو مباشرة ، تحالفا مباشرا ضد فيليب الثاني^(١٩) * .

(*) في عام ١٥٢٦ حصلت فرنسا من تركيا على « الامتيازات » . ووجدت في ١٥٦٩ ولم تكن تنازلات بل معاهدة اتفق بمقتضاها ، أساسا ، على أن يعامل الرعايا الفرنسيون في الأراضي التركية ، ويحاكموا وفق القانون الفرنسي « الفضلاء » خارج أراضي الدولة « ووقعت تركيا مثل هذه الامتيازات مع إنجلترا في ١٥٨٠ ، ومع المقاطعات المتحدة (في الأراضي الوطنية) في ١٦١٣

واشتركت أبناء هذا العرض مع عوامل أخرى في ثنى فيليب عن عزمه على القيام بعمل جديد ضد القوة العثمانية الرئيسية . وتورط في النزاع مع إنجلترا ، وفي المأزق الذي أوقعه فيه دوق ألفا في الأراضي الوطيمة ، كما استاء من إصرار البندقية على احتكار التجارة في الأدرياتيك ، وخشى من أن انتصار ثانيا على الأتراك قد يبعث القوة والحياة في امبراطورية البندقية المتداعية ، فتصبح منافسا قويا لاسبانيا . أما بيوس الخامس الذي أرهقته الانتصارات والهزائم معا ، فإنه لقي ربه في أول مايو ١٥٧٢ ، ومات معه العصبة المقدسة .

٣ - اضمحلال السلاطين

وفي نفس الوقت ، وبمشاط أفزع الغرب . بنى العثمانيون أسطولا آخر ، في مثل ضخامة الأسطول الذي كاد أن يدمر عن آخره . وفي بحر ثمانية أشهر بعد معركة ليبنتو ، كان ثمة أسطول تركي مكون من ١٥٠ سفينة يجوب البحار بحثا عن الأسطول المسيحي الذي بلغ من سوء النظام حدا لم يجرؤ معه على الخروج من مكنه . وشجع الجميع البندقية على استئناف الحرب ، ولكن أحدا لم يمد لها يد المساعدة ، ومن ثم فإنها عقدت مع السلطان (٧ مارس ١٥٧٣) صلحا لم تنازل بمقتضاه عن قبرص لحسب ، بل دفعت كذلك للسلطان تعويضا يغطي ما تكبده من نفقات في فتح الجزيرة . لقد خسر الأتراك المعركة ولكنهم كسبوا الحرب . ويبدو كيف أنهم لم يصعبهم أي وهن ، من العرض الجريء الذي تقدم به سوكرالى إلى البندقية (١٥٧٣) ، وهو أنها إذا انضمت إلى الأتراك في حربهم ضد أسبانيا ، فلسوف يساعدونها في غزو مملكة نيبلي لتكون تعويضا سخيا لها عن ضياع قبرص . ورفضت البندقية هذا العرض لأنه يشجع السيطرة التركية على إيطاليا والعالم المسيحي . وفي أكتوبر أحميا دون جوان مجده بالاستيلاء على تونس لحساب أسبانيا ، ولكن في بحر طام واحد استطاع الأتراك بأسطول صخم آنذاك (٢٥٠ سفينة) استعادة المدينة

وذبح الأسبان الذين كانوا قد استوطنوها حديثاً . وعلى سبيل الاحتياط أغاروا على سواحل صقلية . ومات سليم الثاني في ١٥٧٤ ، ولكن ظل سوكللي يتولى شؤون الدولة ويدير دفة الحرب .

وقد يدعو إلى حيرة الفلاسفة أن يرى المؤرخون اضمحلال الدولة العثمانية في عهد مراد الثالث (١٥٧٤ - ١٥٩٥) على حين أنه كان يجب الفلاسفة ، ولكنه كان مولعاً بالنساء كذلك . وأنجب مائة وثلاثة أطفال من عدد غير كبير من الزوجات . وكان في دافو ، الزوجة ذات الحظوة لديه ، وهي أمة من أسرى البندقية ، أسرته بمفاتها ، وتدخلت في شؤون الدولة ، واشترى نفوذها بالمال ، وتخلص نفوذ سوكللي ، ولما أقترح بناء مرصد ثارت ثائرة الشعب ضده في نكرة تعصب ذميم ، فقتلوه (١٥٧٩) ، وربما كان هذا بأمر السلطان مراد . وعمت الفوضى ، وانخفضت قيمة العملة ، وتمرد الانكشارية لهبوط قيمة أجورهم لأنهم يتسلمون نقداً رديئاً ، وأفسدت الرشوة الموظفين ، بل أن أحد الباشوات كان يفاخر بأنه رشى السلطان . وانفس مراد في ملذاته الجنسية ومات متأثراً بالإفراط فيها .

وسيطرت دافو ، على أبنا محمد الثالث (١٥٩٥ - ١٦٠٣) قدر سيطرتها على والده . وبدأ حكمه بالعملية التقليدية ، فقتل تسعة عشر من أخوته ، لغرام وحثاً لآل بيته على أن يركنوا إلى الهدوء والمسالمية ، ولكن اخصاب مراد . أو ذريته الكبيرة ، جعلت من هذا السلام المنشود مشكلة عسيرة ، فإن كثيراً من أبناء السلطان بقوا على قيد الحياة تحديق بهم الأخطار . وأنتشر الفساد وسادت الفوضى . وضعيت الهزيمة في الحرب مع النمسا وفارس قيمة الانتصارات التركية . وواجه أحمد الأول خطر ظهور الشاه عيلى الأول حاكماً قوياً في فارس ، فقرر حشد قواته على الحدود الشرقية ، ورغبة في التخصيف منها في الغرب ، أمر السلطان وكلاءه بتوقيع صلح زنفانوروك ، (١٦٠٦) ، وهي أول معاهدة تنازل الأنراك المزهورون بتوقيعها خارج القسطنطينية . ودفعت النمسا للسلطان مائتي ألف دركات ، ولكنها أعميت من أية جرية

بعد ذلك . وقبلت ترانسلفانيا السيادة التركية طواعية واختيارا ، كذلك عقدت فارس الصلح (١٦١١) ، وأعطت تركيا مليون رطل من الحرير ، تعويضا عن الحرب . وتميز هذا العهد في جملته بالتوفيق والسلامة لولا ما شابهه من استمرار الانكشارية في تمردهم . وكان السلطان أحمد رجلا تقياً حزين النية ، وبذل للجهد ، ولكنه أخفق في القضاء على قتل الإخوة أخوتهم في الأسرة المالكة .

وأقترح عثمان الثاني (١٦١٧ - ١٦٢٢) تنظيم الانكشارية والإصلاح من شأنهم ، ولكنهم اعترضوا وقتلوه ، وأجبروا أخاه الأبله المعتمه مصطفى الأول على اعتلاء العرش ، ولكن مصطفى أوفى من رجاحة العقل ما جعله يتخلى عنه (١٦٢٣) لابن أخيه مراد الرابع البالغ من العمر اثني عشر عاما (١٦٢٣ - ١٦٤٠) . واختار الانكشارية كبار الوزراء ، وكانوا يذبحونهم كما لاح لهم أنه قد آن الأوان لأحداث تغيير . واقتحموا القصر الملكي وأجبروا السلطنة قسيم على أن تفتح لهم أقبية الكينوز استرضاء لهم . وفي ١٦٣١ عادوا إلى القصر ثانية ، وتعقبوا السلطان الشاب إلى جناحه الخاص وطالبوا برؤوس سبعة عشر موظفاً . وقدم أحدهم - حافظ - نفسه للجماعة ، فداء للباقيين ، فمزقوه إربا . وقابلهم مراد ، وهو لا يزال بعد غض الإهاب ، بما بدا أنه تهديد هين لين : « إلى لأرجو أن يمدني الله بعون من عنده : يا رجال الدم ، يا من لا تخشون الله ، ولا تشعشعون الحجل أمام رسوله ، سيحل عليكم أشد الانتقام ^(٢٠) » . وانتهز الفرصة الملائمة ليشكل قوة موالية له ، ودبر قتل الواحد تلو الآخر من زعماء التمرد . وسحقت محاولات أخرى للثورة والعصيان ، بقسوة شديدة . وفي بعض الأحيان ، شارك السلطان بنفسه ، مثل - بطرس الأكبر - في تنفيذ أحكام الأعدام . وقتل كل أخوته فيما خلا واحداً ظنه أبله لا يخشى منه شيء . وفي نشوة سلطته الملكية فرض عقوبة الأعدام على تناول التبغ أو القهوة ، والأفيون أو الخمر . وقيل أن جملة من أعدموا في عهده مائة ألف شخص ، باستثناء من لقوا حتفهم في

الحرب (٢١) . واستتب لبعض الوقت النظام الاجتماعى ونزاهة الإدارة . ولما أحس الآن بأنه فى مأمن إلى حد معقول ، استأنف الحرب مع فارس ؛ وقبل أن يتحداه محارب فارسى فى نزال فردى ، فأرداه قتيلًا ، واستولى على بغداد (١٦٣٨) ، وجاد بصلح على نصر ، وادى عودته إلى القسطنطينية استقبله أهلها استقبال المنتصر الظافر . ومات بعد ذلك بعام واحد متأثرًا بداء النقرس الذى سبب له الادمان على الخمر . وكان فى الثامنة والعشرين من العمر .

وبعد وفاة مراد الرابع ، عاد اضمحلال تركيا سيرته الأولى . فإن إبراهيم الأول نجما من موت محقق بيد أخيه ، لكونه مخبولًا ، أو لتظاهره بالخبل ، وتجددت الفوضى والفساد فى ظل حكمه الضعيف الطائش . وشن الحرب على البندقية وأرسل حملة إلى كريت . وسد البنادقة منافذ الدردنيل . وتضور أهالى القسطنطينية جوعًا . ونار الجيوش وشفق السلطان . وعادت إلى ذاكرة الغرب المسيحية قصة الحرس البريتورى فى رومه ، وانتهوا إلى أنه لم يعد ثمة مرر لأن يهربوا قوة الأتراك وفى بحر خمس وثلاثين سنة أخرى كان الأتراك على أبواب فيينا من جديد .

٤ - الشاه عباس الأكبر : ١٥٨٧ - ١٦٢٩

انه لمن حسن حظ الغرب المسيحية أنه فيما بين عامى ١٥٧٧ و ١٦٣٨ ، حين كانت فرنسا أولا ، ثم ألمانيا من بعدها ، قد شملت حركتها الحروب الدينية ، أن الأتراك الذين كان يمكن أن يمدوا حدودهم الغربية إلى فيينا ، وجها كل مهمهم وطاقتهم إلى فارس . وهنا أيضا كان الدين مبررا يستر وراءه شهوة السلطان والسيطرة . فإن الأتراك الذين كانوا يتبعون المذهب السنى ، رموا الفرس بالمروق لأنهم اتبعوا مذهب الشيعة ، ودمغوا كل من ولى الخلافة بعد على ، وهو زوج بنت الرسول ، بأنه مغتصب لها . وكانت ذريعة

الحرب بطبيعة الحال دينوية أكثر منها دينية - وهى الرغبة فى حكم الأقليات طمعا فى مزيد من الأراضى والموارد والسكان الذين يمكن أن تفرض عليهم الضرائب . ونتيجة لسلسلة من الحروب المتواصلة تقدم الأتراك نحو الفرات والقوقاز وبحر قزوين ، مستحوذين على العاصمة الفارسية الجديدة تبريز ، والعاصمة العربية القديمة بغداد، التى وصفها بيدرو تكسيرا (١٦١٥) بأنها مدينة غنية عامرة بالأتراك والفرس والعرب واليهود ، الذين يعيشون فى ٢٠ ألف بيت من الأجر ، تزحمها حركة الثيران والجمال والخيل والحير والبغال المحملة ، والرجال نظيفى الثياب ، وكثير من النساء المليحات الوسميات ، وعيونهن ، كاهن تقريبا ، جميلة تحديق فوق خمرهن أو من خلالها ، (٢٢) . وقد كلف أحد الموظفين بالسهر على حماية الغرباء هناك .

وإلى الشرق من بغداد والفرات كانت تقع الولايات الفارسية الممزقة ، وتمتد إلى القوقاز وبحر قزوين فى الشمال الغربى ، وإلى تركستان فى الشمال الشرقى ، وإلى أفغانستان شرقا ، وإلى المحيط الهندى جنوبا ، وإلى خليج العرب (الخليج الفارسى) فى الجنوب الشرقى ، وكأنها أجزاء مبعثرة لجسم واحد ، تنتظر أن تحل فيها رح تضم شتاتها .

وكان عباس الأكبر خامس شاه ، أو ملك ، من الأسرة الصفوية التى كان قد أسسها إسماعيل الأول فى تبريز ١٥٠٢ . وفى عهد الشاه الثانى طهما سب الأول الذى امتد حكمه طويلا (١٥٢٤ ت ١٥٧٦) تعرضت الدولة الجديدة لغارات كبيرة من الأتراك . وبعد موته فتح الأتراك الولايات الفارسية : العراق ولورستان وخوزستان وضموها إلى أملاكهم . وفى نفس الوقت جاء الأزابكة من بلاد فيما وراء النهر ، واستولوا على هراة ومشهد ونيسابور ، واجتاحوا الولايات الدارسية الشرقية . ولما ارتقى عباس العرش (١٥٨٧) وهو فى الثلاثين من العمر ، دون أن يكون له عاصمة ، عقد الصلح مع الأتراك ، وتقدم شرقا ليقابل العدو الأصغر شأنا وأقل نفرا . وبعد حروب دامت أعواما استرد هراة وطرد الأزابكة من فارس ، ومات بعد ذلك متلهفا

على ملاقاته الاتراك . ولكن الخسائر والاحقاد القبلية كانت قد استنزفت جيشه القوي كان كذلك تعوزه أحدث وسائل الفتك والتدمير .

وحوالي هذه الفترة (١٥٩٨) وصل من إنجلترا إلى فارس في بعثة تجارية انجليزيان هفايران هما سير أنطوني شيرلي وأخوه الأصغر روبرت ، يحملان هدايا ثمينة وخبرة عسكرية . وكان برفقتهم خبير في صنع المدافع . وتمكن الشاه عباس بمساعدتهما من إعادة تنظيم جيشه ، وزوده بالبنادق والسيوف معا ، وسرعان ما توافر لديه ٥٠ مدفعاً . وقاد قواته الجديدة ضد الاتراك وطردهم من تبريز (١٦٠٣) ، واسترد أريغان وشروان وكادن . فأرسل عليه الاتراك جيشا عروما قوامه مائة ألف رجل ، هزمه عباس بستين ألفا فقط (١٦٠٥) ، واسترد بذلك أذربيجان وكرديستان والموصل وبغداد وامتد حكم عباس من الفرات إلى السند .

وحتى قبل هذه الحملات الشاقة ، كان الشاه عباس قد شرع (١٥٩٨) في تشييد عاصمة جديدة ، أبعد منالأعلى الغزاة من تبريز ، وأقل تدنسا بذكريات الأجانب وقدام السنين ، كانت أصفهان موعلة في القدم لمدة ألفين من السنين (ولو لم تكن تحمل هذا الاسم) ، وكان عدد سكانها ثمانين ألفا . وعلى مسافة نحو ميل من المدينة القديمة أقام مهندسوه رقعة مستطيلة اسمها ميدان الشاه أو الميدان المللكي ، طولها ١٦٧٤ قدما وعرضها ٥٥ قدما ، وتحوطها الاشجار وعلى جانبيها منها متزهات مغطاة اتقاء المطر والشمس . وفي الناحية الجنوبية شيد مسجد الشاه أو المسجد المللكي ؛ وإلى الشرق بني مسجد لطف الله والقصر المللكي ؛ وشغلت بقيت المساحة بالحوانيت والخانات والمدارس . وإلى الغربية من الميدان شق طريق بانمراع مائتي قدم ، شاهار باع ، (البساتين الأربعة) تحف به الأشجار والحدائق تزينه البرك والتنافورات وعلى جانبي هذا الطريق المزدان بالأشجار قامت قصور الوزراء . وجرى عبر المدينة نهر زاياند الذي بنيت عليه ثلاثة جسور ، كان أحدها دانه فردي خان ، تحفة

جميلة في فن البناء ، يمتد ١١٦٤ قدما مع طريق عريض مهد ؛ و يمر مقنطر على الجانين المشاة ؛ وكانت المدينة الجديدة تروى وتبترد بواسطة القنوات والخزانات والنافورات والشلالات . وكان التصميم في مجموعة قطعة رائعة في تخطيط المدن ، تضارع أروع ما عرفه ذلك العصر في أي مكان آخر (٢٣) .

وعندما زار الرسام الفرنسي سيمون شاردان أصفهان (١٦٧٣) دهش عند رؤية حاضرة على مثل هذا النمق في الإدارة والتجارة والصناعات والفنون تحوزها ١٥٠٠ قرية ، ويسكنها ٣٠٠ ألف نسمة . وكان بالمدينة وضواحيها ١٦٣ مسجداً و ٤٨ كلية و ٢٧٣ حماما عاما و ١٨٠٠ خان (فندق صغير) . ووصف تافرنييه أصفهان عندما رآها في ١٦٦٤ بأنها تضارع باريس في الاتساع ولكن سكانها يبلغون عشر سكان العاصمة الفرنسية ، لأن كل أسرة في أصفهان كان لها بيتها وحديقتها ، وأن الأشجار بها كانت كثيرة إلى حد أنها بدت دغابة لا مدينة ، (٢٤) أنها صورة جميلة لولا أن تافرنييه يستطرد فيقول : د وأمام كل بيته حوض تلقى فيه كل أسرة فضلات بطونها . ثم يأتي الفلاحون يوميا ليحملوها ليستخدموها في تسميد أراضيهم ، ولا بد أن تقابل في كل البيوت فتحات في الجدران تطل على الشارع . يقبع فيها الناس ، ولا يخرجون من الخياط والتبول على مرآى من الدنيا بأسرها ، (٢٥) .

وكان الشاه عباس يدرك تمام الإدراك أن أوروبا الغربية تحمله شغله الأتراك في الشرق ، فأرسل سير أنتوني شيرلى في بعثة لاقامة العلاقات بينه وبين الحكومات المسيحية ، وفتح الطريق أمام صادرات فارس من الحرير دون تدخل الوسطاء الأتراك . وعندما قدم المندوبون الأوربيون إلى أصفهان أكرم وفادتهم وأباح لهم الحرية الدينية . وكان قد أمر خمسة آلاف من الأرمن أنشاء حروبه مع تركيا ، فلم يستعبدهم ، ولكن أباح لهم النهوض بمقرهم في جولفا بالقرب من أصفهان ، وأفاد من نشاطهم التجاري ومن مهاراتهم . وهناك شادوا كنيستهم الخاصة بهم وزينوها بتخطيط من الصور المقدسه

المسيحية والزخارف الإسلامية واعبت برأس الشاه عباس فكرة صهر الأديان كلها في دين واحد وفرض السلام على السموات والأرض، (٢٦). وبطريقة أكثر واقعية استغل الشاه الخماس الشيعي لدى الفرس كأداة لرفع معنوياتهم وروحهم القومية، وشجع شعبه على الحج إلى مشهد على أنها مكة مسلمي فارس، وسعى هو بنفسه ثمانمائة ميل من أصفهان إلى مشهد ليؤدي المناسك ويوزع الهبات والصدقات.

ومن ثم فإن العبارة التي جعل أصفهان تتألق بها، كانت دينية أساساً، مثل كنيسة العصور الوسطى في الغرب. فكان يحول أموال الفقراء إلى أماكن للعبادة تكون عظمتها وجمالها وهدوءها مفخرة وملسكا للجميع. وكان أعظم ما يشير الإعجاب في مباني العاصمة الجديدة مسجد الشاه الذي بناه عباس (١٦١١ - ١٦٢٩). وكان الميدان، مدخلها الرائع وطريقها الفاخر، وبدأ الميدان كله وكأنه يؤدي إلى البوابة التي ترحب بالداخلين إليها، وأول ما يهر العين المآذن التي تطوق المدينة بأبراجها الناتئة الممخرمة التي يوحد المؤذنون فيها الله، والخزف اللامع الذي يكسو أطار الأبواب، ثم الأفريز وما عليه من عبارة منقوشة. يتقرب بها عباس إلى الله بهذا الضريح. حتى حروف الهجاء في فارس كانت فنا. وكانت الحوائط داخل العقود مزدانة بعناقيد موشاة بزهور بيضاء. ثم الساحة الداخلية المكشوفة للشمس، ومنها عبر أقواس أخرى إلى الحرم المقدس تحت القبة الكبرى. ويجدر بالمرء أن يقصد إلى الخارج مرة أخرى ليتفحص القبة، والخط الكوفي الرائع عليها. وشكها المنتفخ، وهي مع ذلك رشيقة جميلة، مغطاة بالتريبعات المظلية بالميناء، في لون أزرق وأخضر في زخرفة عربية بديعة فوق أرضية لا زورديّة. وعلى الرغم من جور الزمان فإن هذه حتى في يومنا هذا من أجمل المباني في العالم، (٢٧).

وإنه مسجد قد لا يشير الإعجاب بمثل هذا القدر، ولكنه أدق وأرق،

وهو الذى شاده الشاه عباس تخليداً لذكر والد زوجته ، وهو من أولياء الله الصالحين ، وهو مسجد الشيخ لطف الله ، وله باب رشيق ، وحررم ومحراب عن الفسيفساء الفاتنة ، وفوق كل هذا ، فإن جماله من الداخل يجعل عن الوصف ، وأبعد عن التصديق - الزخارف العربية ، والأشكال الهندسية والزهور والحليات الدرجية فى رسم متقن موحد . وهذا هو فن تجرىدى ، ولكن فى منطق وتكوين واتساق لا يربك العقل أو يشوش الذهن ، بل فى نظام يسهل إدراكه ، يبحث فى النفس الارتياح والهدوء .

وفى الجانب الشرقى من الميدان بنى الشاه عرشاً مكشوفاً تحت قوس كبير « الباب العالمى » ، وفيه استقبل الناس أو شهد سباق الخيل أو مباريات البولو فى الميدان * . وخلف هذه البوابة كانت تقع الحدائق الشاهانية ، وهى تضم عدة قصور إستخدمها الشاه لأغراض خاصة . ولا يزال أحد هذه القصور موجوداً ، ولكن نال منه الزمن كثيراً . أربعون عموداً ، قاعة الاستقبال ، حجرة العرش قائمة على عشرين عموداً من شجر الدلب ، مكسوة بالمرايا ، وقاعة طويلة تزينها رسوم زيتية تحكى أحداث عصر الشاه . وكانت أبواب القصر مصنوعة من الخشب المصقول المزدان بمناظر الحدائق ومجموعات الزهر . وفى متحف المتروبوليتان للفن يوجد أنثان من هذه الأبواب . ولا تزال قائمة فى مكانها الزخارف الجصية اللامعة ، مذهبة ، وفى ألوان أخرى ، من سقف قاعة الاستقبال . وهنا أيضاً نجد الفن التجرىدى ، وقد بلغ حد السكال . فى المنطق وفى التصميم .

ووجه الشاه عباس من قصوره المتعددة ومن معسكره حياة ملكته الآخذة فى الاتساع . لقد أهتم ، مثل معظم الحكام العظام ، بكل الجوانب فى حياة شعبه . فبنى الطرق والجسور ، ومهد الأميال الكثيرة من الطرق وورصفها

(*) لا تزال أعمدة المرمر الرخامية قائمة فى الميدان . وجاءت لمبة البولو إلى

بالحجارة . وشجع الصناعات والتجارة الخارجية واستخراج المعادن من بطن الأرض . وبنى السدود ، وتوسع في روى الأراضى ، وأمد المدن بالماء النقى . وجدد المدن التى لحقت بها أضرار - مشهد ، قزوین ، تبریز ، همدان قال تافر نيه : « كثيرأ ما تنكر الشاه وجاب أنحاء أصفهان ، كأي مواطن عادى ، مدعياً أنه يبيع ويشترى . وكل همه أن يسكشف عن التجار المظفين الذين يستخدمون موازين ومقاييس زائفة فرأى اثنين بجرمين منهم ، فأمر بدفنهما أحياء ، (٢٨) تلك هى الطريقة الشرقية لفرض احترام القانون وتدعيمه وعند قصور الإشراف والرقابة والشرطة ، يكون الهدف من صرامة العقوبة كبح جماح النزعة الطبيعية فى الإنسان إلى التحلل من القانون أو خرقه . وربما كانت الحياة الحافلة بالجروب هى التى جنحت بالشاه عباس إلى اللجوء إلى هذه القسوة أداة لكبح جماح الناس أو اللاتقام . فقتل أحد أبنائه وسمل عيني آخر (٢٩) . ومع ذلك فإن هذا الرجل نفسه نظم الشعر ، وقام بكثير من أعمال البر والاحسان ، ورعى كثيراً من الفنون .

وبموت الشاه عباس (١٦٢٩) أنقضى العصر الذى بلغ فيه الحكم والفن فى ظل الأسرة الصفوية ذروة المجد . ولكن النظام الذى أرسى دعائمه نشاطه المتصل فى كل الميادين ، ظل سائداً قرابة قرن من الزمان بعده . وعلى الرغم من تعاقب عدد من الملوك الضعاف احتفظت الأسرة الصفوية بالعرش حتى دهمها غزو الأفغان المفاجئ . العنيف ابلاد الفرس (١٧٢٢ - ١٧٣٠) وعلى الرغم من فترة الانحلال السياسى هذه ، ظل فن الصقوين محتفظاً بمكانته بين أعظم نتاج لذوق الانسان ومهارته .

٥ - فارس تحت حكم الأسرة الصفوية : ١٥٧٦ - ١٧٢٢

والآن تلقى بنظرة على عهد الصقويين ، من وفاة طهماسب الأول (١٥٧٦) ، حتى نهايته (١٦٢٩) ، لأن هذا تطور ثقافى لا يمكن اقتطاعه ، تشبهاً مع تسلسل الأحداث فى أوروبا . لقد ترك الكثير من السائحين الغربيين بيانات مشرفة عن

هذا العصر في فارس . منهم بدرو تكسير آ الذي كان هناك في ١٦٠٠ والاب
الجزيري ويذكره تسنسكي الذي أقام في أصفهان من ١٧٠٢ - ١٧٢٢ وكتب
« نخب الثروة في فارس ، وهو يتناول الأسرة الصفوية بأسرها ، ووجان تافرنييه
الذي وصف بالتفصيل رحلاته (١٦٣١ - ١٦٦٨) في تركيا وفارس والهند
وجوز الهند الشرقية ، ووجان شردان الذي دون في عشرة مجلدات أنباء إقامته
في فارس (١٦٦٤ - ١٦٧٧) فإنه على الرغم مما لاقاه من ريح السموم بالقرب
من الخليج ، وقع في غرام فارس ، وآثر أصفهان على باريس وقت الصيف ،
ووجه أصفهان من الروعة والجمال ، ما جعله يقول « أنا نفسي
لا أستطيع أن أنساها أو أمسك عن ذكرها لسكل إنسان ، . وقال أن سماء
فارس العاصف بان لها أثرها على الفن الفارسي فأضفت عليه بيا ورواء ولونا
براقاً . كما كان لها أثرها الطيب على أجسام الفرس وعقولهم (٣٠) *) واعتمد
أن الفرس أفادوا من إختلاطهم بأهل جورجيا والقوقاز الذين اعتبرهم أجمل
واشجع أهل الأرض - ولكنهم لا يضارعون الجياد الفارسية في رشاقتهما
وجمالها (٣١) .

ولكن هذه البلاد التي كانت يوماً جنة عدن ، ومقر الخلفاء الذين ازدانوا
بالجواهر الثمينة ، والشعراء الذين نظموا اعذب الشعر ، دمرتها غارات المغول
وتمزق الحكومة ، واهمال الترع وهي شرايين الحياة ، وامتلاؤها بالطمي ،
وتحول طرق التجارة ، فإن اكتشاف طريق مائي في كل أجزاء من غرب
أوربا إلى الهند والصين قد أصاب تجارة فارس بالكساد . على أن بعض
التجارة انتقل عبر الأنهار إلى الخليج . وفي ١٥١٥ استولى البرتغاليون على
هومز وهي أهم الشغور على الخليج ، وظلوا فيها لمدة قرن . وفي ١٦٢٢
طردهم منها جيش الشاه عباس بمعونة سفن شركة الهند الشرقية الانجليزية ،

(*) أنظر شيشرون حيث يقول : « ان هواء أثينا الطيب يقال أنه ساعد على
توقد الذكاء عند أهل أتيكا »

وبني الشاه بالقرب منها مرفأ تجاريا آخر هو بندر عباس (نغر عباس) ، فساعدت التجارة التي نمت فيه على تمويل الفن والبذخ في عهده . وظلت القوافل تسير من الغرب إلى الشرق عبر فارس ، وخلقت شيئا من الثراء في المدن الواقعة على طريقها ، ووصف تكسييرا حلب بأنها مدينة تضم ٢٦ ألف بيت ، كثير منها مبنى من الحجر المصقول ، وبعضها يليق لسكنى الأمراء ، كما تضم المسلمين والمسيحيين واليهود جنبا إلى جنب ، كما كان بها حمامات عامة نظيفة جميلة ، وعدة شوارع مرصوفة بالبلاط المصنوع من الرخام (٣٢) .

ولم تكن الصناعة قد تجاوزت بعد طور الصناعات اليدوية - صناعة العصور الوسطى التي تسمى بالمثابرة على بذل الجهد والتذوق الرفيع مع الأناة والبطء - ولكن كان في حلب مصنع للحبر ، وكان التبغ يزرع في كل مكان ويقول شاردان أنه كان للفرس طريقة في ترشيح التبغ ، فكان الدخان يمر بالماء ، ومن ثم دينق التبغ من كل العناصر الزيتية والضاورة (٣٣) ، وأصبح التدخين ضرورة ملحة لدى الفرس ، فكانوا يغفلون الطعام ولا يغفلون النرجيلة (٣٤) ، وكان الشاه على التقيض من ذلك ، ففكره عادة التدخين ، وحاول أن يشفي منها رجال حاميتة بحيلة . فأتى بروث الخيل وجففه ، ووضعها بدلا من التبغ في الأواني التي يملأون منها الأراجيل ، وأوضح لهم أن هذا تبغ غالي الثمن أهداههمذان ، فدخنوه ، وبالغوا في إمتداحه . وأقسم أحد الضيوف أن له رائحة تعدل عبير ألف من الزهور . فصاح الشاه دئس هذا العقار ، أنه لا يمكن التمييز بينه وبين روث الخيل (٣٥) .

وكان أي رجل وهبه الله المقدرة والكياسة يستطيع أن يحتل مكانا في حاشية الشاه ، فلم يكن هناك اعتبار لأرستقراطية المولد ، أو الحسب والنسب (٣٦) . فثياب الجلسين من كل الطبقات كانت في أساسها واحدة . رداء يصل إلى الركبتين ، ذو أكام ضيقة ، وحرام عريض (مصنوع أحيانا من الحرير الموشى بازهور) حول الخصر ، وقميص من القطن أو الحرير تحت الرداء ، وسروال مضموم عند رسغ القدمين ، وعمامة تتوج هذا كله . وكتب تافرنييه:

وكانت ملابس النساء ثميثة ، وفيما عدا هذا لا يفرقن عن الرجال في شيء كثير ، فارتدين السراويل مثلهم ، (٣٧) . وأقن في عزلة في الحريم ، وقلبا غادرن البيت ، فإذا فعلن فنادرا ما سرن على الأقدام . وكان ثمة ثلاثة أجناس ، فكان الرجال يوجهون كثيرا من شعر الغزل إلى الغلمان . ورأى توماس هربرت ، وهو انجليزى فى بلاط الشاه عباس - مسقاة من الغلمان فى صدرات من الذهب ، وعمامات مزدانه باللمع (التتر) ، وأخفاف فاخرة ، تتدلى خصلات الشعر على أكتافهم ، عيونهم يقظة تحوم فى كل زاوية ، ووجناتهم متوردة ، (٣٨) .

ولخط شاردان تقصا فى السكان فى زمانه ، ونسبه إلى :

أولا : البرعة النكراء لدى الفرس إلى اتيان الفعلة البغيضة ، ضد الطبيعة مع الجنسين كليهما .

ثانيا : الترف المفرط (الحرية العنسية) السائد فى البلاد ، فالنساء هناك يبدأن الحمل فى سن مبكرة ، ويستمر الإنجاب لفترة قصيرة ، وما ان يجازون سن الثلاثين حتى ينظر إلهن على أنهن عجائز تقدمت بهن السنون . ومن ثم يسرع الرجال إلى التردد على نساء فى ميعة العبا والشباب ، فى إفراط شديد ، وعلى الرغم من أنهم يستمتعون بعدد كبير من النساء ، فإنهم لا ينتجون منهم مزيدا من الأطفال قط . وهناك كذلك نساء كثيرات جدا يعمدن إلى الإجهاض ، ويلجأن إلى مختلف أنواع العلاج ضد الحمل ، لأنهن إذا بلغن الشهر الثالث أو الرابع من الحمل ، ينصرف عنهن أزواجهن إلى نساء أخريات حيث يرون أنه يناقى اللياقة أن يقربوا امرأة تقدمت بها أيام الحمل إلى هذا الحد .

وكان هناك ، عل الرغم من تعدد الزوجات ، عاهرات أو بغايا كثيرة وانتشر شرب الخمر انتشارا واسعا ، رغم تحريم الاسلام للخمر . وكثرت المقاهى واشتق اللفظ الأوربى من نظيره العربى (قهوة) . وكانت النظافة

أكثر شيوعاً في المظهر منها في الحديث . وكانت الحمامات — منتشرة ، وكانت أحياناً مزخرفة بشكل جميل . ولكن أكثر هناك الابتذال والفحش . وقال عنهم تافرنبيه : أنهم مخادعون مرآبون كبار ، ويقول شاردن أنهم اعتادوا الكثيراً على الغش ، ولكنه يضيف أنهم ألطف الناس في الدنيا ، متساهلون كرام ، أساليبهم جذابة غاية الجاذبية ، وطباعهم ليثة غاية اللين ، وحديثهم نوع غاية النعومة . . . وهم في مجموعهم أكثر الشعوب تمدناً في الشرق وكانوا مولعين بالموسيقى وكان شعراؤهم ، في العادة يغنون — القصائد التي ينظمونها .

ويمكن أن نحكم على تفوق الشعراء الفارسيين من مبلغ شعبيتهم وحظوتهم في بلاط المغول في دلهي ، ولكن لم يتهياً لأحد منهم في تلك الحقبة مترجم مثل قانجرالد لينقل إلى أسماع الغرب قصيدهم . وأنا لنعلم أن (عزفي الشيرازي) كان على رأس الشعراء في القرن السادس عشر . وكان يرى أنه أعلى مكانة من (سعدى) على الأقل ، ولكن من منا ، نحن المحليلين في تفكيرنا واهتماماتنا سمع عنه ؟ . وكان شعره أحب إلى الناس من شخصه ، كما نستخلص من (الأصدقاء) الذين جاءوا ليستمتعوا بعلته القتالة .

لقد انحطت قواي إلى هذا الحد ، ووقف أصدقائي الفصحاء كالمنابر حول فراشي ووسادتي . واحد منهم يداعب لحيته بيده ، وينصب رقبة ويقول . (وا أبتاه) . لمن دامت الدنيا ؟ (سبحان من له الدوام) .

جدير بالإنسان ألا يتعلق قلبه بالمراتب الزائفة والثروة الزائلة . أين امبراطورية جامشيد وأين الأسكندر ؟ .

ثم يأتي آخر ، ويمسح بأكمامه عينيه المبللتين بالدموع ، ويقول في صوت رقيق ولهظ حزين : دأيتها الحياة كلنا يسير على هذا الطريق لنرحل عن هذه الدنيا . كلنا مسافرون نعبر عليه ، ويمضى بنا الزمن .

وأخر ينمق كلامه بألفاظ أرق فيقول : استجمع قواك ، وهون عليك ، فاني ، لهدف واحد ، سوف أجمع أشعارك ونثرك وبعد نسخها وتصحيحها ، أقدمها عقوداً من الدر تعزز من شأنك وترفع من قدرك .. فلعل الله يمن علي بالشفاء فأسترد عافيتي . وسوف ترى كيف أصب جام غضبي على رثوس هؤلاء المنافقين التعساء .

وكان منافس د عرفي ، في الشعر هو د صائب الأصفهاني ، الذي أخذ بمسنة الهجرة إلى دلهي ، كما هاجر الفنانون الفرنسيون والفلمنيكيون في ذلك العصر إلى رومه . ولكنه عاد بعد عامين إلى أصفهان ، وأصبح شاعر البلاط لدى الشاه عباس الثاني (١٦٤٢ - ١٦٦٦) ، وكان ينحو قليلاً نحو الفلسفة ، فنظم أبياتاً تفيض بالحكمة :

أن الحديث عن الكفر والإيمان كليهما يؤدي في النهاية إلى نفس المسكان والحلم هو الحلم ، ولكن المفسرين هم الذين يختلفون . . وإن العلاج الوحيد لهذه الدنيا التي لا تستقيم أمورها ، هو إخفائها وتجاهلها ، فإن اليقظ فيها هو الذي يستغرق في سبات عميق .

وأن الموج ليجهل طبيعته الحققة للبحر . وكيف يدرك الفاني العابر حقيقته الخالد الباقي ، أن أشد ما يقض مضجعي حول يوم البعث هو لأنه لزام علينا أن نرى ثانية وجوه البشر .

وإذا فإتنا أن ننعيم بموسيقى الشعر الفارسي ، ففي مقدورنا أن نستمتع بفن فارس ففي الفن . حديث يمكن استيعابه وفهمه ، فإن البراعة والأناقة والذوق ، أي كل ما تشكل في فارس على مدى ألفى سنة . أينع وأتى أكله الآن في العمارة والحزف والتذهيب والنخط وحفر الخشب وأشغال المعادن والسيج والأقمشة المزركشة والسجاد . وكل أولئك روائع تزدان بها متاحف العالم اليوم . وقد علمنا من قبل أن أحسن عمارة هذا العصر شبيبات في عهد الشاه عباس الأول في أصفهان . وهناك بني عباس الثاني (مسجد الأشرف

(١٦٤٢) ، وهناك في غروب شمس الصفويين شاد الشاه حسين (مدرسة أم الشاه) التي قال عنها لورد كيرزون أنها من أفخم أطلال فارس ، وثمة مدن أخرى كانت تفاخر بمنشآت جديدة : مثل مدرسة الخان في شیراز ، والضريح الضخم لخوجة ربيع في مشهد ، والمقبرة المخربة الآن ، ولو أنها لاتزال جميلة ، وهي مقبرة (قدم جاه) في نيسابور ، والجامع الأزرق في أريغان .

وأسس الشاه عباس في أصفهان أكاديمية للرسم ، كان مطلوباً من الطلبة فيها - كجزء من برنامجهم ، وأن يفسخوا أشهر المنمنمات حيث يغلب جمال التصميم ودقة الرسم على الموضوعات والأشخاص . والآن ، وواضح أنه نتيجة لأثر أوربا ، استباح الرسامون العلمانيون التحول عن التقليد الإسلامي ، برسم منمنمات يبرز فيها إنسان على أنه الفكرة الرئيسية والتسلسل هنا قلب الطراز الإيطالي رأساً على عقب . ففي الرسم في عهد النهضة أهملت المناظر الطبيعية أول الأمر ، ثم أصبحت خلفية ثانوية ، (وربما باضمه جلال النزعة الفردية في ظل الإصلاح المضاد) طغت على الأشخاص . ولكن في التصوير الإسلامي كانت رسوم الأشخاص مستبعدة أول الأمر ، ثم أبيضحت على أنها شيء ثانوي عارض ، وفي المراحل المتأخرة فقط (ربما بنمو النزعة الفردية نتيجة للثروة) طغت رسوم الأشخاص وبرزت في الرسم . ومثل هذا في « مدرب الياز »^(٤٦) : رجل عظيم يرتدى ثوباً أخضر يعبث بطائر على معصمه مع خلفية أقل بروزاً من زهور ذهبية اللون . وفي « شاعر يجلس في الحديقة »^(٤٧) تكشف كل التفاصيل عن الرشاقة الفارسية المتميزة ، وثمة ابتداع آخر في الرسوم الحائطية ، التي رأينا مثلاً لها في « شهيل سوتون » . ولكن الأساندة العظام تخصصوا في زخرفة القرآن الكريم ، أو تذهيب الآثار الأدبية القديمة مثل الشاهنامة للفردوسي ، أو جولستان لسعدي ، التي ذهبها « مولانا حسن ، البغدادى بماء الذهب » .

وتفوق في الرسم في هذه الفترة الصفوية الثانية ، رضا العباسي . الذي أضاف

إسم الشاه إلى إسمه تقديرا واعترافا بالرعاية الملكية . وفاقت شهرته شهرة بهزاد لمدة جيل . وتدهور بعده الفن ، فإن حساسية الفن وصفاء الرسم أو دقته ، انتهيا إلى إفراط مخنث . وفي نفس الوقت فإن الطراز الفارسي الذي تأثر بالفن الصيني ، أثر بدوره في رسم المنمنمات في بلاط المغول ، بل حتى في عمارتهم . وذهب حروسية إلى أن دتاج محل ، لم يكن لإفصلا جديدا في فن أصفهان^(٤٨).

وظل الخط فنا رئيسيا في فارس . وكاد مير عماد لنسخه الدقيق للمخطوطات القديمة ، أن يظهر بمثل الحب الذي حظى به لدى الشاه عباس رضا العباسي من أجل منمنماته . وكانت المكتب موضع إعزاز وحب لشكلها قدر ما هي لمحتوياتها . فالتجليد الرائع يبهج العينين واليدين كما تفعل الزهريّة الرقيقة ووقع الفنانون تجليدات المكتب بمثل الفخر الذي وقعوا به الصور ، فنقش على جلدة كتاب مذهبة من أوائل القرن السابع عشر ، دمن صنع محمد صالح التبريزي ،^(٤٩) . وثمة غلاف آخر مصنوع من الورق المعجن ، وعليه رسوم « بورنيس اللك » ، موقع عليه باسم علي رضا . ومؤرخة في ١٧١٣^(٥٠) وكلاهما جميل إلى حد مفر .

إن التريبعات المحلاة بالرسوم في المدن الفارسية لتبهر الأنظار ، بعد القباب أو عليها ، إن طول عمرها ليشير الدهشة من فن صناعة الخزف ، الذي يهيء طول البقاء لمثل هذا البريق . وإطالة عمر اللون بتزجيجه بالنار كانت من المهارات القديمة في فارس . لقد كانت التريبعات المزججة في سوسة عاصمة دارا الأول ملك الفرس (٤٠٠ ق . م .) فريدة من نوعها بالفعل . وكانت سبائك الذهب والفضة والنحاس وسائر المعادن تصهر لتخرج ألوانا أكثر لمعانا ، وخاصة الأحمر الياقوتي والأزرق الفيروزي ، وكانت مضاعفة الأحراق تزيد من صلابة الصلصال والتزجيح ليقاوم قعل الزمن . ويحتمل أن يكون الأرمن قد استخدموا الخزافين الفرس لصنع التريبعات في كنيستهم المسيحية في جولفا وهي تبلغ في دقتها دقة المنمنمات . وربما كان أجمل منها ، التريبعات المحلاة

بالرسوم في مجموعة كوركمان ، المنسوبة إلى أصفهان في النصف الثاني من القرن السابع عشر (٥١) .

واستمر الخزافون في أصفهان وكاشان وغيرهما ، يبدعون أشكالاً من الخزف - القناني والزبديات والأباريق والأطباق والفناجين ، مطلية تحت التزجيج بألوان مختلفة على أرضيات متنوعة . وأصبح الخزف المزخرف الفسيفسائي مادة أثيرة لتغطية الجدران في المساجد والقصور . واستورد الشاه عباس الخزف الصيني ، وحاول خزافوه أن ينسخوه طبق الأصل ، ولكن أعوزتهم الطينة والمهارة . ومرة أخرى بفضل استحداث الحاكم وتشجيعه بذلت المحاولات في أصفهان وشيراز لمنافسة زجاج البندقية . وتفوق صناع الأشغال المعدنية في نقش النحاس وتطعيمه ، وثمة نموذج جميل منها يرجع إلى ١٥٧٩ شمعدان موجود في متحف متروبوليتان للفن ، وفي الارميتاج في لنتنجراد غمد مسيف من الذهب مرصع بقطع كبيرة من الزمرد دقيقة الصنع .

وكانت صناعة النسيج صناعة رئيسية وفنا . وشغل الرسامون والنساجون والصباغون حيزاً كبيراً في أصفهان . وكانوا يعدون بالآلاف . وكان لإنتاجهم هو السلعة الرئيسية في تجارة الصادرات . كما أنه أكسب فارس شهرة عالمية في أقمشة الأطلس والخمّل والتفتة والمطرزات والحرائر . وكان الشاه عباس كلما أراد أن يقدم هدية خاصة ثمينة ، اختار بعض التحف من إنتاج الأنواع الفارسية . ويقول شاردان ، أن الثياب التي أهداها بهذة الطريقة لا حصر لها ، (٥٢) والثياب التي كان يرتديها الشعاة ورجال حاشيته من الحرير والأقمشة المقصبة والمطرزة كانت رائعة الجمال إلى حد ذهب معه شاردان إلى أنها لا مثيل لها في ملابس أي بلاط في أوروبا . وكتب يقول ، إن فن الصباغة أدخل عليه في فارس تحسين أكثر منه في أوروبا ، فكانت الألوان أكثر ثباتاً ولمعاناً ، ولا تحول بسرعة ، (٥٣) . ولم يكن الخمّل كاشان نظير في أي مكان آخر . ولا تزال بعض قطع منه من أروع المعروضات في متاحف بوسطن ونيويورك

وسدان فرانسيسكو وواشنطن . ومن بين التحف التي استولت عليها القوات المسيحية بعد ارتداد الأتراك عن فيينا بباط من المنخل الحريري المقصب ، من الواضح أنه صنع في اصفهان في عهد شاه عباس (٥٠) .

وبلغ النسيج الفارسي ذروته في التصميم وصنع الجلد ، وشهد عصر الشاة عباس غاية مجد هذا الفن في فارس . وكاد السجاد أن يكون ضروريا للفارسي قدر حاجته إلى الملابس ، وقال توماس هربرت في القرن السابع عشر : « كان في بيوت الفرس قليل من الأثاث والأدوات المنزلية ، اللهم إلا السجاجيد وبعض أشغال النحاس . . . وكانوا يتناولون الطعام وهم متربعون على السجاد على الأرض ، مثل حائكي الملابس . وليس تمة لإنسان مهما قل شأنه إلا جلس على سجادة تمينة أو غير تمينة . وكل الدار أو الحجر . . . مغطاة بالسجاد (٥٥) » وساد آنذاك اللون القرمزي القائم أو الأحمر الخمرى الداكن ، ولكن التصميم أو الرسم كان هادئا مريحا للنظر ، بغية أحداث التوازن بين هذه الوفرة التي تزخر بها السجادة ، لو أنها صممت لإبراز موضوع رئيسي بمنطق مقبول . وقد يكون هذا التصميم هندسيا ، وهنا تكون متنوعات لا حصر لها ، تضفي على أفليدس جمالا وبهاء . وكثيرا ما قام التصميم على الأزهار ، وهنا تستمتع العين بتشكيلة غنية من الأزهار ، ولكنها منسقة تنسيقا جميلا ، تمثل النتائج المحبب إلى الناس في حدائقهم : أزهار مصفوفة في أصص ، أو منشورة هنا وهناك ، أو أزهار يصورها الخيال ولا تراها العين ، مع زخارف عربية تنساب هنا وهناك في رشاقة وروية . وفي بعض الأحيان كانت الحديقة نفسها تزود بالتصميم : الأشجار والشجيرات والمزاهر ، والمياه الجارية ، ردت كلها في شكل هندسي ، وقد يتركز التصميم حول رسم كبير نافر تتدلى منه فتوات في كل الأطراف ، وقد يعرض الزخارف الحيوانية أو مناظر الصنيد .

ويأتي بعد ذلك الجهد المصنفي والصبر الطويل : مد الخيوط طولاً في اللحمة على النول ونسجها مع خيوط السداة المرضية ، وحيا كعقد صغيرة من

الصوف أو الحرير الملون في اللحمية ، لتلوين د الور ، والرسم ، وقد يكون في البوصة المربعة ١٢٠٠ عقدة ، أو ٩٠ مليوناً من العقد في مساحتها ٢٣ قدماً مربعاً^(٥٦) . ويبدو أن العبودية قد نسجت هذا الفن أو ارتبطت به ، ولكن العامل كان يتيه عجبا بدقة وجمال ما أخرجت يدها ، محولاً هذه التشكيلة العجيبة من المواد إلى كل منتظم متناسق متسلسل الأجزاء . وكان هذا السجاد يصنع في اثني عشر مركزاً في فارس وأفغانستان والقوقاز ليضفي رواء وبهاء على القصور والمساجد والبيوت ، أو ليقدم هدايا ثمينة إلى الملوك والأصدقاء .

ومر السجاد الفارسي والتذهيب الفارسي بتطورات مشابهة في القرنين السادس عشر والسابع عشر ، وتأثرا د بأشرطة السحاب ، وغيرها من الرسوم من الصين . وكان لهما بدورهما أثر على الفنون في تركيا والهند . وبلغا ذروة التفوق والامتياز على عهد الصفويين وما أن جاء عام ١٧٩٠ حتى أنتج السجاد الفارسي على أساس السك ، فتمسروا في تصميمه ونسجه لسوق أوسع وأقل إلحاحا على البراعة والإتقان ، وبخاصة السوق الأوروبية . ومهما يكن من أمر ، فإنه حتى في هذه الحقبة ، كانت هناك قطع نادرة فريدة ، لا نظير لها من حيث النسيج واللون والرسم في أى مكان آخر في العالم .

وهكذا كانت فارس ، وهكذا كان الإسلام في آخر ازدهار اسلطانهما وفنهما — حضارة تختلف اختلافا عميقا عن حضارتنا في الغرب ، وفي بعض الأحيان معادية عداء مقرونا بالازدراء ، تدمغنا بأننا مشركون ماديون ، وتسخر منا أخذنا بنظام الزوجة الواحدة وهو أشبه ما يكون بنظام الأمومة ، وأحيانا اقتضت علينا تقتحم أبوابنا كالسيل الجارف ، وما كان ينتظر منا أن نتفهما أو نعجب بفننا حين كان الجدل شديداً بين المسلم والمسيحي ، ولم يكن قد ثار بعد بين دارون والمسيح ، ولم تنته المنافسة بين الثقافتين بعد ، ولكنها في الكشبر الغالب توقفت عن سفك الدماء ، ولكل منهما مطلق

الحرية في الامتزاج بالأخرى عن طريق التأثير المتبادل ، فالشرق يأخذ عنا
صناعاتنا وأسلحتنا ، ويصبح غريبا . ولقى الغرب نصبا من الثراء والحرب ،
وبات يلتمس شيئا من هدوء البال وطمأنينة النفس . وربما ساعدنا نحن
الشرق على التخفيف من الفقر والخرافة ، وأعاننا الشرق على التواضع في
الفلسفة والتهديب في الفنون . فالشرق غرب ، والغرب شرق ، ولا بد عاجلا
أن يلتقي الإثنان .

الفصل الحادي عشر

« هر مجدون »

أو

الحرب الإمبراطورية الفاصلة

١٥٦٤ - ١٦٤٨

١ - الأباطرة

في عام ١٥٦٤ كانت الإمبراطورية الرومانية المقدسة - برغم أنها ، كما قال فولتير ، لم تكن ، لا إمبراطورية ، ولا رومانية ، ولا مقدسة - ، خليطاً رائعاً من دول نصف مستقلة : ألمانيا ، ولكسمبورج ، وفرانس - كوتنيه ، واللورين ، وسويسرا ، والنمسا ، وبوهيميا ، ومورافيا ، وجزء من المجر . وكانت هذه كلها تدين بالولاء والسلطان للإمبراطور مكسمليان الثاني سليل بيت هابسبرج العريق ، الذي حكم الإمبراطورية منذ ١٤٣٨ و سواصل حكمها حتى ١٨٠٨ . وبعد أن اعتزل شارل الخامس الملك (١٥٥٥ - ١٥٥٦) اقتسمت الأسرة نصف أوربا بين فرعيها ، فحكم الهبسبرج النمسيون الإمبراطورية ، أما الهبسبرج الأسبان فحكموا أسبانيا وولاياتها . وندر في التاريخ أن تسلط أسرة واحدة حقبة هذا طولها على أناس هذا عددهم .

وكان حكم آل هابسبرج أكثر تحرراً في الامبراطورية في أسبانيا ، لأن الدول التي تألفت منها الامبراطورية كانت تختلف أشد الاختلاف سواء في الحكومة ، أو اللغة ، أو الدين ، أو الصفات العرقية ، بحيث عجزت حتى

سلطة آل هابسبرج وهيبتها عن منع هذه القوى المتدفعة بعيدا عن المركز من أن تحيل^١ الامبراطورية إلى رابطة واهية عن وحدات تحكم ذاتها في عزو وكبرياء أما الديت الامبراطوري ، الذي لم يكن يلتئم شمله الا بين الحين والحين ، فقد وجد أن الحد من سلطان الامبراطور أيسر من تشريع قوانين تقبلها كل دولة ، وأما الناخبون الامبراطوريون السبعة الذين كانوا يختارون الامبراطور ، فقد سيطروا عليه باليهود والموائيق التي انتزعوها منه ثمنا لانتخابه . وهؤلاء الناخبون هم ملك بوهيميا ، وحكام سكسونيا ، وبراندنبورج ، والبالاينات ، و د الناخبون الروحيون ، - أي رؤساء أساقفة كولونيا ، وترير ، وماينز . ولم يحكم الامبراطور حكما مباشرا سوى النمسا ، واستريا ، وكارثيا ، وكار بولا ، والتيرول ، وأحيانا بوهيميا ، ومورافيا ، وميافيا ، وغرب المجر . وكانت موارده المستقلة ثابتة من هذه الأقطار ، فاذا أراد مزيداً من الموارد فعليه أن يتخذ سمته وقبعته في يده ، إلى الديت الامبراطوري الذي بيده مفاتيح المال .

حين مات فرد يناد الأول (أخو شارل الخامس) في ١٥٦٤ ، نقل الناخبون التساج الامبراطوري لولده مكسمايان الثاني ، الذي ظفر من قبل بتاجي بوهيميا والمجر . وكان محبباً للناس إلى حد لا يناسب امبراطورا . فقط اصطفى الجميع في دفء طبعة الطيب وروحه المرححة ، ولطفه وأدبه مع كل الطبقات ، وعقله وفؤاده المفتوحين ، فاذا أضفت إلى ذلك كله ذكاه وتسامحه وتشجيعه للعلم والموسيقى ، والفن ، اجتمعت لك صورة سيد مذهب جنتلمان ، لم يصدق الناس أنه توج . ركان قد عرض تبوأه العرش للخطر حين آثر الوعاظ اللوثرين على فظرائهم الكاثوليك ، وأصر على تناول الأسرار المقدسة بالخر وبالنخبز ، ولم يمثل للطقس الكاثوليك ، أمثالاً ظاهرياً الا حين أكره على الخيار بين الرجوع إلى حظيرة الكنيسة الرومانية أو اعتزال الحياة العامة على أنه حمى البروتستانت خلال ذلك من الاضطهاد . وقد ندد بمذبحة القديس برثليميو وقال انها قتل بالجملة^(١) ، وممنح لوليم أونج بتجنيد جيش في المانيا

لقتال دوق أنفا في الاراض المنخفضة . وفي هذا العصر الذي سادته التعصب والحرب ، ضرب لدول الامبراطورية وعقائدها مثالا رائعا في تسامح يرى من الالامبالاه ، وسلام لم يشبهه الجبن . وحين حضرته المنية (١٥٧٦) أبى أن يتقبل آخر الشعائر من كنيسة رومه ، ولكن الامبراطورية بأمرها اجتمعت على الترحم عليه .

وكان قد أقنع الناجحين بقبول ولده رودلف خلفا له ، برغم مارآه فيه - بلاريب - من طباع أو آثار تعليم خطيرة على الوفاق الديني . فلقد كان رودلف الثاني بطبعه شكاكا مكثبا . وكان من الجائز أن يصبح الوريث لفيليب الثاني لذلك بعث به إلى أسبانيا ليلتقى جزءا من تعليمه المدرسي ، فقضى اليسوعيون هناك على كل ميل فيه للتسامح . وما لبث عقب ارتقاء العرش أن فرض القيود الصارمه على حرية العبادة البروتستنتية وعمل على الحد من انقشارها زاعما - وله بعض الحق (٢) - أن عنف الجدل الديني ، وتعصب الشيع البروتستنتية فيما بينها ، يقوضان سلام الامبراطورية واستقرارها . على أنه لم يكن خلوا من الفضائل التي حبيت الناس في أبيه فقد عاش في بساطة وتواضع دون تكلف لأبهة الامبراطورية . وحين انتقد أحد أخوته رفعه الكلفة مع الفقراء والوضعاء أجاب : د ينبغي ألا ينسينا سمونا فوق الناس بمكانتنا وعراة محتدنا أننا مرتبطون مع سائر البشر بنقائصنا وعيوبنا (٢) .

والحق أنه آثر أن يكون عالما على أن يكون امبراطورا . تعلم ست لغات ، ومارس كل علم وفن تقريبا ، واقتنى مجموعات ثمينة من الصور والتماثيل وأنواع النبات وعينات الحيوان . وأعان الشعراء والمؤرخين ، وأنشأ الكثير من المدارس . وحقق الرياضيات والفيزياء والكيمياء والفلك والطب وكذلك الكيمياء القديمة والتنجيم ، وأمد بالمسال البحوث الفلكية التي اضطلع بها تيكونبراهي وكبلر اللذان أهدياه جداه ولهما الرودلفية للنجوم . وإذ استغرقه العلم وهو في قصره ببراغ - التي اختارها عاصمه له - فإنه لم يجد

وقتا للزواج ، ولم يتسع له الوقت الكثير للحكم . فلم يحضر أى اجتماع للديت بعد ١٥٩٤ ، ورفض أن يوقع أوراقا رسمية بعد ١٥٩٨ وفوض بالسلطة نو ابا ذوى خطوة لدية ، ولكن تعوزهم الكفاية . ولما تقدم به العمر انحدر عقله لا إلى درك الجنون ، بل إلى حال من العزلة يشوبها الاكتئاب وطول التفكير ويلازمها خوف الاغتيال . فانه رأى فيما يرى النائم - أو لعل تيكوبراهى قد طالع فى النجوم^(٤) - أن قاتله سيكون راهبا فانتهى به الأمر إلى الارتياب فى رجال الدين الكاثوليك ولا سيما اليسوعيين^(٥) ، ثم أكرهته الضغوط الداخلية والخارجية على التخلي لأخيه الأصغر مانياس فى ١٦٠٨ عن حكم النمسا والمجر ومورافيا ، وفى ١٦١١ عن عرش بوهميا وكل مابقى له من سلطات . ومات فى ١٦١٢ .

أما مانياس فكان قد بلغ الخامسة والخمسين ، بعد أن أقدمته الحملات الحربية عن الاستمتاع بالحكم النشط . لذلك عمد بالحكم والسياسة جميعا إلى ملشيور كايزل أسقف فيينا القدير الحى الضمير . ولكن كايزل أغضب الكاثوليك بما قدم للبروتستانت من تنازلات ، وأغضب البروتستانت لأن هذه التنازلات كانت دون ما يبتغون . وأعتقل فرديناند ، أرشيدوق استيريا ، وابن عم مانياس ، الأسقف كايزل (١٦١٨) ، وظفر بإنتخابه لإمبراطورا عقب موت مانياس (١٦١٩) . وهنا كانت هر مجدون قد أندلع طيها .

٢ - الإمبراطورية

لم تكن سويسره جزءا من الإمبراطورية لإلاصوريا ، وتركت الانتصارات المؤزرة التى أحرزتها البلاد على الأباطرة وكبار الأذواق ، الولايات السويسرية (الكانتونات) حرة فى التناحر فيما بينها . فانضمت سافوى وأسبانيا إلى الولايات الكاثوليسكية التى تزعمتها لوسرن ، فى جهود دبلوماسية أو حرية لأرجاع الولايات البروتستنتية إلى حظيرة الكنيسة الرومانية . وبدأ اليسوعيون

من كلياتهم يلو سرن في ١٥٧٧ حملة من التعليم والوعظ والدس . وأصلح مثلوا
البابا في سويسرة الفساد في رجال الدين الكاثوليك ، وقضوا على التسرى
بين الكهنة ، وصدوا التأثيرات البروتستنتية المنبعثة من زيوريخ وجنيف وبرن .

وكانت جنيف تفيق ببطء من سلطان كلفن . فقد خلف تيودور دي بين
أستاذه (١٦٦٤) زعيما لجماعة « الرعاة » الموقرة والمجمع الكنسي « للرعاة
والعلمانيين » ، وعن طريقهم وأصل عمل الكنيسة المنصلحة في لباقة وكياسة
لميقو على إحباطهما سوى الكراهية اللاهوتية ، وسافر في أرجاء فرنسا ليحضر
المجامع الكلفنية ، وقد شهدناه يدافع عن قضية البروتستنتية في مؤتمر بواسي .
وكافح في وطنه ، وإن لم يوفق كل التوفيق في كفاحه ، ليحافظ على التفضيلة
الصارمة التي فرضها كلفن على الناس . فلما انحرف كبار رجال الأعمال أكثر
فاكثر عن هذه الجادة ، قاد بيز رجال الدين في حملة للتنديد بالربا ، والاحتسار ،
والإستغلال ، وحين اقترح مجلس المدينة أن يقتصر الوعاظ في وعظهم
على مسائل الدين ، أجاب بيز بأنه يجب ألا يقمى أى شأن من شؤون
البشر عن دائرة الدين^(٦) . وهو من بين كبار زعماء الإصلاح البروتستنتي
الوحيد الذي أدرك القرن السابع عشر ، وقدمات في ١٦٠٨ بالغا التاسعة
والثمانين .

أما دور النمسا في الإمبراطورية فكان مركزيا . ذلك أنها كانت عادة وطن
الآباطرة ، وكانت حصن الحضارة الغربية الحصين في وجه الأتراك الطامعين ،
للاصلاح الكاثوليكي . ومقر القوة الكاثوليكية في حرب الثلاثين .
ومع ذلك فقد أتى عليها عهد كانت تتذبذب فيه بين الكاثوليكية والبروتستنتية
بل بين المسيحية والسكفر . ففي عهد فرديناند الأول (١٥٥٦ - ١٥٦٤)
قررت معظم الأبرشيات النمسوية كتاب التعليم المسيحي اللوثرى . وكانت
اللوثرية المذهب السائد في جامعة فيينا ، وأباح الديت النمسوي تناول القران
بالخمر وبالخبز ، وزواج رجال الدين . وكان الناس يعدونها علامة من علامات

العقل المستنير أن يحتقر صاحبه عادة الدفن المسيحي . وأن يدفن الميت دون مساعدة من قسيس وبغير صليب . ، وفي تقدير أحد الوعاظ في ١٥٦٧ د أن الألو ف وعشرات الألو ف في المدن - أجل . بل في القرى - لم يعودوا يؤمنون بالله^(٧) . د فلما خشي الإمبراطور فرديناند أنه يار الدعم الديني للحكومة النمساوية وسلطة آل هابسبرج . دعا بطرس كانيسوس وغيره من اليسوعيين إلى جامعة فيينا . وبدأت الكاثوليكية تستعيد مكانها بفضل زعامتهم ، لأن هؤلاء الرجال المتمرسين جمعوا بين العقل المرهف الصابر ، وبساطة العيش التي وقعت أفضل موقع في النفوس . فما وافى عام ١٥٩٨ حتى غدت كنيسة رومه سيدة الموقف .

ومثل هذا التغيير طرأ على المجر المسيحية . فقد دان ثلثا المجر للحكم التركي منذ ١٥٢٦ ، وكانت الحدود التركية تبعد عن فيينا بأقل من مائة ميل ، ولم يقو الأباطرة على المحافظة على السلام مع تركيا إلا بدفع جزية سنوية للسلطين حتى عام ١٦٠٦ وكانت ترانسلفانيا الواقعة إلى الشمال الشرقي من المجر التركية تؤدى مثل هذه الجزية ، ولكن حدث في عام ١٦٠٦ أن أوصى أميرها ستيفن بوكسكاى بالإقليم لآل هابسبرج قبيل موته دون عقب .

أما ديت المجر النمساوية فكان منذ ١٥٢٦ يؤيد حركة الإصلاح البروتستنتي ، فقد هيمن عليه النبلاء الطامعون في الاستيلاء على أملاك الكنيسة الكاثوليكية^(٨) . وفي ظل الحرية الدينية التي صانوها ظفرت البروتستنتية بمكان السيادة بين الطبقات المتعلمة . ولكن سرعان ما انقسمت شيعا لثرية ، وكافنية ، وتوحيدية ، وتفرق التوحيديون مللا أصغر لاختلافهم على صواب توجيه الصلوات إلى المسيح . ولم ير النبلاء بعد أن استتب لهم الأمر في تمسككاتهم مبررا بعد ذلك للبروتستنتية . لذلك رحبوا ببطرس بازمان وغيره من اليسوعيين ، وقبلوا التحول المثالي ، إلى الكاثوليكية ، وطر دوا الرعاية البروتستنت^(٩) . واهتبدلوا بهم القساوسة الكاثوليك . وفي عام ١٦١٨ أصبح فرديناند أرشيدوق

استيريا ملكما على المجر ، فعزز حركة الإصلاح الكاثوليكي تعزيراً نشيطاً .
وفي ديت ١٦٢٥ لاستعداد الكاثوليك أغلبيتهم . وأصبح بازمانى كرينالا وكتبا
من أبلغ مؤلفى العصر المجرىين ، مع أنه ابن رجل كلفنى المذهب .

وأما بوهيميا والاقاليم التابعة لها - وهى مورافيا وسيليزيا ولوزانيا -
فكانت تغلب عليها البروتستنتية عام ١٥٦٠ . واعترفت الولايات الأربع
بملك بوهيميا سيدا عليها ، غير أنه كان لكل ولاية مجلسها القومى وقوانينها
وعاصمتها - براغ ، وبرون (برنو) ، وبرسلاو ، وبوتزن ، وكانت براغ فى
ذلك الحدين من أجمل مدن أوروبا وأكثرها أزد هارا . ولم يكن مسموحا
بالتصويت فى الديت البوهيمى الا لملك الأرض البالغ عددهم ألفا وأربعمائة
ولكن كان من بين أعضائه ، ثلثون لسكان المدن والفلاحين ، أتاح لهم سلطان
المال تفوذا جاوز مجرد الكلام . وكان معظم النبلاء لوثرين ، ومعظم مواطنى
المدن لوثرين أو كلفنين ، ومعظم الفلاحين كاثوليك . ولكن قلة منهم كانت
دأوتراكية ، تخلوا فى عام ١٥٨٧ عن تقاليدهم الهسية (مذهب المصلح الدينى
البوهيمى ، والشهيد جون هس ١٣٦٩ - ١٤١٥) ، ولم يتمسكوا الا بتناول
القربان بالخبز وبالخمر ، وأخيراً تصالحوا مع كنيسة روما (١٥٩٣) . أما
أكثر الطوائف الدينية اخلاصا فكانوا الأنيثاسفرا تروم ، - وهم الاخوان
البوهيميون أو المورافيون - الذين أخذوا موعظة المسيح على الجبل مأخذ
الجد ، وعزفوا عن كل الحرف والمهن الا الزراعة ، وعاشوا فى بساطة
كبساطة تولستوى المسالمة .

وفى عام ١٥٥٥ جلب فرديناند الأول اليسوعيين إلى بوهيميا . فأنشأوا
كلية فى براغ وربوا دكادرا ، من الكاثوليك الغيورين ، واكتسبوا الكثيرين
من النبلاء الذين تزوجوا بنساء كاثوليكيات . ثم أصدر رودلف الثانى
مراسيم . نفى فيها الاخوان البوهيميين أولا ، ثم الكلفنيين ، غير أن الوسائل
أعوزته لتنفيذ هذه المراسيم . وفى عام ١٦٠٩ أقنعة البروتستنت بأن يوقع

الميثاق الملكي الشهير ، الذي كفل حرية العبادة للبروتستنت في بوهيميا .
وبعد عامين نزل رودلف عن العرش لما تياس ، ونقل هذا قضية الامبراطورية
إلى فيينا ، وترك براغ مغيظة نائرة . وفي عام ١٦١٧ اعترف الديق البوهيمي
بالارشيذوق فرد يناند الاستيرى ملسكا على بوهيميا ، وكان عدد السكاؤوليك
يتسكاثر في هذا الديق برغم أن البلاد مازال أغلب أهلها من البروتستنت^(١١)
وكان فرد يناند هذا قد تعلم على يد اليسوعيين وأقسم ان يستأصل شأفة
البروتستنتية أن حكم . واتخذ بروتستنت بوهيميا أهبتهم للحرب .

أما المانيا فكانت أخلاطا من الأمم داخل كيان معقد ، كانت إسلاشعيا
ومزيجا من امارات تتفق في لغتها واقتصادها ، وتباين أشد التباين في عاداتها ،
وحكمها ، وعملاتها وعقائدها (*) . ولم تعترف أى من هذه الوحدات بسيد
عليها الا الامبراطور فقط ثم هي تتجاهله خمسين أسبوعا في السنة . وقد
وجد بعض الأجانب عزاءا في انقسام المانيا على هذا النحو فكتب سير توماس
أوفريرى في ١٦٠٩ يقول . لو أنها كانت كلها خاضعة لنظام ملك واحد لكان ذلك

(*) كانت ألمانيا في القرن السادس عشر مقسمة إلى سبع دوائر ادارية :

- ١ — فرانكونيا : وتشمل ورزبرج ، بمبرج ، بايريت .
- ٢ — يافاريا : وتشمل ميونخ ، ورخزبرج (راتسبون) وسالسبرج .
- ٣ — سوايبا : وتشمل بادن ، ستتجارت أو جزبرج ودوقية رتمبرج .
- ٤ — الراين الأعلى : ويشمل فرانكفورت (آم مين) وكاسل ودرمستاد ويزيادن
ومقاطعة ناسو وافليم هس ودوقية اللورين وجزء من لاراس .
- ٥ — الراين الاذنى : ويشمل وستفاليا جوليش وكليف والبالاتينات واسقميات كولون
وترير وماينز .
- ٦ — سكسونيا السفلى : ويشمل مكلنبرج وبريمن ومجد برج ودوقيات برنزويك
ولونبرج وهولشتين .
- ٧ — سكسونيا العليا : وتشمل ليمزج وبرلين ودوقية بوميرانيا الغربية ومقاطعة
سكسونيا وبراندنبرج .

أمرار هيبا بالنسبة لباقي أوروبا (١٢) لا بل أن هذا الوضع ارتاحت اليه ألمانيا من وجوه كثيرة . صحيح أنه أضعفها في المناقسة السياسية والحربية مع الدول الموحدة ، ولكنه أعطاها حرية محلية ، وتنوعا دينيا وثقافيا قد يفضله الألمان بحق على أرسقراطيات متمركزة مضنية كإرسقراطيات فيليب الثاني في أسبانيا ولويس الرابع عشر في فرنسا . فلم تسكن هنا باريس تطغى وتعج بسكانها وتمتص دم الحياة من قطر بأكملة بل كوكبة من مدن مشهورة لسكل منها طاجها وحيويتها .

على أن ألمانيا لم تعد تحظى بذلك التفوق الإقتصادى الذى كان لها في شمال أوروبا قبل لوثر ، برغم هذه التشكيلة من المدن العظيمة والبلاطات الصغيرة . ذلك أن كشف طريق بحرى خالص من غرب أوروبا إلى الهند ، وفتح الأطلنطى للتجارة ، أفادا البرتغال وأسبانيا أولا ، ثم إنجلترا والأراضى الوطية بعدهما ، وقد أضر بإيطاليا التى هيمنت من قبل على تجارة الشرق ، وشاركت في اضمحلال إيطاليا تلك الأنهار والمدن الألمانية التى كانت تنقل التجارة من إيطاليا إلى الشمال . فأخذت ثغور الأراضى الوطية في بحر الشمال ، وثغور الدنمرك وبولندا في البلطيق ، معظم التجارة والمكوس . أما عصابة الهانسا فكانت قد فقدت تفوقها الماضى منذ زمن طويل ، ودمرت لوبك في حربها الطويلة مع السويد (١٥٦٣ — ١٥٧٠) . ولم تحتفظ براثها غير فرانكفورت على الراين ، وظلت سوقها السنوية أحفل أسواق أوروبا بالقصاد ، وقد أحالت المدينة إلى مركز لتجارة ألمانيا الداخلية والمالية الدولية .

أما إقبال الناس على المال فظل على حاله . وتهرب الناس في كل مكان من المراسيم التى حرمت تقاضى فائدة تربو على ١٠٪ . قال قسيس في ١٥٨٥ « إن رذيلة الربا الكفافة يمارسها الآن المسيحيون في حرص أشد من حرص اليهود في الماضى ، وشكنا واعظ في ١٥٨١ من أن دولنا غير مسيحي بالذهب

قد تسلط على كل الناس من جميع الطبقات . فشكل من ملك شيئاً يغامر به ، يفكر في الإثراء . . . بشقى أساليب المضاربة ، والتعامل في النقود ، وعقود الربا ، بدلا من القيام بعمل أمين شاق ،^(١٣) . واستثمر المئات من العاملين مدخراتهم مع أحد بيوت فوجر ، أو فيلزر ، أو هوخشتينر المالية ، ثم خربت بيوتهم في افلاسات متكررة . وفي عام ١٥٧٢ أفلس بنك إخوان لوتيز بعد أن جمع أموالا طائلة من صغار المستثمرين ، فأفقدهم بذلك مدخراتهم بل بيوتهم^(١٤) . أما بيت فوجرز فقد جلب عليه الخراب افلاس فيليب الثاني ودوق ألبا اللذين شارك هذا البيت في تمويلهما^(١٥) . كذلك أفلس بيت فيلزر في ١٦١٤ وبلغت ديونه ٥٨٦,٠٠٠ جولدن . ولعل الخوف من التضخم دفع الناس إلى مثل هذه الامتيازات ، لأن كل أمير ألماني تقريباً كان يسرق من شعبه بتخفيض العملة ، ولأن الذين زيفوا العملة أو اقتطعوا حوافها تكاثر عددهم . فما وفي عام ١٦٠٠ حتى كانت العملات الألمانية تتردى في فوضى شائنة .

وزاد عدد السكان بينما تخلف الإنتاج ، ودفع برد الشتاء الناس إلى شفا الثورة . وأكره الفلاحون في جميع الأقاليم — باستثناء سكسونيا وبافاريا على أن يصبحوا أقنانا . وفي بومرانيا وبراندنبورج وشلزويج وهولشتين وميكلنبورج شرعت القنبية (رق الأرض) في سنة ١٦١٦ أو بعدها^(١٦) ، وقد تساهل كاتب في سنة ١٩٥٨ ترى في أي أرض ألمانية ما زال الفلاح الألماني يتمتع بحقوقه القديمة ؟ وأين يتاح له أي انتفاع أو ربح من الحقول أو المراعي أو الغابات المشاعة ؟ وأين يتوقف عدد الخدمات أو الالتزامات الإقطاعية ؟ وأين يجد الفلاح محكمته الخاصة ؟ ألا فليسيخ الله عليه رحمته^(١٧) وذهب الكثير من الفلاحين للعمل في باطن الأرض ، ولكن أرباح التعدين وأجوره الحقيقية تضائلت حين دخلت الفضة الأمريكية ألمانيا لتنافس المعدن المستخرج بحق الأنفس من عروق معدنية مستهلكة . أما في المدن فإن زمالة النقابات القديمة أفسحت الطريق لاستغلال أرباب الصناعات لعمال اليومية . وكان يوم العمل في بعض الصناعات يبدأ في الرابعة صباحا وينتهي في السابعة مساء ، يتخلل ذلك

د فترات لتعاطى الجمعة ، ، وقد انتزعت نقابة المحاسبين من العمل في عام ١٥٧٣ أسبوع عمل بلغت جملة ساعاته اثنتي عشرة وسبعين^(١٨) . ومنذ عام ١٥٧٩ نسمع بإضرابات ضد استخدام الآلات في صناعة النسيج بالمانيا^(١٩) . وهكذا لم يبق إلا نشوب الحرب حتى يصبح الفقر المدقع كارثة لا نظير لها .

٣ - الأخلاق وآداب السلوك

إذا صدقنا مزاعم الأخلاقيين في نصف القرن الذي نحن بصدده ، كانت صورة الأخلاق لا تقل قياما عن صورة الاقتصاد . فقد شكوا المدرسون من أن الصغار الذين يعهد إليهم بتعليمهم ليسوا مسيحيين بل همج . وكتب ماتياس بريدينباخ عام ١٥٥٧ يقول : د أن الناس يربون أبناءهم تربية بلغت غاية السوء بحيث أصبح واضحا للبعدين المساكين . . . أن عليهم أن يتعاملوا . . . مع وحوش ضارية^(٢٠) ، وقال آخر عام ١٥٦١ د يبدو أن كل نظام أصبح في خبر كان ، إن التلاميذ جاوزوا الحدود في العصيان والوقاحة^(٢١) . وفي معظم مدن الجامعات كان المواطنون يترددون في الخروج ليلا خوفا من الطلاب الذين يهاجمونهم أحيانا بمداهم المفتوحة^(٢٢) . كتب ناتان كترانسين في ١٥٧٨ يقول : د لاشك أن من أهم أسباب انحلال أخلاق الطلاب الذي عم الآن هو تدهور التربية المنزلية . فلا عجب ، بعد أن خلعنا عن أعناقنا نير القوانين والشرائع القديمة . . . أن نشهد بين الشطر الأعظم من شبابنا مثل هذه الإباحية المطلقة ، والجهل المطلق ، والوقاحة المستعصية ، والإلحاد الرهيب^(٢٣) . ورأى غير هؤلاء د أن التمثيلات الهزلية والعروض والمسرحيات ليست من الأسباب الهينة التي ألفت بأشباب في مهاوى الرذيلة والفجور^(٢٤) .

أما الكبار فقد قال الوعاظ في وصفهم أنهم منافقون ، مشاكسون ، نهمون سكيرون ، زناة^(٢٥) . وشكوا الراعي يوهان كونو في ١٥٧٩ من أن الرذيلة بأنواعها انتشرت حتى ليرتكبها الناس دون حياء ، لا بل أنهم يفاخرون بها هفاخرة اللوطيين ، وأصبحت أقبح الكبائر وأغلظها تعد فضائل . . . فمن

الذى ما زال يرى، ارتكباب الفجشاء خطيئة؟^(٢٦) كتب الراعى برتلمايو
ونيفالت في ١٥٨٥ يقول: « هذا الزمان آخر الأزمنة التى نكسب بها العالم،
وأشدّها فسادا^(٢٧) وأصبح التجديف وتدليس المقدسات شأننا بين كل الرجال
تقريبا من جميع المذاهب^(٢٨) واستنرى الافتراء على الناس . وكتب كونت
أولدينورج في ١٥٩٤ يقول: شكالى ملاحظ أعمالى من الطريقة التى أساء
بها الدكتور بيزل فى برين إلى سمعته وفترى عليه فى أحد كتبه ، إذ زعم أنه
ينفق نهاره فى الشره والسكر والفجور ، وأنه . . . ذئب مفترس للحملان ،
وأفعى ، وتيس ، وسقط جهيض . . وأنه يجب التخلص منه أما بشنقه أو
إغراقه أو سجنه ، ولما بدولاب التعذيب أو بحد السيف ، . ووجد واعظ
بلاط أمير سكسونيا الناخب أنه « فى طول ألمانيا وعرضها تقريبا اشيع كدبا
« أنى أ كسب أفداحا مذهبة كبيرة فى مباريات الشراب . . . وأنى أفرط
فى شرب النبيذ . . حتى ليضطر القوم إلى مساعدتى ودفعى على عربة جركأتى
عجل أو خنزيرة مخمورة^(٢٩) ، .

وكان تناول الطعام والشراب شغلا شاغلا للناس ، فنصف نهار الألمان
الميسور ينفقه فى دفع الطعام من إحدى طرفى القناة الهضمية إلى طرفها الآخر
وكان أهل المدن يفخرون بشهيتهم الطيبة التى تفصح عن ثرائهم كما تفصح عنه
ثياب زوجاتهم . وقد ذاع صيته أحد لاعبي السيرك فى أرجاء ألمانيا كلها لأنه
أكل فى وجبة واحدة رطلا من الجبن ، وثلاثين بيضة ، ورغيفا كبيرا من
الخبز - وهى مهمة خر بعدها صريعا . ولم يكن من الأمور الشاذة
أن يتصل الغذاء أو العشاء سبع ساعات يتخللها شرب أربعة عشر نجبا . أما
حفلات الزفاف فسكانت فى أكثر الأحيان قصفا صاخبا يحفل بالنهم والسكر
وقد ألف أمير مورج أن يوقع رسائله بهذه العبارة (كن معافى وأسكر) . وقد
أسرف كرستيان الثانى أمير سكسونيا الناخب فى تعاطى الخمر حتى أودت
بجيانه ، ولما يجاوز السابعة والعشرين . وكألفت جمعية للامتناع عن السكرات
لمقاومة هذه الرذيلة ، ولكن أول رئيس لها مات من السكر^(٣٠) . وقد أكد

بعضهم أن البطنة قصرت أعمار الناس ، وكتب إرزمس فنتر في ١٥٩٩ يقول
" إن الإسراف في الطعام والشراب قلل من عدد المعمرين ، وندر أن نرى رجلا
في الثلاثين أو الأربعين لا يشكو مرضا ، سواء كان الحصى ، أو النقرس ،
أو السعال ، أو السل ، أو غيره ، (٢١) .

• ولكن علينا ألا تأخذ هذه الشكاوى المعاصرة مأخذ الجهد الشديد . فأغلب
الظن أن كثرة الشعب كانوا قوما مجدين ، صابرين ، يخفون الله بالمعنى الحرفي
للعبارة . إلا أن الفضيلة لا ينوه بها التاريخ كما لا تنوه بها الصحف - وهذا
دليل عن أنها أمر عادي مألوف . فقد كانت زوجات أهل المدن يلزم من بيوتهن
في عزلة متواضعة مستغرقات في عشرات الواجبات التي لا تترك لهن فراغا
لارتكاب ذنوب أفدح من الثرثرة بالشائعات ، وكانت الكشيرات من نساء
الطبقة العليا - مثل أنا زوجة أغسطس الأول أمير سكسونيا الناخب -
مثلا يحتذى في الولاء الصادق للأسرة . ولم تخل ألمانيا الصاخبة تلك من
الجواب السارة . محبة الأطفال والبيت ، وكرم الضيافة ، والرقص الطروب
والموسيقى الجميلة ، والألعاب والمهرجانات المرحية ، وأول شجرة ميلاد في
التاريخ المدون كانت جزءا من احتفال أقيم بألمانيا في ١٦٠٥ ، والألمان هم الذين
أحاطوا بعيد ميلاد المسيح ، بالمظاهر الهيبة التي تخلفت من ماضيهم الوثني :
وكانت الرقصات والأغاني الشعبية تلد أشكالا من الموسيقى المعزوفة ؛
وكانت الترانيل بسبيلها إلى أن تصير كورالات ضخمة . وغدا الأرغن أثرا
فنيا يدخل في فن المعيار ، أما البيان القيثاري ، والعود وغيرهما من الآلات
الموسيقية ، فكانت وليدة في التغنى بالحب . وحللت كتب الترانيم أحيانا ،
لا سيما في بوهيميا ، بزخارف رائعة . أما الترانيم البروتستنتية فكثيرا
ما كانت تعليمية أو جدلية ، وضحت في هذا السبيل برقة ترانيم العصر الوسيط
المقدسة ، ولكن الكورالات البروتستنتية كانت بشيرا بمقدم يوهان
سبستيان باخ . وفرض التعليم الموسيقي على المدارس من جميع المذاهب ،
وكان مقام الكانتور ، - أي معلم الموسيقى - لا يعلو عليه إلا مقام المدير

أو الناظر في سلم المراتب المدرسية واشتهر عازفو الأرغن يومئذ شهرة عازفي البيان الآن ، وذاع صيت يعقوب هاندل في براغ . أما الأخوة هامسler — وهم هانز ، وكاسبار ، ويعقوب — فقد أنتشت جماهير المصلين بموسيقاهم التي كانت من وضعهم في كثير من الأحيان ، في درسدن ، ونورمبرج ، وبراغ وقد نحا التنوع الموسيقي إلى الظهور مرارا وتكرارا في الأسرة الواحدة ، لا بفضل أية وراثة خفية ، بل نتيجة لعدوى البيت ، وهكذا اتخذ حشد حقيقي من آل شولتز اسم « بريتوريوس » ، ولم يكتبف ميخائيل بريتوريوس بوضوح مجلدات في الموسيقى ، بل وضع في كتابه « أصول الموسيقى ، (١٦١٥ — ١٦٢٠) موسوعة شاملة رفيعة لتاريخ الموسيقى وآلاتها وأشكالها .

أما أعظم الأسماء في هذا العصر وهذا الميدان فهو هنريخ شوتز ، الذي أجمع السكلك على الإشادة به « أبا للموسيقى الألمانية الحديثة . وقد ولد لأسرة مسكسونية في ١٥٧٥ ، قبل قرن تماما من مولد باخ وهانديو ، وأرسمى دعائم الأشكال والروح الموسيقية التي أوصلها هذان الفنانان إلى ذروة السكلك . وحين بلغ الرابعة والعشرين اتخذ سمته إلى البندقية ، حيث درس على جوفاني جابرييلي . فلما عاد إلى ألمانيا تردد بين الموسيقى والقانون ، ولكنه استقر آحر الأمر على العمل مديرا للموسيقى في بلاط يوحنا جورج ، أمير مسكونيا الناخب ، بمدينة درسدن . وراح منذ ١٦١٨ يتدقق ألحانا كورالية مهدت السبيل كل التمهيد للعدد السكبير من الموسيقيين من آل باخ بفضل ما فيها من تناول بارع للسكوارس (مجموعات المشدين) وللأصوات المنفردة والآلات الموسيقية ، ومن مقابلة بين هذه كلها ، ولأول مرة أذيب وخصف مزج الألحان السكورالي الألماني الثقيل بأسلوب « التوزيع ، الأكثر اتساقا ، والذي جمع بين الأصوات والآلات . واحتفالا بزفاف ابنة الأمير الناخب (١٦٢٧) لحن شوتز أولى الأوبرات الألمانية ، واسمها دافني على أساس أوبرا بيرى التي تحمل هذا الاسم ، والتي أديت بفلورنسة قبل ثلاثة وثلاثين عاما . وتأثر شوتز

برحلة ثانية إلى إيطاليا ، فأعطى مزيدا من الوضوح للأصوات المنفردة والآلات الموسيقية في «سيمفونية المقدسة» (١٦٢٩) إذ وضع موسيقى لنصوص لاتينية من المزامير ونشيد الانشاد . وفي ١٦٣١ غلت «سكسونيا» مسرحا نشيطا للحرب . فضرب شوتز في الأرض متنقلا من بلاط إلى بلاط ؛ حتى أنه رحل إلى الدنمرك ، بحثا عن فرق المرتلين والتماسا للرزق ، ولم يرد إلى وظيفته في درسدن إلا في ١٦٤٥ ، وفي ذلك العام ابتكر أسلوب موسيقى «آلام المسيح» الألمانية بوضعه «وشحة دينية» «أوراتوريو» سماها «كلمات المسيح السبع على الصليب» ، هنا بدأت فكرة إعطاء كلمات شخص منفرد لنفس الصوت المنفرد ، ثم يسبق الصوت أو يقفوه بنفس الأنغام في الآلات ، وقد اقتبس باح من بعده هذه الطريقة في موسيقى «آلام القديس هتي» . ثم شق شوتز طرقا جديدة مرة أخرى ، إذ نشر في ١٦٥٧ «الأنغام الألمانية» وهي «كائنات» (قصص موسيقية تنشدها المجموعة على أنغام الموسيقى من غير تمثيل) تضعه مع كاريسيمس في مقام المثنىء المشارك للأناشيد الدينية الدرامية وقد هيا «لحنه» «نشيد عيد الميلاد» (١٦٦٤) لباخ هدفا آخر يستهدف فيما بعد . ثم بلغ قصاره بعد عام في «آلام ربنا ومخلصنا يسوع المسيح وموته» . وهو نشيد وضعه بصرامة للأصوات وحدها دون أن يخفف بالألحان . وما لبث عقب هذا أن فقد سمعه ، فاعتكف في بيته ، ومات في السابعة والثمانين بعد أن لحن فقرة من المزمور ١١٩ تقول : «ترنيمات صارت لي فرائضك في بيت غربتي» .

٤ - الآداب والفنون

كان أبرز إنتاج أدبي للامبراطورية في هذا العهد ترجمة للكتاب المقدس قام بها الإخوان البوهيميين (١٥٨٨) ، وملحمة Zrinyiasz (١٦٤٤) التي نظمها ميكالوس زرينيبي . وخلفت ألمانيا الآن (حوالي ١٦٠٠) إيطاليا بوصفها أروع سوق لنشر الكتب ، لاسيما فرانكفورت وماين . . ففي ١٥٩٨

بدأت سوق فرانكفورت للكتاب تنشر كل نصف عام قائمة بالمطبوعات ،
« وشجعت الجماعات الأدبية الشعر والدراما ، ولكن الأدب كانت تحتفظ
الرقابة المدنية والكنيسة . فقد أجمع القادة اللوثرين والكافينيون والكاثوليك
على أن المؤلفات التي تعبد ضارة بالحكومة . أو المذهب الرسمي ، أو الآداب
العامة . يجب حظرها . ومن عجب أن مجموع الكتب التي حرمتها السلطات
البروتستنتية فاق تلك التي أدانتها كنيسة رومه (٢٢) . واضمحل العلم لأن
الحقيقة شوهرتها حدة الجدل . وآية ذلك أن ماتياس فلاكيوس الليريكوس
ومساعديه صنعوا تاريخا للكنيسة المسيحية في ثلاثة عشر مجلدا من القطع
الكبير . ولكن « قرون مجد بورخ » ، وهو الاسم الذي انتهى الناس إلى
إطلاقه على كتاب « تاريخ الكنيسة المسيحية » (١٥٥٩ - ١٥٧٤) نسبة
إلى مكان تأليفه وإلى تقسيمه حسب القرون - هذا الكتاب كان متحيزا
للكتاب التاريخ الكاثوليكية الصادرة في ذلك العهد ، يوم كان كل كتاب
سلاحا في القتال . مثال ذلك أن البابا جريجورى السابع صورته هؤلاء المقاتلون
أشد وحشية من كل ما ولد من وحوش . وزعموا أنه قتل عدة باباوات قبل
أن يرتقى كرسي البابا ، (٢٣) . أما أروع التواريخ الرسمية الألمانية - في
جيله فكتاب يوهان سلايدانوس الذي روى قصة الإصلاح الديني :
« الأحوال الدينية والمدنية في عهد الإمبراطور شارل الخامس » (٥٥٥) ،
وقد بلغ من الإنصاف مبلغا لم يترك مجالاً - حتى لملانكوف - أن يغتفر
له أى تحامل فيه .

وبعد الكتب المحسوة بالمطاعن كانت الدراما أكثر أشكال للأدب شعبية
وقد استخدم البروتستنت والكاثوليك المسرح لبك الدعوة ؛ فسخرته
التمثيلات البروتستنتية بالبابا سخيرية مريرة ، واختتمت عادة بزجه في الحجيم
وأخرج معلقو الموسيقى بسويسرة تمثيلات عن آلام المسيح والقيامة .
والدينونة الأخيرة ابتداء من ١٥٤٩ ، وشارك في التمثيل أحيانا ٣٩٠ مجلا .

ومثلت مسرحية آلام داوبرامير جاو، أول مرة في ١٦٣٤ وفاء بنذر نذر خلال طاعون ١٦٣٣. وكانت تعاد كل عشر سنوات، ويستمر عرضها من الساعة الثامنة والنصف صباحا إلى السادسة مساء، يتخلل ذلك إستراحة ساعتين في الظهيرة. وقد دخل الممثلون الإيطاليون ألمانيا عام ١٥٦٨، ثم تلاهم الهولنديون والفرنسيون والإنجليز. وسرعان ما أحلت هذه الفرق المثيلية عروض المحترفين محل العروض الخاصة، وقد أثارت الكثير من الشكاوى بسبب فحشها الذي در عليها الربح الوفير.

وحظى بشعبية فاقت حتى شعبية الممثلين ناقد الزامى هجاء، فيه فحولة وله كفايات متعددة، يدعى يوهان فيشارت فبعد أن تقمص في مرح روح عصره، أصدر سلسلة من التقليدات الساخرة ضد الكاثوليكية، بلغت في تدميرها الذكي مبلغا جعله بهد قايل أروج كاتب في ألمانيا، ففي كتابه «خليفة النحل الرومانية المقدسة الهائلة، هاجم (١٥٧٩) تاريخ الكنيسة، وعقيدتها، واحتفالاتها، وكنهتها، في كاريكاتور عنيف، فكل الأديار الكاثوليكية عنده مراتع للفجور والاجهاض، والكنيسة في زعمه قضت بأن «للكهنة، أن يستعملوا زوجات غيرهم في غير حرج، وقد وجدت ستة آلاف من رؤوس الأطفال في بركة قرب دير الراهبات، وهكذا دواليك»^(٣٤). وفي هجاء آخر سماه «القبعة اليسوعية الصغيرة، سخر من قبعة اليسوعيين ذات الزوايا الأربع وندد بكل أساليبهم وأفسكارهم. وفي عام ١٥٧٥، نشر فيشارت، بعنوان مرح في ثمانية سطور، ترجمة مزعومة، هي في حقيقة الأمر تقليد وتوسيع لكتاب رابليه «جارجانتوا»، وقد هزأ الكتاب بجميع نواحي الحياة الألمانية - كظلم الفقراء، وسوء معاملة التلاميذ، ونهم الألمان وسكرهم، وزناهم وفسقهم، كل ذلك في خليط من الأساليب ومن اللهجة الألزاسية، متبل بالبداهة والظرف. ومات فيشارت في الثالثة والأربعين بعد أن أفرغ ما في جعبته من أفاظ.

ولا يقل عن فيشارت حيوية رجل آخر مات في نفس السنة ، ١٥٩٠ ،
بالغا نفس العمر ، هو نيقوديموس فريشلمين ، الذي عاش أكثر من عشرة
أعمار في عمر واحد . ففي العشرين كان أستاذا للتاريخ والشعر في توينجن ،
ونظم الشعر اللاتيني في رفة تذكر بركة هوراس ، وكتب شروحا علمية
لفرجيل . وفي الخامسة والثلاثين طرد لهجانه النبلاء . وبعدها عاش عيشة
الاستهتار والمرح ، فأسرف في الشراب ، زاعما أن الخمر لا غنى عنها للعبقريّة ،
وأن أشعار الزاهدين في الخمر هزيلة هزالا حقيرا ، وقد اتهم بإفساد فتاة
وتسميم أخرى ، وإد كان مهددا بالمحاكمة الجنائية لعدوانه على الفضيلة ، فقد
ظل يفر من بلد إلى بلد ، وأهدى محاضرة منشورة إلى أحد عشر رجلا من
الأعيان المختلفين ، الذين وزعهم توزيعا جغرافيا ، ليوفروا له ملجأ يلوذ به
في أى مكان ، ولكنه مات أثر كيوّة قلب أن ينتهى من إبداء رأيه في أعدائه .
وجريا على عادة ذلك الزمان نعتوه بأنه : « شاعر قدر حقير ، وسقط للشيطان
كذاب لثيم (٣٥) » . ولكنه كان ألمع شاعر استطاعت ألمانيا أن تنجبه في
ذلك الجيل الشقى .

أما الفن فقد أضر به عزوف البروتستانت عن الصور والنمايل ،
واضمحلل الكنيسة بوصفها راعية للفن ، وإفساد التأثير الإيطالى الغربى
على ألمانيا للطرز الوطنية ، وتدهور الذوق نتيجة لخشونة الأخلاق وعنف
الجدل ، ثم نار الحرب الآكلة بعد ذلك . وأعجب العجب أن تنتج الحرفية
الألمانية ، برغم هذه المشبطات ، في العقود الستة السابقة للحرب ، عدة قصور
نخمة ، ودور للبلدية بهية ، وتنجب مصورا قديرا ، وتبدع بعض المتحف الثمينة
في الفنون الصغيرة . وكانت مجموعات الامبراطور رودلف الثانى والدوق
ألبرت الخامس أمير بافاريا نواة لمتحف ميونخ الشهير « قاعة الفن القديمة » ،
وكان ألبرت نفسه « مديتسيا ألمانيا » ، فأحال بلاطه جنة للفنانين ، وجمّل

عاصمته بالعارة ، وجمع التماثيل في «الاقتسكار يوم ، ، - وهو أول متحف للتماثيل القديمة شمال الألب .

وفي ١٦١١ - ١٦١٩ بنى معمارى دولندى للدوق مكسميليان الأول في ميونيخ «المقر ، الذى ظل قرونا بيتا لأدواق بافاريا وناخبها وملوكها . وقد أسف جومستاف أدولف لأنه لم يستطع أن ينقل إلى استسكهم ذلك المثال المحبب من عمائر فترة الاصلاح البروتستنتى المتأخرة فى ألمانيا . أما اليسوعيون فقد شيدوا بطران الباروك ، على طريقةتهم التى تعنى بالزخرفة والتنميق ، كنياس بديدة فى كوبلنز . وديلنجن ، وكنيسة هوف (كنيسة القديس ميخائيل) بمونيخ وصمم سالتينو سولارى كاتدرائية سالزبورج ، على طراز أكثر بساطة ونظام ، قبل اندلاع حرب الثلاثين بيضع سنين .

وإذ كان الأمراء قد استولوا على معظم الثروة الكنسية فى ألمانيا البروتستنتية ، فإن العارة فيها لم تعد كنيسة بل مدينة ، وأحيانا اعمارة قصور . وبنيت القلاع الضخمة ، كقلعة هايلينجبرج فى بادن ، المشهورة بسقفها المصنوع من خشب اليزفون المنقوش ، فى قاعتها المعروفة بالريتزرال (أى صالة الفرسان) ، وقلعة أشافنبورج على الماين ، وقلعة هايد لبيرج ، التى ما زالت مشهدة من مشاهد ألمانيا الكبرى . وأقيمت دار بلدية «راتهاوس» الفاخرة لتضم إداره البلدية فى لوبك وقلع بادريون ، وبريمن ، وروتنبورج واجزبورج ونورمبرج وجراتز . وعهد تجار المنسوجات فى أجزبورج إلى الياس هول ، كبير معمارى المدينة ، ببناء قاعتهم «تزويج هاوس» أى قاعة الأقمشة . كذلك بنت بريمن قاعة للغلال «كورنهاوس» ، وفرانكفورت قاعة للملاح «زالتسهاوس» لتجار الغلال والملح على التوالى ، ولكن من كان يتوقع أن يبنتى الخل لنفسه بيتا رفيع الذوق يظله كبقاعة الخل «ايسيجهاوس» ؟

* هذا المتحف وغيره من المنشآت الموسومة بعلامة نجمية فى هذا القسم دمرت أو لحق بها ضرر بليغ فى الحرب العالمية الثانية .

وارتفعت الآن ، وفي الأعوام المائة والخمسين التالية ، القصور في كل مكان بألمانيا لتأري الأمرء الظافرين ، وقد بنيت بطراز الباروك اللوحي البهيج . من ذلك أن حاكم أنسباخ بايروت ، أنفق ٢٣٧٠٠٠ فلورين (٣٠,٠٠٠,٠٠٠ دولار) على قصر بلاسنبورج الذي يملكه ، في إمارة من أفقر إمارات الامبراطورية . وأرفع من هذا القصر ذوقا ، القصر الأميرى الذى أعد لرؤساء أساقفة ماينز . وتبدو عمارة بيوت هذه الفترة هببة إلى حد خلاب سواء فى تقاليدها أو رسومها ، غير أن طيبا ساخطا وصف البيوت الألمانية فى ١٦١٠ بأنها تتألف من حجرات قذرة مظلمة خبيثة الرائحة قل أن يدخلها الهواة النقى^(٣٦) ، ومع ذلك فإن داخل البيت فى المدينة كان المواطن الحقيقى اغنون ألمانيا الصغيرة ، فقد حفل بالزخارف التى أبدعتها أيد ماهرة كالخشرات الخشبية والسقوف المنقوشة ، والأثاث المتين المنقوش والمطعم ، والدرابزينات الحديدية المشغولة ، والأفقال والقضبان المنصوبة فى أشكال نفمة ، وتماثيل العاج الصغيرة ، وأقداح الشراب الفضية أو الذهبية . لقد كان ساكن المدينة الألمانى لا يشبع من الزخارف فى بيته .

وازدهر الحفر ، لا سيما على النحاس ، فى ألمانيا حتى خلال الحروب . واستهل لوكاس كيليان وأخوه فولفجانج ، حوالى ١٦٠٠ ، عهد أسرة موهومة من الحفارين اتصل نشاطها طوال القرن السابع عشر بفضل ولدى فولفجانج ، وهما فيليب وبرتلماوس ، وامتد حتى ١٧٨١ بفضل أبناء حفدة فيليب . على أن النحت الألمانى أضرت به المحاولات التى بذلها النحاتون لتقليد الأشكال الكلاسيكية الدخيلة على الطبيعة والمزاج الألمانين . وكان الحفارون الوطنيون ، إذا أرسلوا أنفسهم على سجيته ، يبدعون تحفا من أرفع طراز ، مثال ذلك مذبح الكنيسة الأوسط ، والمذبحان الجانبيان ، التى حفرها فى الخشب هانزديجلر لكنيسة أولتريش فى أوجزبورج ، أو التماثيل السبعون التى نقشها ميخائيل هونيل لكتاتدرائية جورك بالنمسا . ومن المعالم البارزة فى هذا العصر

نافورات الماء العجيبة التي استلهمت المثل الإيطالية . كنافورة « فيتلسباخر » ،
المقامة أهام الرزيدنتز « بميونخ » و « نافورة الفضيلة » (توجندبرونن) ، أهام
كنيسة لورنز في نورمبرج .

حين نمتي إلى روبرت أن آدم الزهايمر قد مات لتوه (١٦١٠) وهو بعد في
الثانية والثلاثين قال « خليق بهذا الخطب أن يغرق مهنتنا في حزن عميق . فلن
يكون من السهل تعويضه ، إذ محال في رأي أن يكون له نظير في (رسم) الصور الصغيرة
والمناظر الطبيعية ، وأشياء أخرى كثيرة (٢٧) . وقد ولد آدم هذا في فرانكفورت
ثم قصد إيطاليا وهو في العشرين ، وبعد أن أقام في البندقية ردها من الزمن انفق ما بقي
من عمره في روما . وقد تضرع روبرت إلى الله « أن يغفر لآدم خطيئة الكسل » ،
ولكننا لا ندرى أهو الكسل الذي جعل الزهايمر يقصر فنه على الرسوم
الصغيرة على الأطباق النحاسية ؛ إذ لا يمكن أن يكون الكسل هو الذي جعله
يضفي على مناظر الطبيعة ذلك الصقل الدقيق الذي نراه في « الهروب إلى
مصر (٢٨) » ، أو ذلك التجسيد للضوء والهواء الذي جعل منه على حدوده المتواضعة ،
« ميرانتا » قبل رميرات . ويلوح أنه كان يجزي جزءاً طيباً عن فنه ، ولكننه
جزءاً لا يكفى لإشباع حاجاته وميوله . وقد أفلس ، وسجن بسبب دينه ،
ثم مات عقب الإفراج عنه .

كان الرسم على الزجاج فناً أثيراً في هذا العصر . في زيوريخ وما زال أولاً ،
ثم في ميونيخ ، وأوجزبورج ، ونورمبرج ، وأصبحت النوافذ في الأدبار
والمنازل غنية بالألوان كأنها نوافذ كنيسة من العصر الوسيط وظهر نقش
الزجاج في بواكير القرن السابع عشر في نورمبرج وبراخ . واشتهرت أسرة
هيرشفوجل بنورمبرج بالزجاج والخزف الفينيين ، وأذفات كولونيا
وزيجورج قلوب الألمان بالأباريق والسكيزان الأنيقة النقوش ، وكثيراً
ما كانت الموافد تحاط بفخار مزجج بالألوان . ولم يكن للألمان قريع في
أشغال الخشب والتاج والحديد والأحجار الكريمة والمعادن النفيسة . وكان

لنجارى الأثاث مكان سمرق ، حتى أن واحدا منهم حكم عليه بالشنق عقاباً على السرقة صدر العفو عنه لأنه كان نجاراً فنياً ، ما عراً جداً . والدرازين الحديدى المحيط بمقبرة الأمبراطور مكسمليان الأول فى انزبروك رائع جداً . وقد صنع أنطون آيزهوت فى ١٥٨٧ آنية للطقوس الكهنسية من فضة بلغت من دقة الرسم وغنى الحلية ما يضعها إلى اليوم فى قبة الآنية التى من نوعها . وكان الصاغة الألمان مطلوبين فى كل مكان ، ووجدت أشغالهم سوقاً أوروبية لها فى غير عناء . وصنعت كشموس الشراب ، والأقداح ، والأباريق الفضية فى عشرات الأشكال المضحكة ، وكان فى وسع الألمان أن يترنحوا بالخمر يشربونه من طواحين الهواء ، والفوانيس ، والتفاح ، والقردة ، والخيل ، والخنازير ، والرهبان ، والراهبات . لقد كانوا يخوضون الحرب اللاهوتية حتى فى كشموسهم المتصارعة .

٥ — المذاهب المتصارعة

كان ديت أوجزبورج (١٥٥٥) قد وصل بالصراع الدينى إلى هدنة جغرافية حول مبدأ الناس على دين ملوكهم ، وإقليمه دينه ، — أعنى أن دين الحاكم فى كل دور يفرض ديناً على رعاياه ، وعلى المخالفين أن يرحلوا . وكان الاتفاق يمثل قدراً ضئيلاً من التقدم ، لأنه أحل الهجرة محل الإعدام ، ولكنه اقتصر على اللوثرية والكاثوليكية ، وكان من آثار اقتلاع عائلات كثيرة من جذورها اقتلاعاً أليماً زادت الفوضى والمرارة فى ألمانيا . وكان ينتظر من السكان أن يغيروا مذهبهم إذ خلف حاكم يدين بأحد المذاهبين حاكماً يدين بالمذهب الآخر . وبات الدين مطية وضحية للسياسة والحرب

أما وقد انقسمت ألمانيا فى اللاهوتية على ذنا النحو ، فإنها لا تقدم قبل حرب الثلاثين حرباً دينية بسيطة : ويمكن القول عموماً بأن الشمال كان روتستنتياً ، والجنوب وأرض الراين كاثوليكين ، ولكن بما أن مبدأ

أوجز بورج لم يمكن فرضه فرضاً دقيقاً ولا سريعاً ، فقد بقي الكثير من البروتستانت في مناطق كاثوليكية ، والكثير من الكاثوليك في بلاد بروتستنتية . وقد أتيح للكاثوليك ميزتان هما التقاليد والوحدة ، أما البروتستانت فقد تمتموا بقسط أوفر من حرية العقيدة ، وأنقسموا إلى لوثرين وكالفينيين وقائلين بتجديد العهد وموحدين ، وحتى في صفوف اللوثرين نشبت حرب عقائدية بين أتباع ملائكتون المتحرر وخصومه . وفي ١٥٧٧ صاغ اللوثرين عقيدتهم في كتاب الوفاق ، وبعد هذا التاريخ طرد الكالفينيون من الدويلات الألمانية اللوثرية . ولكن أمير البالاتينات الناخب ، فرديك الثالث ، رعى الكالفنية وجعل جامعة هايدلبرج معهداً لاهوتياً للشباب الكالفينيين . وهناك ، في ١٥٦٣ وضع اللاهوتيون الكالفينيون كتاب التعليم المسيحي ، في مفهوم هايدلبرج ، وقد صدم الكاثوليك واللوثرين جميعاً برفضه عقيدة الحلول الحقيقية للمسيح في خمر العشاء الرباني وخبزه . وسمح للكاثوليك بالعيش في البالاتينات شريطة أن يقصروا عبادتهم على بيوتهم ، أما الموحدون فقد قمعوا بشدة . وفي ١٥٧٠ نازع رجلان في ربوبية المسيح ، أو ضيقاً حدودها ، فأعدما أثر أصرار الاساتذة الكالفينيين في جامعة هايدلبرج على أعدامهما . على أن الأمير الناخب لويس ابن فرديك ، آثر المذهب اللوثرى ورفضه ، ولكن أخاه يوحنا كازيمير ، أثناء وصايته (١٥٨٣ - ١٥٩٢) ، فضل الكالفنية وفرضها ، ثم وطد الأمير الناخب فرديك الرابع (١٥٩٢ - ١٦١٠) تلك السياسة . وتزوج أبنة فرديك الخامس (١٦١٠ - ١٦٢٣) اليزابيث ستيوارت (ابنة جيمس الاول ملك إنجلترا) . وطالب بعرش بوهيميا ، وعجل بنشوب حرب الثلاثين .

وكان الصراع بين اللوثرين والكالفينيين لا يقل مرارة عنه بين البروتستانت والكاثوليك ، وقد أضر بتعاون البروتستانت خلال الحرب لأن تعاقب النصر والهزيمة على الفريقين كليهما ، تارة هذا وتارة ذلك ، ومن ثم اضطهاد المنتصر

للمنهم كان يخلف ميراثا من الكراهية ، مثال ذلك أنه في ١٥٨٥ طرد الكونت فولفجانج حاكم أيزنبورج رونيورج جميع الموظفين اللوثرين في إقليمه وأحل الكالفينيين محلهم ، ولكن أخاه وغليفته الكونت هنري أنذر الوعاظ الكالفينيين في ١٥٩٨ بأن عليهم أن يرحلوا خلال أسابيع برغم البرد القارس ، وفي ١٦٠١ ولي الحكم الكونت فولفجانج ارست ، فطرد الوعاظ اللوثرين وأعاد المذهب الكلفيني . وحدث مثل هذا الإحلال للكالفينيين محل اللوثرين في أنهالت (١٥٩٥) ، وهاناو (١٩٥٦) ، وليبي (١٦٠٠) . وفي بزوسيا الشرقية أعدم يوهان فونك المتهم بميوله الكلفنية في سوق كونيجزبرج وسط تهليل الجماهير (١٥٦٦) (٣٩) . كذلك أعدم المستشار نيقولا كرل في درسدن (١٦٠١) لتوجيهه الطقوس اللوثرية وجهة كلفنية ، ولتأييده لليجونات الفرانسيين (٤٠) .

وفي ٦٠٤ أعتنق الشريف موريس حاكم هيس - كاسل المذهب الكلفيني ، ثم فرضه في ١٦٠٥ في هذا الإقليم وفي هيس العليا ، وهزم جنوده حشدا من اللوثرين المقاومين وحطموا الصور الدينية في الكنائس ، أما الوعاظ الذين أبوا التحول من المذهب اللوثرى إلى الكلفنى فقد نفوا (٤١) . وفي أمارة براندنبورج الناجبة قام نزاع عنيف بين اللوثرين والكالفينيين حول خبز القربان المقدس ، وهل يتحول حقيقة بعسد تقديسه إلى جسد المسيح وأخيرا قضت الحكومة بأن الكلفنية هي المذهب الحق (١٦١٣ وما بعدها) (٤٢) .

ووسط تذبذبات الحقيقة هذه احتدم ذلك السعار اللاهوتى ، كما سبق أن سماه ملانكستون - احتداما لم يعرفه التاريخ من قبل ولا من بعد ، ألا فيما ندر . من ذلك أن راعيا لوثريا يدعى نيفاندر (١٥٨٢) عدد أربعين خصيصة من خصائص الذناب ، وزعم أنها بالضبط السمات المميزة للكالفينيين ثم بوصف الميقات الرهيبة التى لقيها أعداء اللوثرين ، وقال بأن

زونجلي حين خر صريعا في المعركة ، د قطع جسده سيورا ، واستعمل الجنود شحمه ليشحموا به أحذيتهم ، لأنه كان رجلا بدينا^(٤٣) ، . وجاء في نشرة لوثرية في ١٥٩٠ د إن أراد أحد أن يقال له في بضع كلمات أية مادة من مواد الايمان تقايل عليها جنس الأفاعى الكلفنية الشيطاني ، كان الجواب ، كلها بلا استثناء... ذلك لأهم ليسوا مسيحيين ، بل يهود ومسلمون معمدون^(٤٤) ، . وفي سوق فرانكفورت كتب ستانسلاوس رسكيوس (١٥٩٢) د لقد لاحظنا منذ سنين أن الكتب التي يؤلفها البروتستنت ضد البروتستنت ثلاثة أمثال تلك التي يؤلفها البروتستنت ضد الكاثوليك^(٤٥) . وقال كاتب بروتستنتي في ١٦١٠ في معرض الرثاء لهذه الحال ، . أن هؤلاء اللاهوتيين المسعورين قد جعلوا الحرب المدمرة الناشبة بين المسيحيين المنشقين على البابوية من الهول والانساع بحيث لا تبدو بارقة أمل في أن يكف كل هذا الصراح والقذف والنشتم واللعن والحرم قبل مجيء اليوم الآخر^(٤٦) .

ولكي نفهم هذا السعار اللاهوتي ، علينا أن نتذكر أن جميع أطراف النزاع أجمعوا على أن الكتاب المقدس كلمة الله المعصومة ، وإن الحياة بعد الموت ينبغى أن تكون أهم شغل للناس في هذه الدنيا . كذلك لا بد أن تفسح الصورة مكانا للتقوى الصادقة التي أورثت الكثيرين من اللوثويين والكلفنيين والكاثوليك الانضاع والتسامى فوق حمى المذاهب وهذيانها . فقد هرب د أهل التقوى ، هؤلاء من المنابر اللاهوتية والنسوا في خلوتهم شيئا من الحصرة الإلهية المطمئنة . وما زال مؤلف يوهان آرنست د حديقة الفردوس الصغيرة ، يقرأ في ألمانيا البرونستنتية باعتباره كمتديا للتأمل الودع . وانتهى يعقوب بومي بهذه النزعة إلى فكرة الوحدة الصوفية لروح المرء مع إلهه تصوره ينبوعا كونيا ، وأساسا لسكل الأشياء ، ينتظم كل دشر ، وكل دخير ، وزعم بومي أنه رأى د كائن الكائنات كلها ، ورأى جهنم ، كما رأى مولد الثالوث الأقدس^(٤٧) ، د ولا يجد العقل غير المتعاطف مع الصوفية في كساب بومي ، في شارة كل الأشياء ، ١٦٢١ د لإدوامة من السحافات ، ومن بواعث

العزاء أن نعرف أن صوفيسا آخر ، هو يوحنا وميسلي ، وصفه بأنه د هراء رفيع^(٤٨) ، وأفضل من التراثيل البسيطة الحسية التي ألقها التقى اليسوعى فردريك فون سبي .

واليسوعيون هم الذين قادوا الحملة الصليبية الكاثوليكية لإمبرداد الأرض المفقودة في ألمانيا كما فعلوا في كل مكان في أوروبا ، وقد بدأوا بمحاولة إصلاح الاكثريوس الكاثوليكي . كتب اليسوعى بطرس فابر من فورمز في ١٥٤٠ يقول : « اسمح اللهم بأن يكون في هذه المدينة ولو كاهن أو ثلاثة ليس لهم علاقات غرامية حرام ، أولا يعيشون في خطايا معروفة أخرى^(٤٩) . على أن أهم خطيئهم كانت اصطياد الشباب ومن ثم فتح اليسوعيون الكليات في كولونيا ، وترير ، وكولنز ، وماينز ، وشبير ، وديلجن ، ومونستر ، وفورتسبورج ، واينجولستات ، وبادربورن ، وفرايبورج ، وقد طاف بطرس كانيسوس ، الرأس المفكر والروح والحركة لهذه الحملة اليسوعية ، بكل أرجاء ألمانيا تقريبا على قدميه ، منشئا الكليات ، موجها المجادلات اليسوعية العنيفة ، شارحا للحكام الألمان مزايا المذهب القديم . وقد حث الدوق ألبرت الخامس على أن يسأصل بالقوة شأفة البروتستنتية بأسرها من بافاريا^(٥٠) . ويفضل اليسوعيين ، والكبوشيين ، وإصلاح الاكثريوس ، وغيره الاساقفة ، ودبلوماسية البابوات وسفرائهم ، استعيد إلى حظيرة الكنيسة في النصف الثاني من القرن السادس عشر نصف الأرض التي كسبتها البروتستنتية الألمانية في النصف الأول منه . وقد استعملت بعض ألوان الاكراه هنا وهناك ، غير أن الحركة كانت في جملتها سيكولوجية سياسية ، ذلك أن جماهير الشعب ملت طول الشك والجدل والخبرة ، ورأى حكمهم في الكاثوليكية التقليدية سندا للحكومة والنظام الاجتماعى أقوى من سند بروتستنتية غارقة في فوضى الانقسام ، عموفا بالخطر التي تسكتنف كل مذهب جديد .

فلما أدرك البروتستنت آخر المطاف أن انقساماتهم الداخلية أشبه بعملية
انتحارية . وجها منابرهم وأقلامهم ضد عدوهم الروماني . ومهدت حرب الكلام
والمداد لحرب المدافع والدم ، وتفاقم التقاذف بالمطاعن حتى قارب نشوة القتل .
ودخلت قاموس اللاهوت ألفاظ كالروث ، والنفاية ، والخمار ، والخنزير ،
والبغى ، والقائل . ففي عام ١٥٦٥ اتهم الكتاب الكاثوليك يوهان ناس اللوثريين
بممارسة القتل ، والسرقه ، والكذب ، والغش ، والشهه ، والسكر ، ومضاجعة
المحارم ، والجريمة ، دون ما خشية ، لأن الايمان في زعمهم يبرر كل الأشياء ،
ورجح أن تكون كل امرأة لوثرية مومساء (٥١) . وقد اعتبر الكاثوليك هلاك
البروتستنت الأبدى إحدى بديهيات اللاهوت ، ولكن الواعظ اللوثرى
أندرياس لانج كتب (١٥٧٦) بثقة تماثلة د أن البابويين كغيرهم من الترك واليهود
والوثنيين هم خارج نطاق العمه الالهية ، ومغفرة الخطايا ، والخلاص . فلقد
كتب عليهم العويل والبكاء وصرير الأسمان إلى الأبد في نار الجحيم المشتملة
وكبريتها (٥٢) . وراح الكتاب من الجانبين يتبادلون تلافيرات على نحو ما يفعل
الآن في حرب العقائد السياسية . وراجت أسطورة البابية ، (امرأة) يوانا في الأدب
البروتستنتي ، وكتب أحد رجال الدين البروتستنت في ١٥٨٩ يقول : بما أشد
نفاق هؤلاء اليسوعيين الأوغاد السفلة إذ يلجون في إنكار هذه الحقيقة ، وهي
أن البغى الانجليزية آجينس كانت د بابة ، في روما وأنها ولدت غلاما خلال
أحد المواكب العامة (٥٣) ، وجاء في إحدى المواعظ أن البابوات كانوا
وما زالوا بلا استثناء واحد ، لوطين ومستحضرى أرواح ومسجرة ، وأن
الكثيرين منهم يستطيعون أن يبصقوا النار من أفواههم . . . كثيرا ما ظهر
الشيطان بصورته المرئية للبابوات . . . واشترك معهم في لعن صليب المسيح
وظئنه بالأقدام ، ثم الرقص رقصات عارية فوقه ، وهي التي سموها خدمة
مقدسة (٥٤) . وكانت جماهير العابدين ترتشف هذه المسكرات بشغف . قال
تيسيس بروتستنتي في ١٥٨٤ ، د لقد تعلم الأطفال في الشوارع أن يلعنوا
عدو المسيح الروماني وأتباعه الملاعين (٥٥) .

وكان اليسوعيون أهدافا محببة. فرموا في مئات الرسوم الهزلية، والنشرات، والكتب، والقصائد، باللواط، والزنى، والهيمية وفي أحد الكشيميات الخشبية الألمانية، وتاريخه ١٥٦٩ (ومازل محفوظا في مجموعة جوته بغايمار) صور البابا على شكل خنزيرة تله رهبانا يسوعيين في هيئة خنازير صغار. وفي ١٥٩٣ نشر اللاهوتي اللوثري بوليكارب الايزر تاريخا للرهبنة اليسوعية باللاتينية. وصف اليسوعيين بأنهم يقارفون أقيح الرذائل مطمئنين إلى رضى البابا وعقوه الكاملين^(٥٦). وأخبرت صحيفة جديدة صادقة، ١٦١٤، قراءها بأن الكردينال اليسوعي باللارمين أرتكب الفاحشة ٢٣٣٦ مرة مع ١٦٤٢ امرأة، ثم استطردت لتصف عذاب الكردينال على فراش موته، مع أنه لم يميت إلا بعد سبع سنوات^(٥٧).

وقد رد اليسوعيون أول الأمر في ضبط للأعصاب. ونضح كانيسيوس باستعمال لغة برئية من العنف، وكذلك فعل الراعى البروتستنتى يوهان ماتيسيوس، ولكن الجمهور كان يؤثر الطعن على الاعتدال. واتهم المجادلون البروتستنت المتطرفون خصومهم اليسوعيين بقبولهم عقيدة اليسوعي ماريانا التي تدافع عن قتل الطغاة من الحكام، ورد أحد اليسوعيين الألمان بأن هذه هى بالضبط العقيدة التي يجب تطبيقها على الأمراء الذين فرضوا البروتستنتية على رعياهم. ولكن يسوعيين آخرين أكدوا للحكام البروتستنت أنهم يعتبرون أمراء شرعيين، وأن شعرة واحدة من رءوسهم لن تمس. ونشر اليسوعي كوزادفيتز (١٥٩٤ - ٩٩) عشر كتيبات استعمل فيها أقيح ألفاظ الشتم، معتذرا بأنه إنما يحدو في ذلك ضد اللاهوتيين اللوثريين، وكان الجمهور يتهافت على شراء هذه الكتيبات بمجرد طبعها. وأعلن يسوعيو كولونيا أن المراهقة العتيدين الذين يبدون الانشقاق في كل مكان في الأقاليم الكاثوليكية،

د يجب أن يعاقبوا كما يعاقب اللصوص والقاتلة،

لا بل بأشد مما يعاقب به هؤلاء المجرمون ، فهؤلاء لا يؤذون سوى الجسد، أما أولئك فيزجون بالنفوس في الهلاك الأبدى.. ولو أن لوثر أعدم أو أحرق قبل أربعين عاما ، أو لو أن نفرا من الناس نخفف العالم من وجودهم ، لما فكبنا بمثل هذه الانشغاقات اللعينة ، ولا بمثل هذه الملل والنحل التي تسكدر صفاء العالم كله^(٥٩) .

وبمثل هذه الروح ناشد الكلفن داود بارينز، استاذ اللاهوت بهيد لبرج (١٦١٨) ، جميع الأمراء البروتستنت أن يشنوا حربا صليبية على البابوية ، وفي حملة كهذه يجب ألا يتخرجوا من أى ضرب من ضروب القسوة أو العقاب^(٦٠) . وبلغ هذا السيل الدافق من الكتيبات ذروته بطبع ١٨٠٠ نشرة في سنة واحدة (١٦١٨) ، وهي أول سنى الحرب .

فلما قوى بأس الكاثوليك واشتد غضبهم ، ألف عدد من الأمراء البروتستنت د اتحادا من الأقاليم الانجيلية ، (١٦٠٨) أو اتحادا بروتستنتيا ليتبادلوا الحماية . ووقف ناخب سكسونيا بمعزل عن الاتحاد ، ولكن هنرى الرابع ملك فرنسا بدأ على استعداد لمديد المعونة لأية مغامرة ضد الإمبراطور الهابسبورجى . وفي ١٦٠٩ ألف عدد من الحكام الكاثوليك يتزعمهم مكسميليان الأول دوف بافاريا ، اتحادا كاثوليكيا ، عرف بالحلف الكاثوليكى ، وما وافى أغسطس من عام ١٦١٠ حتى كانت كل دويلات الإمبراطورية تقريبا قد انضمت إليه ، ثم عرضت أسبانيا أن تقدم له المعونة الحربية . ووافق الاتحاد البروتستنتى (فبراير) على أن يساعد هنرى الرابع على الاستيلاء على دوقية بوليس - كليفز ، ولكن مصرع الملك الفرنسى (١٤ ماير) حرم البروتستنت من أقوى حليف لهم . وسرى الخوف فى ألمانيا البروتستنتية ، ولكن الحلف لم يكن على استعداد العمل . وفى يناير ١٦١٥ أنذر موريس حاكم هيس - كاسل الاتحاد البروتستنتى بأن د الحلف الكاثوليكى ، الذى يحميه البابا ، وهلك

أسبانيا ، وبلاط بروكسل ، والامبراطور . . . أرسل في طلب السلاح
والذخيرة . . . رغبة . . . في استئصال شأفة - المذهب الانجيلي^(٦١) ، . . . وزاد
انطين بلة أن كاسبارسكيو بيوس حذر الكاثوليك واللوثرين من أن الكلفنيين
يعتزمون تدمير الديانة والسلام العام والاطاحة بالامبراطورية الرومانية
المقدسة بأسرها ، ومحو مبدأ أوجزبرج والمذهب الكاثوليكي من الامبراطورية^(٦٢)
معواه بسواء ، وربما كان هذا محاولة لاشاعة مزيد من الفرقة بين الشيوخ
البروتستانتية . وأضعف النزاعات الاقليمية بين النمسا وبافاريا العصابة الكاثوليكية
في ١٦١٦ . . . وراود الناس من جديد حلم السلام ا

ولكن في براغ ناشد الكونت هنريك فون ثورن زعماء البروتستانت منع
الكاثوليك المتحمس الارشيدوق فرديناند من اعتلاء عرش بوهيميا . وكان
الامبراطور ماتياس قد عين خمسة نواب ليتولوا حكم البلاد في أثناء غيابه .
واستبد هؤلاء الحكام بالبروتستانت في النزاع حول بناء كنيسة في كلوسترا
جراب ، وأرسلوا المعترضين إلى السجن وفي ٢٣ مايو ١٦١٨ قاد ثورن حشدا
بروتستانتيا غاضبا إلى قلعة أوسكين ، وصعدوا إلى الحجرات التي كان يجلس
بها أثنان من هؤلاء الحكام ، وألقوا بهما من النافذة مع سكير تير كان يتحمس
لهم ، وسقط ثلاثتهم نحو خمسين قدما ، ولكنهم وقعوا على كومة من الآبار ،
فقتلوا أكثر مما أودوا . فكان هذا الالقاء من النافذة ، تحديا مثيرا للامبراطور
والارشيدوق والعصابة المقدسة . وطرده ثورن رئيس الاساقفة والجزويت ،
وشكل حكومة هديرين ثورية . وربما شق عليه أن يدرك أنه بذلك أطلق
كلاب الحرب من عقابها أو أنه أشعل نارها .

٦ - حرب الثلاثين سنة

١ - طور بوهيميا : ١٦١٨ - ١٦٢٣ :

أرسل الامبراطور ماتياس إلى حكومة المديرين ساقفة الذكر عرضا

بإصدار عفو عام ، والدخول في مفارقتها ، ولكن هذا العرض رفض (٦٣) .
وأقصد الإرشيدوق فرديناند ، متجاهلا الإمبراطور ، جيشين لغزو بوهيميا .
وجرض فرديريك الخامس ناخب البالاتينات شارل عمانويل دوق سافوي
المعادي لآل هابسبرج ، على إرسال قوة لتجدة بوهيميا ، بقيادة القائد القدير
بيتر ارنتس فون هانسفيلد وأستولى ما نسفيلد على بلسن ، معقل السكالوليك
في بوهيميا ، وتقهقرت جيوش فرديناند . واقترح كريستان دون برنزويك
مستشار فرديريك على المديرين أنهم إنما يقوون دفاعهم ويستبعدون فرديناند
عن العرش ، إذا عرضوا العرش على فرديريك . وفي ٢٠ مارس ١٥١٩ مات
ماتياس ، تاركما فرديريك المملك الشرعى على بوهيميا ، وورثا افتراضيا للتاج
الإمبراطورى . وفي ١٩ أغسطس أعلن مجلس الديت في بوهيميا خلع فرديناند
عن عرش بوهيميا ، وفي السابع والعشرين نادى بفرديريك أمير البالاتينات
ملكاً على بوهيميا . وفي الثامن والعشرين أعلن ناخبو الإمبراطور أرشيدوق
استيريا إمبراطورا تحت اسم فرديناند الثانى .

تردد فرديريك في قبول هذا المنصب الجديد ، ذلك أنه أدرك أنه بوصفه
من زعماء الكلفنية لا يمكنه أن يعتمد على تأييد اللوثرين ، على حين أنه قد
يواجه معارضة الإمبراطورية والبابوية وأسبانيا . وأهاب بوالده زوجته
جيمس الأول ملك إنجلترا أن يمدده بمجيش ، ولكن بدلا من ذلك ، زوده
الملك الحذر البعيد النظر بالنصيحة - أن يرفض عرش بوهيميا . ولم تغره
أو تحته زوجته المرحمة المجرية على قبول العرش ، بل وعدته أن تقاسمه عنده
طيب خاطر كل ما قدر له أن يلقى ، نتيجة لما يقع عليه اختياره ، وكانت عند
وعدها . ونصح كريستيان أمير برنزويك بقبول العرش . وفي ٣١ أكتوبر
١٦١١ ، دخل الملك الجديد والملسكة براغ ، ورحب بهما الديت والاهالى
ترحيبا حارا .

وكان فرديريك بعد شابا في العشرين من العمر ، يتحلى بحسن الخلق والشهامة

والكياسة ، ولكنه لم يكتمل نضجه إلى درجة يتولى معها شؤون السياسة والحكم . وكان أول عمل له بعد تولية منصبه في براغ ، أنه أمر بإزالة المذابح والصور من كنيسة سانت فيتوس ، وهي الحرم الوطنى المقدس ، وصرعان ماعد أتباعه بالمثل إلى تجريد سائر المزارات المقدسة في بوهيميا . واستنكرت الاقلية الكاثوليكية هذا التصرف ، واستاء منه اللوثون البوهيميون ونظرت ألمانيا اللوثرية بفتور إلى هذا الكلفنى المتحمس وفى ٣٠ أبريل ١٦٢٠ أعلن فرد ينا أن فردريك مغتصب للعرش ، وأصدر إليه الأمر بمغادره الامبراطورية فى أول يونية ، وإلا اعتبر خارجا على القانون وصودرت أملاكه . وعرض الامبراطور أن يضمن عدم تعرض الوبات البروتستانتية الألمانية للهجوم ، إذا هى قطعت مثل هذا العهد للولايات الكاثوليكية . وفى معاهدة أولم (٣ يونية ١٦٢٠) قبل هذا العرض واحتج الأمراء البروتستانت بان فردريك عرض حريتهم الاخطار بتجديده فرد ينا . وانجاز الناخب جون جورج أمير سكسونيا بولايتة اللوثرية إلى الامبراطور الكاثوليكي .

وفى أغسطس عبر جيش امبراطورى قوامه ٢٥ ألف رجل ، النمسا إلى بوهيميا بقيادة قائد مكسيمليان البافارى وهو جوهان تسركليس ، كونت تلى الذى تعلم التقوى على يد الجزويت ، وتلقى فن الحرب من دوق بارهاو بالقرب من الجبل الأبيض ، إلى الغرب من براغ ، التقى هذا الجيش بالبوهيمين وهزمهم هزيمة منكرة (٨ نوفمبر) . وفر فردريك واليزابث وحاشيتهما إلى سيليزيا . وعجز الملك والملسكة عن جمع جيش هناك ، فالتسا ماوى فى براند بيرج الكلفنية . وفى اليوم التالى للمعركة أحتل مكسيمليان أمير بافاريا براج . وصرعان ما أعبدت الكاثوليكية ، وأعيد وضع الصور فى الكنائس ، وأستدعى الجزويت ، ووضع التعليم تحت إشراف الكاثوليك ولم يبح إلا الديانة الكاثوليكية والديانة اليهودية ، وألغى العشاء الربانى بالخبز وبالتبند على حدسواء ، وكان يرم القديس جون هس من قبل عيداً وطنياً فجعل يوم حداد تغلق فيه كل الكنائس ، وقبض على ثلاثين من زعماء العصاة وأعدم

منهم سبعة وعشرون . ولمدة عشر سنين ظلت اثنتى عشرة جمجمة تطل متجمدة غاصبة من برج جسر شارل على نهر ملدو (٦٤) وحرمت الهجرة على كل العصاه والتمردين ، وصودرت أملاكهم - لجانب الملك فرديناد الذى باعها بيع السلعة للكاثوليك ، وقامت طبقة نبلاء كاثوليك جديدة على اكتاف رقيق الأرض . وكادت الطبقات الوسطى والتجارية أن تختفى .

وعلى حين كان مكسيميليان أمير بافاريا يقهر الكلفنية فى بوهميا على هذا النحو ، فان سبينولا أثناء الهدنة فى الأرض الوطيفة ، قد قوة كبيرة من الفلاندرز للاسيلاء على البلاتينات ، وأعد بعض صغار الأمراء البروتستانت قوة لمقاومة وأنضم فرديريك إليهم ، تاركاً زوجته فى لاهاى . فلما أستدعى سبينولا إلى الأرض الوطيفة عند تجدد الحرب بين هولنده وأسبانيا ، حل محله تلى ، وهزم البروتستانت (١٦٢٢) وأستولى على هيدلبرج ، وأعمل فيها السلب والنهب وشحنت مكتبة الجامعة العظيمة فى خمسين عربة ونقلت إلى رومة هدية من مكسيميليان الباقارى إلى البابا جريجورى الخامس عشر . ولما عاد مكسيميليان منتصراً منح البلاتينات ميزتها الانتخابية ، لقاء ما أدى للامبراطور من خدمات . وأصبح للولايات الكاثوليسكية الآن الأغلبية فى مجلس الديت الناخب .

أن مدى النصر الكاثوليكى وكاله وشموله أفلق بال الملوك الكاثوليك والبروتستانت على حد سواء . فان تزايد هيبة فرديناد الثانى وسلطانه كان يهدد حريات ، الأمراء الالمان ، كما أن مكسيميليان قلق حين وجد أنه قد سمح له بالاستيلاء على البلاتينات وبافار مع بقاء تبعيتهما للامبراطور . وتعاطف البابا أريان الثامن مع وجهة النظر الفرنسية القائلة بأن آل هابسبرج أصبخوا من القوة بحيث باتوا خطراً على حرية البابوية وأغضى عما عمد إليه ريشليو من فرض ضرائب على الكاثوليك فى فرنسا لمساعدة الألمان البروتستانت وعن مساعدته بعد ذلك الملك سويدي ضد امبراطور كاثوليكلى . وفى ١٦٢٤ حول الكاردينال المدهش المنظر السياسى فجأة ،

بمسلسلة متعاقبة من الضربات الدبلوماسية . ففي ١٠ يونيو وقع تحالف مع هولندا البروتستانتية ضد الفلاندرز وأسبانيا الكاثوليكييتين . وفي ١٥ يونيو ضم إنجلترا البروتستانتية إلى الحلف ، وفي ٩ يوليو ضم إليه السويد والدمرك ، وفي ١١ يوليو أفتتح سافوى والبندقية بالانضمام اليه في محاولة لقطع خط الامدادات والقوات الأسبانية النمسية عبر مرات الفاتلدين في جبال الألب الايطالية السويسرية . وفي ١٦٢٥ جاء كريستان الرابع ملك الدنمرك بعشرين ألف رجل للانضمام إلى قوة مانسفيااد المكونه من أربعة آلاف رجل في مسكسونيا السفلى . وتولى الجزع مسكسيمليان ، فحث الامبراطور على إرسال نجدة إلى تلى الذى تناقص عدد جيشه من ١٨ ألفا إلى ١٠ آلاف بسبب الجوع والمرض واستجاب فرديناند باستدعاء فالنشتين من بوهيميا .

٢ - فالنشتين : ١٦٢٣ - ١٦٣٠ :

كان اسمه الحقيقي ألبرخت فون فالنشتين ، وهكذا كان يوقع اسمه دائما (٦٥) . وكانت أسرته من أعرق الاسرات النبيلة في بوهيميا . وله في ١٥٨٣ ، وتلقى تعليمه أولا على يد الأخوة البوهيمين ، ثم على يد الجزويت ، وتزوج من أرملة غنية طواها الردى سريعا ، تاركة له ثروتها . وضاعف منها بشراء ثمان وستين ضيعة بثمن بخس ، بفضل خفض قيمة العملة البوهيمية ، من الاملاك التى صادرها فرديناند . وكان مالكا ذكيا تقديما ، فحسن طرق الزراعة والإنتاج ومول الصناعة ونظم المدارس والخدمات الطبية وأعانات الفقراء ، وأدخر بعض الفائض ليقدم الغذاء لشعبه زمن القحط . ولم يؤثر في معاصرة بعبقرية العسكرية فحسب ، بل بحسبه الفارع النحيل ، ووجهه الشاحب الصارم ، وقلقه العصبى ، وزهوه وغطرسته وطبعه الحاد المسيطر . وجعلته دعفته التى لم يتحول عنها (٦٦) ، يبدو وكأنه فوق مستوى البشر . وكانت ثقته بالتنجيم أقوى من إيمانه بالمسيح .

وملك قلب فرديناند وظفر بحبه ، بالوقوف إلى جانبه ومساندته في كل

للمراحل التي رقى فيها الأرشيدوق إلى صولجان السلطان . ومن ١٦١٩ وما بعدها أقرض الامبراطور مبالغ ضخمة تكاد تسد نفقات العرش - على سبيل المثال مائتي ألف جلدن في ١٦٢١ ، وخمسمائة ألف في ١٦٢٣ . ولم يحصل على أية ضمانات لهذه القروض ، ويكفيه أنه كان يملك ربع بوهيميا ، ويستطيع أن يحشد جيشا بمتى شاه ، ويتولى قيادته بمهارة فائقة . وفي ١٦٢٤ عندما تحكم الفرنسيون والبنادقة في ممرات فالنتلين ، ولم يعد في مقدور الجنود والمؤمن الأسبانية الوصول من إيطاليا إلى النمسا ، عرض فالنشتين تجنيد خمسين ألف رجل ووضعهم في خدمة الإمبراطور . فتردد فرديناند لما يعلم من غرام فالنشتين بالقوة والسلطة ولكن تلى في ١٦٢٥ . تعالت صيحاته يطلب المدد فكلف فرديناند فالنشتين بتجنيد عشرين ألف رجل . وفي سرعة مذهلة سار هذا الجيش إلى سكسونيا السفلى ، كامل العتاد ، حسن النظام والانضباط ، يحب قائده إلى حد العبادة ، ويعيش على ما يسلبه من الريف .

وصد فالنشتين مانسفيلد في دسو ، وهزم تلى كريستيان الرابع في لتر (١٦٢٦) وقضى مانسفيلد نخبه ، ووجد كريستيان جيشه الذي يتناقص عدده عاجزا متمردا . وأتقصمت عرى التحالف الكبير الذي كان ريشليو قد شكله نتيجة لحقد جوستاف أدولف على كريستيان الرابع ، وأعلان انحلترا الحرب على فرنسا ، وحملة بكسنجهايم لمساعدة الهيجونوت في لاروشيل . فكان على ريشليو أن يسحب قواته من ممرات فالنتلين ، التي عادت الآن مفتوحة أمام النمسا وأسبانيا . وتقدم فالنشتين الذي يزداد جيشه عددا يوما بعد يوم ، إلى براندنبرج وأرغم ناخبها جورج وليم على إعلان الولاء للإمبراطور ، واندفع نحو دوقية كريستان نفسه . وهي هولستين ، وتيسر له القضاء على كل مقاومة في غير عناء . وفي نهاية ١٦٢٧ كسنت الأجزاء الداخلية من الدنمرك في قبضته .

ووسع هواء البلاطيق الملح من خطط فالنشتين ، فالآن وقد دان كل الساحل الشمالي الألماني تقريبا ، ومعظم أرض الدنمرك ، للإمبراطور ، فلم لا يبني بحرية

إمبراطورية ، وبيجي «الهانسا» ، وبالتجانف مع بولنדה الكاثوليكية يمد سلطان الإمبراطور على بحر البلطيق وبحر الشمال ، ومن ثم لا يعود الهولنديون والانجليز قادرين على الاتيان بالخشب من ثغور البلطيق عبر مياه السوند ليشدوا أساطيلهم ؛ ويتحكموا في بحر الشمال وتجارته ويسدوا القنال في وجه الأسيان أن امتلاك الإمبراطور للبلاتينات يمكنه من السيطرة على نهر الراين ، ومن ثم يكون الطريق مسدودا أمام الهولنديين في النهر والبحر . فتتوارق قوتهم وثرورتهم العتيدة . وسوف يصبح جوستاف أدولف محصورا في شبه جزيرة اسكسديناوه وفي ١٦٢٧ كان فالنشتين بالفعل يعد نفسه ليكون أمير البحر في المحيط وفي البلطيق .

ولم ينظر الأمراء الألمان بعين الرضا إلى انتصارات فالنشتين . ذلك أنهم رأوا أنه بينما تقص جيش العصبة الكاثوليكية بقيادة مكسيميليان البافاري . وكونت تللي إلى نحو ٢٠ ألف رجل ، فإن فالنشتين تولى أمره قوات بلغ عددها ١٤٠ ألفا . كما أنه لا يعترف بأية مسئولية إلا أمام الإمبراطور وحده ومادام الإمبراطور مطمئنا إلى وجود جيشه من خلفه ، ففي مقدوره أن يجد من «حريات» الأمراء . والحق أن فالنشتين ربما كانت تراوده فكرة القضاء على الملكيات الاقطاعية وتوحيد ألمانيا بأسرها في دولة قوية واحدة . كما كان يفعل ريشليو في فرنسا ، وكما كان على بسارك أن يفعل بعد ذلك بمائتين وأربعين عاما .

ولدى اجتماع الناخبين الإمبراطوريين في مولها وزن . في شتاء ١٦٢٧ - ١٦٢٨ ، تبادلوا الرأي فيما يراودهم من آمال ومايساورهم من مخاوف . ومال الناخبون الكاثوليك إلى تأييد فالنشتين ، ثقة منهم بأنه سوف يقتلع البروتستانتية من جذورها ويقضى عليها في مهدها الأول . ولكن عندما أطاح فرديناند بدوق مكلنبزج البروتستانتى ، ونقل الدوقية إلى فالنشتين (١١ مارس ١٦٢٨) فإن الأمراء الكاثوليك أنفسهم تولاهم الجزع من استئثار الإمبراطور بسلطة

خلع الأدواق وتعيينهم وفق مشيئته هو وحده . وما كان أمام الأمراء الاورقة واحدة يلعبون بها أمام فرديناند ، فإنه كان على وشك أن يطلب لإيهم ضمان اعتلاء ابنه العرش الامبراطورى . وفي ٢٨ مارس أبلغوه أنه مادامت جيوشه تحت امره فالنشتين . فإيهم لن يقدموا ضمانا مثل هذا . كما حذرهم مكسيميليان البافارى ، من أنه إذا لم ينتقص من جيش فالنشتين ومن سلطاته وقوته ، فلا بد يوما من أن يملى هذا القائد سياسة الامبراطورية .

وكأما لحظ فالنشتين هذا التحذير ، فإنه شرع ، وواضح أنه على مشيئته الخاصة ، فى إجراء مفاوضات سرية مع كريستيان الرابع ، انتهت لصالح لوبك (٢٢ مايو ١٦٢٩) . ولدهشة أوربا كلها ، أعاد إلى ملك الدنمرك جتلمند وشلزويج والقطاع الملكى من هولشتين . ولم يفرض تعويضا ، بل أنه طلب فقط تخلى كريستيان عن أسقياته الألمانية وسلطته العسكرية ، ولكن ما الذى دفعه إلى هذا الكرم ، إنه من ناحية ، الخوف من ائتلاف الغرب ضد السيطرة الإمبراطورية على البلطيق والمضايق ، ومن ناحية أخرى الاعتقاد بأن جوستاف أدولف كان يخطط لغزو ألمانيا ، وأخيرا ، تنبأ فالنشتين بأن القضية ستكون بينه وبين جوستاف لا كريستيان .

وربما أقلق استحواذ فالنشتين على السلطة الدبلوماسية بال الإمبراطور ، ولكن كان لزاما عليه أن يفتنى شكوكه وحقده المتزايدين ، لأنه كان الآن يخطط أجراً حركة فى تاريخه ، وقد يكون فى حاجة ماسة إلى مساندة قوات فالنشتين فى كل مرحلة من مراحل هذه اللعبة الخطرة . أن مستشاريه الجزويت طالما ناشدوه الاستعانة بقوته الجديدة وبقرار إمبراطورى ، لتسترد الكنيسة الكاثوليكية ، بقدر الإمكان ، أملاكها ومواردها التى اقتطعت منها منذ بداية الإصلاح الدينى ، أو على الأقل منذ ١٥٥٢ . ورأى فرديناند الكاثوليكي الشديد التمسك بعقيدته فى هذا المطلب شيئا من العدالة ، ولكنه لم يقدر كل التقدير صعوباته العملية ، فقد بيعت منذ ١٥٥٢ ممتلكات كثيرة من تلك التى كانت ملكا للكنيسة ، ودفع ملاكها الحاليون ثمنها . ولتنفيذ هذا ، أى استرداد

الكنيسة لأملها ، لابد من تجريد آلاف من الملاك من ممتلكاتهم ، والمفروض أن يتم هذا عنوة ، وقد تودى الفوضى الناتجة عن هذا بالمانيا إلى ثورة . وكان مكسيميليان أمير بافاريا يوما يجهد هذه الفكرة ، ولكنه الآن فزع لمداها ومضاعفاتها ، وحث الإمبراطور على إرجائها حتى يدرسها مجلس الديت دراسة مستفيضة . وخشى فرديناند أن يرفضها الديت . وفي ٦ مارس ١٦٢٩ نشر « قرار إعادة أملاك الكنيسة » ، وجاء فيه « لم يبق أمامنا إلا أن تأخذ بيد المحاجة المظلومة ، ونبحث بموظفينا ليطلبوا إلى الملاك الحاليين غير المفوضين قانونا أن يعيدوا كل الأبرشيات والأسقفيات والأديار ، وسائر الممتلكات الكنيسية التي صودرت منذ معاهدة باسو ١٥٥٢ . وكان هذا والإصلاح المضاد ، انقترن بالإنقام وكان كذلك توكيدا للسلطة الإمبراطورية المطلقة . وهي سلطة مطلقة ربما تردد حتى شارل الخامس نفسه في انتحالها لشخصه .

وقوبل القرار باحتجاجات صارخة على نطاق واسع ، ولكنه نفذ . وحيثما وجدت أية محاولة لمقاومته استدعى جنود فالنشتين وأحدوها في كل مكان باستثناء مجد برج التي نجحت في مقاومة حصار فالنشتين لها . وعادت مدن بأكملها أوجزبرج ، روتنبرج ، دورتمند ، وثلاثون بلدة صغيرة إلى أيدي الكاثوليك ، وكذلك عاد إليهم خمس أسقفيات ومائة دير ، ونظمت من جديد مئات الأبرشيات الكاثوليكية ، ولما طبق المالكون قاعدة « الناس على دين ملوكهم » ، متطلبين من الرعايا أن يتقبلوا مذهب الحاكم ، اضطرت آلاف البروتستانت أن يرتدوا أو يهاجروا . ومن أوجزبرج وحدها نفي ثمانية آلاف ، بما فيهم الياس هل الذي كان قد فرغ لتوه من بناء دار البلدية النخمة وهام القساوسة البروتستانت المنفيون على وجوههم في طول البلاد وعرضها يسألون الناس الخبز ، حتى أن القساوسة الكاثوليك الذين حلوا محلهم استصرخوا الحكومة أن تفيثهم (٦٧) . وما حال دون النجاح النهائي للقرار وللإصلاح المضاد في ألمانيا ، إلا قدوم جوستاف أدولف .

وإذ استنفذ فرديناند غرضه في استخدام فالنشتين في تنفيذ القرار . ولم يجد أية قوات بروتستانتية في الميدان ، فإنه لم يعد حريصا على الاحتفاظ بقائده . فطلب إليه في مايو ١٦٣٠ أن يتخلى عن ٣٠ ألفا من جنوده للخدمة في إيطاليا ، فاعترض فالنشتين محتجا بأن ملك السويد يخطط لغزو ألمانيا ، فغلب أمره ، وأرسل الملاثون ألف جندي إلى إيطاليا . وعاد الناخبون في يوليه واقتروا عزل فالنشتين . ووافق الإمبراطور ، وفي ١٣ سبتمبر أبلغ ضباط الجيش بأن مكسيميليان أمير بافاريا قد حل في منصب القيادة العليا محل قائدهم وعاد فالنشتين في سلام إلى ضياعه في بوهيميا ، وهو يعلم أن جوستاف قد دخل الأراضي الألمانية ، وأن الإمبراطورية لا بد أن يكون وشيكما في حاجة إلى قائد .

٣ — قصة جوستاف البطولية : ١٦٣٠ — ١٦٣٢ :

ينبغي ألا تصور العاهل العظيم في صورة دجالاهاد ، أى في صورة رجل نبيل طاهر ، تقدم لإنقاذ الدنياة الحقة من الوثنيين . . كانت مهمته أن يدعم ويحافظ على استقلال السويد السياسي ونموها الاقتصادي ومن أجل هذين الهدفين قاتل بولندا الكاثوليكية وروسيا الأرثوذكسية والدمرك البروتستانتية فإذا تجاسر الآن ، بموارده المتواضعة على الدخول في مباراة ضد الإمبراطورية والبابوية وأسبانيا ، مجتمعة ، فما ذلك بسبب الكشككة ، بل لأنهم هددوا بتحويل بلاده إلى تابع ذليل لملوك غرباء معادين . وأحس بأن خير دفاع ضد مثل هذا الخطر المحدق ، هو إقامة معاقل محصنة سويدية في الداخل . وترددت سكونيا البروتستانتية ، وانسأقت فرنسا الكاثوليكية إلى التحالف مع جوستاف ، لأنها أدركت أن القضية لم تعد نظرية في اللاهوت بل كفاحا من أجل الأمن عن طريق القوة . ومهما يكن من أمر ، فإن العقيدة ، على الرغم من أنها دافع ضئيل لدى القادة والزعماء ، حافز مثير قوى لدى الشعب ، ويجب أن تضاف طاقتها إلى الروح الوطنية ، لتدفع بالناس إلى ميدان القتال .

وهكذا نزل جوستاف بقواته البالغ عددها ١١ ألفا في بواميرانيا، وتقدم إلى الولايات الألمانية الشمالية بوصفها منقذة البروتستانتية ومخلصتها، وإلى فرنسا بوصفها سيفًا مصلتا ضد أسرة هابسبرج المنتفخة. وانتظر المدد من السويد والدمرك وبراندنبرج وبولندا حتى تجتمع لديه نحو ٤٠ ألف جندي في أحسن نظام، مسلحين ببنادق حديثة الطراز، مدربين على سرعة الحركة بمدفعيتهم الخفيفة. ولم يزل القائد بعد شابا في السادسة والثلاثين، ولكن على الرغم من حملاته فقد اشتمد عوده وقوى جسمه، ودوخ جياده كما دوخ أعداءه، وعلى الرغم من ذلك، كان غالبا ما يتقدم الصفوف، سائرا بلحيته الذهبية نحو النصر. وأحبه جنوده لأنه منصف. وعلى حين تبع الجيوش الألمانية أفواج من البغايا بلغ من كثرتهم تخصيص بعض الضباط لحفظ النظام بينهن، فإن جوستاف لم يسمح بمحظيات أو موسسات في معسكره، ولو أن الزوجات سمح لهن بالقيام بخدمة أزواجهن من الجنود^(٦٨). وكانت كل كتيبة تؤدي الصلوات في الصباح وفي المساء، وتستمع إلى عظة كل يوم أحد. وهنا كان نظام رجال كرومول الحديديين قبل وقوع حروب كرومول بعشر سنين وحرم جوستاف، كما حرم كرومول، الارتداد عن الدين قسرا، وحيثما دخل فاتحا ترك الديانة حرة.

وقضى جوستاف بقية عام ١٦٣٠ في بسط سلطانه على بواميرانيا، وفي البحث عن حفاء. فاذا تبسّر له أن يجمع كل أعداء آل هابسبرج في حرب صليبية واحدة، لاجتمع له مائة ألف جندي صالحين لملاقاة جيش فنلشتين. وفي ١٣ ديسمبر ١٦٣١ وقعت فرنسا والسويد ميثاقا يحصل الملك بمنقتضاه على الرجال، ويدفع الكاردينال (ريشيليو) ٤٠٠ ألف تالر (٤ ملايين دولار؟) سنويا لحملة مدتها خمس سنوات، ولا تعقد أى من الدولتين صلحادون موافقة الأخرى. والنزم جوستاف بالألا يتدخل في أمر ممارسة العقيدة الكاثوليكية ودعا ريشيليو مكسيمليان للانضمام إلى هذا التحالف، ولكن الدوق الناخب، بدلا من ذلك أرسل القائد تلى ايعوق تقدم الجيش السويدي، واستولى تلى

على نيوبراند نبرج (١٩ مارس ١٦٣١) وذبح حاميتها المسكونة من ٣٠٠٠ رجل . وفي ١٣ أبريل أخذ جوستاف فرانكفورت وذبح حاميتها المسكونة من ألفى رجل ، وبينما قضى الملك وقته في بذل الجهد انضم جون جورج ناخب سكسونيا إلى الحلف ، حاصر تल्ली وكونت باينهايم مجدبرج التي كانت لا تزال تقاوم د قرار إعادة أملاك الكنيسة ، . وفي ٢٠ مايو وبعد صمود لمدة ستة أشهر ، سقطت المدينة ، وأعمل الجنود المنتصرون فيها السلب والنهب لمدة أربعة أيام . وقتل في هذه الحرب عشرون ألف رجل ، لالحامية المسكونة من ثلاثة آلاف فقط ، ولكن قتل كذلك ١٧ ألفا من سكان المدينة البالغ عددهم ٣٦ ألفا ، وأحرقت المدينة عن آخرها فيما عدا الكاتدرائية .
ووصف هذا المنظر فقال : -

لم يعد هناك شيء الا الضرب والحرق والسلب والنهب
والتعذيب واقتل وحرص كل فرد من الأعداء، بصفة خاصة،
على الحصول على أكبر قدر من الغنائم . وتحت التهديد
بالضرب أو الرمي بالرصاص أو الذبح أو الشنق ، أرهب
الاهالى المساكين وفزعوا ، فلو تبقى لديهم شيء لاحوجوه
لو كان مخبأ في ألف حرز مكين . وفي حمة الغضب المسعور ،
اجتاح أسنة النيران المدينة العنابية الفخمة التي قامت وسط
الأرض كمروس جميلة وعذب وأعدم آلاف الأبرياء من
الرجال والنساء والأطفال ، وسط صنجة رهيبة من صيحات
وصرخات تمزق الفؤاد ، بطريقة وحشية مخزية ، تقصر أية
كلمات عن وصفها . وأية دموع عن نديها والتوجع لها (٦٩) .

وبذل تल्ली ، وهو الآن شيخ هرم في الواحدة والسبعين ، كل ما في وسعه
لوقف المذبحة . وتنبأ بحق بأن الولات البروتستانتية دون ريب سوف تشتد
كرهيتها بسبب تخريب واحدة من أجمل مدنهم .

وفي ٢٢ يوليه ١٦٣١ وضع ناخب براند نبرج كل موارده تحت تصرف جوستاف وفي ٣٠ أبريل ألف جون جورج بين سكسونيا والسويد . وفي ١٧ سبتمبر سحقت الجيوش السويدية والسكسونية المجتمعة قوات تلى عند برينفليد بالقرب من ليزج وكان هذا أول نصر برتستانتى هام في الحرب ، وقد أحياء روح السكان البروتستانت . وأصبح شخص ملك السويد الذى كان يقا تل دون درع في قلب المعركة يعلوه الغبار ، ويتصبب منه العرق ، بوجهه ويقود رجاله غير هيا ب ولا وجل ، نقول أصبح رمزا يشد من عزم شعب كان منذ عهد قريب بزة عاجز يره ب جيش فالنشستين . واستردت مكلمبرج ، وأعيد الهوق المخلوع إلى عرشه ، ودخلت الولات ، الواحدة تلو الأخرى ، الحلف السويدى وسرعان ما سيطر جوستاف على خط يمتد عبر ألمانيا من الأورو إلى الراين وأنخذ مقر قيادته في ماينز في قلب لإليم كاثوليكى عادة . وفي نوفمبر سار جون جورج بجيشه السكسونى إلى براج دون أن يلقي أية مة ومة ، وكان حريصا على عدم مهاجمة صياع فالنشستين في طريقة .

والان وقد بقى فرد يناند بلا حليف اللهم الا أسبانيا الفقيرة المدمة ، وبلا قائد سوى تلى العوز ، فانه في تواضع ذليل ولى وجهه شطر فالنشستين (ديسمبر ١٦٣١) وطلب ليه أن يجهز جيشا لا تقا ذ بوهيميا وحماية النمسا . ووافق القائد المزهو المغرور ، ولكن بشروط غريبة شاذة أن تكون له القيادة العليا على كل القوات الامبراطورية ، وتكون له سلطة التفاوض وتوقيع المعاهدات إلا مع جوستاف ، ويكون له في البلاد التى يفتحها حق مصادرة الأملاك واصدار العفو وفي أبريل ١٦٣٢ قبلت هذه الشروط جميعها . وجمع فالنشستين جيشا ، كما جمع الأهرال اللازمة له ، وعرض على جون جورج صلحا منفردا واستعاد براج دون طلقة واحدة . وانسحب الجيش السكسونى إلى سكسونيا .

وفي الوقت نفسه أستأنف جوستاف القتال ، وهزم تلى عند درين ، (١٥ أبريل) . ومات تلى بعد ذلك بأسبوعين متأثرا بجراحه . واحتل

جوستاف ميونيخ ، ومغار فالنشتيين بجيشه من بوهيميا وأنضم إلى جيش
هكسيميان (وهنا تفرقت هذه القوات على جيش جوستاف عددا ، إلى حد
بعيد ، وأرتاب حلفاؤه في أن له أطماعا أمبراطورية ، فانتابهم القلق وأصبحوا
لا يعتمد عليهم ، كما أن قواته كانت على شفا الموت جوعا ، فأعملت السلب
والنهب في البروتستانت والكاثوليك ونفرتهم منه ، على حد سواء . وأعرب
جون جورج ، وقد لعبت الخمر برأسه يوما عن تلفه على التخلص من ملك
السويد وكان جوستاف يأمل في الاستيلاء على فيينا ، ولكنه كان يخشى
إنحياز جون جورج إلى فالنشتيين ، فتحول إلى السخا . وفي نورمبرج ،
وهو يدرك تمام الإدراك أن الرياح غير هوائية ، أرسل تعليماته الأخيرة
إلى أوكسنميتيرنا ليتولى شؤون الحكومة السويدية والحرب . وفي أرفورت
ودع زوجته ، وفي ١٦ نوفمبر ١٦٣٢ ، في لوتزن بالقرب من ليزج ، التقى
القائدان العملاقان في ذلك العصر ، وجها لوجه ، وجيش جوستاف ٢٥ ألفا ،
وجيش فالنشتيين ٤٠ ألفا . واقتتل الجيشان طول اليوم ونزفا ، واضطربا
ثم التأمنا ، واضطر فالنشتيين إلى التراجع ، ولكن باهينهم قلب الهزيمة رأسا على
عقب ، إلى أن أصابته طلقة ورثته فاختنق بالدم وقضى نحبة . أما جوستاف فإنه
رأى قلب جيشه يتقهقر ، فقام بنفسه ، على رأس كتيبة من الفرسان ، وقاد
هزيمة ضاربة ، ولكن رصاصة أصابت يده اليسرى ، وأخرى أصابت جوداه
فندق عنه ثم نفذت رصاصة إلى ظهره . فتجمع الفرسان الدارعون
الامبراطوريون حول وسألوه من يكون ، فأجابهم : أنا ملك السويد الذي
قد ضمن عقيدة الأمة الألمانية وحررتها بدمه (٧٠) فأنهالوا عليه بسيفهم مرة
ومرة ، ثم أعلنوا بأعلى أصواتهم نبأ موته ، وتولى القيادة بعده برنهارد دوق
سكس ويمار . وأحرز السويديون الذين جن جنونهم بفقد مليكهم ، أنصارا
بأهرا واستخلصوا جثمان جوستاف الذي شوهته الطلقات والطحثات . وفي
تلك الليلة ابتهج المنهزون فرحا ، واغتم المتصرون حزنا ، لأن أسد الشمال
قضى نحبة .

٤ - انحلال (١٦٣٣-١٩٤٨)

ومن ذلك الحين اختفت عظمة الحرب، وتولى ريشليوز عامة البروتستانتية
الامان ونفذ أو كسنستيرنا وصيه سيده المتوفى في دبلوماسية حكيمة . وقاد
برنارد دوق ساكس وعمار الفرنسيين ، وبانير وتورستون السويديين إلى
إنتصارات جديدة . ولكن الأجداد ولم يبق إلا الذعر والفرع . وتنفس
الأمراء البروتستانت الصعداء إلى حذما ، بموت جوستاف ، وتدمروا من الثمن
الباهظ الذي أجبروا على تقاضيه لقاء تخليصهم من فرديناند ، وفي هذه العملية
اتلفت الأطراف المتنازعة مزارعهم ودمرت مدنهم ، وقاد ملك أجنبي الامان
ضد الامان ، وبلغ عدد الضحايا مائة ألف .

ويبدو أن فالنشتين فقد أعصابه منذ ذاق طعم الهزيمة لأول مرة . وبعد
لوتزن عاد إلى بوهيميا وجهد في أناة وروية جيشا آخر ، ولكنه أيضا ، وقد
بلغ الآن الخمسين ، سئم الحرب وتمى بعض الفراغ ليعالج داء النقرس .
فتفاوض ، مستقلا ، مع زعماء البروتستانت ، حتى مع ريشليو^(٧١) ولا بد أن
فرديناند يكون قد علم أن المنفيين البوهيميين ، بموافقة أكسنستيرنا ، كانوا
يتآمرون لأجل اس فالنشتين على عرش بوهيميا^(٧٢) . وعندما قاد برنارد دوق
ساكس وعمار جيشا إلى بافاريا توصل مكسيمليان وفرديناند إلى فالنشتين أن
يسرع لتجدهما . ولكنه أجاب بأنه ليس في مقدوره أن يعد الرجال لعمل
من هذا القبيل . لقد وزع جيشه العاطل على الضياع الامبراطورية في بوهيميا ،
وطلب إليه الامبراطور أن يخفف الأعباء المفروضة على هذه الأراضي
الامبراطورية فأبى .

وفي ٣١ ديسمبر ١٦٣٣ قرر فرديناند ومجلسه أنه لا بد من عزل قائدهم
الأعظم ، وتناثرت الشائعات في جيش فالنشتين تقول بأنه يتآمر لينصب نفسه
ملكاً على بوهيميا ولويس الثامن ملكاً على الرومان . وفي ١٨ فبراير وزعت

أوامر امبراطورية على الجيش تحله من قيادة فالنشتين، وبعد ذلك بأربعة أيام ، ولى هاربا من بلزن ، ومعه ألف رجل . وفي اليوم الخامس والعشرين انقض على غرفته في إيچر نفر من الجنود الطامعين في المكافأة، فوجدوه وحيدا أعزل . وأشبعوه طعنا بسيوفهم، ويقول أحد المعاصرين دوفى الحال جروة من قدميه، يصطدم رأسه بكل درجة من درجات السلم (٧٣)، وأمرع القتلة لى فيينا حيث نالوا ترقية ومالا وأرضا . أما الامبراطور الذى قضى ليالى وأياما ، يستبد به الخوف ، يتعبد ويتهدد ، فقد حمد الله على معاونته سبحانه .

واستمرت الحرب تجر أذيالها أربعة عشر عاما أخرى . وحل ابن فرديناند وسميه البالغ من العمر ستا وعشرين سنة ، محل فالنشتين فى منصب القائد الأعلى للجيش الامبراطورية . وكان شابا جديرا بأن يحب ، متعلما ، عطوفا كريما ، يحب الفلسفة ، ويكتب الموسيقى ، ويحفر العاج ، ومع ذلك لم يكن جاهلا بفنون الحرب . ودحر بمساعدة القواد القدامى ، برنارد فى فرردانجن ، وهى أعظم المعارك الامبراطورية حسبا فى الحرب . وكادت القوات البروتستانتية أن تنهار تماما ، لولا أن أوكسدستيرنا أنقذ الموقف بعقد معاهدة كومين (٢٨ أبريل ١٦٣٥) التى هيات لريشليو لإسماها كاملا فى الصراع . ولكن الأمراء البروتستانت فى ألمانيا لم يستسيغوا مشهد كردينال فرنسى يتحكم فى مصيرهم . وتبعوا ، الواحد منهم يتلوا الآخر ، جون جورج أمير سكسونيا فى عقد الصلح مع الامبراطور الذى رحب بهم ، حيث ألغى نفسه تواجبه الجيوش والأموال الفرنسية معاً . وبمقتضى معاهدة براغ (٣٠ مايو ١٦٣٥) وافق الامبراطور على وقف العمل بقرار إعادة أملاك الكنييسة لمدة أربعين عاما . وفى مقابل ذلك وعد معظم الأمراء البروتستانت بمساعدته وحلفائه على استرداد الأراضى التى فقدوها منذ مجيء جوستاف أدواف . ولما كانت هذه الأراضى تشمل اللورين . فإن المعاهدة فى الواقع كانت موجهة ضد فرنسا . والسويد ، وكانت تؤكد اجديدا للوحدة الألمانية ضد الغزاة . وتوارت المشكلة الدينية عن ميدان القتال . وفى نهاية عام ١٦٣٥ كان جيش سكسونيا

البروتستانتية يقا تل السويد البروتستانتية في ألمانيا الشمالية حيث كان بانير وتورستنسون يناضلان ، بعسكرية عسكرية حديرة بجوستاف ، من أجل الاستيلاء على بعض مواقع قارية من أجل أمن السويد .

وفي الغرب وقف برنارد بشجاعة في وجه القوات الامبراطورية المتزايدة وفي ١٦٢٨ أمدته فرنسا بالأموال ، وأفضل منها بألفى جندى بقيادة تورن الذى سعد نجمة آنذاك كقائد . وشن برنارد ، بعد أن وصله الامدادات على هذا النحو ، حملة حديرة بأن تسجلها حوليات الحرب ، من أجل التثبيت بالهدى ودقة الاستراتيجية ، وهزم الامبراطورين في وينوير . وأجبر قلعة بريساخ العظيمة على الاستسلام ، وأنهكت قواه وهو في الرابعة والثلاثين فقضى نجبه (١٦٣٩) وذهب جيشه وفتوحاته ، بما فيها اللورين . إلى فرنسا .

وفارق الامبراطور العجوز الحياة ، وخلا منه المسرح ١٦٣٧ . وورث فرديناند الثالث إمبراطورية تعاني فقرا وحرمانا لا سبيل للخروج منها ، يكاد أن يكون من المستحيل معهما الإنفاق على جيوش تقف في وجه ريشليو الذى ما زال قادرا على ابتزاز الفر نكات من فرنسا المدممة . وفي ١٦٤٢ وصل تورستنسون بجيش السويد إلى مسافة ٢٥ ميلا من فيينا ، وأحرز نصرا ميينا في معركة برتينفيلد الثانية . حيث فقد الإمبراطورين نحو ١٠ آلاف رجل ، بما حدا بالأرشي دوق انهزم ليوبولد ولیم ، أخى الإمبراطور الشاب إلى محاكمة ضباطه أمام مجلس عسكري ، بتهمة التجبن والخور . وقطع رؤوس ذوى الرتب الكبيرة ، وشنق من هم أقل منهم رتبة ، وأطلق الرصاص على عشر الباقين على قيد الحياة من سائر الرتب (٧٤) .

وبدا الآن أن كل عام يأتي بضربات جديدة تنصب على رأس الامبراطور الجديد . ففي ١٦٤٣ محظمت أسبانيا بانتصار دوق انجين في ركروا . وفي ١٦٤٤ غزا انجين وتورن أراضى الراين حتى شمال ماينز ، وفي ١٦٤٥ تقدم تورستنسون حتى صار على أبواب فيينا تقريبا ، وانتصر الفرنسيون في معركة دامية عند الليرهم ، واجتاح جيش سويدى بقيادة كونت هانس كريستوف

فإن كونجز مارك سكسونيا وامستولى على ليزج ، وأرغم جون جورج على الخروج من الغرب . وكان الجيش البافاري قد طرد من البالاتينات في ١٦٣٤ أما الآن ، في ١٦٤٦ فقد غزا تورن بافاريا نفسها وخرّبها ، وتوصل مكسيمليان الذي كان قد ركبته الغرور يوما ، إلى عقد الصلح ، والتمس من الامبراطور أن يفرض فرنسا من أجل الصلح . ولم يكن فرديناند الثالث صلحا لا ينثنى ، مثل أبيه ، وكانت تصل إلى مسامحة صرحات الإمبراطورية المنهوكّة ، فأرسل أقدر مفاوضيه إلى وستفاليا ، سعيا وراء شيء من التوفيق بين العقائد وبين الأسرات .

كان الإمبراطور الشلب أصغر من أن يدرك أن المذمحة والخراب ربما كانا أفضح ما اقترفته أيدي البشر في جيل واحد في أي بلد من قبل . فلم يكن هناك جيشان ، بل ستة جيوش - الألماني والدنمركي والسويدي واليوهيمي والأسباني والفرنسي معظمها من الجيوش المرتزقة أو الأجانب الذين لا تربطهم أية صلة بالشعب أو التراب أو التاريخ الألماني ، يقودهم عسكريون مغامرون يقاتلون من أجل أية ملة نظير أجر ، وهي جيوش تعيش على استسلاب الحبوب والفاكهة والماشية من الحقول ، تقيم أو تأوي في الشتاء إلى مساكن الشعب ، جزاؤها هو حرقها في السلب والنهب ، وابتهاجا بالقتل والغصب . وكان مبدأ مقبولاً مسلما به لدى كل الأطراف المتحاربة ، أن تذبح أية حامية كانت قد رفضت الاستسلام ، بعد أن أصبح الاستسلام أمرا لا مناص منه ، وأحس الجنود أن المدنيين فرائس أو ضحايا مشروعة ، فأطلقوا الرصاص على أقدامهم في الشوارع ، وجندوهم لخدمتهم . وحطفوا أطفالهم من أجل الحصول على الفدية وأشملوا النار في مخازن التبغ وأحرقوا الكنائس لمجرد التسلية واللهو . لقد قطعوا أيدي وأرجل قسيس بروستاتي لأنه قاوم تحطيم كنيسته ، وربطوا القساوسة تحت العرّبات ، وأجبروهم على الزحف على أيديهم وأرجلهم حتى خارت قواهم من الإعياء (٧٥) ، وكان حق الجندي في اغتصاب النساء أمراً مسلما به ، فإذا طالب والد أن يحاكم جندي اغتصب ابنته وقتلها ، أبلغه الضابط

المختص بأنه لو لم تكن ابنته ضنيئة بمنذريتها إلى هذا الحد لبقيت على قيد الحياة (٧٦) .

وعلى الرغم من الاختلاط المتزايد تناقص عدد سكان ألمانيا بسرعة أثناء الحرب ، وكان التناقص مبالغاً فيه وكان مؤقتاً ، ولكنه كان فاجعاً . وتقول التقديرات المعتدلة بأن عدد سكان ألمانيا والنمسا هبط من ٢١ إلى ١٥ مليوناً (٧٧) . وقدر السكونت فون لوزو أن عدد سكان بوهيميا هبط من ثلاثة ملايين إلى ٨٠٠ ألف (٧٨) . وبين ٣٥ ألف قرية في يوهيميا ١٦١٨ ، هناك نحو ٢٩ ألف قرية هجرها أهلها أثناء الصراع (٧٩) . وهناك في مختلف أنحاء الامبراطورية مئات من القرى لم يبق فيها ساكن واحد، وقد يقطع المرء في بعض الأقاليم ستين ميلاً دون أن يرى قرية أو بيتاً (٨٠) ، وكان في ١٩ قرية في نورنجيا في ١٦١٨ نحو ١٧١٧ بيتاً ، لم يبق منها في ١٦٤٩ سوى ٦٢٧ بيتاً ، لم يكن كثير منها أهلاً بالسكان (٨١) .

وتركت آلاف الأفدنة الخصيبة دون فلاح أو زرع بسبب نقص الرجال أو الدواب أو البذور ، أو لأن الفلاحين لم يكونوا على ثقة من أنهم سوف يحصلون نتائج مايزرعون . واستخدمت المحصولات لإطعام الجيوش ، وكان ما تبقى يحرق لثلاً يستفيد منه الأعداء . وأضطر الفلاحون في كثير من الأماكن إلى أكل الفضلات المخبأة ، أو السكلاب أو القلط أو الفيران ، أو جوز البلوط أو الحشائش ، وقد وجد بعض الموتى وفي أفواههم بعض الحشائش وتنافس الرجال والنساء مع الغربان والسكلاب على لحم الخيول الميتة . وفي اللازاس انتزع المعتدون المشنوقين من المشنقة ، تلهفوا على التهام جثثهم . وفي أراضى الراين كانت الصور تنبش وتباع الجثث لتؤكل . واعترفت امرأة في زويبروكن بأنها أكلت طفلها (٨٢) . وتعطلت وسائل النقل إلى حد تعذر معه نقل الفائض في جهة إلى جهة أخرى بعيدة محرومة . وتهدمت الطرق بسبب المعارك ، وأوبات من الخطر إرتيادها بسبب قطاع الطرق ، أو ازدحمت بالمهاجرين واللاجئين .

وعانت المدن الصغيرة أقل مما عانت القرى . وهبط عدد سكان كثير منها إلى نصف ما كان عليه من قبل ، وأصبحت المدن الكبرى أطلالا خربة - مجدبرج ، هيدلبرج نورمبرج ، نيو مستاد ، بايريت . وتدهورت الصناعة لعدم وجود المنتجين والمستهلكين والحرفيين ، وكسدت التجارة . وصار التجار الذين كانوا يوما أثرياء يتسولون أو يسرقون ويسلبون من أجل لقمة العيش . وامتنع الكرميونات عن دفع ديونها بعد أن أعلنت أفلاسها . وأحجم الممولون عن الإقراض خشية أن تتحول القروض إلى هبات أو منح . وأفقرت الضرائب كل الناس ، اللهم إلا القواد والحياة والقساوسة والماوك ، وبات الهواء ساما بسبب الفضلات والنفايات والجثث المتعفنة في الشوارع . وانتشرت أوبئة التيفوس والتيفود والدوسنتاريا والاسقربوط بين السكان المدعورين ، ومن بلدة إلى أخرى . ومرت القوات الألمانية بمدينة ميونيخ فتركت وراءها طاعونا أودى بحياة عشرة آلاف ضحية في أربعة شهور (٨٣) . وذوت وذبلت في أتون الحرب الفنون والآداب التي كانت تضيء على المدن شرفا ومجدا .

وانهارت الأخلاق والروح المعنوية على حد سواء ، فإن اليأس المقرون بالإيمان بالقضاء والقدر دعا إلى الوحشية المقترنة بالسخرية . واختفت كل المثل الدينية والوطنية بعد جيل سادده العنف ، وكان البسطاء من الناس يكافحون الآن من أجل الطعام أو الشراب ، أو يقاتلون بسبب الكراهية . على حين عبأ سادتهم عواطفهم في التنافس على اقتناء الأراضي التي يمكن أن يجمعوا منها الضرائب ، وعلى السلطة السياسية . وهناك وهناك ظهرت بعض النواحي الإنسانية ، فكان الجزويت يجمعون الصدقات ليطعموا الأطفال الذين لا عائل لهم ، كما كان الوعاظ يطلبون إلى الحكومات وضع حد لسفك الدماء وللدمار . وكتب أحد الفلاحين في مذكراته اليومية : اللهم أنا نتوسل إليك أن تضع نهاية لما نلاق ، اللهم أما نتوسل إليك أن تعيد لنا السلام . يا إله السموات أنزل علينا السلام (٨٤) .

٧ - صلح وستفاليا

كان الحكام ورجالهم الدبلوماسيون منذ ١٦٣٥ يجسمون التنبض ويتحسسون الرأي من أجل السلام . وفي تلك السنة اقترح البابا أربان الثامن عقد مؤتمر لبحث شروط المصالحة ، واجتمع المندوبون للتفاوض في كولون . ولكنهم لم يصلوا إلى نتيجة . وفي همبرج في ١٦٤١ صاغ ممثلو فرنسا والسويد والامبراطورية انفاقية مبدئية لينة عقد مؤتمر مزدوج في وستفاليا في ١٦٤٣ ، وفي مونستر تلتقي فرنسا مع الامبراطورية لمعالجة مشاكهما في ظل وساطة البابا والبنديقية ، وفي أوسنابروك ، على بعد ثلاثين ميلا ، تلتقي فرنسا والامبراطورية مع السويد لإجراء المفاوضات في ظل وساطة كريستيان الرابع ملك الدنمرك . وكان هذا الفصل ، المطهر ، ضروريا بسبب عدم رغبة المندوبين السويديين في الاجتماع تحت رياسة ممثل البابا ، ورفض ممثل البابا أن يجلس في سعيد واحد مع الزنادقة ، .

وجاء الأخير نتيجة إجراءات الأمن وقواعد البروتوكول . واستحدث انتصار تورستنسون في بريتنفيلد الامبراطور إلى الوعد بأن مندوبيه سيصلون في ١١ يولية ١٦٤٣ ، وتلكا المندوبون الفرنسيون بينما كانت فرنسا تدبر التحالف مع المقاطعات المتحدة (في الأراضي الوطيثة) ضد أسبانيا . وافتتح مؤتمر وستفاليا شكلا في ٤ ديسمبر ١٦٤٤ ، وضم ١٣٥ عضوا بما فيهم رجال اللاهوت والفلاسفة . واتفقت منذ ذلك اليوم ستة شهور في تحديد نظام الأسبقية في دخول المندوبين إلى القاعات وجلوسهم وما كان السفير الفرنسي ليدخل في المفاوضات إلا إذا خوطب بلقب « صاحب الفخامة » . وعندما وصل السفير الأسباني تجنب السفير الفرنسي ونأى بنفسه عنه ، لأن أيا منهما لا يعترف للآخر بالأسبقية ، وانصل كل منهما بالآخر عن طريق شخص ثالث . ورفضت فرنسا الاعتراف لفيليب الرابع بلقب ملك البرتغال وأمير قطالونيا . كما رفضت أسبانيا الاعتراف بلقب ملك نافار اللويس الرابع

عشر . وتنازع المندوبون السويديون فيما بينهم وأضاعوا الوقت حتى صدرت
إليهم أوامر الملكة الشابة الجريئة كريستينا بأن يصلحوا فيما بينهم . ثم بعقدوا
مع العدو . وفي الوقت نفسه كان الرجال يذهبون إلى الحرب ليلقوا حتفهم .

وعلى قدر ما كانت جيوش كل فريق منتصرة أو مقهورة ، تلكا
المندوبون في المفاوضات أو عجلوا بها ، وشغل المحامون أيما شغل بخلق
الصعوبات أو لإبتداع الحلول الوسط ووسائل التوفيق ، يحلون العقد أو يزيدونها
تعقيدا . وكان قواد فرنسا يسرون بخطى واسعة ، ومن ثم فإنها أصرت على
تمثيل كل أمراء ألمانيا في المؤتمر ، على الرغم من أن معظمهم كان قد عقد
الصلح مع الامبراطور منذ أمد طويل . وطاب إلى الزمن أن يتوقف حتى
يرسل كل الناخبين والأمراء والمدن الامبراطورية تمثيلهم ، ورغبة في إضعاف
مركز فرنسا ، عمدت أسبانيا (٨ يناير ١٦٤٨) إلى توقيع صلح منفرد مع
المقاطعات المتحدة - التي كانت لتوها قد وعدت فرنسا بعدم توقيع صلح
منفرد ، ولكن الهولنديين لم يسكنوا ليضيعوا الفرصة التي لاحت لهم
ليكسبوا بجرة قلم ما قاتلوا من أجله طيلة ثمانين عاما . فكان جواب فرنسا
على هذا أنها رفضت عقد الصلح مع أسبانيا ، واستمرت الحرب بينهما حتى
صلح البرينز في ١٦٥٩ .

وكان يمكن أن ينفذ المؤتمر دون نتيجة ، لولا اجتياح تورن لبافاريا ،
وهجوم السويد على براغ (يولية ١٦٤٨) وهزيمة الأسبان في انز (٣ أغسطس)
فإن هذه الأحداث كلها أفضت الامبراطور بالتوقيع ، على حين أن ثور
الفروند في فرنسا (يولية) أكرهت مزران على تقديم بعض التنازلات التي
تطلق يده للحرب في الداخل . وعلى هذا ، وقعت آخر الأمر معاهدة وستفاليا
في مونستر وأوزنابروك معا في ٢٤ أكتوبر ١٦٤٨ - واستمر سفك الدماء
تسعة أيام آخر ، حتى وصلت الأنباء إلى جبهات القتال ، وتعالت صيحات
« الشكر لله ، خاشعة مبتهجة ، من ألف قرية ومدينة .

ولا بد من التسليم بأن المفاوضات واجهت من مشكلات التوفيق ما هو أكثر تعقيدا من أية مشكلات واجهها مؤتمر صلح قبل القرن العشرين ، وأنها عملت على تسوية المطالب المتعارضة بحكمه ، قدر ما سمحت الكراهية والغرور والكبرياء والقوة والسلطة بين المجتمعين . ولا بد من تلخيص بنود هذه المعاهدة التي أعادت تشكيل أوروبا من جديد ، لأنها أوجزت وأخرجت قدرا كبيرا من التاريخ .

١ - حصلت سويسرا والمقاطعات المتحدة على اعتراف رسمي باستقلالها .

٢ - حصلت بافاريا على البالاتينات العليا (الجنوبية) ، مع صورتها الانتخابية .

٣ - أعيدت البالاتينات الدنيا (الشمالية) ، بوصفها موطننا انتخابيا ثامنا ، إلى شارل لويس بن فردريك المتوفى .

٤ - حصلت براندنبرج على بوهيميا الشرقية وأسقفيات مندن وهابرستاد وكامين ، ووراثة أسقفية مجدبرج . وعاونت فرنسا أسرة هوهنزلرن الناشئة في الحصول على هذه الثمار اليا نعة ، بفكرة إقامة قوة أخرى ضد آل هابسبرج ، وما كان منتظرا من فرنسا أن تنبأ بأن براندنبرج ستصبح بروسيا التي سوف تتجدها على عهد فردريك الأكبر ، ثم توقعها الهزيمة على يد بيسارك .

٥ - ونالت السويد ، بفضل انتصارات جيوشها أساسا ، وبفضل مساندة فرنسا لها في المؤتمر ، بشكل جزئي ، أسقفية بريمن وفردن ، ومدينتي ويزمار واستتن ، ومنطقة مصب نهر الأودر ، ولما كانت هذه كلها أقطاعات امبراطورية ، فقد حصلت السويد على مقعد في الديت : الامبراطوري ، ولما استولت بالفعل على ليفونيا وأستونيا وأنجريا وكاريليا وفنلندة فقد أصبحت الآن في عداد الدول العظمى ، وسيدة البلطيق حتى جاء بطرس الأكبر .

٦ - واحتفظت الإمارات الألمانية بما كان لها قبل الحرب من «حريات» في مواجهة الأباطرة .

٧ - وكان على الامبراطور أن يقنع بالاعتراف بحقوقه الملكية في بوهيميا والمجر . ومن ثم اتخذت امبراطورية النمسا والمجر شكلها على أنها حقيقة واقعة في هيكل الامبراطورية الرومانية المقدسة . لقد أنهارت اقتصاديات الامبراطورية المعمره ، من جهة بسبب نقص السكان وتدهور الصناعة والتجارة أثناء الحرب ، ومن جهة أخرى بسبب مرور المنافذ النهرية الكبيرة إلى دول أجنبية من منافذ الأودر والألب إلى السويد ، والراين إلى المقاطعات المتحدة .

٨ - وكان أكبر الغنم لفرنسا التي مولت ثروتها السويديين المنتصرين ، وفرض قوادها الصلح فرنسا . فسلمت إليها الأزراس فعلا ، مع أسقفيات متزوفردون وتول وحصن بريزاك على الجانب الألماني من الراين . وسمح الآن للويس الرابع عشر بالاستيلاء على فرانكن كوثية واللورين ، وفق هواه وتحقيق هدف ريشليو - الذي كان الآن قد فارق الحياة - كسر شوكة آل هابسبرج ومد حدود فرنسا ، وتمكين وحدة فرنسا ودفاعها ، والإبقاء على فوضى الإمارات في الامبراطورية ، وعلى الصراع بين الأمراء والامبراطور ، وعلى النزاع بين الشمال البروتستانتي والجنوب الكاثوليكي ، بما يحمي فرنسا من خطر ألمانيا موحدة . وحلت فرنسا محل أسبانيا - أو احتلت أسرة البوربون مكان آل هابسبرج بوصفها قوة عظمى مسيطرة على أوروبا ، وسرعان ما علا لويس الرابع عشر إلى منزلة الشمس .

أما الضحية الخفية للحرب فهي المسيحية ، لقد كان على الكنيسة الكاثوليكية أن تتخلى عن قرار إعادة أملاك الكنيسة ، وأن تعود سيرتها الأولى إلى الوضع الذي كانت عليه بتملكاتها في ١٦٢٤ ، وترى الأمراء مرة أخرى يقررون عقيدة رعاياهم . ومهما يكن من أمر ، فإن هذا مكن الكنيسة من إخراج

البروتستانتية من بوهيميا موطن لإصلاح هس . لقد قضى على الإصلاح المضاد ، ومثال ذلك أنه لم يكن محل نزاع أن تقيم بولنדה المذهب الكاثوليكي في السويد البروتستانتية ، بضعف ما كان عليه من قوة من قبل . ورفض ممثل البابا في مونستر أن يوقع المعاهدة . وفي ٢٠ نوفمبر ١٩٤٨ أعلن البابا انوسنت العاشر د أنها غير ذات قوة شرعية ملزمة ، ملعونة بغيبضه ، ليس لها أى أثر أو تديحة على الماضى أو الحاضر أو المستقبل ،^(٨٥) . وتجاهلت أوروبا هذا الاحتجاج . ومنذ تلك اللحظة لم تعد البايوية قوة سياسية عظمى ، وأخطت شأن الدين في أوروبا .

وكذلك احتج بعض البروتستانت ، وخاصة أولئك الذين فقدوا مسألتهم في بوهيميا والنمسا . ولكن المعاهدة في جملتها - وهى ثمرة جهود كاردينال توفى وآخر حى - كانت نصرا للبروتستانتية التى أنقذت في ألمانيا . لقد ضعفت في الجنوب وفي الراين ، ولكنها في الشمال قويت عن ذى قبل ، واعترفت المعاهدة رسميا بكنييسة الاصلاح أو الكنييسة الكلفنية . وبقيت خطوط التقسيم الدينى التى أقرت في ١٦٤٨ ، دون تغيير جوهري حتى القرن العشرين ، حين بدأ التغير في معدلات المواليد أو نسب تزايد السكان ، يوسع من رقعة الكشلكة بطريقة تدريجية سليمة .

ولكن على الرغم من إن الإصلاح الدينى قد أنقذ ، فإنه عانى ، مع الكاثوليكية ، من التشكك الذى شجعت به بذامة الجدل الدينى ، ووحشية الحرب ، وقساوة العقيدة . وأعدم أثناء المعمة آلاف من الساحرات . وبدأ الناس يرتابون في المذاهب التى تبشر بالمسيح وتقرت قتل الأخوة بالجملة . وكشفوا عن الدوافع السياسية والاقتصادية التى تسترت تحت الصيغ الدينية ، وارتابو في أن حكامهم يتمسكون بعقيدة حقة ، بل أنها شهوة السلطة هى التى تتحكم فيهم - ولو أن فرد ينادى اثنائى غامر بسلطانه المرة بعد المرة ، من أجل عقيدته . وحتى في أظلم العصور . الحديثة هذه ، ولى كثير من الناس وجوههم

شطر العلم والفلسفة للظفر باجابات أقل اصطبأغا بلون الدم من تلك التي سمعت العقائد أن تفرضها في عنف بالغ . وكان جاليليو يفرغ في قالب مسرحي ثورة كوبرنيكس . وكان ديكارت يشير الجدل حول كل التقاليد وكل الساطة . وكان برونو يشكو إلى أوروبا آلامه المبرحة وهو يساق إلى الموت حرقا . لقد أنهى صالح وستفاليا سيطرة اللاهوت على العقل في أوروبا ، وترك الطريق إلى محاولات العقل واجتهاداته ، غير معبد ، ولكن يمكن المرور فيه .

الكتاب الثالث

اجتهادات العقل

١٥٥٨ - ١٦٤٨

الفصل الثاني والعشرون

العلم في عصر جاليليو

١٥٥٨ - ١٦٤٨

١ - الخرافة *

قد تولد الديانات ، وقد تفتى ، ولكن الخرافة باقية أبد الدهر . وسعداء الحظ هم الذين يحتملون العيش بدون أساطير ، والكثير منا يعاني في جسمه وفي أتهاق نفسه . وأفضل عقمار مسكن في « الطبيعة » جرعة مما هو فوق الطبيعة . وحتى كبار نيوتن مزجا علمها بالأساطير . وآمن كبار بالسحر . وكتب نيوتن في العلم أقل مما كتب عن « سفر الرؤيا » .

وكانت الخرافات الشعبية أكثر مما يحصيه العد . فأذاقنا تلهب عندما يتحدث عنا الآخرون . ولا تكون الزيتجات التي تم في شهر مايو سعيدة . وتشفى الجراح إذا مسح السلاح الذي أحدثها بالزيت المقدس . وتستأنف الجثة نرف الدم في حضور القاتل . وإن الجنيات والجن الصغير المؤذى والغيلان والأرواح الشريرة والشياطين لتعوم في كل مكان . وثمة طلاس معينة (مثل تلك التي وجدت عند كاترين دي مديتشي بعد وفاتها) تضمن الحظ السعيد ، وتأمم وتعاونن تقى من التجاعيد ومن العنة ومن شر الحاسد ومن الطاعون . ويمكن أن تبرىء لمسة من الملك المصاب بسل الغدد للمغاوية في العنق . وللأرقام والمعادن والنباتات والحيوانات خصائص وقوى سحرية .

(*) يمكن الرجوع إلى الفصل السابع (الجزء ٢٨) الذي يعالج الخرافة والعلم والفلسفة

في إنجلترا في تلك الحقبة .

وكل حادث علامة على رضا الله أو غضبه ، أو من عمل الشيطان . ويمكن التنبؤ بالأحداث من شكل الرأس أو خطوط الكف . وتختلف الصحة والقوة والقدرة الجنسية باختلاف منازل القمر ، أهو بدر أم في المحاق . وقد يسبب ضوء القمر الجنون أو يشفي الثؤلول . وتنذر المذنبات بالكوارث . إن العالم (في الكثير الغالب) يسير إلى نهايته (١) .

وكان التنجيم لا يزال سائدا . على الرغم من تزايد استنكاره ونبذته لدى من يعرفون القراءة والكتابة . وفي ١٥٧٢ انقطع تدريسه في جامعة بولونا . وفي ١٥٨٢ استنكرته وشجيتة محاكم التفتيش الأسبانية . وفي ١٥٨٦ حذر البابا سيكستس الخامس الكاثوليك منه . ولكنه ظل بين الأبقاء والإلغاء في جامعة سالامانكا حتى ١٧٧٠ . وكانت الغالبية العظمى من الناس ، وكثير من أفراد الطبقات العليا ، يستنبئون البروج عن المستقيل من مواقع النجوم ، وكانوا يكشفون عن د طالع ، أى ظفر مهما كان شأنه بمجرد ولادته ، وقد اختبأ أحد المنجمين بالقرب من مخدع آن النمساوية عند ولادة لويس الرابع عشر (٢) . وعندما وله جوساف أدرف طلب أبوه شارل التاسع إلى تيكوبراهي أن يكشف عن طالع ، فتنبأ المنجم في حرص وحذر بأنه سوف يصبح ملكا . وكان كبير ينظر إلى التنجيم بعين الريبة والشك ، ولكنه كان يداهن فيقول : د كما أن الطبيعة هيأت لكل حيوان من الوسائل ما يحصل به على العيش ، فقد هيأت التنجيم للمنجم لتمكينه من العيش . وفي ١٦٠٩ أجزل فالنشتين العطاء لمن أتاه بطالع سعيد ، وكان دائما يصطحب معه في رحلاته وجولانه منجما (٤) ، وربما قصد بذلك تشجيع قواه . وكمن مرة استشارت كاترين دي مديشي وحاشيتها المنجمين (٥) . وحظي جون دي بشرة فائفة في التنجيم ، حتى اكتشف أن النجوم تأمره أن يتبادل الزوجات مع أحد تلاميذه (٦) .

وكان التصديق بأفانين السحر آخذاً في التقلص ، باستثناء واحد مخز حقير

ذلك أن تلك الفترة كانت ذروة التخلص من السحرة بالقتل المشروع بحكم القضاء . إن المعذبين ومن ينزلون بهم العذاب ، على حد سواء ، صدقوا بإمكان الحصول على معونة القوى الخارقة للطبيعة بالرقى والتعاويذ أو بوسائل مشابهة ، وإذا كان من المستطاع الحصول على شفاة قديس بالصلوات ، فلم لا نلتمس معونة الشيطان بملاحظته والتودد إليه . وثمة كتاب صدر في هيدلبرج ١٥٨٥ تحت عنوان « بعض الأفكار المسيحية حول السحر » ، جاء فيه كحقيقة ثابتة مقررة : « أن كل مكان في العالم بأسره ، في الداخل والخارج ، في البر والبحر ، يعج بالعفاريت والأرواح الشريرة غير المرئية^(٧) ، وساد الاعتقاد بأن كل الكائنات البشرية يمكن أن تلبسها ، الشياطين وتحل فيها . وفي ١٥٩٣ ساد الذعر الرهيب فريدبرج المدينة الصغيرة حيث قيل أن الشيطان قد حل بأجسام أكثر من ستين شخصا ، وعذبهم عذابا ألما . . . بل أن القسيس نفسه استحوذ عليه الشيطان وهو يلقي عظمته^(٨) . . . وتصور قصة : « قطيع الخنازير (النجيل منى ٨ : ٢٧ - ٣٤) ، كيف أن المسيح أخرج الشياطين من أجسام الذين حلوا بهم ، ألم يمنح أتباعه القدرة على إخراجهم بأسمه (النجيل مرقس ١٦ : ١٧) . وكان الناس يلجأون إلى القساوسة لعمل تعاويذ مختلفة - لإزالة النباتات والحشرات الضارة من حقولهم ، أو تهدئة الأعاصير في البحر ، أو تطهير المباني من الأرواح الشريرة ، أو تطهير كنيسة أصابها بعض الدنس وفي ١٦٠٤ أصدر البابا بول الخامس منشورا بمثل هذه الخدمات الكهنوتية . واستنكر الكتاب البروتستانتي مثل هذه الرقى والتعاويذ المقدسة على أنها ضروب من السحر . ولكن كنيسة إنجلترا اعترفت بقيمة التعاويذ على أنها طقوس شافية معافية^(٩) . وهنا ، كما هو الحال في كثير من الطقوس ، كان الأثر النفسى عليها طيبا .

وكما أخذ الناس بزمام المبادرة في طلب التعاويذ ، فإنهم كانوا كذلك أول من طالب بمحاكمة السحرة ، فقد ساد الذعر من قوتهم ومقدرتهم . وجاء في

أحدى النشرات ١٥٦٣ ، د أن الدخول في علاقات مع الشيطان ، فيكون في تناول يدك في الخواتم أو البلورات ، فتستحضره أو تحالفه ، وتقوم معه بمئات من أفانين السحر ، أكثر الآن شيوعا عن ذى قبل ، بين الطبقات العليا والدنيا . وبين المتعلمين وغير المتعلمين ، . وانتشرت د كتب الشياطين ، التي توضح كيفية الاتصال بالنافع منهم ومن معرضين اثنين في ١٥٦٨ اشترى أحد الأفراد ١٢٢٠ كتابا من هذه الكتب (١٠) . وفي بعض الحالات نصح ضباط محاكم التفتيش قساوسة الأبرشيات د أن يظهروا الناس على أضاليل السحرة وخرافاتهم ، وأشاروا بعدم التصديق د بسبت السحرة ، وأوصوا بعزل قسيس كان يصغى في سذاجة إلى اتهامات السحرة (١١) . وطالب البابا جريجورى الخامس عشر في ١٦٢٣ بعقوبة الإعدام لفر من الناس تسببت شعورهم في الموت ، ولكن البابا أريان الثامن في ١٦٢٧ أدان المحققين الكاثوليك ، لأنهم حاكموا المشعوذين محاكمة ظالمة تعسفية ... وانزعوا من المتهمين إقرافات لا قيمة لها . . . وعاقبهم دون بينة كافية (١٢) ، وأصدر الإمبراطور مكسيميليان الثاني (١٥٦٨) قراراً بإختبار صحة اعترافاتهم بتجديدهم بأن يأتوا بأعمالهم السحرية علنا ، وأن يكون النفى أقصى عقوبة يحكم بها عليهم بعد إدانتهم ثلاث مرات . ولكن الأهالى المذعورين طالبوا بالصرامة في الإختبارات وبالتعجيل بتنفيذ الأحكام .

أن السلطات المدنية والدينية التي كانت تشارك الناس خوفهم من السحر ، أو ترغب في التخفيف من حدته ، عمدت إلى أقسى الإجراءات في محاكمة المتهمين وعذبهم بتتزع منهم الإقرافات . وكان لمجلس مدينة نوردلنجن بمجموعة خاصة من آلات التعذيب ، كان يعيرها للبلاد المجاورة مع التوكيد بأنه د بفضل هذه الآلات ، وبوجه أخص آلة الضغط على الإبهام ، يمن علينا الله بكرمه بإظهار الحق ، أن لم يكن لأول وهلة ، ففي آخر الأمر على أية حال (١٣) أما التعذيب بإبقاء المتهم يقظا لا يذوق طعم النوم ، فكان وسيلة معتدلة

خفيفة . وكان التعذيب عادة هو طريق الوصول إلى الإقرار المرغوب فيه . وكانت الاعتزافات غـسير الموثوقة التي لا يعتد بها . هي التي تحير القضاة أحيانا .

وكان الإضطهاد في أسبانيا أقل قساوة . ففي مقاطعة لجر ونو وجهت محكمة التفتيش الإتهام إلى ٥٣ شخصا من المشتغلين بالسحر ، وأعدت منهم ١١ شخصا (١٦١٠) ورفضت الإتهامات الأخرى عادة لأنها وهمية أو إنتقامية . وكان الحكم بإعدام السحرة نادرا . وفي ١٦١٤ أصدرت رئاسة محكمة التفتيش إلى ضباطها تعليمات بأن ينظروا إلى إعتزافات السحرة على أنها تضليلات جنونية أو عصبية ، وأن يستعملوا الرأفة في العقوبة (١٤) .

واجتاحت جنوب شرقي فرنسا في ١٦٠٩ موجة عاتية من الذعر من السحرة ، وأعتقد مئات من الناس أن الشياطين حملت فيهم . وظن بعضهم أنهم تحولوا إلى كلاب وأخذوا في الزباح وعينت لجنة من برلمان بوردو لمحاكمة المشتبه فيهم وأبتدعت طريقة لإكتشاف المواضيع التي دخل منها الشياطين إلى جسم المتهم ، ذلك بصب عينيه وغرز الأبر في لحمه ، وأي مكان لا يحس فيه بوخز الأبر ، كان هو المكان الذي دخل منه الشيطان . وطامعا في العفو عنهم اتهم المشتبه فيهم بعضهم بعضا . فحُكم منهم ثمانية وهرب خمسة ، وأحرق ثلاثة . وأقسم جمهور النظارة فيما بعد أنهم شاهدوا العفاريات على هيئة ضفادع تخرج من رؤوس الضحايا (١٥) . وفي اللورين أحرق ٨٠٠ شخص بتهمة السحر على مدى ١٦ عاما . وأحرق في ستراسبورج ١٣٤ شخصا في أربعة أيام (أكتوبر ١٥٨٢) (١٦) . وفي لوسرن الكاثوليكية ، أعدم ٦٢ شخصا فيما بين ١٥٦٢ — ١٥٧٢ . وفي برن البروتستانتية أعدم ٣٠٠ في السنوات العشر الأخيرة من القرن السادس عشر ، و ٢٤٠ في العقد الأول من القرن السابع عشر (١٧) .

وفي ألمانيا تسابق الكاثوليك والبروتستانت في إعدام السحرة حرقاً . وثمة رواية يمكن الاعتماد عليها ، ولو أنها لا تكاد تصدق ، بأن رئيس أساقفة تريير أمر بإحراق ١٢٠ شخصاً في فالزفي ١٥٩٦ بتهمة أنهم أطالوا فترة الجو البارد أكثر من المألوف بطريقة شيطانية^(١٨) . ونسب طاعون الماشية في إقليم سكونو في ١٥٩٨ إلى السحرة . وحث مجلس بافاريا المخصوص في ميونيخ المحققين على إظهار مزيد من الجدية والصرامة في الإجراءات ، فكانت النتيجة إحراق ٦٣ ساحراً ، كما طلب من أقارب الضحايا دفع نفقات المحاكمة^(١٩) . وفي هاينبرج بالنمسا أعدم ثمانون بتهمة السحرة في عامي ١٧ - ١٦١٨ وقيل أنه في ١٦٢٧ - ١٦٢٩ أعدم أسقف وورنبرج ٩٠٠ من السحرة^(٢٠) . وفي ١٥٨٢ أصدر الناشرون البروتستانت من جديد ، وبموافقة منهم «مطرقة السحرة» التي كان المحققون قد اكتشفوا أنها كانت جاكوب سبرنجر قد نشرها في ١٤٨٧ ، وهي عبارة عن توجيهات وإرشادات تفيد في الكشف عن السحرة وفي محاكمتهم . وأصدر أوغسطس ناخب ساكسونيا في ١٥٧٢ قراراً بإحراق السحرة حتى الموت حتى ولو لم يؤذوا أحداً . وفي اللينجن أحرقت ١٥٠٠ من السحرة في ١٥٩٠ ، وفي اللوانجن ١٦٧ في ١٦١٢ ، وفي وسترسهاتن ٣٠٠ في عامين^(٢١) . وكادت ثمة موجات مماثلة في أوسنابروك ١٥٨٨ ، ونوردلينجن ١٥٩٠ ، وفي ورتمبرج ١٦١٦ . على أن هذه الإحصاءات الأخيرة مأخوذة عن نشرات صحفية معاصرة معروفة بعدم الدقة . ويقدر الباحثين الألمان جملة من أعدموا بتهمة السحر بمائة ألف في ألمانيا في القرن السابع عشر^(٢٢) .

وأرتفعت أصوات قليلة تدعو الناس إلى العقل . وقد رأينا في مكان آخر احتجاجات يوهان ويروريجنالد سكوت ، كما رأينا كيف حول مونتيني مرحة المتشكك إلى هذه الحمى (حمى قتل السحرة) في مقاله «الأعرج أو الكسبيح» : «كم هو طبيعي ومقبول أن أجد رجلين يكذبان ، أكثر من أن رجلاً يمكن في اثنتي عشرة ساعة أن تحمله الريح من الشرق إلى الغرب ٠٠٠ أو أن يحمل

أحدنا على مكثسة خلال مدخنة (٢٣) ، أن من يؤمنون بهذا أحوج ما يكونون إلى الدواء والعلاج ، لا الموت ، وحتى إذا ما انتهى كل شيء ، فما هي إلا مغالاة في قدرة المرء على الحكم عن طريق الحدس والتخمين مما يؤدي إلى أحراق المرء حيا ، (٢٤) . وهاجم كورنيليوس لوس ، الأستاذ الكاثوليكي في ماينز ، مطاردة السحرة في كتابه « بين السحر الحقيقي والزائف » (١٥٩٢) ، ولكنه قبل أن يتمكن من نشره ، أودع السجن واضطر أن يعترف علنا بأخطائه (٢٥) . وثمة جزويتى آخر ، هو الشاعر الورع فرديريك فون سبي ، فإنه بعد أن عمل كاهن اعترف لماتتى شخص متهمين بالسحر . استنكر الاضطهاد في كتاب جرىء « Cautio Criminalis » . (١٦٣١) ، سلم فيه بوجود السحرة ، ولكنه رثى للقبض عليهم لمجرد شبهات لا أساس لها ، ولبعد المحاكمات عن شرعة الانصاف ، وللتعذيب الغاشم الذى كان يمكن أن يجبر ، حتى فقهاء الكنيسة وأساقفتها على الاعتراف بأى شيء (٢٦) .

ولكل خصم من هذا القبيل أثنى عشر محاميا ينبرون للدفاع عن الظلم ، فإن رجال اللاهوت البروتستانت مثل توماس أرامستوس في ١٥٧٢ ، ورجال اللاهوت الكاثوليك مثل الأسقف بنزفلد (١٥٨٩) انفقوا على أن السحر حقيق وأن السحرة يجب أحراقهم . وأقر الأسقف التعذيب ، ولكنه أوصى بشنق السحرة التائبين قبل أحراقهم (٢٧) . وأيد المحامى والفيلسوف الكاثوليكي جين بودين الاضطهاد والتعذيب في كتابه « حى العفاريات » ، ١٥٨٠ ، وبعد عام واحد ترجم الشاعر البروتستانتى يوهان فسكارت هذا الكتاب ووسع فيه مع تقدير بالغ له ، وانضم إلى بودين فى الحث على أخذ السحرة بشدة لا ترحم ولا تدين (٢٨) .

ومهما يكن من أمر فإن هذه الحمى خفت حذتها ، فعندما أصبحت حرب الثلاثين حربا سياسية بشكل صريح سافر ، لم يعد الدين يحتل مكانا هاما فى كراهيات الناس وحزاناتهم . وانتشرت الطباعة وكثرت الكتب ، ونهضت

المدارس ، وفتحت الجامعات ، وأسهم المسكافون الصابرون سنة بعد أخرى ، بوضع لبنة في البناء الناشئ ، بناء العلم والمعرفة . وفي مائة من المدن مكف المحبون للاطلاع على اختبار الفروض بالتجارب . وتقلص نطاق ماهو خارق للطبيعة ببطء ، ونما نطاق ماهو طبيعي وديوي . أنه تاريخ موضوعي مجرد قائم ، مؤلف من شظايا ، وهو أعظم مسرحية في الأزمنة الحديثة .

٢ - انتقال المعرفة

إن الأبطال الأولين هنا هم الطابعون الناشرون الذين غدوا بحرى المداد الذى تدفقت منه المعرفة من عقل إلى عقل ، ومن جيل إلى جيل . واستأنفت داراستين الكبيرة للذشر ، نشاطها في جنيف على يد هنرى استين الثانى ، وفي باريس بفضل روبرت استين الثالث . ونشأت أسرة مثل هذه (نحو ١٥٨٠) فى ليدن كان على رأسها لويس الزفير ، ونهض أبناؤه الخمسة وحفداؤه وابن لأحد حفدته ، بالعمل ، وحملت اسمهم طريقة معينة للطباعة . وفى زيورخ اكتسب كريستوفر فروشير شهرة فى تاريخ الطباعة والثقافة بطبعاته الدقيقة للكتاب المقدس .

وهيات دور الكتب ماوى جديدا للذخائر القديمة . ولقد عرفنا مكتبة بودليان فى أكسفورد ومكتبة الاسكوريال ، ومكتبة امبروزيانا فى ميلان (١٦٠٦) . وضمت كاترين دى مديتشى كثيرا من المجلدات والمخطوطات إلى مايعرف الآن بالمكتبة الوطنية . وبدا لافلين أن مكتبة الفاتيكان الجديدة التى أسسها البابا سكستس الخامس (١٥٨٨) « هى أنعم وأجمل وأحسن مكتبة أثانا فى العالم » (٢٦) .

وبدأ ظهور الصحف : فى ١٥٠٥ كانت صحيفة « الأخبار » تطبع فى ألمانيا ، فى ورقة واحدة ، بشكل متقطع . وما جاء عام ١٥٩٩ حتى كانت

هناك ٨٧٧ نشرة من هذا النوع ، وكأها غير منتظمة . وأقدم صحيفة منتظمة معروفة في التاريخ هي صحيفة Avis Relation oder Zeitung الأسبوعية التي أُمست في أوجزبرج ١٦٠٩ ، وكانت تصم تقارير لوكلاء منششرين في مختلف أنحاء أوروبا ، ينقلها التجار والصيارفة ، واستمرت في الظهور حتى ١٨٦٦ ، صحيفة « بريد فرانكفورت » التي أُمست في ١٦١٦ . وبدأت صحف أسبوعية بمائة في الظهور في فيينا ١٦١٠ ، وفي بازل ١٦١١ . وسرعان ما بدأ فيشارت يسخر من الجمهور « الذي يصدق الصحف » ومن تليفه الساذج على الأخبار . أن النقل المفروض غير الملائم الأبناء فوت على الجمهور أي أسهام رشيد مخطط في السياسة ، ومن ثم جعل الديمقراطية أمرا بعيد المنال .

وكانت الرقابة على المطبوعات عامة شاملة بطريقة عملية ، في العالم المسيحي بأسره : الكاثوليك والبروتستانت ، ورجال الدين والعلمانيون على حد سواء وفي ١٥٧١ شكلت الكنيسة « لجنة من السكرادلة لتحديد الكتب المحظورة » ، لحماية المؤمنين من الكتب التي تعتبر مسيئة للكنيسة . ولم تكن الرقابة البروتستانتية بمثل قوة الرقابة الكاثوليكية وصرامتها ، ولكنها جادة مثابة مثلها . وقد نشطت في إنجلترا واسكتلندا واسكندناوة وهولندا وألمانيا وسويسرا^(٢٠) . وهياً تباين التعاليم في مختلف الدول للهرطقة أن يتغلبوا ، بشكل أو بآخر ، على الرقابة بنشر كتبهم في الخارج ، وإدخال بعض النسخ منها سراً . والأدب الحديث مدين للرقابة ببعض ما يتسم به من سخريته وظرف وبراعة .

وفي مختلف الترجمات ، ظل الكتاب المقدس يفسر بأنه « كلمة الله » ، وواصل رسالته بوصفه أعظم الكتب شعبية وانتشارا ، وأعظمها أثرا في العقيدة واللغة ، يلي حتى في السلوك ، فإن أسوأ الأعمال الوحشية - الحروب والاضطهادات - عمدت إلى اقتباس النصوص المقدسة لتبرير ارتكابها . ومذا انحسرت الروح الإنسانية التي تميز بها عصر النهضة ، قبل قيام الإصلاح

الديني ، فإن التعبد بالكتاب المقدس حل محل الإعجاب الأعمى بالأدب الوثنية القديمة . و نارت فتنة واضطراب حين اكتشف العلماء أن الإنجيل (العهد الجديد) لا يكتب باللغة اليونانية الكلاسيكية بل بلغة الناس ، وليكن علماء اللاهوت أوضحوا أن « الروح القدس » استخدم الأسلوب العام المشترك حتى يتيسر للناس فهمه وأصاب الناس غم جديد عندما خلص لويس كابل - الأستاذ البروتستانتي للعبرية واللاهوت في « سومور » ، إلى أن الحروف اللينة وعلامات النطق في النص العبري الذي اعتمده الكنيسة للعهد القديم (التوراه) ، إن هي إلا إضافات أضافها إلى النصوص الأقدم عهدا ، يهود طبرية المازوريون في القرن الخامس ق . م . أو بعده . وأن الحروف المربعة في النص المعتمد كانت آرامية بديلة عن الحروف العبرية . وتوسل جوهانس بوكستورف الأكبر ، أعظم علماء عصره . إلى كابل أن يطوى هذه الآراء عن الجمهور ويحتفظ بها لنفسه ، حتى لا تسمى إلى إيمان الناس بالإيحاء اللفظي للكتاب المقدس . ومع ذلك نشر كابل آراءه في ١٦٢٤ ، وحاول يوهانس بوكستورف الأصغر أن يدحضها ويفندها ، محتجا بأن النقط وعلامات النطق موحى بها من عند الله كذلك . واستمر الخلاف طوال القرن وتخلت الأرثوذكسية آخر الأمر عن النقط ، ومن ثم أخذت خطوة متواضعة نحو اعتبار الكتاب المقدس أعظم أسلوب أو تعبير مهابة وجلالا لدى الشعب . وينتمي إلى هذه الحقبة نفر من أشهر العلماء أو الباحثين في التاريخ . منهم جوستوس ليسيوس ، الذي تردد على جامعتي لوفان وليدن ، وتأرجح بين السكائوليكية والبروتستانتية وذاع صيته في أوربا بفضل طباعته المصوبة لكتيب تاسيتس وبلوتس وسنكا ، وتفوق على كل الأجيال السابقة في كتاب « فن الأجرومية » (١٦٣٥) . ورثى لغناء المدينة الأوربية الوشيك ، ولسكنه هدا من روعه واستبشر خيرا « بسطوع شمس امبراطورية جديدة في الغرب » - يعني « الأمر يكتين » (٣١) .

وورث جوزيف جوستوس سكاليجر « وربما كان أعظم أستاذ فذ في

سعة المعرفة والاطلاع ظهر في العالم (٢٢) ، نقول ورث عن أبيه الشهير يوليوس قيصر سكاليجر ، عرش البحث العلمي في أوربا . ففي آجن في جنوب غربي فرنسا ، اشتغل بكتابة ما يمليه عليه هذا الوالد . ونهل العلم والمعرفة طوال حياته . فقرأ هو ميروس في ثلاثة أسابيع ، ووفق في قراءة كبار الشعراء والمؤرخين والخطباء الإغريق . وتعلم العبرية وثمان لغات أخرى . وتجراً على دراسة الرياضيات والفلك و «الفلسفة» (التي كانت آنذاك تشمل الفيزياء والكيمياء والجيولوجيا والبيولوجيا) ودرس القانون لمدة ثلاثة أعوام . وربما ساعدت دراسته للقانون على شحن ملكة النقد عنده ، لأنه في الطبقات التي أصدرها للمؤلفين القدامى مثل كاتولوس وتيبولوس وبروبرتيوس وغيرهم أثار نقداً متعلقاً بالنصوص لأحداس عشوائية لقوانين الإجراءات والتأويل أو التفسير . وكان ينظر بعين الاحترام الرشيد للتاريخ أو تحديد الأزمنة في دراسة التاريخ . وفي أعظم مؤلفاته « في تصحيح التواريخ » (١٥٨٣) ، وأذن لأول مرة بين التواريخ التي أوردها المؤرخون اليونان واللاتين ، وتلك التي وردت أو حددت في التاريخ أو التقويم أو الأدب في مصر و بابل وفلسطين وفارس والمكسيك . وجمع ورتب في كتابه « تسلسل التواريخ » . (١٦٠٦) كل مادة تاريخية في الأدب القديم ، وعلى هذا الأساس ألف أول تسلسل زمني على أساس علمي للتاريخ القديم . وهو الذي قال بأن السيد المسيح ولد في العام الرابع ق . م . وعندما ترك جوستوس لبيسوس ليدن في ١٥٩٠ عرضت الجامعة على سكاليجر كرسي « الأبحاث القديمة » فقبله بعد أن ظل ثلاث سنوات متردداً في قبوله . ومنذ تلك اللحظة حتى وفاته ١٦٠٩ ، كانت ليدن مقر العلماء .

وكان سكاليجر ، مثل أبيه مزهواً بما يزعم من تحدر أسرته من أمراء دلاسلالا في فيرونا . وكان ناقداً لاذعاً لزملائه العلماء والباحثين ، ولكن في ساعة تغاض وصفح قال إن إيزاك كازوبون ، أعظم الأحياء علماء (٢٣) . وإن حياة كازوبون لتكشف عن مزايا المحن . لقد رأى النور في جنيف لأن أبويه

كانا من الهيجونوت الذين هربوا من فرنسا ، وعادا إليها وهو في سن الثالثة وعاش لمدة ستة عشر عاما في ظل المخاطر والإرهاب أيام الاضطهاد . وكان أبوه يتغيب لفترات طويلة للخدمة في جيوش الهيجونوت . وغالبا ما اختفت أسرته في الجبال لتسكون بمنأى عن بطش الكاثوليك المسلحين . وتلقى إيزاك أول دروس في اليونانية في أحد الكهوف في جبال دوفيني وفي سن التاسعة عشرة التحق بأ كاديمية جنيف . وفي سن الثانية والعشرين صار أستاذا في اليونانية ، وتولى هذا المنصب لمدة خمسة عشر عاما وسط العوز والفقر والحصار . وعاش بشق النفس على راتبه . ولكنه كان يقتر في طعامه ليشتري الكتب . وكان يخفف من وحشية العزلة والعكوف على العلم ، بما يتلقى من رسائل سكاليجرا العظيم . ونشر طبعاات لمؤلفات أرسطو وبلايني الأصغر ، وتيوفر استوس ، سحرت الأبواب في دنيا العلم والمعرفة ، لا بمجرد تصويب النصوص ، بل كذلك بالتعقيبات البارعة على الأفكار والطرق القديمة . وفي ١٥٩٦ عندما أحمده هنري الرابع الصراع الديني ، عين كازوبون أستاذا في مونبلييه . ودعى بعد ذلك بثلاثة أعوام إلى باريس . ولكن الجامعة أوصدت أبوابها في وجوه غير الكاثوليك ، فأحاطه هنري برعايته ، كأمين للمكتبة الوطنية ، براتب محترم قدره ١٢٠٠ جنيه في العام . وقال رجل الاقتصاد صلي للعالم كازوبون إنك تكلف الملك كثيرا ياسيدي . إن راتبك يفوق راتب قائدين ، ولا تفزع رجى منك لبلدك^(٣٤) . فلما مات هنري العظيم ، رأى كازوبون أنه قد حان الوقت لقبول دعوة من إنجلترا . ورحب به جيمس الأول بوصفه رفيق علم وبمحت . . . ومنحه راتبا سنويا قدره ٣٠٠ جنيه إنجليزي . ولكن الملكة الفرنسية الوصية على العرش رفضت أن تذهب مؤلفاته في أثره وأزعجه الملك بالأبحاث ، ولم يغفر له المفكرون الإنجليز في لندن عدم تحذئه بالإنجليزية وبعد أربعة أعوام قضاها هناك ترك المعتك (١٦١٤) في سن الخامسة والخمسين . ودفن في وستمنستر .

وكان لقب د العالم ، في ذلك الزمان أكثر احتراما وتشريفا من الشاعر

أو المؤرخ . فإن العالم كان ينظر إليه بعين الإجلال والإكبار لأن دراسته
الدؤوبة حافظت على مواطن الحكمة والجمال الكامنة في الآداب والفلسفة
القديمة وعملت على تنقيتها وتوضيحها . ودخل سكاليجر جامعة ليدن دخول
الأمير الفاتح ، ولقى هناك ترحيبا كبيرا . وكانت ثمة أمم كثيرة ترغب في أن
تحوذ كلودى سوميز الذى عرفته الدنيا د عالما ، من أمثال سالامبوس وبعد
موت كانوبون أجمع العالم بأسره على أنه د أعلم الأحياء في ذلك الزمان ، وأنه
بصفة عامه معجزة الدنيا (٣٥) . فإذا فعل هذا العالم ؟ إنه ولد في برجندى ، وتلقى
تعليمه - وتحول إلى الكلفنية - في هيدلبرج . وفي سن العشرين تألق نجمه
في نشر طبعة دقيقة محققة لمؤلفات اثنين من كتاب القرن الرابع عشر عن
سلطة البابوات العليا المتنازع عليها ، وبعد ذلك بعام واحد ، نشر د خلاصة
عن النبات ، . وتوالت الكتب بعد ذلك ، حتى بلغت في جملتها ثلاثين كتابا
تميزت كلها بسعة الاطلاع وتناول كل ألوان المعرفة . وبلغ الذروة في كتاب
ضخم مكون من ٩٠٠ صفحة على نهرين بعنوان د أمثلة في تعدد جوانب الثقافة
والمعرفة ، (١٦٢٩) . وكان سولينيوس ، وهو أحد النحاة في القرن الثالث -
قد جمع في موسوعة تاريخ البلاد الأوربية الكبرى ، جغرافيتها وأعرافها البشرية
واقصادها ونباتها وحيوانها ، وجاء بعد ذلك ناشر متأخر فأطلق عليه د ثقافة
متعددة الجوانب ، ثم جاء سالامسيوس فدون على هذا النص تعليقات واسعة
تشمل كل رومه الإمبراطورية . وكان امامه أن يختار بين اثنتى عشرة دعوة
وجهت إليه ، فاختار الأستاذية في ليدن ، ثم عين في المحال رئيسا لسلكية عظيمة
وسارت الأمور سيرا حسنا ، حتى كلفه شارل الثانى ملك انجلترا الذى كان
متغيبا آنذاك في هولنده ، بأن يكتب عن إدانة كرومويل بقتل شارل الأول
وظهر الدفاع عن الملك شارل الأول في نوفمبر ١٦٤٩ بعد إعدام الملك بنحو
عشرة أشهر . ولم يرق الكتاب في عيني كرومويل ، واستأجر أعظم شعراء
انجلترا للرد عليه . وسنعود للكلام عليه مرة أخرى . وكتب سالامسيوس
ردا على ملتون ، ولكننه مات (١٦٥٣) قبل أن يتمه . ونسب إلى ملتون
نيل القضاء عليه .

وحظيت قلة ضئيلة بمثل هذا القدر الكبير من العلم والمعرفة ، بينما ظل ٨٠٪ من سكان أوروبا الغربية أميين ، وقضى جون كومنيوس أربعين عاما يكافح في سبيل النهوض بخطط التعليم في أوروبا . ولد كومنيوس في مورافيا (١٥٩٢) وارتقى إلى مرتبة أسقف الأخوة المورافيين ولم يتزعزع قط لإيمانه بأن الدين هو أساس التعليم وغايته ، فإن رأس الحكمة مخافة الله . وعلى الرغم من أن الأحقاد الدينية في زمانه جعلت من حياته سلسلة متصلة من المحن والبلايا ، فإنه بقي على إخلاصه لفلسفة التسامح في الوحدة الأخوية .

نحن أبناء عالم واحد ، يجرى في عروقنا دم واحد . وأنه لمن أشد الحماقة أن نضمر البغض والكراهية لإنسان لأنه ولد في قطر آخر ، أو لأنه يتحدث بلغة مختلفة عن لغتنا . أو لأن له رأيا مخالفا لنا في هذا الموضوع أو ذلك . إنى لأتوسل إليكم أن تكفروا عن هذا ، فإننا بشر متساوون في الإنسانية فليكن لنا جميعا هدف واحد وغاية واحدة ، هي خير الإنسانية جمعاء ، ولنطرح جانبا كل الأنازيات والآثرة القائمة على أسس من اللغة أو القومية أو الدين^(٣٦) .

وبعد تدوين كثير من النصوص التربوية ؛ لخص كومنيوس مبادئه في التربية المثلى (١٦٣٢) وهو من أهم الكتب في تاريخ التربية . أولا : يجب أن يكون التعليم عاما ، بصرف النظر عن الجنس أو مستوى المعيشة . فيجب أن يكون في كل قرية مدرسة ، وفي كل مدينة كلية ، وفي كل مقاطعة جامعة ، ويجدر أن يكون التعليم العالي متاحا لكل من يثبت القدرة على متابعته ، وينبغي أن تتولى الدولة الإنفاق على الكشف عن مواهب وقدرات المواطنين فيها ، وتدريبها والإفادة منها . ثانيا : يجب أن يكون التعليم واقعيا ، بحيث تربط الأفكار في كل خطوة بالأشياء الملموسة ، كما يجب تعليم الألفاظ باللغة الوطنية أو بآية لغة أجنبية ، عن طريق مشاهدة الأشياء التي تمثلها أو لمسها أو استخدامها

ويجب أن يتأخر تعليم النحو (الأجرومية) . ثالثا : يجب أن تكون التربية بدنية وعقلية وأخلاقية . وأن يتلقى التلاميذ تدريبات على الصحة والقوة والنشاط عن طريق ممارسة الحياة والألعاب في الهواء الطلق . ورابعا : ينبغي أن يكون التعليم عمليا ، وألا يكون حبيسا في سجن التفكير النظري ، بل مقرونا بالعمل والممارسة ، وأن يمهّد ويعد للنهوض بمهمة الحياة . خامسا : يجب تدريس العلوم تدريجيا ، بتقديم الطالب في العمر ، ويجب افتتاح مدارس البحث العلمى في كل مدينة أو مقاطعة . سادسا : ينبغي توجيه كل التربية وكل المعرفة إلى تحسين الخلق وبت التقوى في الفرد ، وإلى إشاعة النظام والسعادة في الدولة .

وكان ثمة شيء من التقدم . فإن الأمراء الألمان جدوا في تأسيس مدرسة ابتدائية في كل قرية . ونادى دوق ساكس - ويمار في ١٦١٩ بمبدأ التعليم العام الإلزامى لكل البنين والبنات من سن السادسة إلى الثانية عشرة^(٢٧) ، مع عطلة مدتها شهر في موسم الحصاد . وما وافى عام ١٧١٩ حتى عم هذا النظام ألمانيا بأسرها . وكانت المدارس الثانوية لا تزال موصدة أمام الأناث ، ولكنها تضاعفت وحسن مستواها . وفتحت في هذا العصر اثنتان وعشرون جامعة جديدة * . وكانت جامعة أكسفورد سائرة على طريقة التقدم والنجاح كما وصفها كازوبون في ١٦١٣ ، وقد تأثر بما رآه من رواتب الأساتذة ومكائهم الاجتماعية ، بالمقارنة بنظراتهم في القارة . ففي ١٦٠٠ كانت رواتب الأساتذة في ألمانيا ضئيلة إلى حد أنهم لجأوا إلى بيع الجعة والتبذير احتيالا على العيش ، وكان الطلبة في جامعة يينا يشربون ويلهون في حانات يديرها الأساتذة^(٢٨) . وتدهورت الجامعات الأسبانية بعد فيليب الثاني ، وساءت

(*) في يينا ١٥٥٨ ، جنيف ١٥٥٩ ، ليل ١٥٦٢ . ستراسبورج ١٥٦٧ ، ليدن ١٥٧٥ هلمسند ١٥٧٥ ، ولنو ١٥٧٨ ورزبرج ١٥٨٢ أدنبره ١٥٨٣ فرانكر ١٥٨٥ جراز ١٥٨٦ ، دبلن ١٥٩٦ ، لوبيين ١٥٩٦ ، هردريك ١٦٠٠ ، جيبسن ١٦٠٧ ، جروننجن ١٦١٤ ، أمستردام ١٦٣٢ . دوريات ١٦٣٢ ، بودابست ١٦٣٥ أوترخت ١٦٣٦ نووكو ١٦٤٠ بمبرج ١٦٤٨ .

أحوالها تحت وطأة محاكم التفتيش ، في الوقت الذي أسست فيه عدة جامعات أسبانية في مستعمرات أسبانيا في أمريكا - في ١٥٥١ ، في مدينة المكسيك ١٥٥٣ ، أي قبل افتتاح كلية هارفرد (١٦٣٦) بـ زمن طويل . وافتتح الهولنديون الموسرون ست جامعات في تلك الحقبة . وعندما نجحت ليدن في مقاومة الحصار الأسباني (١٥٧٤) ، وجهت الجمعية العمومية للمقاطعات المتحدة الدعوة لأهالي البلدة ، ليدن ، ليروا رأيهم فيما يمكن أن يكافأوا به ، فطالبوا بإنشاء جامعة ، وكان لهم ما أرادوا . وكانت السلطات الدينية تسيطر على أمور التعليم في الأقطار الكاثوليكية والكلفنية . وفي إنجلترا والبلاد اللوثرية كان رجال الدين يديرون معظم التعليم تحت إشراف الدولة . وفي كل الجامعات تقريبا ، باستثناء بادوا ، كان مطلوبا من المعلمين والطلبة أن يعتنقوا المذهب الرسمي ، وكانت الدولة والكنيسة كملتاهما تحدد من الحرية الجامعية بدرجة كبيرة . وقضت الخلافات الدينية على الصبغة العلمية للجامعات ، فانحصرت الطلبة الأسبان في أسبانيا ، ولم يعد الطلبة الانجليز يلتحقون بجامعة باريس . وظلت أكسفورد حتى ١٨٧١ تفرض على طالب الدرجة الجامعية الموافقة على مواد الكنيسة الرسمية التسع والثلاثين . ومال الفسكرك الأصيل الخلاق إلى الاختفاء من الجامعات ، والنسج ملجأ في الأكاديميات الخاصة والدراسات غير النظامية أو غير النمطية .

وهكذا قامت في هذا العصر أكاديميات خاصة ، لارقيب عليها ، للدراسة والبحث ، وخاصة في مجال العلوم . وفي رومه ، في ١٦٠٣ أسس فدريجوسيزي ، مركز هيرتبلود أكاديمية ذوى البصر الحاد ، التي التحق بها جاليليو ١٦١١ ، وحدد دستورها هدفها :

إن جامعة ذوى البصر الحاد تتطلب من أعضائها الفلاسفة أن يكونوا تواقين إلى المعرفة الحقة ، وأن ينصرفوا بكليتهم إلى دراسة الطبيعة ، وبخاصة الرياضيات ، ولن تهمل في الوقت

نفسه أو تزيف مناهجها بالأدب والدراسات اللغوية الجميلة التي يزدان بها ، بوصفها حلما وجواهر كريمة ، نطاق العلم بأكملة ، وليس في خطة هذه الأكاڤيمية أن تفسح المجال للخطب والمجادلات ويجدر بها أن تغضى في عدوه وصمت عن كل الخلافات السياسية . وعن أى لون من المهارات الكلامية (٣٩) .

وحدث هذه الجامعة ١٦٣٠ ، ولكن في ١٦٥٧ واصلت السير على نهجها أكاڤيمية دل شيمنتو (التجربة والبرهان) . وسرعان ما تأسست جمعيات مماثلة في إنجلترا وفرنسا وألمانيا . حتى يتسنى للروح العلمية الملهمة في العلوم أن تضع الأسس الفكرية والتكنولوجية للعالم الحديث .

٣ _ أدوات العلم ومناهجه

كان لزاما ، منذ البداية ، أن تكون هناك آلات علمية . فما تستطيع العين المجردة أن تبصر بوضوح كاف ، على مسافة بعيدة ، أو بأشياء بالغة الدقة . إلى الحد المطلوب ، وما يستطيع الجسم أن يمس بدقة تامة ضغط الأسماء أو حرارتها أو وزنها . وما يستطيع العقل أن يقيس المسافة والزمن والكمية والنوعية والكثافة دون أن يختلط بين توازنه الشخصى وبين الحقائق ، ومن ثم كانت الحاجة ماسة إلى المجهر (الميكروسكوب) ، والمقرب (التلسكوب) ، وبميزان الحرارة (الترمومتر) ومقياس الضغط (البارومتر) . ومقياس الثقل النوعى للسوائل (الهيدرومتر) وإلى ساعات أدق وإلى موازين أكثر حساسية .

كتب جامباتستا دالابورتا في « سحر الطبيعة » (١٥٨٩) بالعدسة المقعرة تبدو الأشياء أصغر ولكن أوضح ، وبالعدسة المحدبة تراها أكبر ولكن أقل وضوحا في معالمها ، فإذا عرفت على أية حال ، كيف تجمع بين النوعين على نحو سليم ، لأمكنتك أن ترى الأشياء على البعد والقرب كبيرة واضخمة معا (٤٠) .

تلك كانت القاعدة التي بنى عليها المجهر ومنظار الميدان ومنظار الأوبرا ، والمقراب ، أى أنها مجموعة من المخترعات ، وكلها متنوعة الأنسجة . وكان المجهر البسيط . أى العدسة المحدبة الواحدة ، معروفة لأمطويل . أما الاختراع الذى حول البيولوجيا فهو الميكروسكوب المركب الذى يجمع بين عدة عدسات لامة . ونمت صناعة شحذ العدسات وصقلها بصفة خاصة فى الأراضى الوطیئة وعاش سينيوزا عليها ومات بها . وحوالى ١٥٩٠ جمع صانع النظارات المدعو زخار ياس جانس ، فى مدلبرج ، بين عدسة مزدوجة مقعرة وأخرى مزدوجة محدبة ، ليضع أقدم مجهر مركب معروف : وبفضل هذا الاختراع ظهرت البيولوجيا الحديثة والطب الحديث .

وجاء بعد ذلك تطبیق آخر لهذه القواعد تحول علم الفلك . ذلك أنه فى ٢ أكتوبر ١٦٠٨ قدم صانع نظارات آخر فى مدلبرج ، هو هانز لبرشى . إلى الجمعية العمومية للمقاطعات المتحدة (التي ما زالت فى حرب منغ أسبانيا) وصفا لآلة يمكن بها رؤية الأشياء من مسافة بعيدة . إن لبرشى وضع عدسة مزدوجة محدبة والعدسة الشبكية ، على الطرف البعيد من أنبوبة ، وعدسة مزدوجة مقعرة العينية ، على الطرف القريب . وأدرك المشرعون القيمة العسكرية لهذا الاختراع فكافأوا لبرشى بتسعمائة فلورين . وفى ١٧ أكتوبر أثبت رجل هولندى آخر - جاكوس متيوس ، أنه كان قد صنع من تلقاء نفسه ومن وحى تفكيره هو ، آلة مماثلة . وما أن سمع جاليليو بهذه التطورات حتى صنع آلة التلسكوب (المقراب) الخاصة فى بادوا (١٦٠٩) ، التي كبرت الأشياء إلى ثلاثة أمثالها ، وتلك هى الآلات التي كبر بها العالم . وفى ١٦١١ اقترح كبلر أنه يمكن الحصول على نتائج أفضل ، إذا عكست أوضاع العدسات فى اختراع جاليليو ، باستخدام العدسة المحدبة فى العينية ، والمقعرة فى الشبكية . وفى ١٦١٣-١٦١٧ صنع الجرويتى كرسنوف شينر ، على هذا الأساس ، مقرابا تلسكوب ، أفضل ، بيد أنه أدخل شيئا من التحسين على ما كان معروفًا من قبله^(١) .

وفي الوقت عينه ، وعلى نفس الأسس التي كانت معروفة لدى «هيرو» ،
السكندري في القرن الثالث الميلادي أو قبله ، كان جاليليو قد اخترع
(حوالي ١٦٠٣) مقياسا للحرارة (ترمومتر) . بأن وضع الطرف المفتوح
للأنبوبة زجاجية في وعاء من الماء ، وكان طرفها الثاني عبارة عن بصيلة زجاجية
(منفتح الترمومتر) فارغة ، عمد إلى تسخينها بملامستها ليديه . فلما سحب يده
بردت البصيلة ، وارتفع الماء في الأنبوبة . وفي ١٦١٣ قسم جيوفاني ساجريدو ،
صديق جاليليو ، الأنبوبة إلى مائة درجة .

وجاء أفانجيلستا تورشلي ، أحد تلاميذ جاليليو ، فأحكم سداد أحد
طرفي أنبوبة طويلة ، وملاها بالزئبق ، وأوقفها بظرفها المفتوح مغمورة في
وعاء به الزئبق ، فلم يفيض زئبق الأنبوبة إلى الوعاء . وأرجع علماء الفيزياء
هذه الظاهرة إلى «اشتمزاز الطبيعة من الفراغ» . وأرجعها تورشلي إلى ضغط
الهواء المحيط على الزئبق في الوعاء . وعللها بأن الضغط الخارجي لا بد أن يرفع
الزئبق في الوعاء إلى الأنبوبة الخالية المفرغة من الهواء . وأثبتت التجربة صحة
ما ذهب إليه . وأوضح أن التغييرات في ارتفاع الزئبق في الأنبوبة يمكن
استخدامها مقياسا للتغيرات في الضغط الجوي ، ومن ثم صنع في ١٦٤٣ أول
مقياس للضغط الجوي (البارومتر) الذي لا يزال الآلة الأساسية في الأرصاد
الجوية .

ومنذ تزودت العلوم بهذه الأدوات الجديدة ، فإنها اتجهت إلى الرياضيين
تسألهم طرقا أفضل للحساب والقياس وللتدوين بالعلامات والرموز واستجاب
نايير ويرجي - كما عرفنا - لهذا النداء باللوغاريتمات ، وأورد بالمسطرة
الحاسبة ، ولكن كانت ثمة نعمة أكبر باختراع الطريقة العشرية وكانت بعض
آراء أو مقترحات اجتهادية قدمهدت الطريق ، كما هي العادة . فإن الكاشي السمرقندي
(المتوفى ١٤٣٦) كان قد أوضح أن النسبة التقريبية بين محيط الدائرة وقطرها
هي : ٣,١٤٩٢٦٥٣٥٨٩٨٧٣٢ ، وهذا كسر عشري - مستخدما مسافة

ببعضها بدلا من النقطة ، أى العلامة العشرية بين الكسر والرقم الصحيح . ثم جاء فرانسيسكو بللوس من مدينة نيس ١٤٩٢ فاستخدم النقطة العشرية وشرح سيمون ستيفينوس الطريقة الجديدة فى رسالة تعتبر فاتحة عصر جديد ، هى « الطريقة العشرية » (١٥٨٥) عرض فيها كيف « تعلم بسهولة لم يسمع بها من قبل أن تودى كل المسائل الحسابية بالأعداد الصحيحة دون كسور ، و نفذ « النظام المترى » فى قارة أوروبا أفكاره فى قياس الأطوال والأحجام والعملة . ولكن الدائرة والساعة أقرتا بفضل الرياضيات البالية ، فاحتفظنا بالقسمة الستينية .

وفى ١٦٣٩ نشر جيرارد دسارج رسالة ممتازة عن القطع المخروطى . وأحيا فرانسوا فيير الباريسى دراسة علم الجبر التى كانت قد ضعفت ، باستخدام الحروف للدلالة على مقادير معروفة أو مجهولة على حد سواء واستيق ديكارت فى تطبيق الجبر على الهندسة ، وأنشأ ديكارت الهندسة التحليلية فى ومضة من مضات الالهام ، حين اقترح التعبير على الأعداد والمعادلات بأشكال هندسية والعكس بالعكس (ومن ثم يمكن إيضاح التناقض المستمر فى قيمة العملة فى فترة معينة فى رسم بياني إحصائي) ؛ وأنه من معادلة جبرية تمثل شكلا هندسيا ، يمكن جبريا استخراج نتائج تثبت صحتها هندسيا ، ولذلك يمكن استخدام الجبر لحل المسائل الهندسية العويصة . واقتن ديكارت باكتشافاته إلى حد أنه ذهب إلى أن هندسته أسمى من هندسة اسلافه قد رسموا فصاحة شيشرون على حروف الهجاء عند الأطفال (٤٢) . أن هندسته التحليلية ونظرية كافا ليرى عن « غير القابل للانقسام أو التجزئة » (١٦٢٩) وتربيع لبلر التقريبي للدائرة . وقياس روبرفال للنخط المنحني ، وتورشلى وديكارت ، إن كل أولئك عبدوا الطريق أمام ليبنتز ونيوتن لاكتشاف التفاضل والتكامل .

وبانت الهندسة الآن هدف كل العلوم بقدر ما هي أدواتها . ولحظ كبير أن العقل إذا هجر « ملكة الكمية ، فإنه يهيم في متاهات الظلام والشك » (٤٣) . وقال جاليليو عن الفلسفة وهو يقصد « الفلسفة الطبيعية » أو العلوم :

ان الفلسفة مدونة في هذا السفر الضخم ، ألا وهو الكون الذى يقف دوما مكشوفاً أمام أعيننا نحملق فيه كيف نشاء . ولكن لن يتسنى لنا فهم هذا الكتاب إلا إذا تعلمنا ، أول الأمر ، كيف نعى اللغة ونقرأ الحروف التى تتألف منها . أن هذا السفر مكتوب بلغة الرياضيات (٤٤) ،

وتتطلع ديكارت وسبينوزا إلى تحويل الميتافيزيقا (علم ما وراء الطبيعة) نفسها إلى صيغة رياضية .

وبدأ العلم الآن يحرر نفسه من أغلال أمه وهى الفلسفة . لقد هن كتفيه لأرسطو غير مبال به . وأدار ظهره للميتافيزيقا متجها نحو الطبيعة ، وطور وسائل التمييز لديه ، وسعى لتحسين حياة الانسان على الأرض . أن هذه الحركة تنتسب إلى قلب عصر العقل ، ولكنها لم تؤمن كل الايمان ولم تثق كل الثقة « بالعقل الخالص » - أى العقل المستقل عن التجريب والاختبار . وم من مرة ضل مثل هذا التفكير ، ونسج خيوطا واهية مضللة . أن العقل والتقاليد والسلطة يجب الآن ضبطها وكبح جماحها بدراسة الحقائق المتواضعة وتسجيلها . ومهما قال المنطق ، فيجدن العلم ألا يتقبل الا ما يمكن قياسه كمثاً ، والتعبير عنه رياضياً ، وإثباته بالتجربة

٤ - العلم والمادة

اندفعت العلوم خطوات إلى الأمام فى تسلسل منطقي ، خلال التاريخ الحديث :

الرياضة والفيزياء في القرن السابع عشر، والكيمياء في الثامن عشر، والبيولوجيا في التاسع عشر، وعلم النفس في القرن العشرين .

والشخصية البارزة في تلك الحقبة هي جاليليو . ولكن تمة أبطال كثيرين أقل شأنًا جديرون بالذكر فقد أسهم ستيفينوس في تحديد قوانين البكرة والرافعة ، وأجرى دراسات قيمة في ضغط الماء ، ومركز الجاذبية ، ومتوازي أضلاع القوى ، والمستوى المائل . وحوالي ١٦٩٠ في دلمت ، استبق جاليليو في تجربته المزعومة في بيزا ، حيث أوضح - على خلاف الاعتقاد القديم - أنه إذا ترك جسمان من نوع واحد مهما اختلفا في الوزن ، يسقطا معا من عل فإيهما يصلان إلى الأرض في وقت واحد^(٥٥) . ووضع ديكارت قانون القصور الذاتي ، في صيغة بالغة الوضوح - وهو أن أى جسم يظل في حالة الجمود أو في حركة مستقيمة إلا إذا تأثر بقوة خارجية . وسبق هو وجاسندي ، إلى نظرية الجزيئات في الحرارة . وأسس رسالته في « الأرصاد ، (١٦٣٧) على الكوزمولوجيا (علم الكويونات يبحث في أصل الكون وبنية العامة وعناصره ونواميده) التي لم تعد مقبولة ، ولكن هذه الرسالة أسهمت كثيرا في وضع أسس الأرصاد الجوية كعلم من العلوم . وتوسع تورشلي ١٦٤٢ في دراساته عن الضغط الجوي لتشمل ميكانيكا الرياح ، حيث ذهب إلى أن هذه هي التيارات الموازية التي تنجم عن الاختلافات المحلية في كثافة الهواء . أما جاسندي ، ذلك الرجل المشهور بالمهامه بكل العلوم ، فإنه تابع التجارب في قياس سرعة الصوت ، وتوصل إلى أنها ١١٤٣٧ قدما في الثانية . وأعاد صديقه الكاهن ، مارتن مرسن ، التجربة ، وقرر أنها ١١٣٨٠ قدما ، وهذا أقرب إلى الرقم السائد ، وهو ١١٠٨٧ ووضع مرسن في ١٦٣٦ السلسلة الكاملة للنتجات التوافقية التي يحددها سالك رنان .

وتركزت أبحاث البصريات حول مسائل الانعكاس والانكسار العريضة ، وبخاصة عند مشاهدتها في قوس قزح . وحوالي ١٥٩١ وضع ماركو أنطونيو

دى دومينيس رسالة في « الضوء » أوضح فيها تكوين قوس قزح الرئيسي ، (وهو الوحيد الذي يمكن رؤيته بصفة عامة) على أنه راجع إلى إنكسارين وانعكاس واحد لضوء على قطرات بخار الماء في السماء أو الرذاذ . وتكوين قوس قزح الثانوى (وهو قوس من الألوان في ترتيب عكسى ، يرى أحيانا بشكل باهت ، خارج القوس الرئيسى) . على أنه راجع إلى إنكسارين وانعكسين . وفي ١٦١١ عالج كبلر في رسالة « الانكساريات » موضوع انكسار الضوء في العدسات . وبعد ذلك بعشر سنين جاء ولبرورد سنل من ليدن ، وصاغ قوانين الانكسار في دقة جعلت من الميسور اجراء حساب أدق لعمل العدسات في الضوء ، وصنع ميكروسكوبات وتلسكوبات أفضل . فطبق ديكارت هذه القوانين على الحساب الميكانيكى لزوايا الاشعاع في قوس قزح . أما تفسير ترتيب اللون فكان لزاما أن ينتظر بحىء نيوتن .

وأدى بحث جاليلت - الذى يعتبر بداية عصر جديد - فى الجاذبية الأرضية إلى سلسلة طويلة من النظريات والتجارب . واقترح فيانوس سترادا عضو جمعية يسوع ، الارسال البرقى (١٦١٧) ، وذلك بأن يتصل رجلان الواحد منهما بالآخر ، من بعيد ، عن طريق استخدام الفعل المتجانس لبرتين مغناطيسيتين وضعنا بحيث تشيران فى وقت واحد إلى حرف هجاء واحد بعينه ، وفى ١٦٢٩ أدلى جزويتى آخر ، نيقولو كايو ، بأول وصف عرفه العالم للتنافر الكهربى . وجاء عالم آخر هو أنناسيوس كيرشر ، فوصف فى كتابه « المغناطيس » (١٦٤١) قياس المغناطيسية بتعليق مغناطيس فى إحدى كفتى ميزان ، ومقاومة تأثيره بوضع موازين فى السكفة الأخرى . وعزا ديكارت المغناطيسية إلى تأثير الجزيئات التى تنفثها الدوامة الكهربى التى اعتقد هو أن الأرض نشأت عنها .

وكانت الكيمياء القديمة (الخيمياء) لاتزال شائعة ، وخاصة كبديل ملكى لخفض قيمة العملة . فكان الامبراطور رودلف الثانى ، وناخبو سكسونيا

وبراندانبرج والبالاينيات ، ودوق برنزويك وكونت هس ، يستخدمون جميعا
أرباب الكيمياء القديمة لصنع الفضة أو الذهب^(٤٦) . ومن هذه التجارب ومن
الحاجة إلى علم المعادن وصناعة الصباغة ، ومن الحاح الطبيب الألماني
باراسلوس على الدواء الكيمياوى ، من هذا كله بدأ علم الكيمياء يتشكل .
وكان أندريا ليبافايوس يمثل هذا الانتقال من الخيمياء إلى الكيمياء . وكان
مؤلفه « الدفاع عن خيمياء تحويل المعادن الخسيسة إلى معادن ثمينة » (١٦٠٤)
استمرارا للسعى وراء المطلب القديم ، ولكن كتابه « الكيمياء » (١٥٩٧)
كان أول رسالة منهجية في الكيمياء العملية الحديثة . واكتشف باراسلوس
كلوريد القصدير ، وكان أول من صنع سلفات الأومنيوم ، وكان من أوائل من
اقترح نقل الدم كعلاج . وكان معمله في كوبرج لإحدى عجائب المدينة . ووضع
جان بابتستافان هلمونت — وهو نبيل ثرى أكب على العالم وصرف همه في
تقديم الخدمات الطبية للفقراء — وضح اسمه بين مؤسسى الكيمياء بتمييز
الغازات عن الهواء وتحليل أنواعها وتركيبها . ونحت لفظة « غاز » من اللفظة
الأغريقية Chaos وحقق إكتشافات كثيرة في مجاله المختار ، ابتداء من الغازات
المتفجرة في البارود ، إلى امكانيات الاشتعال في « ريش الإنسان »^(٤٧) واقترح
القلويات في علاج الحوضنة المفرطة في الجهاز الهضمى . وأوصى يوهان جلوبر
بيللورات سلفات الصوديوم للاستعمال كعلاج يمتاز من الظاهر أو من الباطن .
ولا يزال « ملح جلوبر » يستخدم كملين . ان جوهر وهلمونت كليهما اشتغل
بالخيمياء (أو الكيمياء القديمة) كهواية .

وأسهمت كل هذه « العلوم الطبيعية » في تحسين الانتاج الصناعى ،
وأدوات القتل في المحروب . وطبق الفينيون المعرفة الجديدة بالحركات والاضغوط
في السوائل والغازات ، وتكوين القلوى ، وقوانين التذبذب ، ومسارات
الاسقاط والقذف ، وتنقية المعادن . واستخدم البارود في تفجير المناجم (١٦١٣)
وفي ١٦١٢ اخترع سيمون ستورثفانث طريقة لانتاخ لحم الكوك ، لتخليصه

من العناصر المتطايرة . فهذا « الكوك » له قيمته وأهميته في صناعة المعادن ، لأن شوائب الفحم العادى تصر بالحديد ، وقد حل محل الفحم النباتى وأخذ الغابات . وقلت تكلفة صناعة الزجاج ، حيث عم استعمال زجاج النوافذ في ذلك العصر . وينمو الصناعة تضاعفت المخترعات الميكانيكية . لأنها كانت تعود إلى أبحاث العلماء أقل منها إلى مهارات الصناع الذين يتوقون إلى توفير الوقت . ومن هنا فاننا نسمع لأول مرة عن المخراط اللولبي في ١٥٧٨ ، واطار الحليك و الربط في ١٥٨٩ . والمسرح الدائر في ١٥٩٧ ، وآلة درس القمح وقلم الخبز في ١٦٣٦ .

وقام المهندسون آنذاك بأعمال فذة تستحق الاعجاب حتى في أيامنا هذه ، فقد رأينا كيف أن دومنيكو فونتانا هز رومه باقامة مسلة في ميدان القديس بطرس . وابتدع ستفينوس مهندس موريس ناسو ، نظام البوابات للتحكم في السدود - وهي حارسة جمهورية هولندا . واستخدم منفاخ ضخمة في تهوية المناجم ، والمضخات المعقدة في رفع المياه إلى أبراج لتضغط المياه إلى البيوت والتافورات في المدن مثل أوجز برج وباريس ولندن وأنشئت قناطر ترووس على أساس القاعدة الهندسية البسيطة وهي أن المثلث لا يمكن أن يعدل شكله إلا بتغير طول أحد الجوانب . وفي ١٦٢٤ سارت غواصة تحت الماء لمسافة ميلين في نهر التاميز^(٤٨) . وتقدم جيروم كاردان وجامباتستا دلابورتا وصالوموندى كوز بنظرية الآلة البخارية خطوة إلى الأمام ، وفي ١٦١٥ وضع كوز وصفا لآلة لرفع الماء بفعل قوة تمدد البخار^(٤٩) .

ولم تكن الجيولوجيا قد ولدت بعد ، حتى اللفظ نفسه لم يكن موجودا ، وكانت دراسة الأرض تسمى « علم المعادن » وجمال النظر بعين الإجلال إلى قصة « الخلق » في التوايرة دون المقامرة بالبحث في نشأة الكون . ورمى برنارد هاليبي والزيدقة لإحيائه الفكرة القديمة التي تقول بأن الأحافير والمستحاثات ليست إلا بقايا متحجرة لكائنات ميتة . وغامر فيكارت بالقول

بأن الكواكب السيارة بما فيها الأرض كانت يوماً كتلا متوهجة مثل الشمس، وعندما برد الكوكب، كون قشرة من السوائل والمواد الصلبة فوق نازمركزية داخلية، أنتج دخانها الينابيع الحارة والبراكين والزلازل (٥٠).

وتقدمت الجغرافيا بفضل البعثات التبشيرية والرواد والتجار الذين أرادوا نشر دياتهم أو التوسع في العلم والمعرفة أو التجارة . وفي ١٥٦٧ وما بعدها ارتاد الملاحون الأصبان البحار الجنوبية، وكشفوا جزيرة جوادالكانال وغيرها من جزر سليمان - وسميت كذلك على أمل العثور هناك على كنوز سليمان . وزار المبشر البرتغالي بيكوياس (الذي أخذ أسيراً في الحبشة (١٥٨٨) ، النيل الأزرق ، وحل لغزاً قديماً بأن فيضان النيل المنتظم ليس له من سبب إلا فعل الأمطار في مرتفعات الحبشة. وواضح أن وللم جانسزون كان أول من وطئت قدماه أرض أستراليا (١٦٠٦) . وكشف آبل تسمان تسمانيا ونيوزيلند (١٦٤٢) وجزر فيجي (١٦٤٣) ودخل التجار الهولنديون سيام وبورما والهند الصينية . ولكن المعلومات عن هذه البلاد وعن الصين ، وردت إلينا أساساً عن طريق المبشرين الجزويت . وبأمر من هنري الرابع ملك فرنسا ارتاد صمويل تشاملن ساحل نوفاسكوشيا وصعد في نهر سانت لورنس إلى قرب مونتريال، وأسس أتباعه مدينة كويك ، وبنوا على الخريطة البحيرة التي تحمل اسمه .

وكافح صانعو الخرائط حتى لا يتخلفوا كثيراً عن الرواد والمستكشفين، ومنهم جيراردوس مركيتور (جير هارد كيريم) الذي درس في لوفان، وأسس محلاً لصنع الخرائط والأدوات العلمية والكسرات الأرضية . وفي ١٥٤٤ قبض عليه وحوكم بتهمة الهرطقة ، ولكن تفضي العواقب الوحيدة ، فوجد على أية حال أنه من الحكمة أن يقبل دعوة وجهت إليه من جامعة دوزبرج ، حيث أصبح رساماً للخرائط لدى دوق جوليس كليمنز (١٥٥٩) . وطوال حياته التي امتدت اثنين وثمانين عاماً ، جهد مركيتور دون كلل أو ملل في رسم خرائط

للفلاندرز والورين وأوربا والأرض . وفي مؤلفه المشهور « الوصف الجديد
الدقيق للأرض وطرق الملاحة » (١٥٦٨) أدخل نظام « الأسقاط المركاتوري ،
في الخرائط الذي أدى إلى تيسير الملاحة . بإظهار دوائر خطوط الطول موازية
بعضها لبعض ، ودوائر العرض خطوطا مستقيمة ، وكلتا المجموعتين من
الخطوط تشكل زوايا قائمة ، الواحد منها مع الآخر . وفي ١٥٨٥ شرع في
اصدار « أطلسه » الكبير (ونحن مدينون له بالفضل في استخدام هذا اللفظ) ،
محتويا على إحدى وخمسين خريطة ، في إتقان ودقة لم يسبق لهما مثيل ، ووصف
فيها الأرض المعروفة آنذاك . ودخل صديقه أبراهام أورتل في مبارات معه
بكتابه « مدار الأرض » (أنتورب ١٥٧٠) . أن هذين الرجلين
كليهما حرر الجغرافيا من ارتباطها الألفي السعيد ببطليموس (الفلكي الإسكندري
في القرن الثاني الميلادي) ، ووضعها في شكلها الحديث . حتى بفضلها احتفظ
المولنديون بما يكاد يكون اختكارا تاما لصناعة الخرائط طيلة قرن
من الزمان .

ه - العلم والحياة

وكان على علم الإحياء (البيولوجيا) أن ينتظر قرنين من الزمان حتى
يتسنى الذروة ، ونشأ علم النبات على مهل من خلال الدراسات الطبيعية للأعشاب
العلاجية واستيراد النباتات الغريبة إلى أوربا وجلب المبشرون الجزويت
لحاء الشجر من بيرو (الكينين) والونيلية (نبات أمريكي استوائي ، الفانيليا)
والراوند . وأدخل البطاطس حوالي ١٥٦٠ من بيرو إلى أسبانيا ، ومنها انتشر
في أنحاء القارة . ووصف برسيرو ألبيني أستاذ علم النبات في بادوا خمسين نباتا
أجنيبا زرعت مجددا في أوزبا . ومن دراساته لتخيل البلح استدل على التكاثر
الجنسي في النبات الذي أوضحه تيوفراستوس في القرن الثالث ق . م . يقول
ألبيني : « إن إناث نخيل البلح لا تحمل ثمرا إلا إذا اختلطت أغصان الأشجار
الذكور والأشجار الإناث بعضها ببعض ، أو كما يحصل عادة ، إلا إذا تناثر

الغيار الموجود في غلاف الأشجار الذكور أو أزهار الأشجار الاناث (٥١) .
وقد يقسم لناؤوس فيما بعد النباتات وفقا لطرق تكاثرها ، ولكن الآن في
١٥٧٣ قدم أندريا سيسالينو الفلورنسى أول تقسيم منهجي للنباتات ، ١٥٠٠
نوع منها - على أساس بذورها وثمارها المختلفة . وأورد جامبار بوهين
(من مدينة بازل) في مؤلفه الضخم « جدول عالم النبات » (١٦٢٣) تصنيفا
لنحو ٦٠٠٠ نبات ، وبذلك استبق ما أنجزه بعد ذلك ليناؤوس من تصنيف
وتسمية ثمانية تبعا للجنس والصنف ، وقضى بوهين أربعين عاما في إعداد
« جدول النبات » ، ومات بعد ستة من صدوره ، وبقي مرجعا أساسيا لمدة
ثلاثة قرون .

وبدأت معشبات الأطباء الخاصة تتطور الآن إلى حدائق نباتية تديرها
الجامعات أو الحكومات للجمهور . وكان لأقدمها التي أسست في بيزا ١٥٤٣ ،
شهرة كبيرة أيام سيسالينو . وأسس في زيورخ حديقة نباتية في ١٥٦٠ ،
ثم في بولونا وكاسل وايدن وليبزج وبرسلا وبازل وهيدلبرج وأكسفورد .
وفي ١٦٣٥ نظم جى دى لا بروس - طبيب لويس الثالث عشر - حديقة النباتات
الطبية ، المشهورة في باريس ، أما حدائق الحيوان ، بوصفها معارض للوحوش
لتسلية الجماهير ، فقد وجدت في الصين (١١٠٠ ق م) وفي رومه القديمة ،
وفي المكسيك أيام الأزتيك (حوالى ١٤٥٠) ، أما الطراز الحديث فقد افتتح
في درسدن في ١٥١٤ ، وفي فرساي في عهد لويس الثالث عشر .

ولقي علم الحيوان عناية أقل مما لقي علم النبات ، لأنه قدم علاجات أقل ،
اللهم إلا في الطب الأسطوري أو الخرافي ، وفي ١٥٩٩ شرع بوليس ألدروفاندى
في نشر ١٣ مجلدا ضخما في التاريخ الطبيعى ، وعاش حتى رأى ستة منها في
المطبعة ، ونشر سناتو بولونا السبعة الباقية من مخطوطات المؤلف على نفقة
الدولة . ولم يحتل مكان هذه المجلدات أو ينسخها إلا كتاب بوفون « التاريخ
الطبيعى » (١٧٤٩ - ١٨٠٤) . وابتدأ الجزويتى المتعدد الثقافات أنناسيوس

كبير شر علم الأنسجة العضوية بكتابه الذى وصف فيه (١٦٤٦) الديدان المتناهية الصغر التى وجدها مجهره (الميكروسكوب) فى المواد المتعفنة . أن الاعتقاد بتوالد الكائنات الدقيقة توالدا تلقائيا من اللحم المتعفن أو الفاسد ، أو حتى من الطين ، كاد يكون سائدا تماما ، ولو أن هارفى كان على وشك أن يدحضه فى كتابه « توالد الحيوان » ، (١٦٥١) . وكان علم الحيوان متخلقا ، لأن نفر اقليل من المفكرين رأوا الأجداد العليا للحيوان كما رأوهم فى الإنسان ولكن فى ١٦٣٣ كتب جاليليو إلى دوق تسكانيا الأكبر : « ولو أن التباين بين الإنسان وسائر الحيوان هائل جدا ، فإنه يمكن القول بحق بأنه أكثر قليلا من التباين بين نبي البشر أنفسهم ^(٥٢) » . أن العقل الحديث كان يرتد ببطء إلى ما عرفه الاغريق قبل ذلك بألفى عام .

وآوى علم التشريح إلى شيء من الركود بعد جهود فيساليوس . وكان تشريح الجثث لا يزال محل معارضة - كما فعل هو جو جروتيموس ^(٥٣) . ولكن « دروس التشريح » للكشيرة فى الفن الهولندى تعكس الارتياح العام إلى هذا العمل . والاسم اللامع هنا ، مثلما هو فى الجراحة هو جيولامو فابريزيو أكوابندانت . تلميذ فللوبيو وأستاذ هارفى . وفى أثناء رياسته لجامعة بادوا شيدت هناك قاعة التشريح الكبرى - وهى المبنى الوحيد المحفوظ به كاملا من تلك الحقبة ، إن اكتشافه للصمامات فى الأوردة ، ودراساته فى تأثيرات الأربطة قادتا هارفى إلى شرح الدورة الدموية وتقدمت المعرفة بدورة السوائل فى الجسم خطوة إلى الأمام بكشف جاسبارو أسللى للأوعية اللمفاوية التى تنقل الكيلوس الشبيه باللبن (مستحلب الطعام المهضوم قبل امتصاصه) من الأمعاء الدقيقة . والحق أن أسللى ، على الرغم من اسمه « الجحش الصغير » وصف الدورة الدموية قبل أن ينشر هارفى نظريته بست سنين . وكان اندريا ميديسا البيينو قد شرح النظرية الأساسية (١٥٧١) قبل هارفى بنصف قرن . وظل يتعلق بالفكرة القديمة ، وهى أن بعض الدم يمر من الحجاب الحاجز للقلب ، ولاكتنه

اقترب ، أكثر من هارفي ، من شرح كيفية انتقال الدم من الشرايين إلى الأوردة إن أنبل الجيوش كانت تتقدم على مائة جبهة لتخوض أعظم الحروب والمعارك لإنها معارك العلم .

٦ - العلم والصحة

وفي هذا النضال من أجل العلم والمعرفة ، كانت المعركة الأساسية هي معركة الحياة ضد الموت ، وهي معركة خاسرة على الصعيد الفردي ، ظافرة بانتظام على المستوى الجماعي . وكم للأطباء والمستشفيات ، في نضالهم لعلاج الأمراض والآلام ، من أعداء بشريين في القذارة الشخصية ، والقذارة العامة ، والسجون الكريهة الرائحة والمثيرة للاشمئزاز ، والدجالين وجرعاتهم السحرية ، والمتصرفين العلميين ، ومعالجي الفتق ، ندبي الحجارة ، ومعالجي اعتام عدسة العين ، وخالعي الأسنان ، هواة تحليل البول . وسارت الأمراض الجديدة في سباق مع العلاجات والأدوية الجديدة .

وكان مرض الجذام قد اختفى ، وقللت الوسائل الوقائية من الإصابة بمرض الزهري ، وكان فالوبيو قد اخترع (١٥٦٤) غلافات من الكتان لإتقاء عدوى هذا المرض . (وسرعان ما استخدم هذا لمنع الحمل ، وكان يباع لدى الحلاقين والمومسات أو أصحاب المواخير^(٥٤)) . ولكن أوبئة التيفوس والتيفود والحمى والمالاريا والدفتريا ، والاسقربوط والانفلونزا والجدرى والدوسنتاريا ، ظهرت في تلك الحقبة في عدة أقطار في أوروبا ، وبخاصة ألمانيا . وثمة احصاءات قد يكون مبالغاً فيها ، بأن الوفيات بلغت ٤٠٠٠ من الطاعون الدملي في بازل ١٥٦٣-١٥٦٤ ، وأن ٢٥٪ من سكان فريبورج - أم - بريزو ماتوا بالطاعون ١٥٦٤ ، و ٩٠٠٠ في ردمستوك ، و ٥٠٠٠ في فرانكفورت ١٥٦٥ ، ٤٠٠٠ في هانوفر ، و ٦٠٠٠ في برونزويك^(٥٥) ١٥٦٦ . وعزا السكان المذعورون مثل هذا للطاعون إلى دس البسيموم عمدا . وفي فرانكشتين في سيليزيا أحرق ١٧ شخصا

أحياء حتى الموت للاشتباه في أنهم دسوا السم^(٥٦). وكانت وطأة الطاعون الدملي شديدة جدا في فرانكفورت في ١٦٠٤ حتى لم يعد هناك من الرجال من يكفى للقيام بدفن الموتى^(٥٧). وتلك مبالغاة واضحة ، ولكن يروى عن مصادر موثوقة أنه بسبب الطاعون الدملي في إيطاليا ١٦٢٩ - ١٦٣١ مات في ميلان ٨٦ ألفا ، وفي جمهورية البندقية ما لا يقل عن ٥٠٠ ألف ، وفيما بين ١٦٣٠ - ١٦٣١ كان عدد ضحايا الطاعون مليون شخص في جنوب إيطاليا وحده^(٥٨) ، وقلبا سار معدل الانجاب عند النساء مع شدة الدهاء وسعة الخيلة في إزهاق الأرواح . وضوعفت آلام الوضع بتزايد عدم جدواه . وكانت نسبة الوفيات في الأطفال تبلغ خمس المواليد قبل إتمام السنة الثانية من العمر^(٥٩) وكانت الأسرات كبيرة والسكان قليلين .

وكانت الصحة العامة آخذة في التحسن ، والمستشفيات يتضاعف عددها وتعلم الطب يصطبغ بالثبوت والصرامة - ولو أنه كان من الميسور الاشتغال بالطب دون الحصول على درجة علمية . وكان في بولونا وبادوا وبارزلوليدن ومونيلبيه وباريس مدارس طب ذائعة الصيت تجذب إليها الطلاب من كل أنحاء أوروبا الغربية . وأمامنا مثال فذ من البحث الضبي الدقوب طيلة ثلاثين عاما من التجارب حاول بها سانكتور يوس تحويل العمليات الفسيولوجية إلى نظم كمية . وأنجز قدرا كبيرا من عمله بينما كان جالسا إلى مائدة على ميزان كبير ، وسجل ما يطرأ على وزنه من تغيرات عند دخول أو خروج المواد الصلبة والسوائل ، بل إنه وزن العرق نفسه . ووجد أن جسم الإنسان يخرج بضعة أرتال يوميا عن طريق التنفس العادي . وانهى إلى أن هذا شكل جوهرى من أشكال الطرد أو التخلص من الزوائد . واخترع مقياسا طبييا للحرارة (١٦١٢) وآخر للنبيض ، ليعاون هذا وذلك في تشخيص الأمراض .

وكان العلاج يتدرج من الضفدعة إلى العلقة . ووصف بمض مشاهير الأطباء ، كعلاج ، الضفادع المجففة تخاط في كبس يعلق على الصدر ، كصيدة

يتصيد ويمتص الهواء الفاسد المسموم المحيط بالجسم في المناطق المصابة بالطاعون^(٦٠) . وجمعوا بين امتصاص الدم بالعلقات أو بالحجم ، وبين تناول مقادير كبيرة من الماء ، على أساس أن بعض السائل الداخلى إلى الجسم سوف يتحول إلى دم جديد غير ملوث . وكانت ثمة مدرستان للعلاج بتباريان على الفريسة ، وهو المريض : مدرسة العلاج الميكانيكى التى نشأت عن آراء ديكارت التى تقول بأن كل عمليات الجسم ميكانيكية ، ومدرسة العلاج الكيمياءى التى بدأها باراسلسوس ، وطورها هلمونت . والتى تفسر كل وظائف الأعضاء بأنها كيميائية . وكانت المعالجة المائية العلمية شائعة . وكانت المياه العلاجية موجودة فى باث انجلترا ، وفى سبا فى الأراضى الوطية ، وفى بلومبير فى فرنسا ، وفى أماكن أخرى كثيرة على الراين وفى إيطاليا ، وقد رأينا مونتيني يجرب العلاج بالمياه فى هذه الأماكن ، ونثر حصى السكلى طوال الطريق . وأدخل إلى أوربا عقاقير جديدة ، مثل الناردين (حوالى ١٥٨٠) ، والأتيمون (الأتمد) حوالى ١٦٠٣ ، وعرق الذهب (١٦٢٥) ، والسكينين (١٦٣٢) . ودون دستور الصيدلة والأدوية فى انجلترا (١٦١٨) نحو ١٩٦٠ عقارا . ويذكر مونتيني علاجات خاصة ادخرها نفر من الأطباء لمرضاهم الصبورين

القدم اليسرى لسلفحة ، بول السحلية ، روث الفيل ، كبد حيوان الخلد ، الدم المستخرج من الجناح الأيمن للحمامة بيضاء . وبالنسبة للمصابين بحصى السكلى مثلئى روث الفأر المسحوق . . . وغير ذلك من السخافات التى توحى بالسحر والتعاويد أكثر منها بالعلم الجاد^(٦١) .

وكانت مثل هذه العلاجات التافهة الغريبة باهظة التكاليف إلى حد مشير وكان الناس فى القرن السابع عشر يثنون من أثمان الدواء أكثر مما يضحون من أجور الأطباء^(٦٢) .

وترك طب الأسنان للحلاقين ، وكان يقوم في معظمه على الخلع . وكان بين « الحلاقين الجراحين » آنذاك جماعة من المحترفين المهرة ، من أمثال امبرواز بارى ، فرانسوا روست ، اللذين أحيا الخلع القيصري ، وجسبارو طليبا كوتسي المتخصص في إعادة تشكيل الأذن والأنف والشفة ، من لدائن البلاستيك ، وقد اتهمه الأخلاقيون بالتدخل في صنع الله ، ونبشت رفاة من الأرض المطهرة ، ودفنت في أرض غير مقدسة (٦٣) . وكان ولهم فبري « أبو الجراحة في ألمانيا » أول من أوصى ببتز العضو أو الطرف فوق الجزء المصاب . وأورد جيوفني كول أقدم وصف معروف لعملية نقل الدم (١٦٢٨) .

وامتعض المرضى من أجر الطبيب ، كما هو الحال في كل العصور . وسخر الممثلون الهزليون من ردائه الطويل وحذائه الاحمر ، ومن رزائنه ووفاره وهو إلى جانب فراش المريض ، وإذا كان لنا أن نصدق هجوم الممثلين الهزليين الفكاهيين ، فإن مكانته الاجتماعية لم تكن تغلو كثيرا من مرتبة المعلم ، ولكننا لو رجعنا إلى تاريخ درس التشريح ، لمربرانت ، لشهدنا طبقة من الرجال تتمتع بمنزلة رفيعة في المجتمع ، قادرة حتى على الاسهام في لوحة عظيمة . أن أعظم فلاسفة ذلك العصر ، الذي كان يحلم ، كما يحلم كل منا ، بمستقبل أفضل للبشرية ، فكسر في تحقيق حلمه على أساس تحسين الخلق الانساني والنهوض بالعلوم الطبية ، بوصفهما أكثر العوامل ملائمة لمثل هذه الثورة ؛ وفي هذا يقول ديكارت : « إن العقل نفسه يعتمد كثيرا على سلامة أعضاء الجسم وتمظيم أدواتها لوظائفها ، إلى حد أنه إذا كان من الميسور أن نفتش عن وسيلة تزيد بها من عقل الإنسان وقدرته ، فاعتقادي أنه ينبغي أن نلتمسها في الطب والدواء ، (٦٤) .

٧ - من كوبرنيكس إلى كبلر

لقد تركنا علم الفلك لنعرض له في خاتمة المطاف ، لأن أبطاله ، وهم يقتربون من نهاية هذه الفترة ، يشكلون العناصر الرئيسية فيها .

أن نفس الكنيسة التي كان عليها أن تخرس جاليليو ، قادت الطريق إلى أحد المنجزات العظمى في علم الفلك الحديث - ألا وهو إصلاح التقويم . أن مراجعة التقويم التي كان قد قام بها سوسينزايوليوس قيصر حوالي ٤٦ ق.م . أدت إلى زيادة السنة بأحدى عشرة دقيقة و ١٤ ثانية . ومن ثم فإنه في ١٥٧٧ تخلف التقويم اليولياني عن تعاقب الفصول بنحو ١٢ يوماً ، وبذلك لم تقع أعياد الكنيسة في المواعيد التي قصد لها أن تقع فيها . ولم من محاولات بذات لإصلاح التقويم : في عهد كليمنت السادس ، سكستس الرابع ، ليو العاشر - ولكن نشأت عوائق جمّة ، منها عدم اتفاق الجميع على حل معين . وعدم توفر المعرفة الدقيقة بالفلك . وفي ١٥٧٦ قدم إلى البابا جريجوري الثالث عشر تقويم قام بتصويبه لوجي ججليو . وأحاله البابا إلى لجنة من اللاهوت والمحامين ورجال العلم ، ومن بينهم الجزويق البافاري كرسوفر كلافيوس الذي اشتهر بتضليله في الرياضيات والفلك ، وواضح أن المخطط النهائي كان من صنعه . واستمرت المفاوضات طويلة مع الأمراء والأساقفة لتحقيق تعاونهم في هذا المجال وأثيرت اعتراضات كثيرة وأخفقت المساعي التي بذلت للحصول على موافقة الكنائس الشرقية . وفي ٦٤ فبراير ١٥٨٢ وقع البابا جريجوري الثالث عشر المرسوم الذي أقر « التقويم الجريجوري » في العالم الكاثوليكي . ومن أجل التعادل بين التقويم القديم والحقايق الفلكية ، حذفت عشرة أيام من شهر أكتوبر ١٥٨٢ ، أي أن اليوم الخامس اعتبر اليوم الخامس عشر ، وعمدوا من أجل ذلك إلى ضروب معقدة من الحسم والخصم في حساب الفوائد وغيرها من المعاملات التجارية . وللتعويض عن الخطأ في التقويم اليولياني ، فانهم زادوا في سنوات القرون التي تقبل القسمة على ٤٠٠ ، يوماً في شهر فبراير ليصبح ٢٩ يوماً .

وعارضت البلاد البروتستانتية هذا التغيير. وتمرد الأهالي في فرانكفورت (على نهر السين) وفي بريستول، اعتقاداً منهم بأن البابا أراد أن يسلبهم عشرة أيام بل أن موثني نفسه زجر وشكا، وهو الشديد الطمع في الزمن، فقال « إن ما عمد إليه البابا أخيراً من اختصار عشرة أيام من السنة قد أزعجني إلى حد أني لا أكاد استرد عافيتي^(٦٥)، ولكن التقويم الجديد — الذي لن يحتاج إلى تصويب آخر لمدة ٣٣٣٣ سنة — أخذ بالتدريج يلقي قبولا في الولايات الألمانية في ١٧٠٠، وفي إنجلترا في ١٧٥٢، وفي السويد في ١٧٥٣، وفي روسيا ١٩١٨*).

وثمة تلاكؤ شبيه بهذا حدث في ارتضاء وتقبل فللك كوبرنيكس. وكان من الممكن دراسته وتعليمه في إيطاليا، لو أنه عرض على أنه فرضية قابلة للجدل، لا على أنه حقيقة واضحة^(٦٦). ودافع عنه جيوردانو برونو، وتساءل بالفعل كمبا نللا إذا كان سكان الكواكب الأخرى ظنوا أنفسهم، كما يظن أهل الأرض، أنهم مركز الأشياء، وهدفها^(٦٧). وتسايق اللاهوتيين البروتستانت مع الكاثوليك عامة في إستنكار الطريقة الجديدة، ودحضها ببيكون وبودين على السواء^(٦٨). والأغرب من هذا كله أن أعظم الفلكيين في نصف القرن التالي لوفاة كوبرنيكس (١٥٥٣)، رفضها كذلك.

ولد تيكوبراهي في ١٥٤٦، في مقاطعة سكانيا التي كانت آنذاك ديمركية

(*) من الناحية المثالية كان يمكن تقسيم السنة إلى ١٣ شهرا في كل منها ٢٣ وما، مع يوم أجازة لا تاريخ له (أو يومين في السنة السكبيسة) في نهاية العام. ومن ثم يكون التقويم في الصحيفة الواحدة، مع بعض إشارات دواراة للدلالة على الشهر والسنة، نافعا لسكل الشهور إلى ما لا نهاية، حيث يقع كل يوم من أيام الأسبوع في نفس الدوا ربيع على مر الشهور والأعوام. ويمكن أن تنقسم سنة العمل إلى شهور متساوية وارباع متساوية. ولكن هذا، مع اشد الأسف قد يزعب القديسين ويوقمهم في حيرة.

وهي الآن في الطرف الجنوبي للسويد ، وكان أبوه عضواً في مجلس الدولة الدنمركي ، وأمه مديرة ملابس الملكة . أما عمه اليرى جورجى الذى انفطر قلبه غما لأنه لم ينجب أولاداً ، فقد اختطفه ، وتملق أبويه واسترضاها بكل الوسائل ، ابتغاء موافقتهما ، وهياً للطفل كل فرص التعليم ووسائله . وفى سن الثالثة عشرة التحق تيكو بجامعة كوبنهاجن . وطبقاً لما ذكره جاسندى ، انجذب تيكو إلى الملك عندما سمع أحد المعلمين يناش موضوع كسوف شمس قادم . ولحظ حدوث الكسوف كما تنبأوا به ، وعجب لهذا العلم الذى بلغ مثل هذه القدرة على التنبؤ ، واشترى نسخة من كتاب بطليموس « المجسطى » ، وأكب عاينها إلى حد أهمال سائر الدراسات . ولم يتخلى قط عن النظرة الهندسية التى تجلت فى القرن الثانى من عصرنا .

وفى سن السادسة عشرة نقل إلى جامعة ليزج ، حيث درس القانون بالنهار ، ودرس النجوم بالليل . وحذروه من أن مثل هذا العمل قد يؤدى إلى انحطاط فى الجسم ولإهيار فى الأعصاب . ولكن تيكو أصر وثابر ، وأنفق كل ما يحصل عليه فى شراء الآلات الفلكية ، وفى ١٥٦٥ مات عمه ، تاركا له ثروة كبيرة . وأسرع تيكو ، بعد تسوية أموره ، إلى وتبرج ، لمزيد من الرياضيات والفلك ، ثم غادرها فراراً من الطاعون ، إلى روستوك ، وهناك اشترك فى مباراة أطاحت بجزء من أنفه ، فاحذأ أنفاً برافاً جداً من الفضة والذهب ظل به بقية حياته . وانهمك فى التنجيم ونبأ بموت سليمان القانونى ، ليجد أن السلطان قد فارق الحياة بالفعل^(٦٩) . وبعد كثير من التجوال فى ألمانيا عاد إلى الدنمرك ، وشغل نفسه بالكيمياء . وأعادته إلى الملك ككشف نجم جديد فى مجموعة ذات الكرسى (١٥٧٢) . أن ملاحظاته السعيدة لهذا النجم المتنقل ، وما كتبه عنه فى أول مؤلف نشر له « النجم الجديد » ، أكسبها شهرة فى كل أنحاء أوربا . ولكن أزعجا بعض وجهاء الدنمرك الذين اعتقدوا أن التأليف ضرب من حب الظهور الذى لا يلىق بالدم الأزرق . وأذهلهم

تيكو بزواجه من بنت فلاحة . ويبدو أنه أحس بأن زوجة ورثة بيت بسيطة،
خير رفيق لفلكى منصرف بكليته إلى الفلك ، وأحسن صنو منفتح سمح
لرجل ذى أنف ذهبي .

ولما لم يقنع تيكو بالتسهيلات الفلكية في كوينهاجن ، فإنه اتخذ طريقه
إلى كاسل ، حيث كان الدوق وليم الرابع قد بنى ١٥٦١ أول مرصد ذى
سقف دوار ، وطور يوست بوجى ساعة حائط ذات رصاص (بندول)
جعلت من الميسور تحديد أوقات رصد النجوم وحركاتها فى دقة لم يسبق لها
مشيل . وامتلاً تيكو حماساً جديداً أعاد إلى كوينهاجن ، وأثار اهتمام فردريك
بمشروع لإقامة مرصد . فوضع الملك تحت تصرفه جزيرة هفين (فينوس)
فى مياه السويد . وأجرى عليه راتباً كبيراً ، واستطاع تيكو بهذا المال بالإضافة
إلى موارده الخاصة ، أن يشيد هناك قصرأ وحدائق أطلق عليهما أورانيبرج
(مدينة السماء) ، وكانت تضم مساكن ومكتبة ومعامل وعدة مرصد ومصنعا
لما تحتاج إليه من آلات . ولم يكن لديه مقراب (تلسكوب) ، حيث كان
لا بد من انتظار ثمانية وعشرين عاماً حتى يتم اختراعه - على أن أرصاد تيكو
هى التى قادت كبلر إلى اكتشافات قيمة كانت فاتحة لعصر جديد .

وطيلة لإحدى وعشرين سنة فى جزيرة هفين جمع تيكو وتلاميذه من
المادة ما يفوق فى حجمه ودقته أية مادة معروفة من قبل . وسجل كل يوم ،
ولعدة سنوات ، حركة الشمس الظاهرية ، وكان من أوائل الفلكيين الذين
أدخلوا فى حسابهم انحراف الضوء وأخطاء الراصدين والآلات ، ولذلك عاود
أرصاده وملاحظاته مرات ومرات . وكشف عن التغيرات فى حركة القمر
ووضعها فى صيغة قانون . وأدى به تدقيقه الشديد فى تفقد أحد المذنبات فى
١٥٧٧ إلى الاعتقاد السائد فى العالم الآن ، بأن المذنبات أجرام سماوية حقيقية
تتحرك فى مدارات محددة منتظمة ، بدلا من كونها تنشأ فى الغلاف الجوى
للارض . وعندما نشر تيكو الثبوت الذى جمعه عن ٧٧٧ نجما ، وحددها
بعناية فائقة على القبة السماوية الضخمة فى مكتبته ، فإنه بذلك برر حياته .

وتوفى فردريك ثانياً في ١٥٨٨ . وكان الملك الجديد طفلاً في الحادية عشرة ، ولم يطق الأوصياء الذين تولوا الحكم صبرا على غرور تيكو براهي وحدته وإسرافه . كما فعل فردريك من قبل . وسرعان ما انخفضت المنح الحكومية ثم انقطعت في ١٥٩٧ . فمادر تيكو الدنمرك ، وأستقر به المقام في قلعة بناتك ، بالقرب من براغ ، ضيفاً على الإمبراطور رودلف الثاني الذي أمل في الحصول منه على نبوءات تنجيمية . وأحضر تيكو آلاته وسجلاته من هيمن ، وأعلن عن مساعد . لجأه كبلر (١٦٠٠) ، وعمل مع سيده للذي يصعب التعامل معه وإرصاده ، عملاً متقطعاً ، ولكنه كان مخلصاً فيه . وفي الوقت الذي كان فيه تيكو يتوق إلى الخروج من المادة الغزيرة التي جمعها بنظرية معقولة عن السموات ، دهمه وهو جالس إلى المنضدة أفندجاري المائة ، وبقي يتلوى من الآلام لمدة أحد عشر يوماً ثم فارق الحياة (١٦٠١) . وهو حزين على عدم إتمام عمله . وقال خطيب الجنائز أنه «لم يطمع في شيء سوى الوقت (٧٠)» .

٨ - كبلر : ١٥٧١ - ١٦٣١

كان أنتقال تيكو إلى براغ من حسن حظ العلم ، لأن كبلر ورث أرصاده وملاحظاته ، واستنتج منها قوانين الكواكب التي مهدت لنظرية نيوتن في الجاذبية . وبجمعت ، من براهي إلى كبلر إلى نيوتن ، ومن كوبرنيكس إلى جاليليو إلى نيوتن ، خطوط أساسية لتكوين علم الفلك الحديث .

ولد كبلر في فيل Weil بالقرب من شتتجارت، وكان أبوه ضابطاً في الجيش، طالما خرج للحرب مؤثراً ميدانها على حياة المنزل ، وأخيراً عاد وافتتح حانته اشتغل يوهان ؛ دلا فيها . وكان الصبي سقيماً معتل الصحة ، شل الجدرى يديه وأضعف باستمرار بصره . وآس منه دوق روتنبرج أنه يمكن أن يصبح واعظاً فاضلاً . فتولى الاتفاق على تعليمه . وفي توبنجن ، حول ميكائيل ما ستلن الذي كان يقوم بتدريس فلك بطليموس - حول كبلر سرّاً إلى

نظرية كوبر نيكس . وتحمس الشاب للنجوم إلى حد أنه تخلى عن التفسير في أى عمل كنسى .

وبعد الحصول على الدرجة الجامعية أصبح كبير مدرسا في ستيريا ، يعلم اللاتينية والبلاغة والرياضيات مقابل ١٥٠ جلدن في العام ، مع مسكن بالمجان ، يضاف إلى هذا ٢٠ جلدن لقاء تحرير تقويم تنجيمي سنوى . وفى سن الخامسة والعشرين تزوج كبير من سيده فى الثالثة والعشرين ، كانت قد شيعت زوجها لها إلى مشواه الأخير ، وانفصلت عن زوج ثان ، وقدمت له هذه السيدة مهراً وأتت إليه بابنة ، وأضاف هو ستة أطفال بمرور الزمن . وبعد سنة من الزواج أرغم كبير على مغادرة جراز لأنه كان بروتستانتيا (١٥٩٧) ، وكان فرديناند دوق ستيريا الجديد كاثوليكيًا صميما فأصدر أمره إلى كل رجال الدين والمعلمين البروتستانت بمغادرة بلاده . وكان كبير قد اقترف إثما آخر بنشره « الكون الخفى » (١٥٩٦) الذى دافع فيه بحماسة عن نظرية كوبر نيكس ، وأرسل نسخته منه إلى تيكو وجاليليو وملافى عونهما . وبعد سنة عانى فيها الفقر المدقع ، انقضت دعوة تيكو لإياه إلى براج . ولكن كان من الصعب التعامل مع تيكو وأرضائه . ولقى كبير عنتا فى العقيدة وفى كسب العيش . وأنتاب الزوجة مرض عصبى . بعد ذلك توفى تيكو ، وعين كبير خلفا له براتب سنوى قدره ٥٠٠ فلورين .

وكان تيكو براهى قد أوصى لكبير بسجلاته ، وام يورثه آلاته . ولما لم يستطع شراء أحسن الآلات ، فإنه وجد نفسه مسوقا إلى دراسة أرسناد تيكو وملاحظاته دون أن يضيف إليها شيئا . وما كان له أن يقول مع نيوتن « إنى اخترع فروضا ، ، بل على العكس . امتلأ رأسه بالفروض وبات بهمهم بها ، « عندى ذخيرة من المخترعات أو من ثمرات الخيال »^(٧١) . وكانت مهارته الفذة تكمن فى اختبار الفروض . كما تمثلت حكمته وعقله فى طرحها جانبا ، إذا ثبت أن النتائج التى توصل إليها رياضيا ، لا تتماشى مع الظواهر التى رصدها أولا عظما^(٧٢) . وفى محاولته لتعيين مدار المريخ جرب ٧٠ فرضا على مدى أربع سنوات .

وفي آخر الأمر في ١٦٠٤ توصل إلى كشفه الأساسى الممتاز الذى فتح عصرأ جديدا - وهو أن مدار المريخ حول الشمس عبارة عن قطع ناقص ، وليس دائرة ، كما ظن الفلكيون ابتداء من أفلاطون ومن جاء بعده بما فيهم كوبر نيكس . فالمدار المتخذ شكل القطع الناقص هو الوحيد الذى ينسجم مع الارصاد المتكررة التى قام بها تيكو وغيره . وقفز ذهن كبلر المتوقد الذكاء إلى التساؤل : ماذا لو كانت مدارات كل الكواكب على شكل قطع ناقص ؟ وبأذن إلى تفحص الفكرة على أساس الملاحظات والأرصاد المدونة ، فاتفقت معها اتفاقا يكاد يكون تاما . وفى رسالة باللاتينية عن حركات المريخ « الفلك الجديد وحرركة المريخ » . (١٦٠٩) نشر أول قانونين من «قوانين كبلر، أولهما : أن كل كوكب يدور فى مدار على شكل قطع ناقص ، الشمس إحدى بؤرتيه ، والثانى أن سرعة دوران الكوكب تزيد كلما قرب من الشمس ، لا كلما ابتعد عنها ، وأن نصف القطر الذى يمتد من الشمس إلى الكوكب يقطع ، فى دورانه مسافات متساوية فى أزمنة متساوية ، وعزا كبلر الاختلافات فى سرعة الكواكب إلى زيادة انبثاق الطاقة الشمسية التى يحسها الكوكب كلما اقترب من الشمس ، ومن هذه الناحية طور كبلر عن جلبرت فكرة الجذب المغناطيسى وهى قريبة جدا من نظرية نيوتن فى الجاذبية .

وعند موت الامبراطور رودلف (١٦١٢) انتقل كبلر إلى لنز ، وعاد ثانية إلى العيش على التعليم فى المدارس ، وماتت زوجته فتزوج من بنت فقيرة يتيمة . وفيما كان يزود بيته الجديد بالخبز ، افتتن بالصعوبة التى اقيها فى تقدير محتويات قنينة ذات جوانب منحنية . وساعد البحث الذى نشره عن هذه المسألة على التمهيد لاكتشاف حساب التفاضل (الكميات المتناهية الصغر) .

وبعد أن فكر كبلر لمدة عشر سنوات تفكيرا عميقا فى إيجاد العلاقة بين سرعة الكوكب وحجمه ، نشر فى كتابه «تناسق الكون» ، (١٦١٩) قانونه الثالث ، مربع زمن دورة الكوكب حول الشمس يقاسمب مع الجذر التكعيبي

لمتوسط بعده عن الشمس (مثال ذلك . أن زمن دورة المريخ يمكن إثبات أنه ١٠٨٨ من زمن دورة الأرض ، ومربع هذا هو ٣٠٥٣ والجذر التكعيبي لهذا هو ١٠٥٢ ، أى أن متوسط المسافة بين المريخ والشمس يصبح ١٠٥٢ من المسافة بين الأرض والشمس . وكان لكبير أن يتهج أيما ابتهاج لوضعه دوران الكواكب بمثل هذا الترتيب والانتظام إلى درجة أنه شبه كل سرعة في المدار بنغمة على السلم الموسيقي ، و انتهى إلى أن الحركات مجتمعة شكلت « تناغم النجوم ، الذى لا تسمعه ، على أية حال ، إلا روح ، الشمس . ومزج كبير عليه بالتصوف موضحا مرة أخرى مقالة جوته الكريمة . إن عيوب الإنسان هي أخطاء زمانه ، على حين أن فضائله هي من عنده . ويمكن أن نفتخر غروره حين كتب في مقدمة « تناسق الكون » ،

أن ما وعدت به أصدقائي في عنوان هذا الكتاب . . . وما أثرته منذ ١٦ عاما كموضوع يستحق البحث . وهو الذى من أجله انضمت قلى تيكوبرا هي . . . وهو الذى خصصت له أحسن سنى حياتى ، . . . قد أخرجته اليوم إلى النور . . . لم تمض بعد ثمانية عشر شهرا حين سقطت الشمس المشرقة على . . . ان يعرفنى شيء ، سوف أطلق العنان لثورقى المقدسة . . . إذا غفرت لى فلسوف أبتهج . . . ولئن غضبتم فلسوف أحتمل غضبكم . . . سبق السيف العذل . لقد وضع الكتاب ، وليس يهمنى كثيرا أن يقرأ الآن ، أو أن تقرأه الندارى والأعقاب ، ولم لا ينتظر قرنا ليجد فارنا ، كما انتظر « الله ، الاله ستة آلاف عام حتى وحد مستكشفا (٧٢) .

وفي « خلاصة فلك كوبر نيكس » (١٦١٨ - ١٦٢١) أوضح كبير كيف أن قوانينه أيدت وشرحت وأصلحت من نظرية كوبر نيكس ، فقال « لقد شهدت من أعماق نفسى بأنها صحيحة ، وإنى لأتأمل جمالها فى ابتهاج غامر لا يكاد يصدق (٧٤) ، ووضعت الرسالة فى عداد الكتب المحظورة لأنها تمت

عن أن نظرية كوبرنيكس كانت قد أثبتت . ولم ينزعج كبلر ، وهو البروتستانتى الورع . وعاش لفترة قصيرة في بحبوحة من العيش وسط التهليل والتصفيق . وكان بصفة عامة يتقاضى راتبه بوصفه فلكى الامبراطور ، ومن بريطانيا الثانية دعاه جيمس الأول (١٦٢٠) ليذهب إلى هناك ليزدان به البلاط الملكى ولكن رفض الدعوة خشية أن يعانى من أن يصبح حديسا في جزيرة (٧٥) .

وشارك كبلر أهل زمانه في الإيمان بالسحر ، واتهمت أمه بممارسته . وادعى بعض الشهود أن ماشيتهم ، بل أنهم هم أنفسهم ، قد اتنابتهم العلل لمجرد أن دفر وكبلر ، قد مستهم ، وأقسمت إحدى المشاهدات على أن ابتها البالغة من العمر ٨ سنوات قد أصابها سحر أم كلر بالمرض ، وهددت بقتل الساحرة إذا لم تبادر بإبراء البنت . وأنكرت المرأة المتهمه كل ما نسب إليها ، ولكن قبض عليها وأودعت السجن مكبله في الأغلال ، ودافع عنها كبلر في كل مراحل نظر الدعوى . واقترح المدعى العام فى الولاية أن ينتزع عنها الاعتراف بالتعذيب ، واقتيدت إلى غرفة التعذيب لترى الآلات المستخدمة فيه ، ولكنها ظلت تؤكد براءتها . وأفرج عنها بعد أن قضت فى السجن ثلاثة عشر شهرا . ولكنها ما لبثت أن ماتت (١٦٢٢) .

أن هذه المأساة بالاضافة إلى آثار نشوب الحرب هنا وهناك ، ملأت سنى كبلر الاخيرة بالغم والقنم . وفى ١٦٢٢ احتلت القوات الامبراطورية مدينة لنز وقارب سكانها أن يهلكوا جوعا . وفى وسط هذه الفوضى وأصل كبلر صياغة أرصاده وملاحظاته ، وأرصاد تيكو وغيره من الفلكيين وملاحظاتهم ، وتدوينها فى « الجداول الرودلفية » التى ضمت وصنفت ١٠٠٥ نجما ، وبقية ذات قيمة معترف بها لمدة قرن من الزمان . وفى ١٦٢٦ انتقل إلى أولم . وأبطأ به راتبه الامبراطورى ولاقى عنتا شديدا فى الانفاق على أسرته . وأهاب بدوق والنشتين أن يعينه منجا ، فكان له ما أراد ، وظل لعدة سنوات يتبع القائد يحسب له الطالع وينشر التقاويم التنجيمية . وقصد فى ١٦٣٢ إلى رجنز برج يلتمس من الديت أن يدفع له رواتبه المتأخرة .

واستنزفت الجهود ما بقي له من قوى جسمية ، فإنتابته الحمى ، وأودت بحياته في أيام قلائل (١٥ نوفمبر ١٦٣٠) وهو في التاسعة والخمسين من العمر وقد طمست الحرب كل معالم قبره .

وكانت رسالته في تاريخ الفلك أن يتوسط بين كوبرنيكس ونيوتن . وتقدم على كوبرنيكس بإحلاله المدارات ذات القطع الناقص محل المدارات الدائرية ، وبالتخلي عن الانحرافات وأفلاك التدوير ، وفي وضعه الشمس في إحدى بؤرتي القطع الناقص ، لافي مركز دائرة . وبهذه التغييرات خلص نظرية كوبرنيكس من الصعاب التي كادت تهرر رفض تيكوبراهي لها . وعن طريقه بدأت الآن فكرة القياس من مركز الشمس تلقى قبولا وتنتشر إنتشاراً واسعاً . وحول ما كان مجرد حدس براق ، إلى فرضية مصوغة في تفصيل رياضي . وأمد نيوتن بقوانين الكواكب التي قادتته إلى نظرية الجاذبية . وعلى حين احتفظ كبلر بعقيدته الدينية راسخة لا تتزعزع ، أظهر أن السكون كيان له قانون ، ونظام كامل متغاضم متناسق ، فيه قوانين تحكم الأرض كما تحكم هي نفسها النجوم . وهو يقول ، أن كل ما أصبوا إليه أن أدرك كنهه الذات الإلهية ، فأنى أجد الله في السكون الخارجي مثلما أجد في داخلي أنا ، (٧٦) .

٩ - جاليليو : ١٥٦٤ - ١٦٤٢ :

١ - الفيزيائي :

ولد جاليليو جاليلي في بيزا يوم وفاة ميكلانجو (١٨ فبراير ١٥٦٤) ، في نفس العام الذي ولد فيه شكسبير . وكان أبوه فلورنسيا مثقفاً أسهم في تعليمه اليونانية واللاتينية والرياضيات والموسيقى . ولم يكن من قبيل العبث أن يكون جاليليو ، على وجه الدقة تقريباً ، معاصراً لمتفردى (١٥٦٧ - ١٦٤٣) لأن الموسيقي كانت من ضروب عزائه وسلواه الدائمة ، وبخاصة في سنى شيخوخته التي فقد فيها بصره ، فعزف على الأرغن عزفاً جديراً بالاكبار والتقدير ،

وعزف على العود عزفاً جيداً . وأحب الرسم والتصوير ، وأبدى في بعض الأحيان أسفه أنه لم يصبح فناناً . وفي إيطاليا العجيبة التي قضى فيها شبابه ، ظل تيار النهضة يفتح الوجوه موحياً إلى الناس بالسكالم . وحزن جاليليو لأنه لم يتيسر له أن يصمم معبداً أو ينحت تمثالاً أو يصور لوحة أو ينظم شعراً أو يؤلف موسيقى أو يقود سفينة^(٧٧) ، لقد هفت نفسه إلى أن يقوم بهذا كله ، وإنما لنحس حين ندقق النظر فيه أنه لم يكن يعوزه إلا الوقت . وكان يمكن تحت أى الظروف على اختلافها ، أن يكون مثل هذا الانسان رجلاً عظيماً في أية ناحية من النواحي . ونزع جاليليو في صباه ، بطبيعته أو بحكم الظروف إلى صنع الآلات واللعب بها .

وأرسل وهو في السابعة عشرة إلى جامعة بيزا ليدرس الطب والفلسفة . وبعد سنة واحدة أنجز اكتشافه العلمي الأول - وهو إن تأرجحات البندول ، بصرف النظر عن إتساعها ، تستغرق نفس الوقت . وبإطالة ذراع البندول أو تقصيره أمكنه أن ينقص أو يزيد من معدل ذبذبته حتى تزامنت مع نبضه ، وبهذه « البلسياوجيا » (علم النبض) استطاع أن يقيس ضربات القلب بدقة .

وحوالى هذا الوقت اكتشف أقليدس ، حيث استمع مصادفة إلى معلم يدرس الهندسة لغللمان دوق تسكانيا الأكبر ، فبدأ له أن منطلق الرياضيات أسمى ، بما لا يقاس ، من الفلسفة الاسكولاستية (الفلسفة النصرانية في القرون الوسطى وأوائل عصر النهضة) وفلسفة أرسطو ، اللتين تلقاهما في قاعة الدرس فانصرف خفية ، وفي يمينه « مبادئ » ، إقليدس ، إلى متابعة دروس معلم الغلمان واهتم به المعلم ، ولقنه الدروس سرا . وفي ١٥٨٥ ترك جاليليو جامعة بيزا دون أن يحصل على درجة وانتقل إلى فلورنسة ، وبتوجيه من المعلم انصرف في ولع شديد إلى الرياضيات والميكانيكا . وبعد ذلك بعام واحد اخترع ميزاناً هيدروستاتياً ليقدر الأوزان النسبية للمعادن في سيبيكة وأثنى عليه وامتدحه كلافيوس الجزويقي لبحث في مركز الجاذبية في الأجسام الصلبة . وفي تلك الأثناء انحطت موارد أبيه ، وكان عليه أن يواجه الالتزام بكسب قوته بنفسه

فتقدم بطلبات للتدريس في بيزا وفلورنسة وبأدوا ، فرفضوا تعيينه لصغر سنه وفي ١٥٨٩ ، بينما كان هو وأحد أصدقائه يسعيان للحصول على عمل في القسطنطينية وفي الشرق ، نمت إلى عنده خلوكرسى الرياضيات في بيزا . فتقدم لشغله ، وهو قليل الرجااء في الحصول عليه . وكان بعد في الخامسة والعشرين . وعين في هذا المنصب لمدة ثلاث سنوات براتب قدره ٦٠ سكودي في العام . وكاد بهذا الراتب أن يتضور جوعا . ولكنه استطاع أن يكشف عن نشاطه وجلده .

لقد اشتد عوده إلى حد كبير ، فبدأ لفوره ، من منصة التدريس ، في شن الحرب على فيزياء أرسطو . لقد قال الإغريق د بأن الحركة إلى أسفل لأية كتلة من الذهب أو الرصاص أو أى جسم آخر يهبط نتيجة تنقله ، أسرع بالنسبة لحجمه^(٧٨) . وذهب لكريشيس^(٧٩) وليوناردو دافنشي^(٨٠) إلى هذا الرأي . وفي الأزمنة القديمة نفسها ناقش هبارخس (حوالى ١٣٠ ق . م) رأى أرسطو عن هبوط الأجسام بفعل الثقل ، . وذهب يوانس فيليبونس (٥٣٣) وهو يعلق على أرسطو د إلى أن الفرق الزمنى بين سقوط جسمين وزن أحدهما ضعف وزن الآخر ، ، هو لا شيء البتة ، وأنه فرق ضئيل جدا لا يمكن^(٨١) ادراكه وهنا نأتى إلى قصة مشهورة ، ولو أنها محل نزاع ، وردت أولا في سيرة حياة جاليليو ، التي كتبها صديقة فنشيزو فيفيانى في ١٦٥٤ (بعد ١٢ عاما من وفاة جاليليو) ، مدعيا أنها مستقاة من كلام جاليليو نفسه .

ما كان أشد فزع الفلاسفة كلهم ، حين أثبت جاليليو أن كثيرا جدا من النتائج التي استخلصها أرسطو ، زائفة ، عن طريق التجارب والبراهين الدامغة . . . من ذلك أن سرعة الأجسام المتحركة من مادة واحدة ، ولكن مختلفة الوزن ، ومتحركة في نفس الوسط لا تحتفظ بالتبادل بتناسب وزنها . كما قال أرسطو . ولكنها كلها تتحرك بنفس السرعة . مد للاعلى ذلك بتكرار التجارب من فوق برج بيزا ، بحضور

سائر المعلمين وكل الفلاسفة والطلبة . . . أنه عزز مكانة كرسى التدريس وحظى بشهرة أهاجت حقد الفلاسفة منافسيه عليه حتى ثاروا ضده (٨٢).

أن جاليليو نفسه لم يذكر شيئا عن تجربة بيزا في كتاباته الباقية . كما أنه لم يرد ذكرها فيما دونه إننان من معاصرة في ١٦١٢ و ١٦٤١ عن تجاربهما الخاصة بهما في إسقاط أجسام مختلفة الوزن من فوق البرج المائل (٨٣) ورفضت قصة فيفياني على أنها أسطورة من نسج بعض الباحثين في ألمانيا وأمريكا . وليس من المؤكد كذلك أن زملاءه الأساتذة في بيزا استاءوا . وترك هذه الجامعة في صيف ١٥٩٢ ، وربما كان السبب في ذلك أنه عرض عليه مركز أعلى ومرتب أكبر ، فراه في سبتمبر أستاذا في بادوا يدرس الهندسة والميكانيكا والفلك ، وقد حول داره إلى معمل دعا إليه طلبته وأصدقائه . وتجنب الزواج ولكنه اتخذ عشيقته أنجبت له ثلاثة أطفال .

ووضع جاليليو ما جمعه من أبحاث وتجارب ، في كتابه «محاورات حول علمين جديدين ، وذلك في أيامه الأخيرة ، قبيل وفاته ، ويقصد بهذين العلمين الاستاتيكا والديناميكا وأثبت عدم قابلية المادة للفناء . وصاغ قواعد الرفع والبكرة . وأوضح أن سرعة سقوط الأجسام سقوطا مطلقا تزيد بنسبة

(*) إن كتابات أرسطو هي في الغالب ملاحظات موجزة ، ربما توسع فيها أو عدلها في محاضراته . وربما قصد بقطمة «De Coelo» أنه في وسط مقاوم ، بما في ذلك الهواء الطلق ، تسقط الأشياء ذات الكتلة المكثفة مثل قطعة النقود ، أسرع ما تسقط الأشياء ذات الحجم الكبير والوزن الصغير مثل قطعة الورق . وهذا بطبيعة الحال صحيح . ولكن في فراغ ، تسقط قطعة النقود والورقة أو كرة من الرصاص وريشة ، بنفس السرعة . بل أنه حتى في الهواء الطلق ، فإن قطعة الورق إذا تنصنت في كتلة متضامة تسقط بنفس السرعة التي تسقط بها العملة تقريبا . وإذا لحظنا التعديل في بيان فيفياني أن الأشياء يجب أن تكون من نفس المادة . . . وأن تسقط في نفس الوسط ، فإن الهوة بين فيلسوف اليونان وعالم بيزا تضيق كثيرا .

منتظمة . وقام بتجارب كثيرة على مستويات مائلة ، وحاول أن يبرهن على أن أى جسم يتدحرج إلى أسفل على مستوى ما يمكن أن يصعد على مستوى مماثل إلى ارتفاع مماثل لسقوطه . لولا الاحتكاك أو أية مقاومة أخرى . وانتهى إلى قانون القصور الذاتى (وهو أول قوانين نيوتن للحركة) — وهو أن أى جسم متحرك، يستمر بشكل غير محدود فى نفس الخط وبنفس معدل الحركة ، ما لم تتدخل معه قوة خارجية^(٨٤) وأثبت أن أية قذيفة تدفع فى اتجاه أفقى تسقط إلى الأرض فى منححن قطعى مكافئ يقابل قوة الدفع وقوة الجاذبية . وحول العلامات المرسقية إلى مسافات موجبة فى الهواء ، وأوضح أن درجة النخم تعتمد على عدد الذبذبات التى يحدثها الوتر المعزوف فى وقت محدد . وقل بأن النغمات تبدو متوافقة متألفة إذا طرقت الذبذبات الآذان فى انتظام لإقاعى^(٨٥) . إن خواص المادة لا تكون إلا المادة التى يمكن معالجتها رياضيا — التقدم ، الوظيفة ، الحركة الكثافة . أما الخواص الأخرى — الأصوات والطعم والرائحة والألوان وما إليها ، فإنها تستقر فى الشعور فقط ، فإذا فنيتم المخلوقات الحية انمحت هذه الصفات وأبطلت^(٨٦) ، وراوده الأمل فى أن هذه الصفات الثابوتية ، يمكن بمرور الزمن تحليلها إلى خواص طبيعية أولية للمادة والحركة ، ويمكن قياسها رياضيا^(٨٧) .

وتلك إضافات أساسية ثمرة للعلم ، عوقها عدم كفاية الآلات والأجهزة العلمية . ومن ذلك أن جاليليو استخف بعامل مقاومة الهواء فى سقوطه الأجسام والقذائف . ولكن ما من رجل ، منذ أرشميدس ، أدى للفيزياء مثلما أدى جاليليو .

٢ — الفلكى :

كان جاليليو ، فى أخريات أيام إقامته فى بادوا ، يخصص جزءا أكبر فأكبر من وقته للفلك . وفى ١٥٩٦ كتب إلى كبلر (الذى يصغره بسبع سنين) رسالة يشكره فيها على كتابه « الكون الخفى » ، جاء فيها : —

لأنى لأعتبر نفسى سعيدا لأجد فى شخصك زميلا عطيا مثلك ، فى بحثى عن الحقيقة . . . وسأعكف على قراءة كتابك تحدفنى كل الرغبة فى استيعاب ما فيه ، لأنى كنت لعدة سنوات من أنصار نظرية كوبرنيكس ، ولأنه (أى الكتاب) يكشف لى عن أسباب كثير من الظواهر الطبيعية البالغة الإبهام والى لا يمكن فهم كنهها فى ضوء الفرضية المقبولة عامة . ودخضا لهذه الفرضية جمعت براهين كثيرة . ولكنى لأنشرها ، حيث يشينى عن نشرها حظ أستاذنا كوبرنيكس الذى حظى لى نفر قليل من الناس بشهرة خالدة ، ولكن لقى تجربا واستنكارا من كثرة لا يحصى عديدها (لأن عدد الأغبياء كبير جدا) . وقد أنجاسر على نشر تأملاتى إذا كثر أمثالك (٨٨) .

وأعلن جاليليو إيمانه بنظرية كوبرنيكس فى محاضرة ألقاها فى بيزا ١٦٠٤ وصنع فى ١٦٠٩ أول مقراب (تلسكوب) له ، وفى ٢١ أغسطس عرضه على السلطات الرسمية فى البندقية وإليك روايته فى هذه المناسبة : —

أن كثيرا من النبلاء وأعضاء السناتو ، برغم كبر سنهم ، صعدوا أكثر من مرة إلى قمة أعلى كنيسة فى البندقية (سان مارك) لى يروا الأشعة والمراب . . . وهى بعيدة جدا بحيث لا بد من انقضاء ساعتين قبل رؤيتها بغير منظارى المقرب . . . لأن تأثير آتى يصل إلى حد أن أى جسم على مسافة خمسين ميلا . يظهر كبيرا كما لو كان على مسافة خمسة أميال فقط . . . إن السناتو الذى عرف كيف نهضت بخدمته لمدة سبعة عشر عاما فى بادوا . . أصدر أمرا باختيارى للأستاذية مدى الحياة (٨٩) .

وأدخل جاليليو على تلسكوبه من التحسينات ما جعله يكبر الأشياء ألف مرة . وذهل لما رأى من عالم جديد من النجوم التى تبلغ عشرة أمثال ما دون عنها من قبل . وشوهد أن المجموعات الآن تتوى على عدد كبير من النجوم لا يمكن رؤيتها بالعين المجردة ، ورئى أن «بنات أطلس» ستة وثلاثون

بدلا من سبع ، وأن « كوكبة الجبار ، ثمانون بدلا من سبع وثلاثين ، وظهرت « المجرة » ، لا كتلة سديمية ، بل غابة من النجوم الكبيرة أو الصغيرة . ولم يعد القمر سطحا أملس ، بل تغضن من الجبال والأودية ، ويمكن أن يفسر ضوءه في نصفه غير المواجه للشمس بأنه ، بصفة جزئية ، راجع إلى ضوء الشمس المنعكس من الأرض . وفي يناير ١٦١٠ اكتشف جاليليو أربعة من « الأقار ، التسعة ، أو توابع المشتري . وكتب يقول : « هذه الأجسام الجديدة تدور حول نجم آخر كبير جدا ، مثلما يدور حول الشمس ، عطارد والزهرة ، وربما غيرهما من الكواكب الأخرى المعروفة ^(٩٠) ، وفي يولية اكتشف دائرة زحل الذي ظنه خطأ ثلاثة نجوم . وكان نقاد كوبرنيكس قد قالوا بأنه إذا كانت الزهرة تدور حول الشمس ، فلا بد أن يكون لها ، مثل القمر . أوجه - أي تغييرات في النور وأشكال ظاهرية ، وغالوا بأنه لا توجد أية علامة على هذه التغييرات . ولكن في ديسمبر كشف تلسكوب جاليليو عن مثل هذه الأوجه ، واعتقد بأنه لا يمكن تفسيرها إلا بدوران الكوكب حول الشمس .

إننا لا نكاد نصدق ، ولكن جاليليو أكد في رسالة إلى كبلر ، أن أسانذة بادوا أبوا أن يؤمنوا بصحة كشف جاليليو ، بل أبوا أن يشاهدوا السموات من خلال مناظيره ^(٩١) . لقد سئم الحياة في بادوا وتطلع إلى مناخ علمي أفضل في فلورنسه (التي كانت الآن تتحول من الفن إلى العلم) فأطلق على توابع المشتري اسم « سيديرا مديشيا » وهو اسم كوزيمو الثاني دوق تسكانيا الأكبر وفي مارس ١٦١٠ أهدى إلى كوزيمو رسالة باللاتينية (*Sidereus nuncius*) لخص فيها كشوفه الفلكية . وفي شهر مايو كتب إلى سكرتير الدوق رسالة تلتبب بمثل الحماسة والزهو اللذين فاضت بهما رسالة ليوناردو ولإلى دوق ميلان في ١٤٨٢ . وعدد فيها الموضوعات التي كان يدرسها ، والكتب التي يأمل أن يدون فيها ما انتهى إليه من نتائج ، وتسامل هل في مقدوره أن يحصل له من سيده على وظيفة تتطلب أقل الوقت للتدريس وأكثر الوقت للبحث . وفي

يونية عينه كوزيمو ، كبير الرياضيين في جامعة بيزا ، وكبير الرياضيين في
والفلاسفة لدى اللوق الأكبر ، ، براتب سنوى قدره ألف فلورين ، دون
التزام بالقيام بالتدريس . وفى سبتمبر انتقل جاليليو إلى فلورنسه ، دون أن
يصطحب معه خليلته .

وكان قد أصر على لقب الفيلسوف ولقب الرياضى على السواء ، لأنه أراد
أن يؤثر فى الفلسفة والرياضيات كتيهما . وأحس ، كما أحس راموس وبرونو
وتلزيو وغيرهم من قبل ، وكما كان يدال بيكون فى نفس هذا العقد من السنين .
على أن الفلسفة (التى فهمها على أنها دراسة وتفسير للطبيعة فى جميع مظاهرها)
قد ارتمت فى أحضان أرسطو ، وأنه قد حان الوقت للتحرر من الأربعين مجلدا
اليونانية ، وللنظر إلى العالم بمقولات أكثر انطلافا وعيون وعقول مفتوحة .
أنه يمكن القول بأنه وثق بالعقل ثقة كبيرة . دأتى السكى أثبت لخصوى صحة
النتائج التى انتهت إليها ، اضطررت إلى أن أثبتها بتجارب كثيرة مختلفة . ولو أنى
أنا وحدى لم أحس قط . بأنه من الضرورى أن أفوم بتجارب كثيرة (٩١) .

وكان فيه من الغرور وروح المشاكسة ما يتسم به المبشرون المجددون ،
ولو أنه تحدث أحيانا فى تواضع حكيم ، د ما قابلت قط يوما رجلا جاهلا
إلا تعلمت منه شيئا (٩٢) . وكان مجادلا عنيدا بأرعا فى طعن غريمه بعبارة ،
أو سلقه بالسنة حداد . وعلى هامش كتاب للجزويتى أنطونيو روتشو يدافع
فيه عن فالك بطلميوس ، كتب جاليليو : « جاهل ، فيل ، أحمق . غبى ،
خصى (٩٤) .

ولكن هذا كان بعد انضمام الجزويت إلى إتهامه . وقل اعطدامه بحكمة
التفتيش كان له أصدقاء كثيرون فى د جماعة يسوع ، وعمد كريستوفر
كلافوس إلى إثبات ملاحظات جاليليو بملاحظات هونفسه . وأطنب جزويتى
آخر فى مدح جاليليو على أنه أعظم الفلكيين فى ذلك العصر . وثمة لجنة من
الباحثين الجزويت ، عينها الكردينال بلارمين لفحص كشف جاليليو ،

فككتب تقريراً أيدت فيه كل النقاط^(٩٥) . وعندما قصد إلى رومه في ١٦١١
أكرم الجزويت وفادته على أنه « زميل روماني ، لهم . وكتب يقول :
« أقمت مع الآباء اليسوعيين وكانوا قد تحققوا من الوجود الفصلي للكواكب
الجديدة ، وظلوا يرصدون رصدها لمدة شهرين ، وقارنا ملاحظتنا وأرصاداتنا
فوجدناها متفقة كل الاتفاق^(٩٦) » ورحب به كبار رجال الكنيسة ،
وأكد له البابا بول الخامس شعوره الطيب الذي لا يتغير نحوه ورضاه
عنه^(٩٧) .

وفي أبريل عرض على المطارنة والأساقفة ورجال العلم في رومه نتائج
أرصاده التي كشفت عن وجود البقع الشمسية التي فسرها هو بأنها سحب . ومن
الواضح أن جاليليو كان يجهل أن يوهان فابريكيوس كان قد أعلن بالفعل عن
كشفها في بحثه « البقع الشمسية » (ويتبرج ١٦١١) ، واستبق جاليليو
فيما استخلصه من أن « دورية ، البقع تدل على دوران الشمس ، وفي ١٦١٥
وجه كرسوف شينر أستاذ الرياضيات الجزويتي في انجلوستان ، إلى ماركوس
ولزر كبير القضاة في أوجزبرج ، ثلاث رسائل زعم فيها أنه كشف البقع
الشمسية في أبريل ١٩١١ . فلما عاد جاليليو إلى فلورنسه تلقى من ولزر نسخة
من رسائل شينر ، وناقشها في بحث له « ثلاث رسائل عن البقع الشمسية ،
نشرته أكاديمية دي لنسي في رومه ١٦١٣ ، وزعم أنه رصد البقع في ١٦١٠ ،
وعرضها على الأصدقاء في بادوا . وفي ملحمة ادعاء السبق إلى كشف البقع
تخلخت أواصر الصداقة بين جاليليو والجزويت .

واقناعاً من جاليليو بأنه يمكن تفسير كسوفه على أساس من نظرية
كوبرنيكس ، شرع يتحدث عن النظرية على أنها قد تم إثبات صحتها . ولم يكن
لدى الفلاسكين اليسوعيين أى اعتراض على اعتبارها مجرد فرضية . وأرسل
شينر اعتراضاته على آراء كوبرنيكس مع رسالة يستميله ويسترضيه فيها :
« إذا أردت أن تتقدم بحجج مضادة فإنها لن تسمى إلينا فى شيء ، بل على

النقيض من ذلك ، إن كل هذا سيعيننا على إظهار الحقيقة (٩٨) . و أحسن كثير من رجال اللاهوت أن فلك كوبرنيكس كان واضحا كل الوضوح أنه لا يتفق مع ما جاء في الكتاب المقدس . وأن الكتاب المقدس سوف يفقد قيمته وأن المسيحية نفسها سوف تتأثر إذا انتشرت آراء كوبرنيكس . ماذا يمكن أن يصيب العقيدة المسيحية الأمامية إذا كان الله سبحانه وتعالى قد اختار كوكب الأرض مقرا (كرسيا) دنيويا له - هذه الأرض التي يردون اليوم أن يجردها من مكاتها السامية ومنزلتها الرفيعة ، وتوضع طليقة بين كواكب أكبر منها مرات كثيرة ، وبين نجوم لا حصر لها ٤٠ .

٣ - في المحاكاة :

واجه جاليليو هذه المشكلة في عناد وتشدد . وفي ٢١ ديسمبر ١٦١٣ كتب إلى الأب كاستللي : د حيث أن الكتاب المقدس يتطلب تفسيراً مختلفاً عن المعنى المباشر للألفاظ (مثلما يحدث عند تحذره عن غضب الله ، وبغضه وتأنبه ويديه وقدميه) . فإنه يبدو لي ليس للكتاب المقدس كبير شأن في حال الجدل والمناظرات الرياضية وأعتقد أن العمليات الطبيعية التي ندرکہا بالرصد الدقيق أو الملاحظة الدقيقة ، أو نستنتجها بالدليل المقنع . لا يمكن دحضها أو تنفيذها بآيات من الكتاب المقدس (٩٩) . وانزعج الكاردينال بلارمين ، وبعث إلى جاليليو عن طريق أصدقاء الطرفين ، بعتاب قاس ، وكتب إلى فوسكاريني تلميذ جاليليو يقول : د يبدو لي أنه ينبغي أن أنصحكما ، أنت وجاليليو ، ألا تتحدثا بمثل هذه اللهجة القاطعة (عن الفلك الجديد وكأنه قد نهتت صحته) ، بل على سبيل الافتراض لحسب ، وهو ما أنا مقتنع بأن كوبرنيكوس نفسه قد فعل من قبل (١٠٠) .

وفي ٢١ ديسمبر ١٦١٤ بدأ الهجوم توماسو كاتشيني ، وهو واعظ دومنيكاني ، اتخذ تورية بارعة من آية الانجيل د أيها الرجال الجليليون ما بالكم واقفين تنظرون إلى السماء ، (أعمال الرسل ١ - ١١) ومضى يوضح أن نظرية

١٨ - ٣٠ الحضارة

كوبرنيكس تتعارض تعارضاً تاماً لا يقبل الجدل مع الكتاب المقدس وأرسل معارضون أقل شأناً بشكاوى إلى محكمة الأنفتيش ، وفي ٢٠ مارس ١٦١٥ أودع كاسيني اتهاماً رسمياً ضد جاليليو في المحكمة ، فكتب المونسنيور ديني إلى جاليليو أنه لن يمس بسوء إذا وضع في منشوراته بعض عبارات تشير إلى أن رأى كوبرنيكس هو مجرد فرضية (١٠١) . وليكنه أياً ، كما قال ، لن يعدل أو يخفف من كوبرنيكس . في رسالة نشرت في ١٦١٥ ، كتب إلى دوقه تسكانيا الكبرى يقول : « بالنسبة لترتيب أجزاء الكون ، أعتقد أن الشمس قائمة دون حركة في مركز دوران الأجرام السماوية * . على حين أن الأرض تدور على محورها كما تدور حول الشمس (١٠٢) ، ثم مضى يمين في المرطقة :

« إن الطبيعة عنيدة ثابتة لا تتغير ، ولا تتجاوز قط القوانين التي فرضت عليها . ولا تنكث في قليل ولا كثير بأن الناس لا يفهمون أسبابها ولا مناهجها العويصة المهمة . ومن ثم فإنه يبدو أنه ليس ثمة شيء طبيعي تضعه التجربة الحسية أمام أعيننا ، أو تثبته لنا البراهين الضرورية ، ينبغي أن يكون محل نزاع بمقتضى نصوص الكتاب المقدس ، التي قد يكون لها معنى مختلف كامن وراء الألفاظ ، .

على أنه وعد بالامتثال للكنيسة :

إني أعلن (ولسوف يتضح صدق وإخلاص) لا مجرد أني أقصد أن أستسلم حراً مختاراً وأعترف بأخطائي التي يمكن أن أقع فيها في هذا النقاش ، نتيجة الجهل بأمور تتعلق بالدين ، بل أني كذلك لا أحب أن أدخل في نزاع حول هذه الأمور مع أي إنسان كان . . . وهدفي

(*) من سخرية التاريخ أن هذه قضية لا يؤمن بها اليوم أي فلكي ، وربما كان الفلك بأسره ، مثل التاريخ برمته ، يجب أن يؤخذ على أنه مجرد فرضية . وليس ثمة يقين من العالم الآخر ، كما أنه ليس ثمة يقين من الأوس .

الوحيد هو أنه إذا وجد من بين الأخطاء التي قد تكثر في بحث موضوع بعيد عن اختصاصي ، أى شيء يفيد الكنيسة المقدسة في اتخاذ قرار يتعلق بمنهج كوبرنيكس ، فيمكن أن تأخذه وتنتفع به ، كما يحلو لرؤسائها ، وإلا فليمزق كتابي ويحرق . لأنى لا أفصد ولا أزعم أن أجنى ثمارا تجانبها التقوى والكشاكفة (١٠٣) .

ولكنه أضاف : د أنى لا أشعر بأنى مضطر إلى الايمان بأن الله الذى أمدا بنا بالاحساس والعقل والفكر ، قصد بنا أن نضيع فرصة استخدامها والاتناغع بها (١٠٤)

وفي ٥ ديسمبر ١٦١٥ قصد إلى رومة من تلقاء نفسه مزوداً برسائل ودية من الدوق الأكبر إلى ذوى النفوذ من المطارنة والأساقفة ، وإلى سفير فلورنسة فى الفاتيكان . وفى رومة أخذ جاليليو على عاتقه أن يحول الرجال الرسميين عن رأيهم فرادى ، وعرض نظرية كوبرنيكس كلها سنحت له فرصة وفى كل مناسبة ، وسرعان ما بات د كل فرد فى رومة يبحث فى النجوم (١٠٥) .
وفى ١٦ فبراير ١٦١٦ أصدرت محكمة التفتيش توجيهاتها إلى الكاردينال بللارمين بأن يستدعى من يدعى جاليليو ويتذره بأن يتخلى عن آرائه المزعومة ، وفى حالة امتناعه . . . يعلنه أمام كاتب العدل وبعض الشهود بالأمر بالافلاخ عن تدريس آراء كوبرنيكس أو الدفاع عنها ، بل حتى مناقشتها ، فإذا لم يذعن لهذا يودع السجن (١٠٦) . وفى اليوم ذاته مثل جاليليو أمام الكاينال بللارمين وأعلن امتثاله للأمر (١٠٧) . وفى ٥ مارس أصدرت المحكمة قرارها التاريخى :

إن الفكرة التى تقول بأن الشمس تقف بلا حركة وسط الكون فكرة سخيمة ، وهى من الناحية الفلسفية فكرة زائفة ، وهى كذلك هرطقة لا جدال فيها ، لأنها تناقض النصوص المقدسة . والفكرة التى تقول بأن الأرض ليست مركزا للكون بل حتى أن لها دورة يومية ، زائفة من الناحية الفلسفية ، وأنها على الأقل اعتقاد خاطئ (١٠٨) .

وفى نفس اليوم حرمت د لجنة فهرست الكتب المنوعة ، نشر أو قراة

أى كتاب يدافع عن النظريات الممنوعة ، أما بالنسبة لكتاب كوبرنيكس ، (١٥٤٣) فقد حظرت استخدامه حتى يتم تصويبه . وفي ١٦٢٠ أباح لكاثوليك قراءة الطباعات التي حذفت منها تسع عبارات كانت تثبت أن النظرية صحيحة .

وعاد جاليليو أدراجه إلى فلورنسه وخطا إلى الدروس في داره « بللو سجادو » ، وكف عن الجدل حتى ١٦٢٢ . وفي ١٦١٩ نشر أحد مريديه ، ماريو جيدوتشى ، مقالا يجسم فيه نظرية جاليليو (المرفوضة الآن) وهى أن المذنبات عبارة من إنبثاقات فى الغلاف الجوى للأرض ، منتقدا بشدة آراء الجزويتى أورازيو جراسى فاكان من الخبر أو الأب الغاضب إلا أن نشرت تحت اسم مستعار هجوما على جاليليو وأشياعه . وفى ١٦٢٢ أرسل جاليليو إلى المونسنيور شيزاريني فى رومه مخطوطة للمحال ، يرد به على جراسى وينبذ فى مجال العلم أى استشهاد أو مرجع إلا الرصد والعقل والتجربة . وبموافقة المؤلف خفف أعضاء أكاديمية لندى بعض عبارات قليلة . وهذه الصيغة قبل البابا أريان الثامن أن يهدى إليه ، وأجاز طبعه (أكتوبر ١٦٢٣) أنه ألمع تأليف جاليليو ، وإحدى روائع النثر الايطالى والقدرة والبراعة فى الجدل والمناظرة . وقيل إن البابا سر به ، وأن الجزويت نضايقوا منه .

وما أن ظهر جاليليو بهذا التشجيع حتى قصد ثانية إلى رومه (أول أبريل ١٦٢٤) أملا فى تحويل البابا الجديد إلى الايمان بأراء كوبرنيكس . وتلقاه أربان بالود والترحات — واستقبله ست مرات فى لقاءات طويلة ، وأغدق عليه الهدايا . واستمع إلى حجج كوبرنيكس ، ولكنه أبى أن يرفع حطر المحكمة . وقل جاليليو راجعا إلى فلورنسه ، يعزبه تصريح أربان للدوق الأكبر : « لقد غمرنا بعطفه الأبوى لوقت طويل هذا الرجل العظيم الذى تتألق شهرته فى السماء كما تملأ الأرض (١٠٩) . وفى ١٦٢٦ شد من عزم جاليليو تعيين تلميذه بنديتو كاستللى رياضيا للكبرى البابوى ، وتلميذ آخر هو الأب نيقولو ريتشاردى كبير مراقب المطبوعات ، فسارع الآن لاستكمال

مؤلفه الأساسى ، وهو عرض لمنهج كوبرنيكس والمنهج المعارض له . وفى مايو حمل المخطوطة إلى رومه ، وعرضها على البابا ، وحصل على ترخيص من الكنيسة بنشرها ، شريطة معالجة الموضوع على أنه فرضية . وعاد إلى فلورنسه حيث راجع الكتاب وأصدره فى فبراير ١٦٣٢ تحت عنوان طويل ومحاوره جاليلى جاليليو حيث أنه فى اجتماعات دامت أربعة أيام ، نوقش فيها المنهجان الوثيسىان فى العالم : منهج بطليموس ومنهج كوبرنيكس مع عرض ، دون تحيز ولا تجديد ، للحجج الفلسفية والطبيعية الممنهجين كليهما ،

وربما جلب الكتاب على مؤلفه بلايا أقل ، وكسب له شهرة ، لولا بدايته وخاتمته . تقول المقدمة : « إلى القارىء البصير الفطن ، :

منذ عدة سنوات نشر فى رومه مرسوم بابوى مفيد ، قضى — تجنبا للزعات الخطيرة فى عصرنا الحاضر — بفرض نطاق من الصمت المعقول على الرأى الذى نادى فيه فيتاغورس . والذى يقول بأن الأرض تدور . ومن الناس من ذكر فى توقع وصفاقه — أن هذا المرسوم لم ينبع من تحريات وتدقيقات تنسم بالحكمة وحسن التمييز ، بل عن هوى ينم عن قلة الدراية والمعرفة ، وتعالى الشكاوى بأنه يجدر الايتاح للمستشارين الذين ليس لديهم أية دراية بالأرصاد الفلكية فرصة التضييق على ذوى العقول المفكرة المتأملة عن طريق قوانين الحظر المتهورة الطائشة (١١٠) .

والحق أن فى هذا إشارة للقارىء بأن صيغة الحوار تنسم بالمرأوخة تملصا من محكمة التفتيش . وكان فى الحوار شخصيتان هما سلفياتى وساجريدو ، وهذان أسمان لاثنين من أصدق أصدقاء جاليليو ، وهما يدافعان عن منهج كوبرنيكس ، وشخصية ثالثة — سمبلشيو ، يدحضه ، ولكن فى مغالطة صريحة واضحة ، وقرب نهاية الكتاب أورد جاليليو على لسان سمبلشيو عبارة ، كان أزرمان الثامن قد أصر على إضافتها . وهى بالحرف الواحد تقرىبا :

« إن الله هو القوى وهو على شىء قدير ، ومن ثم لا يجوز أن تقدم المد

والجزر دليلا ضروريا على حركتي الأرض لأننا بذلك نجد من سعة علم الله وقدرته ، وعلى هذه العبارة يعاق سلفياتي تعليقا ساخرأ فيقول : « أنها وأيم الحق حجة إنجيلية ممتازة ، (١١١) .

أن الجزويت اللذين تناولت « المحاورات ، كثيرا منهم في لهجة قاسية (جاء فيها أن أفكار شينر عقيمة تافهة ، ، أوضحوا للبابا أن عبارته سالفة الذكر أوردت على لسان شخصية أبرزها الكتاب ساذجة غافلة ، فعين أريان لجنة لفحص الكتاب ، وقررت اللجنة أن جاليليو لم يتناول نظرية كوبرنيكس على أنها فريضة ، بل على أنها حقيقة ، وأنه حصل على الترحيص بدشر الكتاب نتيجة لتحريفات وتشويهات بارعة ، وأضاف الجزويت إلى ذلك ، عن حكمة وبصيرة ، أن نظريات كوبرنيكس وجاليليو أشد خطرا على الكنيسة من هر ظقات لوثر وكلفن . وفي أغسطس ١٦٣٢ حظرت المحكمة الاستمرار في بيع كتاب ، المحاورات ، وأمرت بمصادرة النسخ الباقية . وفي ٢٣ ديسمبر دعت جاليليو للمثول أمام مندوب الحكومة في رومه . وتوسل أصدقاؤه إلى أولى الأمر أن تشفع له لديهم سقامه وشيخوخته (٦٨ عاما) ، ولكن على غير طائل . وبعثت ابنته إليه وكانت وقتئذ راهبة متحمسة بخطابات مؤثرة ترجوه فيها أن يمثل للكنيسة ، كما نصحه الدوق الأكبر أن يدعن ، وزوده بمحفة الدوق الأكبر ، ودبر مع سفير فلورنسه أمر إقامته في السفارة . ووصل جاليليو إلى رومه في ١٣ فبراير ١٦٣٣ .

وانقض شهران قبل أن تدعوه محكمة التفتيش إلى المثول أمامها (١٢ أبريل) هاتهم بتهمة انتهاك عهده بالالتزام بقرار ٢٦ فبراير ١٦٣١ ، وحثوه على الاعتراف بذنبه ، فرفض محتجا بأنه لم يقدم آراء كوبرنيكس إلا على أنها مجرد فرضية ، وظل سجينا في قصر المحكمة حتى ٣٠ أبريل ، وهناك اتابه المرض ، ولم يعذبه ، ولكنهم ربما أشاعوا في نفسه الخوف من التعذيب . وفي مشوله الثاني أمام اللجنة اعترف في ذلة وخشوع أنه أورد آراء كوبرنيكس بشكل أكثر

إنحيازاً إليه منه ضده ، وعرض أن يصحح هذا في حوار ، يلحق بالأول .
فرخصوا له بالعودة إلى دار السفير . وفي ١٠ مايو أعادوا التحقيق معه ،
وعرض أن يكفر عن خطيئته ، ونومل إليهم أن يرحموا شيخوخته واعتلال
صحته . وفي التحقيق معه للمرة الرابعة (٢١ يونية) أكد أنه بعد قرار ١٦١٦
« لم يعد يخامرني أى شك ، وآمنت ، ولا زلت أؤمن ، برأى بطليوس - أن
الأرض لا تدور ، وأن الشمس هي التي تدور - علي أنه حق كل الحق ، ولا
يقبل الجدل » (١١٢) ، فاعتصمت المحكمة بأن محاورات جاليليو اوضحت ،
بما لا يدع مجالاً للشك ، أنه يقر آراء كوبرنيكس ، وأصر هو على أنه كان ضد
هذه الآراء منذ ١٦١٦ . وظال البابا على اتصال بالتحقيق ، ولو أنه لم يشهده
بشخصه . وكان جاليليو يأمل في أن يمد له أريان الثامن يد العون ،
ولكن البابا رفض التدخل . وفي ٢٢ يونيه أصدرت المحكمة قرارها بادانته
بالهرطقة والتمرد والعصيان . وعرضت عليه الغفران شريطة تأدية القسم علناً
أمام الجمهور بالتخلي عن آرائه ، وحكمت عليه بالسجن في هذه المحكمة
لمدة تحددها هي وفق مشيئتها ، ورأت للتكفير عن ذنبه أن يتلو مزامير
الكفارة السبعة كل يوم طيلة السنوات الثلاث التالية ، وجعلوه يجثو ويبرأمن
نظرية كوبرنيكس ، ويضيف :

بقلب مخلص ، وإيمان صادق ، أئمن وأبغض وأعلن التخلي
عن الأخطاء والهرطقة المنسوبة إلي ، وبصفة عامة ، عن أى
خطأ أو هرطقة أخرى أخالف فيها . . . الكنيسة المقدسة .
وأقسم أنى لن أذكر بعد اليوم أى شىء قد يشير مثل هذه الريب
حولى ، وأنى إذا عرفت أى هرطيق أو أى شخص مشتبته
في أنه هرطيق فلا بد أن أبلغ عنه هذه المحكمة وأدعو
الله أن يمنحني العون ، وأرجو أن تساعدني هذه الكتب المقدسة
التي أضع يدي عليها (١١٣) .

ووقع على الحكم سبعة من الكرادلة ، ولكن البابا لم يصدق عليه (١١٤) .
أما قصة أنه عند مغادرته قاعة المحاكمة غمغم متحدياً ودمع ذلك فهي تدور
فعلاً . فإنها أسطورة لم يظهر لها أثر قبل ١٧٦١ (١١٥) . وبعد قضاء ثلاثة أيام
في سجن محكمة التفتيش ، سمح له ، بأمر من البابا ، بالذهاب إلى قصر الدوق
الأكبر في ترينتا موتى في رومه . ثم نقل بعد أسبوع إلى مسكن مريح في قصر
تلميذه السابق ، رئيس الأساقفة أسكانيو بتشولوميتي في سيدينا . وفي ديسمبر
١٦٢٣ . سمح له بالانتقال إلى داره الخاصة في أروستري بالقرب من فلورنسه
أنه من الناحية العملية كان لا يزال سجيناً ، محظوراً عليه مغادرة مسكنه ،
ولكنه كان حراً في مواصلة دراساته . وتعليم تلاميذه ، وتأليف كتبه
واستقبال زائريه - وهنا زاره ملتون في ١٦٢٨ . وجاءت ابنته الراهبة لتقيم
معه . واحتملت هي نفسها عقوبة تلاوة المزامير السبعة .

٤ - الشيخ الجليل :

واضح أن جاليليو كان الآن رجلاً متهدماً مغلوباً على أمره ، أذنته كنيسته
أحسّت بأنها وصية على عقيدة بنى البشر وآمالهم وأخلاقهم ، أن تخليه عن
آرائه بعد قضاء عدة شهور في السجن . وعدة أيام في المسائلة والمحاكمة ، بما
كان من الجائز أن يحطم عقل مكافح شاب كما يحطم إرادته ، نقول أن هذا
التخلي كان أمراً يمكن التجاوز عنه لدى شيخ هرم علق بذكريته لإحراق
برونو قبل ذلك بثلاثة وثلاثين عاماً ولكن في الواقع لم يهزم فقد انقشر كتابه
في كل أنحاء أوروبا في أكثر من عشر لغات ترجم لإليها . ولم يمح أثره .

وخفف من أحزانه وآلامه في سيدينا وفي أروستري اشتغاله بتلخيص أبحاثه
الفيزيائية في مؤلف ضخم آخر : « محاورات ... حول علمين جديدين » .
ولما كانت أبواب المطبعة الإيطالية موصدة دونه بمقتضى الحكم الذي صدر
ضده ، فإنه أجرى مقاضات سرية مع طابعين أجنبين ، وانتهى الأمر بأن مطبعة
الزفير أصدرت الكتاب في ليدن ١٦٢٨ . وهللت له دنيا العلماء على أنه سما

بعلم الميكانيكا إلى مستوى لم يبلغه من قبل . وبعد صدوره ، عكف جاليليو على إعداد محاورات إضافية درس فيها ميكانيكا القذف أو الإطلاق ، وأشار إلى ما جاء به نيوتن فيما بعد في قانونه الثاني عن الحركة . ويقول أول مؤرخي سيرة جاليليو : د في أخريات أيام حياته ، وفيما كان يعاني كثيرا من اعتلال صحته ، كان عقله مشغولا دوما بالمسائل الميكانيكية والرياضية^(١١٦) ، وفي ١٦٣٧ وقبيل أن يفقد بصره ، أعلن عن آخر كشوفه الفلكية ، نودان أوميسان القمر - تغيرات جانبه المواجه للأرض دائما . وفي ١٦٤١ ، وقبل وفاته ببضعة شهور قلائل ، شرح لابنه طريقة صنع ساعة ذات بندول .

إن اللوحة التي رسمها له سوسترمان في أسترى (والموجودة الآن في قاعة بيتي) هي العبقريّة مجسمة : جبهة عريضة ، وشفتان مشاكستان مولعتان بالجدل والمناظرة ، وأنف دقيق ، وعينان حادتان ، نفاذتان ، وهذا وجه من أكرم الوجوه في التاريخ . وفقد الشيخ الحليل بصره في ١٦٣٨ . وربما كان التحديق المجدد سبب ذلك ، وكان يجد شيئا من العزاء في اعتقاده بأن أحدا من بني الإنسان من عهد آدم ، لم ير أكثر مما رأى هو ، فهو يقول : إن هذا الكون الذي وسعت فيه وكبرته ألف مرة ، تقلص الآن وانحصر في نطاق جسمي الضيق ، هكذا أراد الله ، ولا بد أن أريد هذا أنا أيضا^(١١٧) . وفي ١٦٣٩ حين كان يعاني من الأرق ومن مائة من الآلام الأخرى رخصت له محكمة التفطيش في زيارة فلورنسه ، تحت مراقبة دقيقة ، ليرى أحد الأطباء ويحضر القداس . فلما عاد إلى أسترى ، أملى على فيفاني وتورشالي ، وعزف على العود حتى فقد سماعه كذلك . وفي ٨ يناير ١٦٤٢ ، وكان قد قارب السابعة بعد الثمانين ، فاضت روحه بين أيدي حواريه .

وأطلق عليه جرروتوس د أعظم عقل في كل العصور^(١١٨) . وثمة شيء من القصور في العقل والمخلق بطبيعة الحال . فأخطأوه - الغرور والزهو والانفعال والخيلاء - إن هي ببساطة لإعشرات مناقبه أو ثمنها : الثبات

الشجاعة ، الأصالة . ولم يعترف بأهمية حسابات كبلر في مدارات الكواكب وكان يتراخى في الاعتراف بقيمة أعمال معاصريه ، وقلما تحقق . كم من كشوفه في الميكانيكا كانت قد أنجزت قبله . لقد أجرى بعضها رجل آخر من فلورنسه لإسمه ليوناردو . ولكن الآراء التي عوقب من أجلها ليست هي بالضبط ما يعتنقه الفلاسكيون اليوم ، ومثله مثل معظم الشهداء تحمل أن يكون الصواب خطأ — ولكنه لم يكن على خطأ في إحساسه بأنه خلق من الديناميكا علما كاملا ، وأنه وسع العقل البشرى وزاد من قدرة الناس على رؤية الأشياء وفقا لعلاقتها الصحيحة وأهميتها النسبية ، بفضل إبرازه ، بمقياس أكبر كثيرا عن ذى قبل ، أن الكون واسع سعة رهينة . وشارك كبلر شرف تقبل الناس لآراء كوبرنيكس ، كما شارك نيوتن شرف إظهار أن السماء نفسها تفصح عن عظمة القانون . ثم أنه ، بوصفه من أفاضل أبناء عصر النهضة ، كتب أحسن نثر إيطالى في زمانه .

وانتشر أثره حتى عم كل أوروبا . أن إدانته هي التي رفعت مكانة العلم في البلاد الشمالية ، على حين حطت من قيمته لفترة قصيرة في إيطاليا وأسبانيا وليس معنى هذا أن محكمة التفتيش حطمت وقضت على العلم في إيطاليا ، فان تورشلى وكاسيني وبورللى وربدى وماييجى وهورجاني حملوا المشعل إلى فولتا وجلفانى وماركونى ، ولكن العلماء الإيطاليين الذين علققت بأذهانهم قصة جاليليو اجتنبوا التورطات الفلسفية في العلم . وبعد إعدام برونو حرقا وبعد تخويف ديكارت وتهديده بمصير جاليليو ، باتت الفلسفة في أوروبا احتكارا بروتستانتيا .

وفي ١٨٣٥ حذفت الكنيسة مؤلفات جاليليو من قائمة الكتب المحظورة وانتصر الرجل المحطم المقهور على أقوى النظم فى التاريخ .

الفصل الثالث والعشرون

١٥٦٤ - ١٦٤٨

الفلسفة تولد من جديد

١ - الشكا كون

في ظل صراعات الدول القومية ، والقوى الاقتصادية ، والأحزاب السياسية ، وتنوع المذاهب الدينية ، في غمرة هذا كله ، بدأت تشكل المسرحية الأساسية في التاريخ الأوربي الحديث ، وما هي إلا نضال من أجل الحياة جهدت فيه ديانة عظمت ، ضيق عليها الخناق واستنزفت قوتها ، العلم والطائفية والأبيقورية والفلسفة . هل المسيحية في الطريق إلى الفناء ؟ أو هل الديانة التي أمدت المدنية الغربية بالأحلاق والشجاعة والفن تعاني انحلالاً بطيئاً ، بفعل انتشار المعرفة واتساع الأفاق الفلكية والجغرافية والتاريخية ، والتحقق من الشر في التاريخ والنفس ، وتخلخل الإيمان بالحياة الآخرة وضعف الثقة في حسن توجيه العالم ؟ . وإذا كان الأمر كذلك ، فهذا هو الحديث الأساسي في الأزمنة الحديثة ، لأن الديانة هي روح المدنية ، والمدنية تقني بغناء عقيدتها . ولم تعد القضية في نظر برونو وديكارت ، وهوبز وسبينوزا ، وبسكال وبل ، وهلباخ وهلفيش ، وفولتير وهيوم ، لبيتر وكان ، قضية كاثوليكية ضد بروتستانتية ، بل قضية المسيحية نفسها ، قضية الشك والرفض والإنكار - لأعز الأساسيات في العقيدة القديمة . أن مفكرى أوروبا - وهم طلائع العقل الأوربي - لم يعودوا يناقشون ملطة البابا ، بل كانوا يناقشون وجود الله .

وثمة عوامل كثيرة أدت إلى الكفر . إن مبدأ المحاكاة العقلية أو تكوين

رأى خاص ، وهو المبدأ الذى اتهمته الكنيسة الكاثوليكية وأدانته لأنه يدعو إلى الفوضى المذهبية والأخلاقية ، نادى به وأقرته كل الهيئات البروتستانتية تقريبا ، ثم شجبه وأدانتها فيما بعد ، وفى الوقت نفسه قوض هذا المبدأ أركان العقيدة . أن الشيع المتزايدة قاتلت بعضها بعضا ، وكأها ذرارى بالغة الكثرة ، وفضحت مطالب بعضها بعضا ، وتركت الديانة عارية فى مهب رياح العقلانية . وأهابت هذه الفرق والشيع لنصرتها فى أثناء صراعها ، الأسفار المقدسة والعقل كليهما . ودعت دراسة الكتاب المقدس إلى الشك فى معانيه وفى عصمته من الخطأ . وأنهى اللجوء إلى العقل عصر الإيمان . وحقق الإصلاح البروتستانتي أكثر مما كان يصبو إليه . وأضربت بصورة خاصة ، حملات النقد الذى أنصب على الكتاب المقدس ، بالمذهب البروتستانتي الذى أقيم فى طيش وتهور على كتاب مقدس منزل من عند الله . إن التحسينات التى أدخلت على النظام الاجتماعى وأمن الناس ، خففت من الأرهاب والقسوة ، وأحس الناس أنهم لابد لهم أن يدركوا أن الله سبحانه وتعالى أرحم وألطف بما صورهم لهم بولص وأوغسطين وليولا وكفن ، ولم تعد الجحيم والقضاء والقدر أمورا يمكن تصديقها ، وأجزت الأخلاقية الجديدة اللاهوت القديم . وهيا نمو الثروة لا انتشار نزعة حياة ابيقورية التمس لها فلسفة تبررها . إن كارثة الحروب الدينية أنصبت على رأس الديانة نفسها فكانت هى ضحيتها . إن ازدياد المعرفة بالأخلاق والفلسفات الوثنية ، وبالعبادات والطقوس الآسيوية أثار مقارنات محيرة مزعجة بالمسيحية . ألم نسمع أرزم يدعو ويتوصل إلى « القديس مسقراط » ، ألم نر موتيني يرجع المذاهب الدينية إلى أحداث الجغرافيا وإلى حكم الحروب ؟ وكشف تقدم العلم عن عمل « القانون الطبيعى » فى كثير من الحالات ، ومثال ذلك مسار المذنبات الذى رأت فيه الديانة يد العناية الآلهية . ووجدت الطبقات المتعلمة أنه من الصعب عليها أن تصدق أو تؤمن بالمعجزات على حين ابهج وفاخر بها غير المثقفين . ثم هذه

الأرض التي تقول الأساطير الأثيرة لدى العامة بأنها أحست «بأقدام الرب»، أليست كما الملح كوبرنيكس وجاليليو مجرد فقاعة ومرحلة قصيرة في هذا الكون البالغ السعة، وسعة لا يمكن تحديدها، بالنسبة للأرباب الحاسدين الخاقدين الوارد ذكرهم في سفر التكوين؟ وأين ذهبت السماء، والتقلبات على أشدها حتى أهما لتغير المواقع مرتين في اليوم الواحد.

وكان «الموحدون»، أكثر المشككين اعتدالا، وهم الذين، في إيطاليا وسويسرا وبولنדה وهولنه وإنجلترا، أثاروا الشكوك حول ألوهية المسيح. وكان هناك بالفعل نفر قليل من الربوبيين (*) الذين آمنوا بالله متأنلا مطلقا مع الطبيعة، وأنكروا ألوهية المسيح، ورغبوا في أن يجعلوا المسيحية مذهبا أخلاقيا لا عقيدة دينية، وكانوا حتى تلك اللحظة مشككين حذرين، حتى اشتد عودهم وارتفعت مكاتهم فباتوا يزعمون الجلاد، كما فعل إدوارد هربرت من شربورى. واسوف نجدهم بعد ١٦٤٨، وقد ارتفع صوتهم عن ذى قبل. وأشد جرة منهم كان الأبيقوريون في ألمانيا، الذين سخروا من «يوم الحساب» الذى طال ترقبه، ومن الجحيم التى يحتمل ألا تكون رهية مزعجة، برغم كل شيء، مادام أكثر الناس ابتهاجا ومرحاسوف يحشرون^(١) فيها. وفي فرنسا أطلق على مثل هؤلاء الناس «ذوو العقول الصلبة»، أو «الإباحيون»، وهم الذين بدأت أساليبهم المانعة الطليقة تضفي معناها الحديث على لعظة كانت تعنى فى الأصل «المفكرين الأحرار». وفى ١٥٨١ ألف فيليب دوبلسير — مورنى كتابا فى ٩٠٠ صفحة «حقيقة الديانة المسيحية»، فى مواجهة الملحدين. وفى ١٦٢٣ نشر الجزويتى فرانسوا جاراس كتابا فى

(*) الربوبية: Deism الإيمان بالله بغير اعتقاد بديانات منزلة — مذهب فكرى فى القرن الثامن عشر يدعو إلى الإيمان بدين طبيعى مبنى على العقل، لا على الوحى، ويؤكد على الناحية الأخلاقية، منسكرا تدخل الخالق فى نواميس الكون.

أكثر من ألف صفحة من قطع الربع ، حمل فيه على الإباحيين ، الذين ديمونون بالله شكلا أو من أجل دين العولة . . . ولا يرتضون إلا الطبيعة ، والقضاء والقدر (٢) . وفي العام نفسه قدر مارين مرسن عدد الملحدين في باريس بنحو ٥٠ ألفا (٣) ، ولكن هذه الكلمة كانت تستخدم في هاتيك الأيام بشكل فضفاض ، وربما قصد بها مارين الربويين . وفي ١٦٢٥ أوضح جبرائيل فودى أن الشرائع التي نزل بها الوحي المقدس على دتوما بمبليوس ، (ملك رومه الأسطوري ٧١٥ - ٦٧٢ ق . م) رعى موسى ، ماهى لإلخرافات ابتدعت لإقامة النظام الاجتماعي ، وأن رهبان طيبة لفقوا حكايات الصراع مع الشيطان ليزيدوا من شهرتهم ويرفعوا من مكانتهم ويفسذوا الجمهور الساذج . وفي ١٦٢٣ نشر فرانسوا دى لاموث لافاني - سكرتير ريشيليو ، ومعلم لويس الرابع عشر ، الذى تولى الملك فيما بعد - كتابه المسمى ومحاورات أورازيوس تايرو ، ، صرح فيه بشكوكيه عامة : « إن معرفتنا هراء في هراء ، وأن حقائقنا خيالات وأوهام ، وأن دنيانا بأسرها . . . مهزلة متصلة » (٥) وكان فرانسوا هذا من بين الذين ضعف إيمانهم قبل تعدد المذاهب المعصومة : « ليس في هذه العقائد التي لا حصر لها رجل لا يؤمن بأن مذهبه هو الحق ، وأن غيره هو الباطل » (٦) . وعلى الرغم من شكوكيته تزوج في سن الثامنة والتسعين ، ووافته المنية في الرابعة والثمانين وهو على فراشه . وكان ، وهو متشكك فاضل : قد كف عن معارضة الكنيسة .

وكان قدر كبير من هذه الشكوكية الفرنسية صدى سلبيا لموتيني . ثم أصبحت قوة إيجابية بناءة في شخص صديقه بيير شارون ، وهو قسيس من بوردو ، قام له بالطقوس الأخيرة عند موته ، وورث مكتبته ، وكتب في ١٦٠١ « رسالة عن الحكمة » في ثلاثة مجلدات في وصف الحكمة ، ولكن قيل عن هذه الرسالة بغير حق ، بأنها ترتيب منهجى لموتيني ، ولكنها ، على الأصح ، رسالة مستقلة تدين بكثير من الفضل « للبقالات » ، ولكنها تحمل

طابع شخصية شارون الدمشة الوقورة . وهو يقول بأن كل المعرفة تنبع من الحواس ، وهي لذلك عرضة لتقييدات الحواس وعجزها وأخطائها الكثيرة ، فليسب الحقيقة من شأننا نحن . ويقول السفهاء من الناس بأن الحقيقة يثبتها قبول كل الناس لها وإن صوت الخلق من صوت الله . ولكن شارون يعتقد أكثر ما يعتقد أن صوت الناس هو صوت الجهالة ، وأنه صوت الآراء التي تلتفق لهم ، وأن الإنسان يجب أن يتشكك خاصة فيما يؤمن أكثر الناس به (٧) . إن الروح قوة خفية حادة لا تهدأ ، متصلة بالمشح ، وظاهر أنها تنفي ببناء الجسم (٨) . إن أسبانية تنطوى على أسرار وخفايا لا يمكن إثباتها وعلى سخافات كثيرة ، وعليها يقع وزر التضحيات الوحشية والقساوات التعصبية . وإذا كان كل الناس فلاسفة (كما قد يقول فولتير فيما بعد) ، يتعشقون الحكمة ويمارسونها ، فلن تعود ثمة حاجة إلى الديانة ، ويمكن أن تعيش المجتمعات بمقتضى علم أخلاقي طبيعي مستقل عن اللاهوت أو الدين ، ويمكن أن يوجد الإنسان الفاضل ، دون سماء ولا جحيم (٩) . ولكن إذا أخذنا في الاعتبار ما فطر عليه الإنسان بالطبيعة من شر وجهل ، فإن الدين يصبح أداة ضرورية لازمة للأخلاق والنظام (١٠) . وبناء على هذا يتقبل شارون كل أساسيات المسيحية ، حتى الملائكة والمعجزات (١١) ، وينصح الحكماء بمراعاة كل المراسم الدينية التي تضعها الكنيسة التي ينتسب هو إليها عن غير قصد ، على أية حال (١٢) ، وإن يكون المتشكك الحق هرطيقا أبدا (١٣) .

وعلى الرغم من هذه النتائج القويمة التي خلص إليها شارون فإن أحد الحزويت المعاصرين يحشره في زمرة أخطر الملحدين وأشرهم وأخبثهم (١٤) . ولما مات شارون فجأة بالسكتة القلبية ، في سن الثانية والستين (١٦٠٣) قال الأتقياء بأن هذا عقاب من عند الله على كفره والحادة (١٥) . وقيل وفاته أهد طبعة ثانية من كتابه ، خفف فيها من الأجزاء الأكثر تهورا وطيشا ، وأكد لزملائه من رجال الدين أنه إنما قصد بالطبيعة ، الله سبحانه وتعالى ،

وعلى الرغم من ذلك وضع كتابه في عداد المكتب المحظورة . ولمدة نصف قرن من الزمان فاق كتابه مقالات د مونتيني انتشارا وشعبية . وطبع كتاب د محاورات ، الحكمة خمسا وثلاثين مرة في فرنسا فيما بين عامي ١٦٧٢-١٦٠١ . وفي القرن الثامن عشر كان أثر شارون أقوى من أثر أستاذه . ولكن نفس العرض المنظم الذي جذب القرن السابع عشر الكلاسيكي ، بدأ في أعين القرن التاسع عشر وعظما كتيبا مدرسيا ، وضاع شارون وسط ما اكتشف من جديد ، من تألق وبهجة في مونتيني .

٢ - جيوردانو برونو ١٥٤٨-١٦٠٠

كان كوبرنيكس قد وسع الكون . فمن ذا الذي يمكن أن « يوسع الله » اليوم ويعيد التعبير عن الألوهية في لغة جديدة بهذه المجموعات من النجوم الهائلة التي لا يحصى عددها ؟ أن برونو حاول هذا .

وله برونو في نولا على بعد ١٦ ميلا إلى الشرق من نابلي . وعمد باسم فلبو ، وغير اسمه إلى جيوردانو عندما كان في سن السابعة عشرة ، دخل دير الدومنيكان في نابلي . وفيه وجد مكتبة عظيمة غنية ، لا بكتب اللاهوت فحسب ، بل كذلك بالسكتب اليونانية واللاتينية القديمة ، عن أفلاطون وأرسطو ، بل حتى عن مؤلفين عرب وعبرانيين كانت قد ترجمت إلى اللاتينية . وتعلقت طبيعته الشاعرية على الفور بالأساطير الوثنية التي رسخت في فكره لوقت طويل بعد تبخر اللاهوت المسيحي . وافتتن بمذهب ديمقريتهس الذي تابعه أبيقور ، وبسطه كوبرنيكس في صورة رائعة . وقرأ كتب المفكرين المسلمين ابن سينا وابن رشد ، والفيلسوف اليهودي ابن جابرول . وتسرب إلى نفسه شيء من التصوف العبراني ، مختلطا بأفكار ديونسيوس الزائفة وأفكار برناردينو تليزو عن اتحاد الأضداد في الطبيعة وفي الله ،

كما تصرّب إليه كذلك شيء من فكرة نيقولا (من كوزا) عن كون لانهاى ليس له مركز أو محيط ، تنفخ فيه الحياة روح واحدة . وأعجب بالتصوف الطيبي الشائر عند ياراسلسوس وبالرمزية الروحية ، وبوسائل تقوية الذاكرة عند ريموند للي ، وبفلسفة كورنيليوسى أجريبا الغامضة . وعمل كل هذا على تشكيل برونو ، كما أشعل فيه نار البغض لأرسطو وللفلسفة التصراينية في العصور الوسطى (السكولاستية) وتوماس أكويناس . ولكن برونو كان في دير الدومنيكان وتوماس أكويناس هو رائد الفكر عندهم .

ولم يتكّن بد من أن يزعم الراهب الشاب رؤساءه بالاهترافات والاستهانة والنظريات . أضف إلى ذلك أن حاسة الجنس كانت تضطرب بين جنبيه ، واعترف فيما بعد بأن كان ثلوج القوقاز ما كانت لتنعق غلته أو تطيق شهوته ، وأن ثمة علاقة دقيقة بين يقظة الجنس ويقظة العقل . وفي ١٥٧٢ رسم كاهنا ، ولكن الشكوك ظلت تثور بين جوانحه وتلبه خفية . كيف يمكن أن يكون هناك ثلاثة في واحد هو الله سبحانه وتعالى ؟ كيف يتسنى لسكان مهيا كانت مرتبته أن يحول الخبز والخمر إلى جسد يسوع للمسيح ودمه ؟ . وبعد رسامته ، عنفه رؤساؤه مرتين تعنيفا رسميا . وفي ١٥٧٦ ، بعد أن قضى أحد عشر عاما في الرهينة ، فرجأة من الدير ، وتوارى عن الأنظار لبعض الوقت في رومه . وخلع رداء الرهينة ، وعاد إلى اسمه الذى عمد به ، والتس الأمان والتستر في الاشتغال بالتعليم في مدرسة للبنين في نولى بالقرب من جنوه .

وهكذا بدأت ست عشرة سنة من التجوال ، سرى فيها القلق والأرق في جسمه جنبا إلى جنب مع التردد والتذبذب في عقله . وبعد أربعة أشهر قضاها في نولى ، انتقل إلى سافونا ، ثم إلى تورين ، وإلى البندقية ثم إلى بادوا . وعاد فارتدى ثانية ثوب الراهب الدومنيكاني ليحظى بكرم الوفاة في الأديار . ثم سار إلى برسكيا ، وإلى برجامو ، وعبر جبال الالب إلى شامبرى حيث أستقبله

وأطعمه دير للدومنيكان . ثم إلى ليون ، ومنها إلى جنيف . وهناك في معقل
السكلفية مجرد نفسه من ثوب الرهينة مرة أخرى ، وهناك قضى شهرين في
هدوء لا يلتئم مع مزاجه ، يكسب قوته بتصحيح المخطوطات والتجارب للطبع
ومن بين هذه ، كان نقده الخاص لمحاضرة ألقاها أحد رجال الدين السكلفيين
في جامعة جنيف . وأشار فيه برونو إلى عشرين خطأ في هذه المحاضرة . وألقى
القبض على طابع النقد وحكم عليه بغرامة ، أما برونو فاستدعى للمحاكمة أمام
محكمة الكنيسة ، فقدم اعتذرا وصفحوا عنه . وتولاه اليأس والقنوط حين
ألقي نفسه يهرب من شرار رقابة ليقع في بران أخرى ، فغادر جنيف وعاد
إلى ليون ومنها إلى تولوز ، حيث ظهر ظل عابر من التسامح في صراع
الكاثوليك مع الهيجونوت ، وفي تدفق اليهود المرتدين إرتدادا يسيرا من
أسبانيا والبرتغال . وربما حدث أثناء إقامته (١٥٨١) ، أن نشر فرانسوا
سانكي في تولوز ، رسالته الشكوكية ، المعرفة الصحيحة الكريمة . . . ليس
ثمة شيء معروف ، ، وحاضر برونو لمدة ثمانية عشر شهرا في رسالة أرسطو
د الروح ، . ولأسباب غير معروفة . وربما من أجل شهرة أوسع وأعظم .
رحل برونو إلى باريس .

وكان برونو قد أحرز شهرة ، لا بوصفه فيلسوفا فحسب ، بل كذلك
بوصفه خبيرا في فن تقوية الذاكرة . وأرسل هنري الثالث في طلبه واستولى
على الأسرار السحرية من ذاكرة طيبة . وسرا الملك من دروس برونو
وعينه مدرسا في الكوليج دي فرانس . واحتمل برونو في هدوء لمدة عامين ،
ولكنه في ١٥٨٢ نشر رواية هزلية (كوميدية) تحت عنوان د حامل المشعل ،
يجو فيها هجاء لاذعا ، الرهبان والأساتذة والمنحذاتين . . . ولنسج
المقدمة تتحدث :

سترون ، في فوضى مشوشة ، نتفا عن النشائين ، وألوانا من
الزيف والخداع ، ومغامرات الأوغاد ، كما ترون الاشمزاز الطريف .

والحلوى . المرة ، والقرارات الحقاء ، والايان الخاطيء والامال
المسئولة ، والصدقات الشحيحة والنساء القويات الشكيمة
(الرجوليات) والرجال المخنثين وحب الذهب (المال) في
كل مكان .

ومن ثم تنشأ الحيات الربعية (الراجعة) ، والسرطانات الروحية ،
والافكار الهزيلة ، والحقائق المتسلطة والمعرفة المتقدمة ،
والعمل المثمر ، والصناعة الهادفة . وفي إيجاز ، سترون في الرواية ،
أمننا نأفها ، وقدرا ضئيلا من الجمال ، وإن تروا شيئا طيبا
أو حسنا .

ووقع على الرواية : برونو النولى ، المتخرج في أكاديمية تسمى
الازعاج ، (١٦) .

وفي مارس ١٥٨٣ قصد انجلترا وكان هنرى الثالث أكبر استعدادا
للتوصية به خيراً لدى الآخرين منه للاحتفاظ بخيماته لديه (١٧) ، فزوده
بخطابات يقدمه فيها للسفير الفرنسي في لندن ، ميشيل دى كاستلنو ، سيردى
لاموفيسير ، وهنا بدأت أبعاد اللحظات في حياة برونو . حيث أقام في قصر
السفير عامين يأكل ويشرب ، متحرراً من أية نفقة أو ضرورة اقتصادية ،
وهنا أيضاً كتب بعضاً من أهم مؤلفاته ، كما وجد ملجأ من العواصف التي يثيرها
خلقه وشخصيته ، وكان يخفف عنه مناظراته ومجادلاته مع رجل متسامح عرك
الدنيا ، وعرف أنه من الأفضل ألا ينظر إلى الميتافيزيقا بعين الجدل . وفي هذا
البيت التقى برونو سير فيليب سدنى ، وأرلى لستر ، وجون فلوريو ، وأدموند
سبنسر . وجراييل هارفى وغيرهم من ألمع العقول في انجلترا في عصر اليزبث .
إن أحاديث برونو مع هؤلاء الرجال زودته بالأسس التي بنى عليها معرض
آرائه ، ، وحظى بمقابلة الملكة نفسها . وامتدحها في عبارات أخذتها عليه
محكمة التفتيش فيما بعد .

وفي ١٥٨٣ طلب من جامعة أكسفورد أن تأذن له فيلقاء المحاضرات في قاعاتها، ووصف بهذه المناسبة، مؤهلاته في لغة باعدت إلى الأبد بينه وبين وصفه بالتواضع (١٨)، وحصل على الترخيص، فتحدث عن خلود الروح، وعن الكرة السماوية المكبره إلى خمسة أمثالها، أي عن نظرية كوبرنيكوس في الكواكب. وتحدثه وضايقه بالأسئلة كثير من بينهم رئيس كلية لسكولن، كما يروي برونو بطريقته الخاصة: -

هلا عرفت كيف استاعوا أن يردوا على حججه (برونو)؟ وكيف أنه لخمس عشرة مرة، وبخمس عشرة قياسا منطلقاً. ضيق الخناق على الدكتور، المسكين الذي صدروه، لهذه المناسبة الرهيبة، بوصفه رئيساً للأكاديمية، حتى وقف حائراً كعصفور في قفص؟ وهلا علمت بأية فظاظة وأية غاظة تصرف هذا الخنزير، وبالصبر والروح الإنسانية اللتين تدرع بهما من أثبت أنه حقاً مولود في نابلي وأنه نشأ في ظل سماء أكرم وأرحب؟ وهلا عرفت كيف أنهموا محاضراته العامة (١٩)؟

وأطلق برونو على أكسفورد فيما بعد اسم «أرملة التعليم الصحيح»، «مجموعة من الجهل المتحدلق العنيد والوقاحة، امتزجت بفضاظة خرقاء يمكن أن ينفد معها صبر أيوب (٢٠)».

ولكن فيلسوفنا لم يكن «أيوب». وكتب كتابه رائعة عن النجوم، ووجد من بين أهل الأرض أغبياء إلى حد لا يطاق. وأحس بأن عرضه الفلسفي لملك كوبرنيكوس كان خطوة طيبة في سبيل فهمه، وأنه كان «ناقداً لاذعاً» (٢١)، لسكل من رفضوا آراءه. ولو أن فلوريو ألفاه، بعد أن هدأ رعبه وديعاً لطيفاً (٢٢) وكان غروره امتحاناً لأصدقائه، مثل الريح في شراعه. وخلع على نفسه ألقاباً خفية: «دكتور في اللاهوت الأكثر تطوراً، استاذ في الحكمة الخالصة غير الضارة» (٢٣)، وكان يتمتع بخيال نابولي تاني المتقدم

وفصاحته المثيرة. وحيثما ذهب كانت شمس الجنوب تجعل الدم يغلي في عروقه،
«إني لأرهب نفسي وأعدبها وأقهرها ، جبا في الحكمة الحقة، وغيره على
التأمل الصادق» (٢٤)

وفي أواخر عام ١٥٨٥ عاد إلى باريس ، في أثر السفير الذي استدعى
إليها . وحاضر في السوربون مثيرا عداوة أنصار أرسطو ، كما هي العادة .
وأغرته حروب العصبة ضد هنرى الثالث بأن يختبر الجامعات الألمانية، فتسجل
في جامعة هاربرج ، ولكنه رفض القاء المحاضرات ، وعرض برئيس الجامعة
وقصد إلى وتنبرج ، وقضى عامين يحاضر في جامعة لوتر ، ولدى مغادرته لها
عبر عن شكره في خطاب محلق ودع فيه الجامعة . ولكن لاهوت رجا
الاصلاح لم يرقه ، فالتمس رعاية رودلف الثانى فى براغ . وظلنه الامبراطور
رحلا غريب الأطوار ، ولكنه منحه ٣٠٠ ثيلر ، وأذن له بالتدريس فى
جامعة هلمستد فى برزويك . وبقي سعيداً فى عمله لعدة أشهر ، لإتمه بعدها
رئيس الكنيسة اللوثرية وأصدر قراراً بحرمانه من الكنيسة (٢٥) . ولسنا
نعرف جوهر الحقيقة فيما جرى ، ولكن برونو رحل إلى فرانكفورت
وزيوربخ ثم إلى فرانكفورت ثانية (١٥٩٠ - ١٥٩١) حيث استقر به المقام
ليذكر مؤلفاته اللاتينية .

وفى تلك الأثناء - قبل إيداعه السجن بأمر من محكمة التفتيش بعام واحد-
كانت فلسفته قد اكتملت ، ولو أنها لم تصل قط إلى مرتبة الوضوح والترابط.
أننا عند النظر فى أهم مؤلفات برونو لتصدنا العنوانات التى وضعها فى صيغة
مقتضبة . ويغاب عليها أن تكون شاعرية مبهمه ، نندرنا بالألتوقع فلسفة
منهجية متماسكة ، بل هى على الأرجح أفكار خيالية صالحة وانجذابات صوفية
أو نشوات . وقل أ ل مجد فى أى مؤلف آخر ، اللهم إلا رابليه ، هذا الخليط
من النعوت والألقاب والمجازات البلاغية والرموز والخرافات والنزوات
والفكاهات ، والكلام المنمق والتوافه والتمجيد والسخرية وخفة الدم ، مكدسة
بعضها فوق بعض ، فى فوضى من المبادئ والأفكار الشاذة والفرضيات .

لقد ورت برونو براعة الكتاب المسرحيين الايطاليين والمرح الصاخب المؤذى لدى الشعراء الايطاليين الذين يحشون قصائدهم بالفاظ ايطالية إلى جانب ألفاظ من لغة أو لغات أخرى ، كما ورت هجاء برنى وأرتينو اللاذع . وإذا كان المقصود بالفلسفة : القدرة على رؤية الأشياء رؤية هادئة وفقا لعلاقتها الصحيحة وأهميتها بالنسبية ، والتحفظ أو التقييد المعقول المنطقي ، والقدرة على الاحاطة بكل الجوانب ، والتسامح مع كل وجهات النظر المخالفة ، فإن برونو ، على هذا الأساس ليس فيلسوفاً ، بل أنه محارب أو مصارع ، يصم أذنيه ويغشى عينيه ، لكيلا يتصرفه الأخطار المحدقة عن هدفه — الذى كان قبل ظهور فولتير بقرنين من الزمان — محو عار الاضطهاد وظلمته فثمة مرارة أشد من فولتير فى برونو فى تمكمه الوحشى للمعالجة اللاهوتية المثالية للايمان الغافل الخالى من التفكير :

إنى لأقول وأكرر القول بأنه ليس ثمة مرآة توضع أمام أعين البشر ، خير من المحاربه أو الحمار ليكشف بشكل أوضح عن واجب هذا الانسان الذى . . . يفتش عن ثواب يوم الحساب . . . ومن ناحية أخرى ، ليس ثمة شئ . أشد فعالية فى تردينا فى هاوية الجحيم من التأملات الفلسفية والعقلانية التى تنبع من الحواس . . . وتنمو وتنضج فى العقل البشرى المتطور . فحاولوا إذن أن تكونوا حميرا ، يأبها الرجال ، ويأبها الذين أنتم بالفعل حمير ، وأدرسوا حتى تسيروا من حسن إلى أحسن ، وتحققوا هذه الغاية والمسكاته اللتين لا يمكن الوصول إليهما بالمعرفة والجهود مهما عظمت ، بل بالايان ، واللتين لا يحول دونهما الجهل والأخطاء مهما كانت جسيمة واسكن يحول دونهما الكفر . وإذا كنتم بمثل هذا السلوك مقيدى فى سجل الحياة فسوف تحظون ببركة الكنيسة « المحاربة » ، وبمجد الكنيسة المنتصرة » ، التى « يعيش فيها « الله » ، ويحكم فى كل العصور . . . آمين (٢٦)

أن رؤية برونو للكون رؤية جمالية فى أصلها ، وهى تقدير عميق يتسم

بالتعجب والدهشة من كون لا نهائى ساطع براق . ولكنهما كذلك محاولة فلسفية لتكليف الفكر البشرى مع كون يشكل فيه كوكبنا الذى نعيش عليه جزءا غاية فى الصغر من اتساع لا يمكن إدراك مداه . أن الأرض ليست مركز العالم ، وكذلك الشمس ليست مركز الاله ، وفيما وراء العالم الذى نراه (ولم يكن هناك تلسكوب حين كتب برونو) عوالم أخرى (كما أوضح التلسكوب بعد ذلك بقليل وفيما وراء هذه العوالم الأخرى توجد عوالم أخرى أيضا كما أثبت التلسكوب بعد تحسينه) ، وهكذا إلى ما لا نهاية ، أننا لا نستطيع أن ندرك نهاية أو بداية . وبدلا من النجوم « الثابتة » كما ظن كوبرنيكوس أنها ثابتة، فإنها تغير مواقعها على الدوام ، وحتى فى السموات كل الأشياء تجرى . والفضاء والزمن والحركة كلها أمور نسبية . وليس هناك مركز ولا محيط ، ولا ارتفاع وانخفاض . وتختلف نفس الحركة عند رؤيتها من أماكن أو نجوم مختلفة . ولما كان الزمن هو مقياس الحركة ، فإن الزمن نسبي كذلك ، وربما كان هناك نجوم كثيرة تسكنها كائنات حية ذكية . فهل مات المسيح من أجلهم كذلك ؟ على أنه فى هذا الاتساع الذى لا نهاية له ، هناك بقاء ثابت للمادة ، وولاء دائم لا محيد عنه للقانون .

ولما كان الكون لا نهائيا ، فإنه لا يمكن أن يكون هناك « لانهايان » ، فاذن يكون « الله » اللانهائى والكون اللانهائى شيئا واحدا (وهنا قول سبينوزا « الله أو المادة أو الطبيعة ») ، وليس هناك « مدبر أول » كما قال أرسطو . بل هناك حركة أو طاقة متصلة فى كل جزء من هذا السكل ، . وليس الله عقلا خارجيا والأجدر به أن يسكون القاعدة الداخلية للحركة ، وهى طبيعته وروحه ، (٢٧) . والطبيعة هى العقل الخارجى الالهى ، على أن هذا العقل ليس موجودا فى « سماء عليا » بل هو موجود فى كل جزء من جزيئات الواقع .

إن العالم يتألف من عناصر دقيقة جداً ومن وحدات لا تقبل الانقسام من القوة ، ومن حياة ، ومن عقل بدائي (وهنا كان برونو همزة الوصل بين لوكريشوس وليبنز) ولكل جزء صغير فرديته القائمة بذاتها وعقله الخاص به ، ومع ذلك فإن حريته لا تعني التحرر من القانون ، ولكنها تعني (كما قال سبينوزا) سلوكه وفق قانونه وطبيعته المتأصلتين الخاصتين به . وهناك في الطبيعة قاعدة التقدم والتطور ، بمعنى أن كل جزء يكافح من أجل التطور والنمو . (Entelechia أرسطو) .

وهناك في الطبيعة أعداد ، وقوى متعارضة ، ومتناقضات . ولكن عمل الكون بأسره في « مشيئة الله ، تتوافق كل المتضادات وتختفي . كذلك فإن الحركان المتباينة للكواكب هي التي تحدث الانسجام في السموات ، ووراء التنوع المحير الناحر في الطبيعة توجد هناك وحدة أروع وأشدّ عجباً ، تظهر فيها كل الأجزاء وكأنها أعضاء في كائن واحد . « أنها وحدة تسحرني ، فأنا بقوة هذه الوحدة حر ولو كنت مستعبداً ، سعيد في غمرة الحزن ، غني في حماة الفقر ، حتى حتى في الموت ، (٢٨) (إني ، ولو أني خاضع للقانون ، أعبر عن طبيعتي الخاصة . وبرغم أني أقاسي فاني أجد عزاء في التحقق من أن « شر ، الجزء يصبح غير ذي معنى في المشهد العام للكل) . ومن ثم تكون معرفة الوحدة الأسرى هي هدف العلم والفلسفة ، وهي الدواء الشافي للعقل . (الحب العقلي لله ، عند سبينوزا) .

إن هذه الخلاصة البسيطة لفلسفة برونو تهمل ومضاته وجنونه البطولي ، وهي تنطوي على اتصال وتماسك في تفكيره مغايرين له كل المغايرة ، لأنها تتحرى على متناقضات وتوكيدات جازمة ، وعلى فيض من التقلبات ، لا تتفق إلا مع المذهلات الكونية . وثمة مجموعة أخرى من أفكاره يمكن أن تسلكه في عداد المتصوفة الجوس . أنه تحدث عن المزايا الخاصة بكثير من الكواكب ، فذهب إلى أن الأشخاص الذين يولدون تحت تأثير ، الزهرة

ينزعون إلى الحب والبلاغة والهدوء والسلام ، أما الذين يولدون تحت
تأثير ، المريخ فيميلون إلى النزاع والبغض . وآمن بالخصائص الخفية للأشياء
والأرقام ، وأن الأمراض قد تكون عفاريت ، ويمكن علاجها في بعض
الحالات بلمسة ملك أو لعاب ابن سابع (٢٩) .

وكان وهمه الأخير أنه كان يؤمل ، في حال عودته إلى إيطاليا واستجواب
محكمة التفتيش له ، في أنه يستطيع أن يقتبس بعض قطع رشيدة من مؤلفاته
ينخدع بها الكنييسة فتحسبه ابنها البار . وربما راوده الأمل في أن إيطاليا
لم تكن قد سمعت بكتابه الذي نشره في إنجلترا ، طرد الحيوان المنتصر ، .
والذي كان يمكن أن يفسر الحيوان الذي طرد فيه على أنه الكاثوليكية أو
المسيحية أو المبادئ الدينية عامة (٣٠) . ولا بد أنه قد تأقت نفسه إلى إيطاليا
وإلا كيف نفسر لهفته على قبول دهوة جيوفني موسنيجو للقدوم إلى البندقية
معلما له وضيافاً عليه ؟ وكان موسنيجو سليل أسرة من ألمع أسرات البندقية ،
وكان كاثوليكياً ورعاً ، ولمكنه كان مهتماً بالقوى الخفية ، وقد أبلغوه أن
برونو كان على علم تام بفروع السحر ، وأنه يحتزن في ذاكرته القوية الكثير
من الخفايا والأسرار . وكانت محكمة التفتيش قد أهلنت منذ أمد طويل أن
برونو خارج على القانون ويجب القبض عليه في أول فرصة . ولكن البندقية
اشتهرت بجهاية أمثال هؤلاء الخارجين على القانون ، متحدية بذلك محكمة
التفتيش . وعلى ذلك سارع برونو إلى مغادرة فرنكفورت في أواخر ١٥٩١
وشق طريقه عبر الألب إلى إيطاليا .

وأعد له موسنيجو مسكناً وتلقى عنه دروساً في تقرية الذاكرة . ولكن
تقدم التليذ كان بطيئاً وظن أن معلمه قد حجب عنه بعض تقاليد السحر الخفية
كما أنه في نفس الوقت ارتعد فزعاً من المرطقات التي تمثلت في الفيلسوف
الثرثار القليل الحذر ، وسأل موسنيجو كاهن الاعتراف إذا كان يجب عليه
أن يبلغ محكمة التفتيش عن برونو ، فذصحه الكاهن بالتريث حتى يتثبت من
حقيقة برونو بشكل أدق . وامثل موسنيجو لمشورة الكاهن ، ولكن عندما

أعلن برونو عن عزمه على العودة إلى فرانكفورت ، أبلغ مونسنيجو المحكمة وفي ٢٣ مايو ١٥٩٢ وجد برونو نفسه نزيلًا في سجن المحكمة في البندقية . وأوضح مونسنيجو أنه « تصرف وفق ما أملاه عليه ضميره ، وبأمر من كاهن الاعتراف (٢١) . وأبلغ المتحققين أن برونو كان يعارض كل الأديان ، ولو أن الكهنة كانت أحبا إلى نفسه ، ولكنهم أنكروا التثليث وتجسد المسيح وتحول القربان ، وأنه اتهم المسيح والرسول بتضليل الناس وخداعهم بالمعجزات المزعومة ، وأنه قال بأن كل الإخوة أو رجال الدين والرهبان حمير دنسوا الأرض بنفاقهم وريائهم وجشعهم وحياتهم المملوءة بالشور ، وأن الفلسفة يجب أن تحل محل الديانة ، وأن الانغماس في الملذات الدنيوية ، ليس خطيئة وأنه ، أي برونو ، أشبه شهوراته قدر ما سمحت له الفرص (٢٢) ، وأن برونو كان قد قال له « أنه استمتع بالنساء كثيرا ، ولو أنه لم يبلغ بعد عدد نساء سليمان (٢٣) .

وحققت المحكمة مع السجن على مهل ، من مايو إلى سبتمبر ١٥٩٢ ودفع بأنه كان قد كتب ما كتب بوصفه فيلسوفا ، وأنه كان يستفيد من تمييز بمونفانزي بن دالحقين ، أنه يجوز للإنسان أن يناقش ، بوصفه فيلسوفا ، نظريات قبلها بوصفه كاثوليكيا . وصرح بما يساوره من شكوك في موضوع التثليث . واعترف بأنه مذنب في أخطاء كثيرة ، وأبدى ندمه عليها ، وتضرع إلى المحكمة وهي تعرف سقامه وعيوبه ، أن تعيده إلى أحضان الكنيسة الأم وأن تزوده بما يلائمه من علاج ، وأن تستعمل معه الرأفة (٢٤) . ولم تستجب المحكمة إلى شيء من هذا وأعادته إلى زنانه لمدة شهرين آخرين وفي ٣٠ يوليو حققوا معه مرة ثانية ، واستمعوا إلى اعترافه وطلبه الرأفة وأعادوه مرة ثانية إلى السجن . وفي سبتمبر طلبت محكمة التفتيش في رومه من البندقية إرسال السجنين إليها . فاعترضت حكومة البندقية ، ولكن المحكمة أوضحت أن برونو من مواطني نابلي ، لا البندقية . ووافق السناتو على تسليمه . وفي ٢٧ فبراير ١٥٩٣ تم ترحيله إلى رومه .

وكان جزءاً من إجراءات محكمة التفتيش أن تترك السجنين يقبع مكشوباً حزيناً في السجن لفترات طويلة قبل التحقيق وفي أثناءه وبعده . وكادت تنقضي سنة كاملة قبل أن يمثل برونو أمام محكمة رومه في ديسمبر ١٥٩٣ ، وحققوا معه ، أو قل عذبه بالتحقيق ، ثانية ، في أبريل ومايو وسبتمبر وديسمبر ١٥٩٤ . وأجتمعت المحكمة مرتين في يناير ١٥٩٥ لتدرس الأوراق . وتقول أوراق المحاكمة أنه في مارس ١٥٩٥ وأبريل ١٥٩٦ ، مثل برونو أمام كبار الكرادلة ، وأنهم زاروه في زنزانته . وأستمعوا له وسألوه عما يمكن أن يكون في حاجة إليه^(٣٥) ، وفي ديسمبر ١٥٩٦ استمعوا إلى شكواه . من الطعام ، . وفي مارس ١٥٩٧ استدعى للمثول بين يدي المحققين الذين استمعوا مرة أخرى إلى ما يحتاج إليه ، . ولم تعرف ماذا كان يحتاج إليه ، ولكن النداءات المتكررة توحى بمصاعب يتعذر وصفها ، ليس من بينها هذا التسوية الطويل ، المفروض أن الهدف منه هو تحطيم الروح الجياشة إلى حسد الإذلال المهذب للنفس . وانقضى عام آخر ، وفي ديسمبر ١٥٩٨ سمح له بورق وقلم ، وفي ١٤ يناير ١٥٩٩ استدعى مرة أخرى ، وتليت عليه ثمان مسائل هرطيقية مأخوذة من كتبه . وطلبوا إليه أن يشجها علناً ، فدافع عن وجهة نظره ولكنه وافق على قبول حكم البابا في المسائل سائلة الذكر . وفي ٤ فبراير قرر كليمنت الثامن وهيئة محكمة التفتيش أن هذه المقتبسات هرطيقية صريحة . ولم يرد في أوراق المحاكمة ذكر لأراء برونو في نظريات كورنيكس ، بل أن الهرطقة أنصبت على التجسيد والتثليث . وسمح له بأربعين يوماً أخرى للاعتراف بأخطائه .

واستمعوا له مرة أخرى في ١٨ فبراير ، ثم في أبريل وسبتمبر ونوفمبر . وفي ٢١ ديسمبر أعلن أنه لن يتراجع . وفي ٢٠ يناير ١٦٠٠ قدم إلى البابا مذكرة يدعى فيها أن المسائل الواردة في الاتهام اتبست من مظانها بشكل خاطيء ، ويعرض أن يتولى الدفاع عنها أمام رجال الدين ، ويقول مرة أخرى أنه يرتضى حكم البابا . وبناء على ذلك ، كما تقول سجلات المحاكمة « أصدر قداسة

البابا كليمنت الثامن أمرا بإتخاذ الإجراءات النهائية في القضية وبالنتىق بالحكم ، وبإحالة الأء المدعو جوردانوس إلى المحكمة المدنية . وفى ٨ فبراير استدعى المحققون برونو ، ركرروا على مساهمة الإتهامات الموجهة إليه ، وأبلغوه أنهم أهلوه ثمانية أعوام ليراجع موقفه ويبدى الندم ، وأنه وافق على حكم البابا فى أمر مرقه عن الدين ، وأن البابا قرر أنه مارق ، وأن المتهم لا يزال مصراً على هرطقته ، دسائراً فى غيه ، عنيداً ، مكابراً ، ومن ثم صدر الحكم بإحالته إلى المحكمة المدنية إلى حاكم رومه ، الحاضر هنا الآن ليقرر العقوبة التى تستحقها . ولو أننا نرجو جادين أن يخفف من صرامة القوانين ، بالنسبة لما تعاناه من آلام ، وألا يكون جزاؤك الإعدام أو بتر الأعضاء ووقع على الحكم ثمانية كرادلة ، من بينهم بللارمين . ويقول كسبار سكيوبيوس - وهو عالم ألمانى تحول حديثاً إلى الكشلكة ثم أقام فى رومه - أن برونو ، عندما تلى عليه الحكم ، قال لقضائه : ربما كنتم يا من نطقتم الحكم بإعدامى ، أشد جزعاً وخشية منى أنا الذى تلقيتة ، (٣٦) .

ونقل برونو على الفور إلى سجن مدنى . وفى ١٩ فبراير ، وهو لا يزال مصراً على موقفه ، جرد من ثيابه وربط لسانه ، وشد إلى خازوق من الحديد فوق ركام من الخطب فى « بيازا كامبودى فيورى ، وأحرق حياً على مشهد من جمع غفير متعظ . وكان فى الثانية والخمسين من العمر ، وفى ١٨٨٩ ، أقيم له فى نفس المكان ، تمثال ؛ جمعت له التبرعات من مختلف أركان الدنيا .

٣ - فابننى وكبانا نلا

بعد تسعة عشر عاماً من هذا الذى أسلفنا ، ظهرت نزعة بمائلة ، ولقيت من فورها نفس المصير .

ولد جيوليو سيزار لوسبيليو فابننى فى جنوب إيطاليا لأب إيطالى وأم

أسبانية - بارود يتزوج ناراً . ويعد أن تجول فائني في أنحاء أوروبا - كما فعل برونو - يختبر الأجواء واللاهوتيات ، ويؤلف الكتب ، وفيها مضام عارضة من فكر ثاقب (مثل قوله أن الإنسان كان يوماً من إذوات الأربع) لا تكاد تتوازن مع الهراء الغامض ؛ استقر به المقام في تولوز (١٦١٧) ، حيث قضى - مثل برونو - عامين نعم فيهما بالهدوء . ولكن أحد المتردين على محاضراته وشى به على أنه يسخر من التجسيد ويعارض فكرة وجود « إله بشري » (٣٨) . وثمه مستمع آخر ، هو سيردي فرانسون - كسب ثقة فائني ، واستدرجه - كما فعل موسييجو مع برونو من قبل - وأبلغ أمره إلى برلمان البلدة . فقبض عليه في ٢ أغسطس ١٦١٨ ، لا بأمر الكنيسة ؛ بل بناء على أمر من مفوض الملك العام . واستناداً إلى محاضراته اتهم بالإلحاد والتجديف ، وهاتان جريمتان تعاقب عليهما الدولة . وأكد فائني لإيمانه بالله ، ولكن فرانسون زعم أن السجين صرح بالإلحاد وكفره أكثر من مرة قائلاً بأن الطبيعة هي الإله الوحيد ، وأقر القضاة شهادة الشاهد ، وعلى الرغم من إحتياجات فائني الصارخة ، وما أظهره من تقى وورع في سجنه ، صدر الحكم عليه - وهو في الرابعة والثلاثين : -

بأن يسلم إلى الجلاد ، الذي يجره إلى سياج تقال ، وهو في قيصه ، وحبل المشنقة حول عنقه ، حاملاً فوق كتفيه إعلاناً يقول « ملحد دنس اسم الله ، وعلى هذه الحال يقوده أمام المدخل الرئيسي للكنيسة القديس متيفن ، وهناك يجثو على ركبتيه ليطلب الغفران من الله ومن الملك ومن العدالة ، عن تجديفه وألحاده ، ثم يسوقه إلى ميدان ساين ، ويشده إلى خازوق مقام هناك ، ويقطع لسانه ، ويشنقه ، ثم يحرق جسمه ثم يترك الرماد لتدوره الرياح » (٦٥) .

ويروون أن فانتي ، حين جرى به من السجن ليلقى عقابه (٩ فبراير ١٦١٩) صاحب مبعجا ، دعوني أذهب ، دعوني أذهب فرحا مبهجا لاموت موتة فليسوف (٣٩) .

كذلك ولد توماسو كمباللا ، ودم كاليريا الحار يجرى في عروقه ، وخفف من حرارته لبعض الوقت في دير للدومنيكان ، ودرس تليزو وامبيد وكليس ؛ ونذ أرمطو ، وتناول بالتعريض والتسخيف ، قرار البابا بالحرم من الكنيسة فأودع بالسجن بأمر من محكمة التفتيش في نابلي لبضعة شهور (١٥٩١-١٥٩٢) وبعد الإفراج عنه ألقى بعض الدروس والمحاضرات في بادوا ، واتهم بالفسق والفجور ، وهناك دون أول مؤلف هام له في الفلسفة (١٥٩٤) نصح فيه المفكرين - كما فعل فرانيس بيكون بعد ذلك بأحد عشر عاما - بدراسة الطبيعة ، لا دراسة أرمطو - وأعد برنامجا للعودة إلى العلم والفلسفة . ولما عاد إلى نابلي انضم إلى مؤامرة لتخليصها من نير أسبانيا . ولكن المؤامرة أحبطت ، وزج به في سجون الولاية لمدة سبعة وعشرون عاما (١٥٩٩-١٦٢٦) وعذب اثنتي عشرة مرة ، استمر التعذيب في إحداها أربعين ساعة (٢٠) . وخفف من آلام السجن بالفلسفة والشعر وتصوره للدولة المثالية ، وفي قصيدته (السونيت) وعنوانها « الشعب » بعبر عن استيائه عن عجز الأهالي عن مساعدته في ثورته فيقول :

الشعب دابة لها منح مشوش غبي ، لا تعرف قوتها ، ومن ثم تقف محملة بالخشب والحجاره ، تقودها يدان هزيلتان لمجرد طفل بالشكيمة واللجام ، إن رفسة واحدة تكفي لتحطيم القيد ، ولكن الدابة تخاف ونجبن ، وتفعل ما يطلبه الطفل ، ولا تدرك قدرتها على إرهابه ، لأن « البمع » الثافه يدهلها ويربكها . وأعجب من هذا أنها تكبل نفسها وتكتم لسانها بيدها - وتجلب على نفسها الموت والحرب مقابل درهمات (بنسات) يتصدق

بها المولود عليها من خزايتها هي . إنها تملك كل ما بين الأرض
والسماء ، ولكنها لا تعرف ذلك . وإذا هب إنسان لينطق بهذه
الحقيقة لقتلته دون أن تغفر له ذنبه^(٤١) .

وأهم إنتاج لكيمباللا في سنوات الشتاء هذه مدينة الشمس ، التي تخيلها
قائمة على جبل في سيلان ، وكل موظفيها صفوة مخنارة - وهم قابلون للعزل -
عن طريق جمعية وطنية تضم كل من بلغ العشرين من سكان المدينة ، وهؤلاء
الموظفون المختارون على هذا الأساس ، يختارون بدورهم رئيس الحكومة ،
وهو كاهن يسمونه « هو ه Hoh » يفصل هو ومعاونوه في كل المسائل الدينية
أو دينية . ويشرفون كذلك على زواج الجنسين ، ليستوثقوا من أن النساء
والرجال يتصلون بعضهم ببعض لينجبوا أحسن الذرية . إنهم حقا يسخرون
منا حين نبدى اهتماما شديدا بنتاج الخيل والكلاب ، ونهمل نسل الإنسان^(٤٢)
ومن ثم ليس هنا مكان للعاهات والتشوهات . والنساء في مدينة الشمس هذه
شركة بين الرجال على الشيوع في انضباط صارم ، يقتضين القيام بتمرينات
شاقة ، توفر لهن بشرة صافية ومظهرا عاما طيبا . فإذا صبغت امرأة وجهها
بالمساحيق ، أو استخدمت أحذية عالية الكعبين . كانت عقوبتها الإعدام^(٤٣)
ويدرب الجنسان كلاهما على الحرب ، ويكون جزاء من يهرب من ميدان القتال
أن يلقي عند الإمساك به في عرين للأسود والديبة ليلقى حتفه^(٤٤) . وكل فرد
مكلف بالعمل ، ولكن لمدة أربع ساعات فقط ، يوميا (وينشأ الأطفال
تنشئة مشتركة ، ويعدون لإعدادا تقريبا لاقتسام السلع وفق أمس شيوعية ،
أما ديانة هؤلاء الناس فهي عبادة الشمس بوصفها « وجه الإله وصورته الحية ،
» إنهم يؤكدون أن الأرض بأسرها سوف تعيش في التثام تام مع عاداتهم
وأعرافهم^(٤٥) .

وهذا البيان الشيوعي ، الذي يردد صدى أفلاطون . كتبه كيمباللا في
السنين حوالي ١٦٠٢ ، ونشر في فرانكفورت آم مين في ١٦٢٢ . وبما كان

البيان يعبر عن آمال المتأمرين النابوليتانيين ، وربما كان سببا في احتجاز كمبرانيللا في السجن طويلا ، على أنه تصالح مع الكنيسة في الوقت المناسب فأفرج عنه . وقد أدخل السرور على قلب أرمان الثامن بتوكيده ، على حق البابوات في حكم الملوك . وفي ١٩٣٤ أرسله أرمان إلى باريس لينقذه من التورط في ثورة نابوليتانية أخرى ورعاه ريشليو وحماه . ولكن الثائر المنهوك ، بعد أن استرد شبابه فارق الحياة وهو في صومعته في دير الدومنيكان (١٦٣٩) ، وكان يقول : « أنا الناكوس - كمبرانللا - الذي يؤذن بيزوغ الفجر الجديد (٤٦) » .

٤ - الفلسفة والسياسة

١ - جوان دي ماريانا : ١٥٣٦ - ١٦٢٤ :

كان محور السياسة في العصور الوسطى تثبيت سيطرة البابا على الملوك لجمعهم وتوحيدهم كلهم تحت رايته . أما أبرز مظاهر التاريخ السياسي الحديث فهو صراع الدول القومية التي تحررت من سلطة البابا . ومن ثم كانت أول قضية شغلت بال الفلسفة السياسية في القرن الذي جاء في أعقاب الإصلاح الدبني ، هي أن المفكرين الكاثوليك كانوا يطالبون باستعادة سلطان البابا ، على حين طالب المفكرون البروتستانت بالقضاء على سيطرة البابا قضاء تاما ، وكان أنصار البابوية يحاجون بأن الملكية المطلقة التي تطالب بحقوق الملوك الإلهية وتنكر كل الضوابط والقيود التي يفرضها الدين والأخلاق والقانون ؛ قد تمزق إربا إربا ، ولكن دعاة الإصلاح ردوا على هذا بقولهم بأنه ليس ثمة سلطة « فوق قومية » (تتخطى الحدود القومية) يمكن أن توثق في سعيها لتحقيق خير البشرية ، بل أنها على الأرجح لا بد أن تسعى لتدعيم قوتها الخاصة ونفعها الخاص هذا بالإضافة إلى أن كنيسة ذات سلطة عليا قد تحقق كل حرية الحياة وحرية الفكر .

وكان الفلاسفة « السكولاسيون » ، في العصور الوسطى ، قد استمدوا سلطة الملك — وهم في هذا يرددون رأى المشرعين الرومان — من رضا الشعب ، لا من رضا الله ، ومن ثم لا تكون ثمة سلطة إلهية للملوك ، ويعزل بحق أى حاكم غير صالح ، كما أن المفكرين الكلفنيين : مثل بليز وبوكانان ومؤلف « قصاص الطغيان » — أيدوا هذا الرأى أيما تأييد ، ولكن اللاهوتيين اللوثريين والإنجليكانيين أيدوا حقوق الملوك الإلهية كعنصر موازنة ضرورى ضد عنف الشعب ومزاعم البابا ، وقالوا بوجوب الابهتثال للملك حتى ولو كان ظالما (٤٧) .

وكان بين المدافعين عن سلطة الشعب كثير من الجزوبت الذين رأوا في هذه النظرية وسيلة لاضعاف سلطان الملوك أمام سلطان البابا . ويحاج الكاردينال بلارمين في هذا بقوله : إذا كانت سلطة الملك مستمدة من الشعب ، ومن ثم خاضعة له ، فانه من الواضح أن تكون تابعة لسلطة البابا المستمدة من الكنيسة التى أمسها المسيح ، وهى بذلك لا تخضع لغير الله . وانتهى لويس مولينا — وهو جزويتى أسبانى — إلى أنه مادام الشعب هو مصدر السلطة الدينية ، فانه يجوز له حقا وعدلا — ولكن وفق اجراءات سليمة — أن يخلع الملك الظالم (٤٨) . وجاء فرانشسكو سواريه وهو خير من أنجبه المجتمع المسيحى من رجال اللاهوت (٤٩) ، فقرر هذه النظرة من جديد ، مع بعض تعديلات دقيقة قاوم بها مزاعم جيمس الأول الاستبدادية ، واعتنق الرأى القائل بحق البابوات فى عزل الملوك . وأثار دفاع الجزويتى جوان دى ماريانا عن قتل الطغاة سخطا عالميا ، حيث زعموا أنه شجع على قتل هنرى الرابع .

أن ماريانا (الذى لاحظنا بالفعل أنه أعظم مؤرخى جيله) كان من كل الوجوه شخصا مرموقا ، اشتهر بعلمه وفصاحته وجرأته الفكرية . وفى ١٥٩٩ أهدى إلى فيليب الثالث ونشر ، باذن من الرقيب المحلى الجزويتى ، رسالته « الملك وتعليمه » ، واستبق هوبز بنصف قرن ، فوصف « حالة الطبيعة » قبل

نشوء المجتمع ، حيث عاش الإنسان آنذاك عيشة الحيوان في البرية ، متحررا من أية قيود أو ضوابط ، اللهم إلا عجزه الجثاني ، لا يعترف بقانون ولا بملكية خاصة ، يشبع غريزته في التماس الطعام والرفيقة . ولكن كانت ثمة منغصات في الحرية التي نادى بها روسو ، من ذلك تكاثر الحيوانات الضارية الخطرة . وعمد الناس إلى حماية أنفسهم عن طريق تنظيم اجتماعي ، وهو أعظم أداة اخترعت آنذاك ، ووسيلة ضرورية لمقابلة أعضاء الدفاع والهجوم الفسيولوجية التي زودت بها الطبيعة الحيوان . وبمقتضى ميثاق صريح أو ضمني اتفق أعضاء الجماعة على تفويض سلطتهم الجماعية إلى رئيس أو ملك . ولكن السيادة بقيت في الشعب ، وفي معظم الأحوال تقريبا ، قامت جمعية وطنية (مثل الكورتيز في أسبانيا - الجمعية التشريعية ، من مجلسين) بالرقابة على السلطة المفوضة للملك أو الرئيس ، واحتفظت بالأشراف على الخزينة وسنت مجموعة من القوانين كانت سيادتها أعلى من سلطة الملك . هـ

وفي رأى ماريانا أن الديمقراطية أمر مستحيل ، بسبب تفاوت توزيع القدرات والذكاء بين الناس والدمار كل الدمار في تحديد السياسة عن طريق الاستفتاء^(٥٠) . فالملكية المقيدة أو الدستورية أحسن أنواع الحكومات ، فهي تلتئم مع طبيعة الانسان ، وتعاون على بقاء الدولة . ويجب أن تكون وراثية ، لأن الحكومة الانتخابية إن هي الاثمار للفوضى في فترات دورية .

ويجب أن يكون الملك مقيدا بالقانون وبالضوابط الدينية والأخلاقية ، وبحق الشعب في عزله إذا طغى . ويجب عليه ألا يغير القوانين أو يفرض ضرائب دون موافقة الشعب . ويجب عليه ألا يقرر شيئا بشأن الدين^(٥١) ، لأن الكنيسة فوق الدولة وينبغي لها أن تحكم نفسها ، ومع ذلك فعليه أن يحمي ديانة البلد ، لأنه إذا أهملت الديانة فلن تقوم للدولة قائمة^(٥٢) . ويجب على الدولة أن تساعد الدين في محافظته على المبادئ الأخلاقية ، وتشجع مصارعة الثيران لأنها تشجع على الوحشية ، والمسرح لأنه يهيج الغرائز

الجنسية^(٥٣)، وتنفق على العناية بالمرضى والفقراء عن طريق التوسع في إنشاء المستشفيات وتوزيع الصدقات وأعمال البر، ويذبح على الأغنياء أن يعطوا الفقراء ما ينفقونه الآن على مظاهر البذخ وعلى الكتّاب. ويجب أن تكون الضرائب عالية على الكماليات، منخفضة على الضروريات. فإن السلع الموجودة في البلاد يمكن أن تفي بحاجات الجميع إذا أحسن توزيعها توزيعاً عادلاً^(٥٤). فالأمير الصالح يمكنه أن يحول دون تركز الثروة، ولم تحمل الملكية الخاصة محل الشيوعية البدائية إلا لأن «الجموع المطيع وضع يده على كل النعم الإلهية واستأثر بكل شيء لنفسه^(٥٥)». أن هذا نظام ضروري الآن، وسوف تعاد الشيوعية في السماء^(٥٦).

ويجوز أن يعزل الطاغية، بل يجوز حقاً وعدلاً قتله، حتى يبد فرد، في بعض الظروف :-

من هو الحاكم الذي يمكن أن يعتبر طاغية؟ إننا نجد بنا ألا نترك الفصل في هذا لأي فرد، أو حتى لأفراد كثيرين، إلا إذا اشترك صوت الشعب في هذا جهرًا، وانضم المثقفون والمعروفون بالجدية والرزانة لإليه للتداول في الأمر ولكن إذا جر الأمير البلاد إلى الخراب، وأساء استخدام ممتلكات الدولة أو الأفراد، وخرق القوانين العامة، وأتتهك حرمة الدين، وبدأ يثبت أقدامه في صلف ووقاحة وعقوق وإذا لم يتسن للمواطنين أن يجتمعوا لاجراء مشاورات ومداومات عامة، ولسكنهم عاقدون المزم جدياً على وضع حد لهذا الطغيان - ومع افتراض أن هذا عمل بغيب لا يحتتمل فإنه في مثل هذه الحالة، إذا تقدم فرد، مستجيباً لهذه الرغبة العامة، وعرض القيام بالقضاء على هذا الحاكم. فإني لا أعتبر هذا الفرد آثمًا ولا شريراً وإنما لفكرة سليمة أن يقتنع الأمراء بأنهم إذا طغوا

وبغوا... فإنه يمكن قتلهم ، لاحقا وعدلا فحسب ، بل أن قتلهم
يكون كذلك مدعاة للشناء والفخر^(٥٧) .

وأعاد ماريانا إلى ذاكرة قرائه حوادث قتل الطغاة في التاريخ -
هارموديوس وأرستوجيتون اللذين قتلا الطاغية همبارخوس (أثينا - القرن
السادس ق.م)، وبرونوس الذي أخرج الطاغية تاركينوس من رومه. وأشار
إلى أن أثينا ورومه ، بل في الواقع كل أوروبا المثقفة خلدت ذكرهم . ولكن
ماريانا كشف عن تمييزه ، برضائه إلى حد ما عن ذبح هنرى الثالث بيد كليمنت
منذ عهد قريب (١٥٨٩) :

ان هنرى الثالث ملك فرنسا خر صريعا بطعنة من أحد الرهبان
بسكين مسمومة في أحشائه . أن هذا منظر كريبه إن جاك كليمنت
درس اللاهوت في كلية الدومنيكان التابعة لطائفته . وأبلغه رجال
اللاهوت الذين استشارهم ، أن قتل الطاغية عمل مشروع . أن موت
كليمنت شرف خالد لفرنسا ، كما بدا لكثير من الناس ، فقد اعتبر
الكثيرون أنه مات وهو جدير بالخلود ، على حين أن آخرين من
ذوى الحكمة البالغة والثقافة العالية استنكروا عمله ووجهوا إليه
اللوم^(٥٨) .

وقد نذكر أن هنرى الثالث كان يناهض العصبة الكاثوليكية ، وأنه أمر
أعوانه بقتل هنرى دوق جيز ، زعيم العصبة . وكان فيليب الثاني ملك أسبانيا
يؤيد العصبة ، وقد أمدها ببعض المال ، كما وافق على قتل اليزابث الأولى
ملكة إنجلترا ، ووليم أورانج . ولم يكن لدى فيليب الثالث أى اعتراض على
قتل أى عدو لاسبانيا .

وفى ١٥٩٩ أمر كلوديوس أكوافيفا رئيس مجتمع يسوع ، بتصحيح كتاب
ماريانا ، الملك ، . ولما قتل هنرى الرابع بيد رافايك (٢٤ مايو ١٦١٠) أعلن

أكوافيفا استنكاره لمبدأ ماريانا في قتل الطغاة (٨ يولية) وحظر إدراجه في
في تعاليم الجزويت . وكان ماريانا في الوقت نفسه قد اعتقل ، لا لتجنيده قتل
الطغاة ، بل من أجل احتجاجه على خفض فيليب الثالث لقيمة العملة ، وتحذيره
أياه من مساوية التضخم في رسالة قيمة « تزييف العملة » ، (١٦٢٥) . واحتمل
ماريانا عناء السجن بطريقة فلسفية ، وبقي على قيد الحياة بعد إطلاق سراحه .
وتوفي ١٦٢٤ . وهو في سن السابعة والثمانين .

٢ - جان بودين : ١٥٩٦ - ٥٣٠

ما أشد الاختلاف بين بودين وماريانا ؟ لأنه لم يكن لاهوتيا له قدمان في
السماء ، ولم يكن مناصرا كثيبا للعصبة ، ولكن كان من هواة السياسة (مثل
ميشيل دي لوبيتال ، وهو من أنصار التسامح الديني ، وكان مستشارا لهنري
الرابع ومن المعجبين به) . وله جان في آنجرز ، وربما كانت أمه أسبانية يهودية
وجاء إلى باريس ١٥٦٠ ، واشتغل بالقانون ، ولكنه لم يدر عليه ربحا . وانصرف
في لهفة شديدة إلى دراسة الفلسفة والتاريخ . ودرس في نهم . العبرية واليونانية
والألمانية والإيطالية ، وكتابات ليفي وتاسيتس والعهد القديم ، وشيشرون ،
ودساتير دول غرب أوروبا . وآمن بأن دراسة التاريخ هي بداية الحكمة
السياسية . وكان أول ما قدم للطبعة « منهج لتيسير فهم التاريخ » ، (١٥٦٦) .
وهو كتاب يجده الطالب نافعا لقيمة له ولامتعة فيه ، محشوا بالتنميقات البلاغية ،
والأطناب الممل . إن العقل الفلسفي لا يتم نضجه مبكرا . لقد اعتقد بودين وهو
في السادسة والثلاثين أن التاريخ يوحى إلينا بالفضيلة عن طريق الكشف عن
هزائم الأشرار وانتصارات الأخيار^(٥٩) ، ومع ذلك فإن الكتاب يعتبر بعد -
« مقالات ميكيافلي » - أول كتاب هام في فلسفة التاريخ .

وفي هذا الكتاب ، وفي كتاب « الجمهورية » ، الذي جاء بعده - وقبل قرن
وتصنف قرن من ظهور فيكو وموتسكيو - نجد تفكيرنا منهجنا منتظما في

المناخ والسلالة باعتبارهما عاملين من عوامل التاريخ . فالتاريخ من وظائف الجغرافيا - الحرارة ، المطر . التربة ، سمات السطح . . . أن الجغرافيا تحدد الخلق ، والخلق يحدد التاريخ . وأن الناس لتباين أخلاقهم وسلوكهم ، تبعاً لحياتهم على الجبال أو في الأودية ، أو على شواطئ البحار . ويتميز أهل الشمال بقوة الجسم والنشاط العضلي . على حين يتميز أهل الجنوب بالحساسية العصبية وحدة الذهن . أما سكان المنطقة المعتدلة ، مثل شعوب البحر المتوسط وفرنسا فانهم يجمعون بين خصائص الشمال والجنوب ، وهم عمليون أكثر من أهل الجنوب ، ومفكرون أكثر من أهل الشمال ، وينبغي أن تتكيف حكومة أى شعب مع خلقه الذى حدده الجغرافيا والسلالة ، والذى لا يكاد يتغير بمرور الزمن . وعلى هذا الأساس يجب أن يحكم شعوب الشمال بالقوة . وشعوب الجنوب بالدين .

وفى كتاب أقل شأننا رد على تناقضات هاستروا ، ، أسس بودين « الاقتصاد السياسى ، تقريرا (٦٠) لخلل أسباب سرعة إرتفاع الأسعار فى أوربا ، وناقش مساوى خفض قيمة العملة ، ودافع عن حرية التجارة ، فى عصر الحماية الطبيعية والإقليمية ، وأكد العلاقة بين الواقع الاقتصادى والسياسة الحكومية .

ولكن أروع أعماله - وهو أهم إضافة للفلسفة السياسية فيما بين ميكيا فلى وهوبز - هو كتابه دالجمهورية ، (١٥٧٦) . وقد استعمل بودين هذه اللفظة بمعناها الرومانى : أى الدولة . وفرق بين الدولة والمجتمع . فالمجتمع قائم على الأسرة ، التى لها أساس طبيعى فى العلاقة بين الجنسين وبين الأجيال . أما الدولة فتقوم على قوة مصطنعة . وكانت الأسرة فى شكلها الطبيعى ، أبوية - أى أن للأب سلطة مطلقة على أزواجه وبنيه وممتلكات الأسرة ، وربما اقتضت المدنية بشكل حظير من حقوق الأب . ويجب أن تخضع المرأة دوما للرجل لأنها أضعف منه عقلا ، وفى وضعها معه على قدم المساواة لإغفال خطير

« للطبيعة » . وينبغي أن يكون الزوج على الدوام حق الطلاق ، كما ورد في التوراة . وذهب بودين إلى القول بأن انهيار سلطان الأب وتخلخل انضباط الأسرة كانا بالفعل يقوضان الأسس الطبيعية للنظام الاجتماعي . لأن الأسرة ، وليست الدولة ، هي وحدة النظام والأخلاق ومصدرها ، فإذا انهارت وحدة الأسرة والانضباط ، فلن يمثلاً فراغها أية قوانين مهما بلغ عددها^(٦١) . والملكية الخاصة أمر لا غنى عنه لسكان الأسرة وبقائها . والشريعة مستحيلة لأن كل الناس ولدوا غير متساوين^(٦٢) .

وكان بودين أكثر واقعية من ماريانا وروسو في مناقشته لأصل الدولة . فليس ثمة لغو وهراء حول ميثاق أو عقد اجتماعي ، فقد تنشأ الجماعات القروية على شيء من مثل هذا الاتفاق . أما الدولة . فقد نشأت بتغلب مجموعة من الأصوات على مجموعة أخرى ، ثم أصبح زعيم الفريق المنتصر ملكاً^(٦٣) . ولم ينبع اقرار القوانين من ارادة الشعب أو سيادته ، بل من القوة النظامية للحكومة ، — ومن ثم فإن الملكية المطلقة أمر طبيعي ، فإنها في الدولة ، استمرار لسلطة الأب في الأسرة الأبوية . فلن تكون هناك سيادة لاية دولة إذا خضعت لغير قوانين الطبيعة وقوانين الله^(٦٤) . وكما انتهى هوبز إلى هذه النتائج فرارا من الفوضى التي سببتها الحرب الأهلية في إنجلترا (١٦٤٢ — ١٦٤٩) ، فان بودين رأى في الحكومة الاستبدادية المخرج الوحيد من الحروب الدينية وتمزيق فرنسا ، مع ملاحظة أن كتابه نشر بعد أربع سنوات فقط من مذبحه سانت برتليو، وربما كتب بالدم الذي كان يجري أنهارا في شوارع باريس . وبدا لبودين أنه إذا كانت مهمة الدولة هي المحافظة على النظام ، فان هذا لن يتسنى لها إلا عن طريق سيادة مطلقة غير قابلة للتحويل أو التخلي عنها .

وبناء على هذا تكون الملكية غير المقيدة ، الوارثية . هي خير أنواع الحكومات : يجب أن تكون غير مقيدة حتى لا تنتهي إلى الفوضى ، ووراثية تجنباً لشرور النزاع على العرش . فالملكية مثل السلطة الأبوية - سادت في معظم أنحاء الأرض ، لأطول مدة من الزمن ، ولقد أقرها التاريخ . على حين أن الديموقراطيات لم تحكم الدول إلا لفترات قصيرة فحسب ، واكبتها تنهار ، بسبب تقلب الشعب ، وعجز الموظفين الذين يختارهم ، وفسادهم وقبولهم للرشوة (٦٥) ، وفي أية جمعية شعبية يحسب عدد الأصوات دون وزنها أو تقدير قيمتها (من أجل نوعية التفكير الذى أدلى بالصوت) ، فإن عدد الحقى والأشهر والجهال أكبر ألف مرة دائماً من عدد الرجال الذين يقام لهم وزن . د . وايس ثمة خلاص للديمقراطية إلا إذا تولى الحكم ، وراء ستار المساواة ، نفر قليل من الناس ، ورجح وزن العقول عدد الرؤوس (٦٦) .

واهترف بودين بأنه لا بد من إيجاد مخرج من الاستبدادية المطلقة إذا أصبح الحاكم طاغية ظالماً . فأباح حق القيام بالثورة أو قتل الطاغية ، وربما كان ذلك على أساس غير منطقي . وسلم بأنه حتى ملكياته البالغة حد الكمال ، لا بد أن يأتى يوم تنهار فيه ، وتعزل نتيجة تغييرات لا معدى عنها ، وتنعذر الحيلولة دون وقوعها . واستبق هيجل ، فقسم التاريخ إلى فترات ثلاث : الأولى سيطرت فيها دول الشرق ، والثانية شعوب البحر المتوسط ، والثالثة أقطار شمالي أوربا . ومن خلال تعاقب القيام أو السقوط هذا ، ذهب بودين إلى القول بأنه يلحظ شيئاً من التقدم . ولا يقع العصر الذهبى فى الماضى الأسطورى ، بل فى المستقبل الذى سيبنى ثمار أعظم الاختراعات على الإطلاق - وهى الطباعة (٦٧) . وكتب ، (قبل بىكون بنصف قرن .) أن العلوم تدخر فى أعماقها كنوزاً لن تقدر على استنفادها أية عصور مقبلة قط .

وكان بودين مفكراً حراً ، مع نظرة كريمة بعين الاعتبار إلى الكتاب المقدس ، (أو بالأحرى إلى العهد القديم ، لأنه يتجاهل العهد الجديد تقريباً) ،

مع انكار تام لحقيقة السحر والملائكة والنفوس والجن، وضرورة إقامة دولة ملتزمة مع الخصائص الخفية للأرقام . ونادى بأقصى العقوبة للسحرة ، ونصح الأمراء بالمحافظة على وحدة العقيدة الدينية لأطول وقت ممكن ، ولكن إذا قويت الهرطقة وانتشرت ، فليس من الحكمة قمعها بالقوة ، بل أنه من الأفضل الاعتماد على عنصر الزمن لكسب الهراطقة إلى جانب الدين الرسمي .

أما ماذا عساه يكون هذا الدين ، فلم يفصح عنه بودين . وكان دينه مشكوكا فيه . وفي كتابه الغريب حديث سبعة رجال ، الذي تركه عن عمد دون أن ينشره ، (طبع لأول مرة ١٨٤١) ، صور كاثوليكيًا ولوثريًا وكلفنيا ويهوديًا ومسلمًا ، وأبيقوريا وربوبيا ، في مناقشة في البندقية . وفازت اليهودية ، أما المبادئ المسيحية في الخطيئة الأصلية ، والتثليث والتجسد فقد كان الهجوم عليها أقوى بكثير من الدفاع عنها . ولم يثبت في النهاية إلا الإيمان بالله . أن تقاد بودين اتهموه بأنه يهودي وكلفني وملحد ، وقالوا بأنه مات على غير دين « كالكلب » . ولكن الإيمان بالتوجيه الإلهي للعالم ، واضح بأجلى بيان في « الجمهورية » ، والاحساد موضوع خارج نطاق التسامح ، لأنه يهزأ بالسكون (٦٩) .

وكان بودين ، مثل هوبز ، رجلا هيايا يحاول أن يتلمس طريقه إلى الهدوء والاستقرار وسط طغيان الثورة والحرب . وأصاب أعظم مؤلفاته عدوى زمانه ، فكان فلسفة لعالم مضطرب معتل يتلهم على النظام والسلام . ولا يمكن أن تقارن بالحكمة المصقولة التي جاءت في مقالاته ، مونثيني الذي كان أقل منه انزعاجا في تلك السنوات ذاتها . ومع ذلك فإنه منذ عهد أرسطوليس ثمة رجل ، ربما باستثناء ابن خلدون ، نشر الفلسفة السياسية على مثل هذا النطاق الواسع ، أو دافع عن آرائه وأهوائه بمثل هذه القوة والعمق ، مثل بودين . وإن تجدد قبل ظهور « لفيانان هوز » ، مثل هذه المحاولة الجمادة لاكتشاف بعض المنطق في أساليب الدول .

٣ - هوجو جروشويوس : ١٥٨٣ - ١٦٤٥

لذا بقي ذكر هويج جروتو عالقا بالأذهان ، على حين طوى النسيان تقريرا ذكر معظم الرواد الأول في حقله، وهو القانون الدولي (*) فقد يرجع هذا إلى أنه عاش كما كتب ، ولأنه أنف كتابه الممتاز في فترة كانت تعج بدبلوماسية نشيطة وسياسة مخوفة بالمخاطر . ولد هويج (أو هوجو) في دلفت ، ودرس الرياضيات والفلسفة والقانون في لندن . وامتدح سكاليجر أسلوبه اللاتيني وأثنى عليه ، وفي السادسة والعشرين حظى بتقدير بلاده له بسبب مؤلفه د حرية البحار ، (١٦٠٤) الذي أوجز فيه القانون البحري ، ودافع عن حرية البحار من أجل جميع البلاد ، وبخاصة هولنده التي كانت تتحدى البرتغال التي أدعت احتكار الطرق البحرية إلى الشرق الأقصى . وعندما عين مؤرخا رسميا للمقاطعات المتحدة ألف بلغة لاتينية قاربت حد الامتياز تاريخا جريئا ، واسكنه دقيق للشورة الكبرى ، ولقد رأينا يناضل إلى جانب مذهب التحرر الذي نادى به أرمنيوس في النزاع بين أولد نيار تفلدته وموريس ناسو . فقبض عليه واعترف بأخطائه (٧٠) فحكّم عليه بالسجن مدى الحياة . وتوصلت زوجته أن تقيم معه في السجن ، فسمح لها بذلك . وبعد قرابة ثلاثة سنوات قضاها في السجن ، خباثته زوجته في صندوق للكتب ، فهرب من المعتقل ، وقصد إلى فرنسا حيث أجرى عليه لويس الثالث عشر معاشا ضئيلا . وعندما صعدت ألمانيا حرب الثلاثين ، ألف جروشويوس الذي كان يعاني الفقر والعوز كتابة د قانون الحرب والسلام ، (١٦٢٥) .

(*) وعلى الأخص فرانسيسكو فكتوريا أستاذ اللاهوت في سلامنكا في « المحاضرات » (١٥٧٧) .

البريكو جنطيلي أستاذ القانون المدني في أ كسفورد الذي استبق بكتابة « قانون الحرب » (١٥٨٨) كتاب جروشويوس « دفاع عن حرية البحار » ، ثم فرانسيسكو سورية الذي عرض في كتاب ضخمة فسكرتة إنشاء عصبة أمم يحكمها القانون الدولي .

رأيت أنه يسود العالم المسيحي نزعة إلى شن الحروب التي قد تجعل
فيها حتى الحرب المتبررة ، فيفزع الناس إلى السلاح لأتفه الأسباب ،
أو بسبب ، حتى إذا ما حملوا السلاح ، لم يعد هناك أى احترام لقانون
سماوي أو قانون وضعي ، وكأنما أبيع للناس ارتكاب أية جرائم
دون قيد (٧١) .

كان مكيفاللي قد ذهب إلى أن الدول لا يمكن الإبقاء أو الحفاظ عليها
إلا إذا تم الالتزام بالقانون الاخلاقي المفروض على مواطنيها . فينبغي
على رجال الدولة - بالتفويض عادة - أن يكونوا مستعدين للكذب والسلب
والقتل ، قدر ما يرون أن هذا أو ذلك مرغوب فيه ، من أجل مصلحة الدولة ،
لأن الدول ، حتى تلك اللحظة تعيش في أذغال تنازع فيها البقاء ، مثلما كانت
تعيش الأسرات قبل قيام الدول . وهي لا تعرف قانوناً إلا قانون ديانة
الذات ، . ويسلم جروشيوس بأنه يجوز إعفاء الحكومات من ، القانون
الوضعي ، الذي سنه الانسان ، ولكنه يرى أنها ملتزمة بطاعة القانون الطبيعي
ويعرف هذا القانون « الحق الطبيعي » ، بأنه هو أن ما ديمليه ويفرضه العقل
الرشيد ، ، ليكشف عن الفساد الخلقى أو الضرورة الخلقية لعمل من الأعمال ،
باتفاق هذا العمل أو تنافره مع الطبيعة العقلانية ، ومن ثم يوضح أن هذا
العمل يحمله الله أو يجرمه ، والله هو منشئ الطبيعة أو خالقها (٧٢) ، . وعلى هذا
يكون القانون الطبيعي هو نظام الحقوق والواجبات الذي ينبع من الطبيعة
الأساسية للإنسان بوصفه كائناً عقلياً يعيش في مجتمع . فكل ما هو ضروري
لوجرده واسهامه في المجتمع حق طبيعي له ، فهو ناشئ عن طبيعته وملائم لها .
ويجب أن تلتزم الدول في تصرفاتها بمراعاة هذه الحقوق .

ويتابع جروشيوس كلامه فيقول بأن هذا يجب أن يكون خاضعاً
« لقوانين الشعوب » ، التي قصد بها القانون الروماني تلك التي لم تشملها المواطنة
الرومانية ، ، فلما انهارت لامبراطورية الرومانية الغربية طبقها مشرعو

العصور الوسطى على علاقات الدول بعضها ببعض . وهذا يصبح في نظر جروشيوس التجميع المبهم أو غير الواضح لكل القواعد والقيود التي قبلتها معظم الدول المتطورة أو النامية ، بحكم العرف ، في اتصالاتها المتبادلة . وعلى هذين الأساسين : القانون الطبيعي ، وقوانين الشعوب ، يبنى جروشيوس الهيكل النظري ، وهو أول صياغة حديثة لقانون دولي مرغوب فيه .

وهو بصفة عامة يحرم الحرب على الاطلاق . وهو يدرك أن الجماعة — مثل الحيوان — اذا أحسّت بأنها مهددة في أعز ما تملك أو في حياتها ، فانها ستدافع عن نفسها بأية وسيلة متاحة — وإذا أمكن بالحجة والبرهان أو بالقانون ، حتى اذا أخفقت هاتان الوسيلتان ، فأية قوة تأتمر بأمرها (٧٣) . وبناء على هذا فإن أية دولة في مثل هذه الظروف يكون لها الحق في شن الحرب دفاعاً عن حياة مواطنيها وامتلاكاتهم . ولكن الحرب عمل مجاف للعدالة ولا يمكن تبريره ، اذا شنت من أجل الغزو والفتح ، أو السلب والنهب ، أو من أجل الأرض ، أو لرغبة صادقة أو من عومة في فرض حكومة صالحة على شعب غير راغب فيها (٧٤) . والحروب الوقائية جائزة كذلك . د نشر بعض الكتابات مبدأ لا يمكن التسليم به قط ، وهو أن قانون الشعوب يجيز لدولة ما أن تبد أعمالاً عدائية ضد دولة أخرى تشير عظمها المتزايدة فرع الدولة الأولى . وإذا كان هذا مجرد ذريعة نفعية ، فإنه اجراء يجوز اللجوء إليه ، ولكن مبادئ العدالة لا تؤيده (٧٥) . ويجب أن يلتزم الأفراد بالامتناع عن الخدمة في حروب يرون بوضوح أنها جائزة (٧٦) .

فإذا افترضنا ، حينذاك أن ثمة حرباً عادلة مشروعة ، فان لكل أمة تشترك فيها حقوقاً ، فلها أن تلجأ إلى الخداع والتضليل ، وتثار وتسترد الأرض ، وتستولى على الغنائم ، وتأسر وتستخدم الأسرى . ولكن على الأمة واجبات ، مثلما أن لها حقوقاً ، فيجدر بها أن تعلن الحرب قبل أن تشنها ، كما تحترم أية معاهدة عقدت بشأنها ، وتلتزم بمسئولياتها فيها بصرف النظر عن عقدت معه . كما يجدر في حملات الغزو لمحافظة على حياة النساء والأطفال

والمسنين ، بل على الأصح ، غير المحاربين عامة . ويجوز استرقاق الأسرى ، ولكن لا ينبغي قتلهم . واعتبط جروشيوش لظاهرة طيبة تبشر بالتقدم ، تلك أن المسيحيين والمسلمين لم يعودوا يستعبدون أسراهم الذين على دينهم .

وكانت مناقشة كريمة معتدلة برغم ما شابها من عيوب ، فإذا كان القانون الطبيعي ، أمرا من أملاء «العقل الرشيد» ، فمن ذا الذي يحدد أى عقل هو الرشيد؟ ففي الدولة إنما تحدده الحكومة التي تملك قوة مسلحة ، فأساس الامتثال لقواعد السلوك الموصى به ، هو قدرة المشرع على فرضها فرضا . فالقوة لا تؤسس حقا بل تسن قانونا . فالقانون الدولي ينتظر هيئة تشريعية دولية تدعمها قوة دولية ، وهو أساسا لن يتضمن إلّا قيودا متواضعة واتفاقات يمكن نقضها ، قبلتها الدول المعنية على أساس أنها ملائمة للظروف التي أبرمت فيها . وإذا عرفنا «قانون الشعوب» ، بأنه أعراف أكثر الشعوب تطورا فإن هذا ، مرة أخرى ، يقتضى ضمنا وجود مرجع ثقة مؤهل وقادر على تحديد الشعوب الأكثر تطورا . وأين هذا المرجع الثقة؟ في أوروبا؟ في الصين؟ في دولة الإسلام؟ وهل تسمح حكومة لمواطنيها ليحكموا ويقرروا لأنفسهم أن الحرب عادلة أو غير عادلة؟ أنها تستطيع ذلك لو أن جهاز صيانة المبادئ والتوجيه فيها كان جهازا صالحا للوفاء بهذا الغرض .

لقد كان الكتاب غير منطقي ، ولكنه كان ضروريا . لقد شنت ألف حرب جائرة ، وكان من الخير أن يفكر إنسان في اتخاذ خطوات للتخفيف من أعمال القتل التي ترتكبها الأمم المتحاربة ، طبقا لقيود مقبولة بالتبادل ، ومن الخير استنكار حروب الغزو والسلب والنهب . ومن الخير أن يرتفع صوت ينادى بالرحمة لغير المحاربين والأسرى . وسخرت حرب الثلاثين سنة من هذه الامتيازات والالتماسات . ولكن عندما خفت حدة هذا الجنون المسعور ، بررت حالة ألمانيا بعد الحرب كتاب جروشيوس أبلغ تبرير .

أن ريشليو الذي عقد العزم على الدخول في حرب الثلاثين سنة ، حبس عن جروشيوس المعاش الذي كان يتقاضاه ، وأوى المؤلف المعرض للبخاطر

إلى ممبرج . وفي ١٦٣٣ أرسله أوكسنستيرنا إلى باريس سفيراً للسويد لدى فرنسا ، ولكن جروشيوس - شأن معظم الفلاسفة - كان أكثر إتلافاً مع أفكاره وآرائه منه مع الناس ، فكان يفضيه لريشليو ، ثم لمزران من بعده ، من أن يحدد دبلوما سيئة . وفي ١٦٤٥ عاد إلى النمسا الراحة والسلوى بين كتبه . ودعته الملكة كريستينا للإقامة في بلاطها ، عالماً يجوز له العطاء ، ولكنه حظى بموافقتها على اللجوء إلى ألمانيا . فرتبت له الملكة أمر السفر إلى لوبك ، ولكن عاصفة جنحت بالقرب إلى الشاطئ ، فعانى جروشيوس كثيراً من هول الصدمة ومن اقتضاح أمره ، وقضى نحبه في روستوك في ٢٩ أغسطس ١٦٤٥ ، وهو في الثانية والستين من العمر .

وبعد انقضاء مائتين وسبعة وستين عاماً غفرت له هولندية «تحريرته» ، وفي ١٨٨٦ أقامت له تمثالاً في مسقط رأسه . وفي ١٨٩٩ وضع مندوبو الولايات المتحدة إلى المؤتمر الدولي للسلام في لاهاي ، على قبره اكليلاً من الفضة . اهتموا بأن كتابه أسهم لبعض الوقت في الحد من «لعبة الملوك» .

ه - الكاهن الأبيقورى

هلا وقفنا ، ونحن نمضى في طريقنا إلى ديكارث ، وقفه أخيرة ، لنفكر ملياً في سر الكاهن الكاثوليسكى الذى أحيا مادبة أبيقور . فكان من مظاهر التطور العقلى فى أوربا أن فيلسوف اللذة اليونانى الذى ظل اسمه لعدة قرون مرادفاً للكفر والالحاد ، يلقى الآن ، وفي غمرة النور المتزايد من أرسطو ، تكريماً وتشريفاً على يدي كاهن ورع لا عيب فيه ، نبات مات من فرط تشده في الإمساك أيام الصوم الكبير .

بدأ بيير جاسندى حياته ابناً لأحد الفلاحين بالقرب من دير في بروفانس ، وأظهر من حدة الذهن والشغف بالمعرفة ما هياً له وهو في السادسة عشرة

الاشتغال بتعليم د الأدب ، ، وفي الخامسة والعشرين تدرّس الفلسفة في جامعة أكس . ورمم كاهنا ، وأصبح قسيسا ورئيسا لسكاتدرائية دين . وفي تلك الأثناء كان قد فرغ من تأليف كتاب يتسم بالانفعال والثورة على أرسطو د تمرينات التناقض ، . وقد أحرق معظم الكتاب بناء على نصيحة الأصدقاء ، ولكن الأجزاء التي نشرها منه في ١٦٢٤ نمت عن تأييده دلفلك ، كوبرنيكس ، و ذرية ، لوكريشس و د فلسفة ، ابيقور . وهنا كانت دعسوة صارخة للاستهزاء . ولكن بيير كان شابا لطيف المعشر ، متواضع السلوك مواظبا على واجباته الدينية ، إلى درجة يبدو معها أن أحدا لم يفكر في إحراقه . أنه أعلن طوال حياته عن إيمانه بنظرية د الحقيقتين ، - أن الفلسفة يمكن أن ترتضى النتائج التي يفرضها العقل بوضوح ، على حين أنه في الدين قد يظل المرء يتبع العقيدة والطقوس التقليدية بوصفه ابنا باراً للكنيسة . فأصاب بيير عصفورين بحجر واحد .

وبناء على طلب من مرسن صديق ديكارت ، قدم بيير عدة اعتراضات قوية على فلسفة ديكارت ويحسن أن نوجها . وفي ١٦٤٥ عين أستاذا للرياضيات في د الكلية الملكية ، في باريس ، ولكنه سرعان ما أصيب بالتهاب رئوي ، فعاد إلى جو دين ذى الشمس الأكثر دفئا . وهناك كتب أعظم مؤلفاته ، وكما تدور حول أبيقور : د الحياة السعيدة في نظرية أبيقور ، (١٦٤٧) و د حياة اللذة عند أبيقور ، (١٦٤٩) وكتاب يقع في ١٦٠٠ صحيفة على نهرين د مبادئ فلسفة أبيقور ، (١٦٤٩) .

وبدنا واصل بيير تثبيت عقيدته الكاثوليكية ، شرح لقراء اللاتينية فلسفة كل من أبيقور ولولكريشس - المادية والذرية وشرعية اللذة . أن د العلة الأولى ، لكل شيء هي د الله ، ولكن بعد هذه الدفعة الأولى (التي استهل بها كل شيء وجوده) واصل كل شيء مسيرته أو تقدمه بفعل قواه وقوانينه الفطرية المتأصلة فيه . وكل معرفة تنبع من الحواس ، وهي ذات وجود فردي .

أما الكلمات ، أو الأفكار العامة ، فهي أدوات نافعة للفكر ، ولكن ليس لها ترابط موضوعي . وليس من شك في أن الروح غير مادية ، وخالدة ، ولكنها تبدو معتمدة على الجسم . وواضح أن الذاكوة من وظائف المخ ، وليست اللذة الحسية لا أخلاقية إذا اتسمت باعتدال حازم . ولكن أقل الملمات تغيرا وغدرا هي ملذات الذهن ، فإن الرياضيات مثلا قد يطرب لها الإنسان ويتهج بها . وكان جاسندي نفسه بطبيعة الحال « ابيقوريا » ، أي أنه ارتضى فلسفة ابيقور ، ولكنه لم يغمس في اللذة الحسية ، بل على النقيض من ذلك ، اتسمت حياته باعتدال بالغ . وإنتابته الحمى بعد صوم طويل أكثر مما ينبغي . وأجهز عليه أطباؤه بفصده ثلاث عشرة مرة (١٩٥٥) .

وكان موليير وسيرانودي برجرارك من بين مريديه في باريس . وارتضى فو تزل وسانت أفرموند وينون دي لنكلوس فلسفته دون لاهوته . وأفاد هوبز من أحاديثه معه . وربما أخذ عنه بعض عناصر علم النفس الحسي ، عن طريق تلميذ جاسندي وصديق لوك ، فرانسوا برنيه الذي نشر « موجز فلسفة جاسندي » في ١٦٧٨ . وآثر نيوتن « ذرات » جاسندي على « جسيمات » ديكارت ، ووجد عند كاهن بروفنسال تلميحا إلى الجاذبية وفكرة غامضة عنها (٧٧) . وفي القرن الثامن عشر هيأت المادية السكامنة في جاسندي وتوكيده على العلم والتجريب مقابل منطق أرسطو وميتافيزيقا ديكارت - نقول هيا له هذا وتلك ، بين الفلاسفة الفرنسيين ، مكانة أرفع من مكانة أي مفكر فرنسي آخر ، باستثناء ديكارت . إذن ما هذا الذي جعل من ديكارت لمدة قرن من الزمان معينا لا ينضب للفلسفة الحديثة ؟

٦- رينه ديكارت ١٥٩٦ - ١٦٥٠

أول ما ذكره عن ديكارت أنه تلقى تعليمه على أيدي الجزويت . وكان هذا التعليم نقطة البداية وحجر الشئذ عند كل المراهقة الفرنسيين ، ابتداء

من ديكرت ثم فولتير ، وريتان و أناتول فرانس ، بين جدران المعبد صنعت
المعاول التي حطم بها المعبد ، (٧٨) .

ولد في لأهى ، وهى بلدة صغيرة بمنطقة التورين بفرنسا . ومات أمه السل
بعد ولادته بأيام قلائل ، وورث عنها المرض . وكان في صباه شاحب اللون ،
يسعل سعالاً يثير الاشفاق ، إلى حد أن الطبيب لم يبشر بأى أمل في إنقاذه ،
ولم تتخل عنه المرضة يأساً من بقاءه على قيد الحياة ، ولكنها أمدته بالدفء
والغذاء من جسدها هى ، فعاد إلى الحياة ثانية . وربما سمي لهذا السبب ، باسم
رينيه (وهى لفظة مشتقة من أصل لاتينى بمعنى ولد من جديد) . وكان والده
محامياً موسراً ، وعضواً في برلمان رن Rennes ، وترك لابنه عند وفاته دخلاً
يقدر بستة آلاف فرنك في العام .

والحق في سن الثامنة بكلية « لافيش ، اليسوعية » التي يقول عنها أحد
المفكرين الأحرار المتحمسين ومشاهير الرياضيين « يبدو أنها زودته بقدر
من الرياضيات أعظم كثيراً مما كان يمكن أن يحصل عليه في معظم الجامعات في
ذاك العصر (٧٩) » وتبين معلوه ضعف جسمه ويقظة ذهنه فأباحوا له البقاء في
الفراش بعد الوقت المحدد للاستيقاظ ، ولحظوا أنه استغل الوقت في اتهام
الكتب ، الواحد بعد الآخر ، وفي كل جولاته من الميتافيزيقا ، ظل يمتط
بإعجابه الشديد بأساتذته الجزويت ، كما أنهم بدورهم ، نظروا إلى شكوكه بشيء
من التسامح الأبوى .

وقصد في سن السابعة عشرة إلى باريس ليلهو ويعبت ، ولكنه لم يجد شيئاً
ينغمس فيه ، لأنه لم يكن بعد يحفل بالنساء أو يميل لإثهن ، ولكنه بوصفه
رياضياً ضليعاً ، انصرف إلى المدرس ، مقدراً أنه يستطيع الاستيلاء على خزانة
نادى القمار . والتحق بجامعة بواتييه حيث حصل منها على درجات عليية في
القانون المدني والقانون الكنسى . وما أن استرد عافيته وقوته ، حتى أذهل
أصدقاهه ، بانخراطه في جيش الأمير موريس ناسو (١٦١٨) . ولما نشبت حرب
٣٠ - ٢١ الحضارة

الثلثين عاما انضم إلى قوات هكسيمليان أمير بافاريا ، وتذكر رواية غير مؤكدة أنه اشترك في معركة « الجبل الأبيض » ،

وفي غضون هذه الحملات . وبخاصة في شهور الشتاء الطويلة التي تعوق مواصلة القتال ، كان ديكرت يتابع دراسته ، وفي الرياضيات بصفة خاصة . وذات يوم (١٠ نوفمبر ١٦١٩) في نيوبرج بالقرب من أولم في بافاريا ، اتقى البرد بالقبوع في دموقد ، (من المحتمل أن تكون غرفة مدفأة خصيصا له) وفيها - كما يقول هو - رأى فيما يرى النائم في ثلاث روى أو ثلاثة أحلام ، ومضات من النور ، وسمع رعداً ، وبداله أن روحا سماوية كانت توحى إليه بفلسفة جديدة . وبعد خروجه من هذا « الموقد » (الغرفة) كان - كما يؤكد لنا - قد صاغ الهندسة التحليلية ، وتصور فكرة تطبيق المنهج الرياضى في الفلسفة (٨٠) .

ورجع إلى فرنسا في ١٦٢٢ ، ورتب أموره المالية . ثم استأنف جولانه ، ففضى قرابة سنة في إيطاليا : فقصده من البندقية (ويقولون سير أعلى الأقدام) إلى لوريتو حيث قدم لإجلاله للعدراء . ورأى رومه في فترة الغفران (١٦٢٥) ، ومر بفلورنسه ولكنه لم يزر جاليليو . ثم قفل عائداً إلى باريس وهناك في الريف تابع دراساته العلمية . وصحب الرياضى المهندس العسكرى جيرار ديسارج في حصار لاروشيل (١٦٢٨) . وفي أخريات هذا العام قصد إلى هولندة ، حيث قضى في المقاطعات المتحدة بقية أيام حياته تقريبا ، اللهم إلا بعض فترات قصيرة قصد فيها إلى فرنسا لتدبير شؤنه المالية .

ولسنا نعلم لماذا ترك فرنسا ، ويحتمل أن هذا يرجع إلى أنه « بعد أن أفصح عما لديه من أسباب للشك في أشياء كثيرة (٨١) » خشى أن يتهم بالهرطقة ، مع أنه كان له أصدقاء كثيرون من رجال الكنيسة هناك ، مثل مرسن وبيرول . وربما حاول أن يتجنب الأصدقاء والأعداء على حد سواء ، أملا في أن يجد في بله غريب عزلة اجتماعية (لافسكرية) يستطيع فيها أن يشكل الفلسفة التي

كانت تعتلج بين جنبيه لقد كره ضجيج باريس وثرثرتها ، ولكن لم تقلقه الحركة
النشيطة التي تطلقها الفنون - في امستردام ، وهو يقول هناك ، وسط
المجموع المكتظة من شعب عظيم نشيط ، استطعت أن أعيش وحيداً منزولاً ،
وكان في صحراء نائية (٨٢) . وربما كانت رغبته في أن يتوارى عن الأنظار
ويخفض اهتماماته هي التي دفعته إلى تغيير أماكن إقامته أربعاً وعشرين مرة في
السنوات العشرين التالية ، من فرانكر إلى امستردام إلى دنتير ، إلى امستردام
إلى أوترخت ، ثم إلى ليدن ، ولكن بالقرب من جامعة أو مكتبة عادة .
وممكنه دخله من الاستمتاع بطيبات الحياة الاجتماعية في قصر صغير مع عدد
من الخدم . وامتنع عن الزواج ولكنه اتخذ خليله (١٦٣٤) أحببت له طفلة .
وإننا لنسم إذ نسمع أن الروح الإنسانية تجلت فيه حين بكى الطفله عند
موتها في الخامسة من عمرها . وقد نجا في الصواب إذا ظلناه فاتراً لا تحركة
الأحداث الدنوية ، وسوف نجد أنه يبرر كثيراً من الأهواء والمشاعر التي
يشجها رجال الأخلاق عادة . وما كان هو نفسه ليتجرد منها ، فهو عرضة
للزهو والغضب والغرور (٨٣) .

لقد بذل ديكارت جهداً جباراً لتحقيق هدفه . انظر إلى ما ألزم نفسه
بدراسته الرياضيات ، الفيزياء ، الفلك ، التشريح ، الفسيولوجيا ، علم النفس ،
هيتافيزيقا ، نظرية المعرفة ، الأخلاق ، اللاهوت . فمن ذا الذي يجرؤ اليوم
على أن يجول بين هذا كله ؟ ومن ثم طمع في العزلة والاحتجاب عن الأنظار ،
وأجرى التجارب والمعادلات والرسوم البيانية . وقدر فرص تجنبه محكمة
التفتيش أو تهديتها ، وحاول أن يهيء لفلسفته منهجا رياضيا . ولحياته
منهجا فلسفيا .

ومن أين يبدأ ؟ إنه في مقال في المنهج ، وهو الكتاب الفذ الذي يعتبر

* كتيبه ١٦٢٩ ، ونشر في ١٦٣٧ في مجلد يتضمن كذلك بحوثا في الهندسة والانكسار
والشهب ، ثم أعقبه في ١٦٤١ كتاب « تأملات في الفلسفة الأولية » ، ثم كتاب =

فاتحة عصر جديد ، أعلن عن أول مبدأ « كان يمكن ، في حد ذاته ، أن يقيم عليه الدنيا ويقعدما ويشير عليه غضب أولى الأمر ، وهكذا كان . فقد كان الموضوع مكتوباً في لغة فرنسية واضحة متميزة ميسرة ، في صيغة المتكلم الحية الساحرة . لقد أحدث ثورة كبيرة في التفكير ، وقال ديكارت أنه كان سعيداً يبتذل النظرريات والمبادئ والتعاليم ، وي طرح كل جهد ومرجع ، ويوجه خاص الفيلسوف أرسطو . وسيداً بصفحة جديدة خالية من أى شيء ، وينك في كل شيء . د إن السبب الأساسي في أخطائنا يمكن في أهواء طفولتنا^(٨٤) . . . فالمبادئ التي اعتنتها في شبابي ، استمر على الأخذ بها دون أن أتحرى حقيقتها ومبلغ الصدق فيها ، ^(٨٥) .

ولكنه كيف يمضى قدما ، إذا ساوره الشك في كل شيء ؟ . ولما كان مولعا بالرياضيات ، وفوق كل شيء بالهندسة التي دأبت عبقريته على تحويلها ، فقد تأقت نفسه ، بعد ابتداءه بالشك الشامل إلى العثور على حقيقة يمكن التسليم بها على الفور بصفة عامة مثل بديهيات إقليدس . د إن أرشميدس ، لكي يتيسر له أن يزحزح الكرة الأرضية من مكاتها وينقلها إلى مكان آخر ، تطلب أن تكون هناك نقطة واحدة ثابتة لا تتحرك ، وأنا بالمثل ، سيكون لي الحق في أن استبشر خيرا كثيرا إذا أسعدني الحظ ، فأضع يدي على شيء واحد مؤكد لانزاع فيه^(٨٦) . د وأكد على هذه النقطة متهللا : « أنا أفكر . فإذا أنا موجود^(٨٧) » . د وهذه أشهر عبارة في الفلسفة* ولم يقصد بها أن تكون قياسا

« مبادئ الفلسفة » في ١٦٤٤ وجاء بعده « رسالة في انفعالات النفس » في ١٦٥٠ ،

دراسة الإنسان» ١٦٦٢

* كان سانت أوغسطين قد استخدم نفس نقطة البداية هذه ، عند محاولته دحض آراء المتشككين الوثنيين الذين أعلنوا الشك في كل شيء . واسكه تساءل : من ذا الذي « يشك في أنه يبش ويفكر ؟ » « لأنه إذا كان يشك فهو يبش (٨٨) . واستخدم مونتيني نفس الحججة ضد المتشككين المتطرفين اليونان (أنصار برو ٣٦٥—٢٨٥ ق . م) في « معدرة إلى ريموند سييوند » وكان ديكارت قد قرأ مونتيني

منطقياً ، بل خبرة مباشرة لا سبيل لانكارها ، وهي أوضح وأجلى فكرة يمكن أن نحصل عليها ، وتكون سائر الأفكار ، صحيحة ، على قدر اقترابها من هذه البديهية الأساسية - الإدراك الحسى المباشر ، من حيث الجلاء والوضوح . وكان « منيح » ديكارت الجديد في الفلسفة هو أن يحلل الأفكار المركبة إلى مكوناتها ، حتى تصبح العناصر غير القابلة للاختزال أفكاراً بسيطة واضحة جلية ، ويبين أن مثل هذه الأفكار كلها يمكن أن تشتق من . أو تعتمد على ، الشعور الأول لسكان « يكر . أننا على العكس ، يجدر بنا أن نحاول أن نستنتج من هذا الإدراك الحسى الأول كل المبادئ الأساسية في الفلسفة .

ومرة أخرى كانت ثورة في الفلسفة حين اتخذ ديكارت نقطة البداية ، لا الأشياء الخارجية المفروض أنها معروفة ، بل الذات الواعية . لقد اكتشفت فلسفة النهضة « الفرد » ، ولكن ديكارت جعل منه همزة الوصل في فلسفته . ولإني لأرى بوضوح أنه ليس ثمة شيء أيسر على أن أعرفه ، من عقلي أنا^(٨٩) ، ولإدأ ، بدأنا بالمادة ، وسرنا قدما عبر مستويات الحياة العضوية إلى الإنسان فإن الاتصال أو الترابط المنطقي قد يغرينا بتفسير العقل بأنه مادي . ولكننا لا ندرك المادة إلا عن طريق العقل وحده . والعقل فقط هو الذي يمكن معرفته أو أدراكه مباشرة (دون واسطة) . وهنا تبدأ المثالية ، لا بمعناها الأخلاقي ، بل على أنها فلسفة تبدأ بالحقيقة المباشرة للأفكار ، أكثر مما تبدأ بالأشياء التي تعرف عن طريق الأفكار . وليس ثمة تحقيق يمكن اقتراحه أجدي من تحقيق يحاول تحديد طبيعة المعرفة الإنسانية ومداها^(٩٠) . ولمدة ثلاثة قرون كانت الفلسفة تسامح عما إذا كان « العالم الخارجي » موجوداً إلا كمجرد فكرة . وكما كان من العسير أن نعبر من الجسم إلى العقل ، بنظرية تقدر قدر كل من مصدر الأحاسيس وقوتها وواضح أنهما ماديتان ، وطبيعة الأفكار التي يبدو أنها طبيعة غير مادية ، فإن ديكارت كذلك ، وقد بدأ بالنفس ، وجد من العسير الانتقال من العقل إلى الأشياء . فكيف يتسنى للعقل أن يدرك أن الأحاسيس التي يبدو أنها تدلل على عالم خارجي ، ليست شيئاً أكثر من حالته هو (أى العقل) ؟

وكيف يصدق الحواس التي غالبا ما تخدعنا وتضلنا ، أو الصور العقلية التي تكون مشرقة عندما تكون « زائفة » في النوم ، قدر اشراقها عندما تكون « حقيقية » في اليقظة ؟ .

وهربا من سجن النفس « الأناثة » ، يلجأ ديكارت إلى الله الذي لا يمكن بالقول أن يجعل من كل حواسنا مجرد خدعة . ولكن متى يدخل الله في هذا المنهج الذي بدأ في جرأة بالشك في كل المعتقدات والمبادئ التي تلقاها الإنسان ؟ إن ديكارت لا يستطيع اثبات وجود الله من شواهد بديع صنعه في العالم الخارجي ، ولأنه لم يوضح بعد وجود هذا العالم الخارجي . ولذلك أخرج ديكارت « الله » من « النفس المدركة » ، تماما مثل فعل آرسطو في « البرهان الوجودي » ، قبل ذلك بستة قرون . وهو يقول : إن لدى تصور الكائن كامل مثالي قدبر علم ، ضروري ، خالده ولكن هذا الذي يوجد أقرب إلى الكمال من هذا الذي لم يوجد ، وعلى ذلك فإن الكائن الكامل المثالي يجب أن يكون الوجود من بين صفاته . ومن الذي كان يستطيع أن يدرك في هذه الفكرة إلا الله سبحانه وتعالى ؟ ومن المستحيل أن أحمل في نفسي فكرة الله ، إذالم يكن الله موجودا حقا ،^(٩١) . وإذا كان الله يريد أن يخدعنا فلن يكون كاملا ومن ثم فإنه لا يضللنا عندما تكون لدينا أفكار واضحة جلية ، ولا حين يتيح لحواسنا أن تكشف لنا عن عالم خارجي . « لست أدري كيف يمكن الدفاع عنه سبحانه » ، أو تبرئته من تهمة الخداع والتضليل إذا كانت هذه الأفكار ناتجة عن أسباب غير متعلقة بأشياء جسدية مادية . ومن ثم يجب أن نقر بأن الأشياء الجسدية المادية موجودة^(٩٢) ، ومن ثم تنسد بشكل رائع الهوة بين العقل والمادة ، بين الذات والموضوع . يصبح ديكارت ، بعون من الله ، واقميا . والعلم نفسه - إيماننا الراسخ يكون منطقي خاضع لنظام ، مطيع للقانون ، يمكن التعرف عليه واحصاء ما فيه - يصبح أمرا ممكنا ، لا شيء . إلا لأن الله موجود ، وحاشا الله أن يكذب .

ولإننا إذ نتبع ديكارت لنشهد « عصر العقل » ، في طفولته يتراجع فزعا من مغامرات الفكر ، محاولا اللوج ثانية إلى حظيرة الإيمان الدافئة . ورغبة

في بث الطمأنينة من جديد أطلق على « التأمّلات » : تأملات رينيه ديكارت في فلسفه أولى ، أبرز قيها وجود الله وخلود النفس . وأهدى الكتاب إلى « الحكيم الألمعي عميد كلية اللاهوت المقدسة في باريس » ، أي السوربون . وتقبل العميد الهدية ، ولكن في ١٦٦٢ أدرج الكتاب في قائمة الكتب المحظورة ، حتى يتم تصحيحه . . . وبدأ الكتاب على نفس النسق الجريء الذي بدأت به « المقالات » « اليوم . . . وقد هيأت لنفسي انقطاعاً أكيداً لرياضة روحية هادفة ، فلسوف أنكب أخيراً ، انكباً بمنطلقاً جاداً ، على استعراض عام لكل آرائى السابقة^(٩٣) . . . لقد ألقي بها جميعاً من النافذة ، ثم أجاز لها الدخول من الباب . ولم يكن من بين هذه الآراء ، إيمانه بالله عادل قدير فحسب ، بل كذلك إيمانه بارادة إنسانية حرة وسط آلية (ميكانيكية) كونية ، ونفس باقية (غير فانية) على الرغم من اعتمادها الواضح على جسد فان . ومما صلنا بمنطق العلاقة الوثيقة التي لا تنفصم عراها بين السبب والنتيجة في عالم المادة والجسد ، فان حرية إرادتنا فكرة من إحدى الفكرات الفطرية المتأصلة ، الواضحة الجلية ، الحية المباشرة ، إلى حد أنه لا يمكن أن يشك فيها أحد قط ، مهما حاول كثيراً أن يتلاعب بها (أي الفكرات) في النظريات المجردة^(٩٤) .

أن فكرة الله ، وفكرة النفس ، وفكرة المكان والزمان ، وفكرة الحركة ، والبداهيات الرياضية كلها فطرية متأصلة ، بمعنى أن النفس لا تستمدّها من الاحساس والخبرة ، بل من جوهرها وعقلانيتها .

(وهنا قد يعترض لوك ، ويوافق كانت) . ومهما يكن من أمر ، فان هذه الأفكار الفطرية قد تظل لاواعية حتى تخرجها الخبرة في صورة واعية ، والنفس حينئذ لا تكون نتاجاً للخبرة ، بل شريكها النشط المبدع في إنتاج الفكر .

أن هذه النفس العقلانية « القدرة على التعقل » ، واضح أنها غير مادية ، وليس لأفكارها طول ولا عرض ، ولا موقع ولا وزن ، ولا أية خاصية أخرى من خواص المادة^(٩٥) . « إني أنا ، أي النفس التي أثارها كما أنا عليه الآن ، هي أساساً متميزة عن الجسد بل حتى من الأيسر أن نعرفها بما نعرفه^(٩٦) . . . وعلى ذلك فان هذا العقل أو النفس غير المادية يمكن أن تبقى بعد الجسد ، ولا بد أنها تبقى .

ترى هل كانت تلك النتائج القويمة التي انتهى إليها ديكارت صادقة مغلصة، أو أنه أضفى عليها لونا وقائما؟ هل كان ديكارت تواقا إلى متابعة دراسته العلمية في هدوء وسلام بعيداً عن الاضطهاد والتعذيب، إلى حد أنه كان ينفث الميتافيزيقا مثل عصفورة مر بركة تحول دون انقراض الطيور الجارحة عليه؟ لسنا نملك الجزم بشيء في هذا الصدد. وقد يتسنى لامرئ أن يكون عالماً فاضلاً على الأقل في الفيزياء، والكيمياء، والفلك، إن لم يكن في البيولوجيا - وفي نفس الوقت يتقبل التعاليم الأساسية في المسيحية. وفي إحدى مقالاته أكد ديكارت أن العقل لا يحول دون تصديق أشياء نزل بها الوحي الإلهي، على أنها أكثر يقينية من أرسخ معرفتها وأجدرها بالثقة^(٩٧)، وتتم رسائله مع اليزابث أميرة البالاتين، في أسلوب فصيح عن التقى والتمسك بالصراف المستقيم. وزاره سالامبوس في ليدن ١٦٣٧ فوصفه بأنه «كاثوليكي غيور جداً»^(٩٨).

على أنه تفرغ في العقد الأخير من حياته للعلم. وحول داره إلى معمل، وأجرى تجارب في الفيزياء ووظائف الأعضاء، وإذا طلب أحد زواره أن يرى المكتبة، أشار ديكارت إلى ربيع عجل كان يقوم بتشيحها^(٩٩). وكان في بعض الأحيان يتحدث، كما تحدث بيكون، عن الفوائد العملية - الهائلة التي يجنيها الجنس البشري حين يستطيع العلم أن يجعل الناس سادة الطبيعة والمسيطرين عليها^(١٠٠)، وكثيراً ما أدى توكيده الذائق على الاستنباط وثقته فيه، إلى نتائج غامضة. ولكنه - اشتغل شغلاً خلاقاً بعدة علوم. وألح على أن يستبدل العلم بالأفكار التجريدية النوعية الغامضة التي سادت علم الفيزياء، في العصور الوسطى: لإيضاحات كمية مصوغة في صيغ رياضية. ولقد شهدنا تطويره للهندسة التحليلية وإشارته إلى حساب التفاضل والتكامل اللانهائي. وحل مشاكل تضميف المسكب وتثليث الزاوية. وابتدع فكرة استخدام الحروف الأولى من حروف الهجاء لتمثل الكميات المعلومه، والحروف الأخيرة لتمثيل الكميات المجهولة. ويبدو أنه اكتشف قانون انكسار الضوء مستقلاً عن Snell. وحالفه التوفيق في دراسته القوي العظيمي التي تحدثها وسائل صغيرة، مثل البكرة

والأسفين والرافعة والملزمة والمجلة ، وصاغ قوانين القصور الذاتي والتصادم
وكمية التحرك ، وربما أوحى إلى بسكال بأن الضغط الجوي ينخفض
بالارتفاع^(١٠١) ، ولو أنه أخطأ في إعلان أنه لا يوجد ثمة - فراغ إلا في
عقل بسكال^(١٠٢) . وأشار إلى أن كل جسم محوط بدوامات من جسيمات دقيقة
تدور حوله - في طبقات كروية - وهي فكرة تشبه نظرية المجال المغناطيسي
الحالية . وفي البصريات حسب حساباً صحيحاً زاوية الانكسار ، وحل
التغيرات التي يتعرض لها الضوء بفعل العدسة البلورية للعين ، وحل مشكلة
تصحيح الزيغ الكروي في التلسكوب ، وصمم عدسات ذات تقوس يبضى الشكل
أو زائدي المقطع ، خالية من هذا الزيغ^(١٠٣) .

وشرح جنينا ، ووصفه من الوجهة التشريحية ، وهو يقول أنه شرح رؤس
حيوانات مختلفة ليتحقق في أيها تكون الذاكرة والتصور وغيرهما^(١٠٤) .
وأجرى تجارب على الفعل اللاارادي أو المنعكس ، وشرح الطريقة (الميكانيكية)
التي تطرف بها العين عند اقتراب الضربة أو اللطمة^(١٠٥) . ووضع نظرية
للانفعال شبيهة بتلك التي وضعها وليم جيمس وكارل لايح : إن السبب الخارجي
للانفعال (مثل وقوع نظرنا على حيوان خطير) يولد ذاتياً أو آتياً فعلاً
هستجيبياً (الهرب) والاحساس المرتبط به (الخوف) ، فالانفعال هو إنجاز
الفعل لا سببه . والانفعالات متأصلة في الفسيولوجيا . ويجب دراستها وتفسيرها
على أنها عمليات ميكانيكية ، وليست في حد ذاتها سيئة لأنها الريح في أشرعتنا
ولكن إذا لم يلطف منها العقل ويحد منها ، فإتها قد تستعبد الانسان وتدمره .

ويمكن اعتبار الكون كله ميكانيكياً ، فيما عدا الله والنفس العقلانية وعرض
ديكارت هذه الفكرة وجاليليو ومحكمة التفتيش ما لثتان أمام عينيه - على
أنها مجرد فرض : فإذا افترضنا أن الله خلق المادة ووهبها الحركة ، فيمكننا
أن نتصور أن العالم يتطور بعد ذلك ، وفق قوانين الميكانيكا ، دون تدخل . إن
الحركة الطبيعية للجسيمات المادية في كون ليس فيه فراغ ، تأخذ شكلاً دائرياً
يؤدي إلى دوامات مختلفة من الحركة . ويمكن أن تكون الشمس والكواكب

والنجوم قد تكونت بفعل تجمع هذه الجسيمات في مركز هذه الدوامات ، وكما أن كل جسم محوط بدوامة من ذرات دقيقة - وهذا يفسر التماسك والتجاذب - فإن كل كوكب كذلك محصور في دوامة من الجسيمات تحتفظ بتوابعه في مداره ، والشمس مركز دوامة هائلة تندفع الكواكب إليها حول الشمس في دوائر . وكانت نظريه بارعة ، ولكنها سقطت عندما أثبت كبلر أن مدارات الكواكب يضاوية الشكل .

ويقول ديكارت بأنه لو كانت معرفتنا تامة كاملة لسكان في مقدورنا أن أن نحول - لا الفلك والفيزياء والكيمياء ، فحسب - بل كل عمليات الحياة ، باستثناء العقل ذاته ، نحولها إلى قوانين ميكانيكية فإن التنفس والهضم ، بل حتى الشعور ، كلها ميكانيكية ، انظر كيف كان هذا المبدأ مفيداً في اكتشاف هارفي للدورة الدموية . وطبق ديكارت ، في ثقة تامة ، فكرة الميكانيكية ، على كل عمليات الحيوانات ، لأنه أرى أن يخلع عليهما القدرة على التفكير العقلي . وربما أحس بأنه مضطر ، من الوجهة الدينية . الى ظلم الحيوانات على هذه الصورة ، لأنه كان قد أسس خلود النفس على عدم مادية الذهن العقلائي ، فإذا كان للحيوانات مثل هذا الذهن كذلك ، لسكانت هي الأخرى باقية أو غير فانية ، وربما كان في هذا ازعاج ، إن لم يكن لهواة الكلاب ، فهو على الأقل لرجال الألاموت .

ولكن إذا كان جسم الانسان آلة مادية فكيف يتسنى للعقل غير المادى أن يعمل فيه . أو يحكمه بقوة غير ميكانيكية . مثل الإرادة الحرة ؟ وهنا يفقد ديكارت ثقته ، فيجيب يائساً بأن الله يرتب تفاعل الجسم والعقل بطرق خفية لا يصل إليها إدراكنا المحدود . وربما أرتأى أن العقل يعمل في الجسم عن طريق الغدة الصنوبرية الموضوعه بشكل مناسب في قاع المخ .

وكان أكثر تصرفات ديكارت تهوراً وطيشاً طيلة حياته ، أنه طلب من مرسل أن يبعث مقداً بنسخ من كتاب « التأملات » ، إلى بعض المفكرين مع دعوتهم لإرسال ما يعن لهم من اعتراضات عليه ، ورداً على ذلك دحض

جا سندی آراء ديكارت في كياسة فرنسية^(١٠٦). فإن الكماهن لم يفتنح بحجة- ديكارت الوجودية عن وجود الله. أما هوبز فاعترض على أن ديكارت لم يثبت استقلال العقل عن المادة والمخ. ويقول أوربري بأن هوبز بصفة خاصة كان يميل إلى القول بأن ديكارت لو قصر نفسه على الهندسة تماماً لأصبح أعظم علماء الهندسة في العالم، وأنه لم ينسجم مع الفلاسفة^(١٠٧). واتفق هيجينز مع هوبز، وذهبوا إلى أن ديكارت نسج قصة خيالية من عناكب الميتافيزيقا.

والآن وبعد ثلاثة قرون من المبحث والمناقشة قد يكون من اليسير أن نتبين نقاط الضعف في أول منهج حديث جرى للفلسفة. أن فكرة تحويل الفلسفة إلى صيغ هندسية، ساقطت ديكارت إلى طريقة استنباطية، اعتمد فيها في طيس زائد، برغم تجاربه، على نزعتة إلى الاستنباط. وانه لعمل انتحاري أن نجعل من وضوح أية فكرة وجلاتها وبهاؤها وبداهتها اختباراً لصحتها، فن ذا الذي يحس على هذا الأساس، على إنكار دوران الشمس حول الأرض؟ والحاجة بأن الله موجود لأن لدينا فكرة واضحة متميزة عن كائن لانهاى بالغ حد الكمال (وهل هذا صحيح؟)، ثم الحاجة بأن الأفكار الواضحة المتميزة جديرة بالثقة لأن الله لا يمكن أن يخدعنا، إن هي الا ضرب من التفكير دائرى غامض مثل مدارات كواكب ديكارت. إن هذه الفلسفة تتضح بمفاهيم سكو لاسنية العصور الوسطى، التي نصحت بنبذها. إن شك موتيني كان أثبت وأبقى من شك ديكارت الذي لم يفعل إلا أن زحزح المرء التقليدى ليفسح مكاناً لمراته هو.

ومع هذا كله، بقي في علم ديكارت، أن لم يكن في « ميتافيزيقاه، ما يشيع في نفسه الخوف من الاضطهاد والتعذيب. فإن نظريته في ميكانيكية الكون « تركت المنعرجات والارادة الحرة في موقف خطر ومازق حرج، برغم اعترافه بالدين القويم والصراط المستقيم. أنه لما سمع باد أنه جاليليو (يونية ١٦٢٣) طرح جانباً مؤافه الضخم « العالم، الذي كان قد اعتزم أن يضم فيه شتات أبحاثه العلمية والنتائج التي توصل إليها، وكتب، وقلبه يقطر أسى وحنناً، إلى مرسن:

لقد كان لهذا النبأ أعمق الأثر في نفسى ، حتى كدت أعقد العزم على أن أحرق كل مخطوطاتى ، أو على الأقل أخفيها عن الأنظار... وإذا كانت حركة الأرض غير صحيحة . فإن كل مبادئ فلسفتى عن ميكانيكية العالم خاطئة ... لأنها كلها مترابطة يؤيد بعضها بعضا ... ولكنى على أية حال لن أنشر شيئاً يتضمن كلمة واحدة تغضب الكنيسة . (١٠٨) وعند وفاته لم توجد إلا قصاصات قليلة من مخطوطه « العالم » .

ولم يأت الهجوم (فى حياته) من الكنيسة الكاثوليكية ، بل من رجال اللاهوت الكالفينيين فى جامعتى أوترخت وليدن . فقد اعتبروا دفاعه عن الإرادة الحرة هرطقة خطيرة تسمى إلى القضاء والقدر ، كما رأوا فى ميكانيكية الكون ، فكرة تنزلق به إلى حافة الإلحاد ، فإذا كان الكون يستطيع أن يسير بمجرد قوة دافعة يبدأ بها الله ، فما هى إلا مسألة وقت حتى ينجز الله دفعته الاستهلاكية أو الأولى هذه . وفى ١٦٤١ ، عندما تبنى أحد أساتذة أوترخت فلسفة ديكارت ، أغرى رئيس الجامعة ، جسيرت فوشوس ، ولاة الأمور فى المدينة بإدانة الفلسفة الجديدة وتحريمها . فما كان من ديكارت إلا أن شن هجوماً على فوشوس ، الذى رد عليه رداً عنيفاً ، وطاود ديكارت السكره ، وقارعه الحججة بالحجة . وفى ١٦٤٣ دعا القضاء الفيلسوف للشول أمامهم . ولكنه رفض ، وصدر الحكم عليه . فتدخل أصدقاؤه فى لاهى ، فقتنع أولو الأمر فى المدينة بإصدار قرار يحظر أية مناقشه علنية تأييداً أو تفنيدياً لأراء ديكارت .

ووجد بعض السلوى فى صداقته مع الأميرة اليزابت التى كانت تقيم فى لاهى مع والدتها اليزابت ناخبة البلائين ملكة بوهيميا المخلوطة . وكانت الأميرة فى التاسعة عشرة حين ظهر كتاب « المقالات » ، ١٦٣٧ ، فقرأته فى دهشة مزوجة بالابتهاج والسرور بما رأته أن الفلسفة واضحة مفهومة يسهل إدراكها ، والتقى بها ريكارت وابتهج بما رأى من أن الميتافيزيقا قد تقسم

بالجمال . وأهدى إلى الأميره الصغيرة كتابه د مبادئ الفلاسفة ، وكتب كلمة الأهداء في لغة تفيض بملق بالغ البهجة والسرور . وماتت حيث كانت رئيسة دير للرهبان في وستغاليا (١٦٨٠) .

ولم يطلب المقام لديكارت في هولنده ، كما كان من قبل ، فكان كثير التردد على فرنسا : (١٦٤٤ ، ١٦٤٧ ، ١٦٤٨) . وآثار فيه الروح الوطنية . عاش أجرته عليه حكومة لويس الرابع عشر الجديدة (١٦٤٦) . واحتمل للحصول على أحد المتاصب الإدارية ، ولكن اقتراب نشوب الحرب الأهلية (حرب الفروند) عاد به إلى هولنده ، فزعا . وفي فبراير ١٦٤٩ تلقى دعوة من كريستينا ملكة السويد ، ليحضر ليلقنها الفيلسفه . وتردد في قبول الدعوة ، ولكن سحرته رسائلها التي تمت في لغة فرنسية ممتازة ، على ذهن متلمف ، انحاز بالفعل إلى د البهجة الغالية ، (فلسفة ديكارت) . وبعثت إليه بأحد أمراء البحر يستميله ، ثم بيارجة حربية لتقله ، فاستسلم وأبحر في سبتمبر من أمستردام إلى ستكهولم .

واستقبل بكل مظاهر الحفاوة والتكريم ، ولكن أزعجته رغبة الملكة في أن تلتقى الدروس ثلاث مرات في الأسبوع ، في الساعة الخامسة صباحاً ، وكان ديكارب قد تعود أن يبقى في فراشه إلى وقت متأخر ، والنزم بالمواعيد التي حددتها الملكة طيلة شهرين ، فكان يخرج من بيته إلى مكتبة الملكة في فجر الشتاء وتلوجه ، وفي أول فبراير ١٦٥٠ اتاب به برد انقلب إلى التهاب رئوى ، وفي اليوم الحادى عشر فارق الحياة بعد أن تلقى الأمرار المقدسة الكاثوليكية الأخيرة .

وكان قد اتخذ لنفسه شعاراً ، هو د يعيش سعيداً من يتراى عن الأنظار ويتسكتم كثيراً ، . ولكن شهرته كانت قد طبقت الآفاق قبل موته بعدة سنوات . لقد نبذت الجامعات فلسفته واشتم رجال الدين رائحة الهرطقة في

تقواه ، ولكن رجال العلم أطروا رياضياته وفيزيائه ، ولكن دنيا الاناقة في باريس ، أقبلت في سرور بالغ على مؤلفاته التي كتبها في لغة فرنسية مشرقة جذابة . وسخر هولبير من « السيدات العالمات » اللاتي تبادلن أبناء الدوامات في الصالونات ، « ولكنهن لم يطقن الفراغ ، وكان الجزويت حتى تلك اللحظة متسامحين مع تلميذهم النجيب ، وكانوا قد أسكتوا واحدا من طائفتهم شرع يهاجم ديكارت^(١٠٩) ، ولكنهم بعد ١٦٤٠ ، لم يعودوا يظلمونه بجهايتهم . وكان لهم في ١٦٦٣ ضلع في ادراج مؤلفاته في قائمة الكتب المحظورة . ورحب بوسويه وفنلون ببراهين ديكارت على المبادئ الأساسية في المسيحية ، ولكنهم رأوا في تأسيسها على العقل خطرا على العقيدة ، واستنكر بسكال الاعتماد على العقل ، على اعتبار أن هذا العقل ريشة في مهب الريح .

ولكن اعتماد ديكارت على العقل ، هو الذي ، على وجه الدقة ، أيقظ ذهن أوربا ، وأوجز فونتنل الأمر بقوله « أن ديكارت . . . هو الذي أمدنا بطريقة جديدة للتفكير . تدعو إلى الإعجاب أكثر مما تدعوها فلسفته ذاتها ، تلك التي يعتورها قدر كبير من الزيف والشك ، وفقا للقواعد التي علمنا أيها هو نفسه^(١١٠) » . إن شك ديكارت أدى لفرنسا — أو للقارة بصفة عامة — ما أداه سيكون لانجلترا : — أنه حرر الفلسفة من أغلال الزمن وأطلقها لتبحر في جراءة وشجاعة في بحر مكشوف ، حتى ولو أنها مالبت أن عادت ، عند ديكارت نفسه إلى شاطئ الأمان المألوف . ولسنا نقول بأنه كان ثمة انتصار عاجل أو فوري للعقل ، فإن التقاليد والأسفار المقدسة كانت أكثر ثباتا وقوة في أزهي عصور فرنسا ، وهو « القرن العظيم » أي عصر لويس الرابع عشر ، أنها كانت حقبة بورت رويال وبسكال وبوسويه ، أكثر منها حقبة خلفاء ديكارت . أما تلك الحقبة نفسها في هولنده فهي عصر سبينوزا وبيلى ، وفي انجلترا عصر هوبز ولوك . أن الزرع كان يخرج شطاه .

وكان لأعمال ديكارت بعض الأثر على الأدب والفن في فرنسا . إن

أسلوبه كان ابتداءاً هنعشا . وهنا كانت الفاسفة بلغة قومية فى متناول الجميع بشكل خطير ، وقلما يتحدث فىلسوف بمثل هذه الألفة الساحرة وهو يعدد مغامرات العقل وتجاربه المشيرة بمثل السلاسة والحيوية التى يعدد بهما فرواسار وبطولات الفروسية ومآثرها . ولم يكن كتاب د مقال فى المنهج ، مجرد رائعة من روائع النثر الفرنسى . بل أنه كذلك ضرب ، للعصر الزاهر فى فرنسا ، مثلاً ، فى لغته وأفكاره ، للترتيب وبراعة التفكير والاعتدال فى الآداب والفنون والسلوك والحديث . وتلام توكيده على الأفكار الواضحة الجلية مع الذهن الفرنسى ، وأصبح رفعه من شأن العقل أول قاعدة من قواعد الأسلوب الممتاز عند الناقد الفرنسى بوالو :

د أحب العقل إذن ، ولتستمد كتاباتك وقيمتها منه وحده (١١) .

وباتت الدراما الفرنسية لمدة قرنين من الزمان بلاغة العقل التى تنافس تمرد العاطفة والهوى وربما عانى الشعر الفرنسى بعض الشئ من ديكرات ، فإن من آياته (ميكانيكية) لم يتركها للخيال أو الأحاسيس سوى مجال ضيق . إن فوضى رابليه المهتاجة واستطراد مونتيني الذى لا ضابط له ، بل حتى الاضطرابات العنيفة فى الحروب الدينية ، أن هذه كلها أفسحت المجال ، بعد ديكرات ، لمناقشات كورنى العقلانية ، وأوحدات راسين العارمة ، ولتقوى بوسويه المنطقية ، وقانون الملكية والبلاط ونظامهما وشكلهما وسلوكهما فى عهد اويس الرابع عشر . وأسهم ديكرات ، عن غير قصد منه فى ابتداع طراز جديد فى الحياة الفرنسية ، كما فعل فى الفلسفة سواء بسواء .

وربما كان أثره فى الفلسفة أعظم من أثر أى مفكر آخر قبل كانت . لقد استقى ما ليرانش منه ، وتلمذ سبينوزا على منطوق ديكرات ، واكتشف نقاط الضعف فيه هند شرحه . وقد د المناقشات ، فى نبذة عن سيرة حياته بعنوان « تجسين التفاهم ، ، وتبنى المثل الأعلى الهندسى فى كتابه « الأخلاق ، ، وبني بحه فى « استرقاق الإنسان ، على بحث ديكرات درسه آلة فى انفعالات النفس .

وبدأت تقاليد المثالية في الفلسفة الحديثة ، من بركاى إلى نخت، بتوكيد ديكرات
على الفكر بوصفه الحقيقة الوحيدة المعروفة بطريق مباشر ، مثلما انحدرت
تقاليد التجريبية من هوبز إلى سبترس . ولكن ديكرات قدم للمثالية تزيافا
— مفهوم كون موضوعى ميكانيكى تماما — فإن محاولته لفهم العمليات .
العضوية وغير العضوية ، سواء بسواء ، على أساس ميكانيكى، هيأت للبيولوجيا
والفسيولوجيا قوة دافعة متهورة ولكنها مجدية . وتحليله الميكانيكى للاحاساس
والخيال والذاكرة والإرادة ، أصبح ، هينا لا ينضب لعلم النفس الحديث .
وبعد أن دعم القرن السابع عشر فى فرنسا العقيدة القويمة بديكرات ، وجدت
استثارة القرن الثامن عشر أرضاً خصبة فى شكك المنهجى ، وفى اعتماده على العقل ،
وفى تفسيره لكل حياة الحيوان على نفس أسس الفيزياء والكيمياء (١١٢) . إن
اعتداد الفرنسى — المقرب بنفسه اعتداداً لم يتزعزع قط ، كان يبرره أثره
المتزايد على ذهن الفرنسى .

إن المناظرة الكبرى ، بين العقل والإيمان كانت تتخذ شكلا واعياً .
ولكن تاريخها الحديث كان قد بدأ فقط . إننا إذا ألقينا نظرة على الأعوام
التسعين من ١٥٥٨ - ١٦٤٨ ، من الزباث إلى ريشليو ، ومن شكسبير إلى
ديكرات ، لأدركنا أن كل القضايا المستحوزة على الأذهان لاتزال محصورة فى
المسيحية ، بين المذاهب الدينية المتنافسة المؤسسة كلها على انجيل قبله الجميع على
أنه كلمة الله ، وثمة مجرد أصوات شاردة كانت تقول بأن المسيحية نفسها يمكن
أن توضع موضع الاختبار ، وبأن الفلسفة لن تلبث أن تنبذ كل مذهب خارق
للطبيعة .

وبعد هذه المراحل الأولى من الصراع بقيت الكاثوليكية مسيطرة فى
أسبانيا والبرتغال حيث ظلت محاكم التفتيش تنشر الرعب والكآبة . أما فى
إيطاليا فقد اتسمت الديانة العتيقة بروح أكثر إنسانية ، وأضفت بالفن على
الحياة شيئاً من الجمال ، وزينت الأخلاقيات بالأمل ، ولدت فنساحلا وسطاً ،
وعاشت المسيحية نشيطة مزدهرة بين الشعب ، كاثوليك أو هيونوت ، على

حين أن الطبقات العليا كانت تسرح وتمرح في الشك ، مرجئة التقى والورع إلى دنو الأجل المحتوم . وقامت في الأراضي الوطنية تسوية جغرافية ، فأبقت المقاطعات الجنوبية على الكتلحة ، وانتصرت الكلفنية في الشمال . وأنقذ البروتستانتية في ألمانيا كاردينال فرنسى ، وثبتت بافاريا والنمسا على ولائهما القديم ، على حين أعيدت المجر وبوهيميا إلى حظيرة البابا ، وأصبحت البروتستانتية قانون الأرض أو المبدأ الرسمى في اسكندناوة ، ولكن ملكة السويد آثرت طقوس رومة ، واقتрحت الزباث في إنجلترا اتحادا كريما بين الطقوس الكاثوليكية والحرية الوطنية ، ولكن البروتستانتية الإنجليزية التي تفرقت شيعا أبرزت جيوتها وغامرت بحياتها .

وفي غمرة تناحر الجيوش والمذاهب ، كانت « دولية العلوم » تكافح للاقلال من الخرافة والخوف . كانت تخترع أو تعمل على تحسين الميكروسكوب والتلسكوب والترمومتر والبارومتر ، وكانت تبتكر اللوغاريتمات والنظام العشرى ، وتصلح التقويم ، وتبتدع الهندسة التحليلية ، وكانت تحلم ، لفورها ، بتحويل كل المواقع إلى معادلة جبرية . وكان تيكوبراهى قد قام بكل الأرصاد المتكررة الصابرة التي مكنت لكبلر من صياغة قوانين حركة الكواكب ، التي أنارت الطريق أمام نيوتن ليصير بقانون كوفى عام واحد . وكان جاليليو يكشف عن عوالم جديدة أوسع ، بمناظيره المقربة التي كان يعمل على تحسينها وتكبيرها باستمرار ، وفي قاعات محكمة التفتيش كان النزاع بين العلم والدين يفرغ في قالب مسرحى . وفي مجال الفلسفة ارتضى جيوردانو برونو الاعدام حرقا حتى الموت ، فى محاولته لإعادة فهم الألوهية والكون على أسس تلتئم مع أفكار كوبرنيكس ، كما أن فرانسيس بيكون الذى يدعو ذوى العقول المفكرة إلى العلم ، كان يخطط مهام ٣٠ - ٢٢ الحضارة

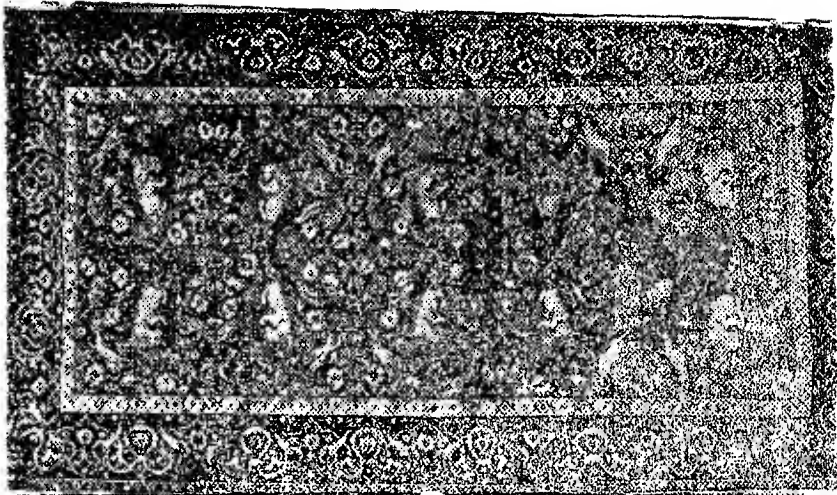
العلوم ومسئولياتها لعدة قرون مقبلة ، أما ديكرات ، بشكه العام
الشامل ، فقد ألقى على عصر العقل عبثا جديدا . وتشكلت الأخلاق
والعادات والسلوك تبعا لتقلبات العقيدة . وتأثر الأدب نفسه بالصراع ،
وكان لآراء الفلاسفة صداها في شعر مارلو وشكسبير ودون . وسرعان
ما تتضاءل أهمية الثورات والحروب بين الدول المتنافسة إذا قورنت بالصراع
السائد المتزايد بين الإيمان والعقل الذي أهاج ذهن أوروبا وحوله ، بل ربما
ذهن العالم بأسره .



فرانس هالسن - متحف اللوفر بباريس (ص ٨٠)



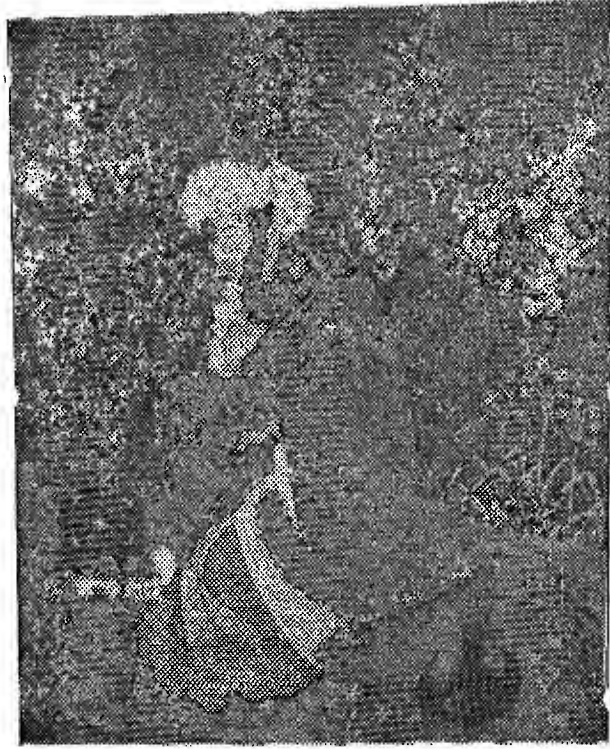
أندونى فاندريك - متحف ميونخ (ص ٦١)



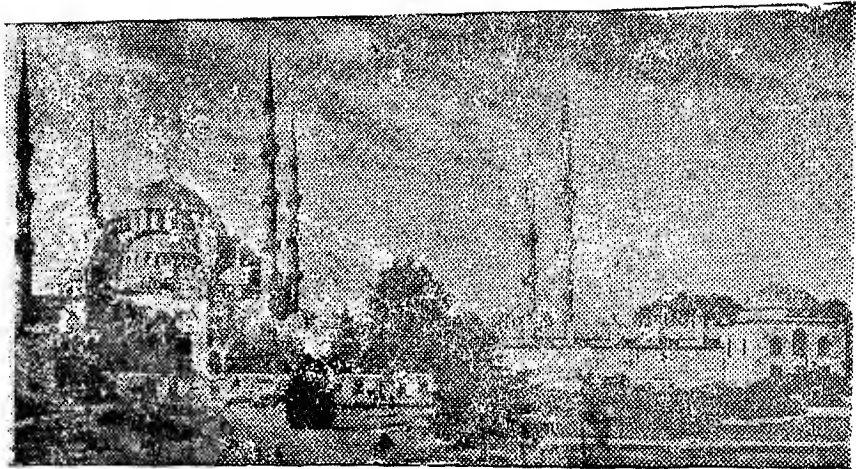
سجادة عجمي - متحف القزوينيان بنفوييريك (ص ١٦٤)



استیفن باشوری ملک هوندا (ص ۱۱۶)



شماره يجلس في الحديقة بأصفهان (ص ١٦٠)



جامع السلطان أحمد بالقسطنطينية (ص ١٣٩)



الشاہ عباس الاکبر (ص ۱۴۸)



جاليليو - متحف الفن بفلورنس (ص ٢٦٤)



مدخل ميدان مسجد الشاه بأصفهان (ص ١٥٢)

المراجع

CHAPTER XVII

1. Geyl, *Revolt of the Netherlands*, 16
2. Sombart, *The Jews and Modern Capitalism*, 65; Sèe, *Modern Capitalism*, 31.
3. Motley, *Rise of the Dutch Republic*, I, 217; Janssen, *History of the German People* VIII, 13.
4. Motley, I, 217.
5. Janssen, VIII, 14f.
6. Voltaire, *Essai sur les moeurs*, ch. cxxxvi, in *Works*, XIVb.
7. Motley, I, 207.
8. Ibid., 206.
9. Blok, *History of the People of the Netherlamds*, III, 11; Motley, I, 375f.
- 10/ Ibid., 283.
11. Geyl, 78.
12. Ibid., 86.
13. Janssen, VIII, 19.
14. *Cambridge Modern History*, III, 200.
15. Acton' *Lectures*, 144.
16. Motley, I, 453-4.
17. Ibtld., 465-8.
18. *Camb. Mod. History*, III, 207-8,
19. Motley, I, 478f.
20. Janssen, VIII, 23,
21. Motley. I, 526.
22. Janssen, VIII, 25.
23. Prescott, *Philip II*, II, 161.
24. Blok, III, 42,
25. Pastor, *History of the Papes*, XVIII, 97.
26. Blok, III, 51.
27. Pastor, XVIII, 101.
28. Motley. I, 628; Janssen, VIII, 123.
29. *Camb. Mod. History*, III, 232.
30. Motley, II, 72-4.
31. Geyl, 128; Lacroix, *Military and Religious Life in the Middle Ages*, 440.
32. Motley, II, 40.
33. Ibid., 101.
34. Voltaire, *Esssai*, ch. cxxxvi; *Works*, p. 294; Hume, *M., The Spanish People*, 372.
- 35, Pastor, *Popes*, XX, 3.
36. Motley, II, 151.
37. Ibid., 169.
38. 515.
39. Geyl, 165.
40. Ibid., 130.
41. 128.
42. *Camb. Mod. History*, III, 250.
43. Blok, III, 121-3.
44. Geyl. 162; Pastor, XX, 9.
45. Motley, II, 646.
46. Robinson. J. H., *Readings in Europeam History*, 325; Motley, II, 637.
47. Figgis, *From Gerson to Gro-tius*, 228.

48. *Camb. Mod. History*, III, 258.
 49. Blozø, III, 179.
 50. *Ibid.*, 239.
 51. Geyl, 206, 215, 231; Ranke
History of the Popes, II, 221.
 52. Blok, III, 415.
 53. *Camb Mod History*, III, 646.
 54. Blok, III 413,
- CHAPTER XVIII
1. Robinson, *Readings*, 556.
 2. Prescott, H. F., *Mary Tudor*, 331.
 3. Vienna.
 4. Prado.
 5. Brussels, Vienna, Louvre.
 6. Brussels.
 7. Rooses. *Rubens*, I, 9.
 8. Pitti Gallery, Florence.
 9. Uffizi Gallery, Florence.
 10. Grenoble Museum.
 11. Rooses, I, 638
 12. Burckhardt, *Recollections of Rubens*, 21.
 13. Janssen, XI, 161.
 14. Dresden.
 15. Knackfuss, H., *Van Dyck*, 4.
 16. Munich.
 17. Lichtenstein Collection,
Vienna.
 18. Vienna.
 19. Geneva.
 20. Munich.
 - 21, London.
 22. Pitti Gallery.
 23. Dresden.
 24. Louvre.
 25. Vienna.
 26. Madrid.
 27. Vienna, Madrid.
 28. London.
 29. Craven, *Treasury of Art Masterpieces*, 105.
 30. Antwerp.
 31. Fülöp-Miller, *Power and Secret of the Jesuits*, 422.
 32. Munich.
 33. Hartford, Conn.
 34. Antwperp
 35. Antwerp cathedral and Brussels Museum.
 36. Vienna.
 37. Vienna.
 38. Sarasota, Fla.
 39. Rooses, *Rubens*, I, 395.
 40. *Ibid.*, 417.
 41. Pitti Gallery.
 42. Boston.
 43. Rooses, I, 414.
 44. Munich.
 45. Munich.
 46. Hamburg.
 47. Vienna.
 48. Munich.
 49. Munich.
 50. Louvre.
 51. Brussels.
 52. The Hague
 53. Frick Collection, New York.
 54. Windsor Castle.
 55. Burckhardt, *Recollection*, 15.
 56. Rooses, I, 600.
 57. Louvre.

58. Vienna.
59. Knackfuss, 8.
60. Munich.
61. Frick Collection.
62. Brussels.
63. Detroit.
64. Munnich.
65. Vienna.
66. Antwerp.
67. Knackfuss, 9
68. Pitti Gallery.
69. Wallace Collection, London.
70. Lovure.
- 71, Vienna.
72. Vienna.
73. Lichtenstein Gallery, Vienna.
- 74 Knackfuss. 76.
- 75 New York.
76. Ibid.
77. Frick Collection, New York.
78. Fitzwilliam Collection.
- 79 Dresden.
80. Munnich.
- 81, Uffizi Gallery.
82. Blok, III, 333, Mousnier, 160.
83. Maverick, L. A., *China a Model for Europe*, 5.
84. Adams, Brooks, *Law of Civilization and Decay*, 107.
85. Nussbaum, *History of Economic Institutions*, 123.
86. Gooch, *Democratic Ideas*, 45.
87. Geyl 211.
88. Ogg, *Europe in the Seventeenth Century*, 412.
- 89 Geyl, 238; Blok, III, 354.
90. Fischer. K., *Descartes and His School*. 212.
91. Taine, H., *Lectures on Art*, 322.
92. *En Br.*, X, 498d.
93. In Taine, *Lectures*. 183.
94. Day, Clive, *History of Commerce*, 200
95. Sée, *Modern Capitalism*, 32.
96. Wilenski, R. H., *Dutch Painting*, 132
97. Baedeker, K., *Belgique et Hollande*, 383
98. Chute, *Ben Jonson*, 301.
99. Geyl, 206.
- 100 Honey, W.B, *European Ceramic Art*, 31.
101. Wilenski, *Dutch Painting*, 10.
102. Taine, *Lectures*, 333
103. Hausci, *Social History of Art*, I, 457.
- 104 Davies, G.S., *Frans Hals*, 19.
105. Amsterdam.
106. Haarlem.
107. Lord Northbrooke Collection.
108. Wallace Collection.
109. Devonshire House.
110. Haarlem.
111. Haarlem.
112. Haarlem.
113. Haarlem.
- 114 Amsterdam.
115. Antwerp.

116. Haarlem.
117. Berlin.
118. Louvre
119. Cassel
120. Mather, F. J., *Western European Painting of the Renaissance*, 461.
121. Chicago.
122. Berlin.
123. New York.
124. The Hague
125. Michel, E. *Rembrandt*, I, 63
126. Amsterdam
127. The Hague
128. The Hague
129. The Hague
130. Duke of Devonshire Collection.
131. Rothschild Collection.
132. Leningrad.
133. Louvre
134. New York.
135. Brussels.
136. Amsterdam.
137. Michel, *Rembrandt*, II, 214.
138. Edinburgh
139. Louvre.
140. Louvre.
141. London
142. Berlin
143. Cassel.
144. Berlin.
145. New York.
146. Washington.
147. Leningrad.
148. London.
149. Glasgow.
150. Cassel.
151. Still with the Six Family in Amsterdam.
152. Berlin
153. Fick Collection.
154. Wallace Collection
155. Beard, *Ministry of the Business*, 16.
156. Marcus Kappel Collection, Berlin
157. New York
158. Louvre,
159. Amsterdam.
160. Leningrad
161. Amsterdam.
162. Froment in Wilenski, *Dutch Painting*, 93.
163. Self-portrait in the Louvre.
164. New York.
165. I de Bruyn Collection.
166. Rathenau Collection.
167. In Michel, *Rembrandt*, I, 259.
168. Wilenski, *Dutch Painting*, 93.
169. *Ibid*.
170. Meier-Graefe, *Spanish Journey*, 313.

CHAPTER XIX

1. Gage, *Tycho Brahe*, 150.
3. Verner, *Copenhagen*, 3.
3. Danke, *Popes*, II, 150

- 4 Fletcher, C R., *Custavus Adolphus*, 15.
5. Bain, F W., *Christina, Queen of Sweden*, 8.
6. Fletcher, 43.
7. *Camb Mod History*, IV, 187.
8. Wedgwood, C. V., *Thirty Year's War*, 273.
9. Fletcher, 27.
10. Bain, 28.
11. *Ibid.*, 10.
12. 42.
13. 162
14. 96
15. 97.
16. 95
17. 166.
18. Pascal, *Provincial Letters*, introduction, 25.
19. Ranke, *Popes*, II, 355.
20. Ortega y Gasser, *Toward a Philosophy of History*, 18.
21. Horn, F. W., *Literature of the Scandinavian North* 332,
22. Cf. Ranke's *Popes*, II. 353.
23. Bain, 358-61.
24. Ranke, II, 359; Bain, 180.
25. Voltaire, *Age of Louis XIV*, 60.
26. Gustafson in Bain, xvi.
27. Bain, 360.
28. Ogg, 446.
29. Bain, 224.
30. *Ibid.*, 229.
31. Lewinski - Corwin, *Political History of Poland*, 216-18; *Cambridge History of Poland*, I, 566.
32. Lednicki, W, *Life and Culture of Poland*, 125-6
33. *Ibid.*, 94.
34. *Camb. History of Poland*, I, 413; Robertson, J. M., *History of Freethought*, I, 426.
35. Lednicki, 102n.
36. Robertson, *Freethought*, II, 37
- 37 *Camb History of Poland*, I, 403-5, 410-11
38. Rnake, II, 161
39. Pokrovsky, M., *History of Russia* 154.
40. Florinsky, M., *Russia: a History and an Interpretation*, I, 213,
41. Kluchevsky, V., *History of Russia*, II, ch. xiii; III, 21; Florinsky, I, 217
- 42 Vernadsky, G, *History of Russia*, 65
43. Réau, L, *L' Art russe*, I, 285.
44. Ranke, II, 155.
45. Florinsky, I, 226.
46. E.g., Pokrovsky, 169-70.
47. *Ibid.*, 177; Kluchevsky. III, 20; Florinsky, I, 223.
48. Rambaud, A., *History of Russia*, I, 320.
49. *Camb. Mod. History*, V, 496.

50. Florinsky, I, 227; Pokrovsky 182.
51. Kluchevsky, III, 31.
52. Rambaud, I, 341

CHAPTER XX

1. Tavernier, *Six Voyages*, ii, 7.
2. Brockelmann, C., *History of the Islamic Peoples*, 316.
3. Pepys, *Diary*, Nov 9, 1663.
4. Arnold, T., *The Preaching of Islam*, in Toynbee, A., *Study of History*, VIII, 165.
5. Finlay, G, *History of Greece*, V, 29, in Toynbee, *ibid*, 164.
6. Tavernier, 1, i,
7. Michelet, *History de France*, IV, 444.
8. Brantôme *Lives of Gallant Ladies*, 135; Landau, R., *Invitation to Morocco*, 64.
9. Gibb, E. J., *Ottoman Literature*, 3.
10. *Ibid.*, 236.
11. Dimand, M. S., *Guide to Exhibition of Islamic Miniature Painting*, 4.
12. Pope, A. U., *Catalogue of a Loan Exhibition of Early Oriental Carpets*, 93-5
13. Pastor, *Popes*, XVIII, 419.
14. Voltaire, *Essai sur les mœurs*, ch. cxxxi, in *Works*, XIBb, 270.
15. Preface to Part II of *Don Quixote*.
16. Motley, *Rise of the Dutch Republic*, II, 338.
17. Pastor, XVIII, 422
18. *Ibid.*, 427.
19. 436.
20. Lane-Poole, S., *Story of Turkey*, 218.
21. *En. Br.*, XV, 969a.
22. Teixeira, p., *Travels*, 62-6.
23. Pope, A. U., *Survey of Persian Art*, II, 1406.
24. Tavernier, *Six Voyages*, iv, 5.
25. *Ibid.*
26. Michelet, *Histoire de France*, V, 130.
27. *En. Br.*, XII, 705. The account follows the eloquent description in Arthur Upham Pope, *Survey of Persian Art*, II, 1185, and the notes of my visit to Isfahan in 1948.
28. Tavernier, v, 2.
29. Browne, E. G., *Literary History of Persia*, IV, 111.
30. Chardin, John, *Travels in Persia*, 134-6.
31. *Ibid.*, 183, 167.
32. Teixeira, 114, 117.
33. Chardin, 143.
34. *Ibid.*
35. 146.
36. 279.
37. Tavernier, v, 14.

38. Arnold, Thomas, *Painting in Islam*, 89.
39. Chardin, 120.
40. Teixeira, 62.
41. Chardin, 187; Tavernier, v, 14.
42. Chardin, 191. 189.
43. Browne, E. G., *Literary History*, IV. 247.
44. Ibid., 287.
45. *En Br.*, XII, 705b
46. Sir Bernard Eckstein Collection.
47. Boston
48. Pope, *Survey*, I. 7n
49. Gulbenkian Collection. Pope, *Survey*, V, 978
50. Boston.
51. Pope, *Survey*, V, 549
52. Pope, A. U., *Introduction to Persian Art*, 162.
53. Chardin, *Travels*, 273
54. New York.
55. In Pope, *Catalogue*, 17
56. Pope, *Introduction*, 220.
7. Janssen, *History of the German People*. VIII, 297-9.
8. Robertson, J.M., *Freethought*, I, 420.
9. Campbell, *The Jesuits*, 69.
10. Lutzow, Count von. *Bohemia*, 217.
11. Acton, *Lectures*, 182.
12. Clark, G. N., *Seventeenth Century*, 136.
13. Janssen, XV, 32, 44
14. Ibid, 29-31.
15. Thompson, J W., *Economic and Social History of the Later Middle Ages*, 429; Rickard *Man and Metals*, II. 565.
16. Janssen, 148.
17. Ibid., 110.
18. 125
19. Marx Karl, *Capital*, I, 457.
20. Janssen, XIII, 147
21. Ibid., 307.
22. 301.
23. 300.
24. Id., XII, 183.
25. X, 279.
26. XII, 96.
27. XI, 363
28. Pastor in Janssen, XVI, 130.
29. Janssen, X, 277-8.
30. Wedgwood, *Thirty Years War*, 46.
31. Janssen. XV, 421

CHAPYER XXI

1. Coxe, W., *History of the House of Austria*, II, 29
2. Ibid., 67-72.
3. 130.
4. 94.
5. *Camb. Mod History*, III, 719.
6. Tawney. R. H., *Religion and*

32. Putnam, G. H., *The Censorship of the Church of Rome*, I, 51.
33. Janssen, X, 11.
34. *Ibid.*, 23, 45.
35. *Id.*, XIII, 363f.
36. XIV, 12-14.
37. Wilenski, *Dutch Painting*, 61.
38. Vienna.
39. *Camb. Mod. History*, III, 153.
40. Schaff, *The German Reformation*, I, 64.
41. Janssen, X, 287f.
42. *Ibid.*, 303-7.
43. 262.
44. 258.
45. 257.
46. 256.
47. Inge, W. R., *Christian Mysticism*, 277.
48. *Ibid.*, 278.
49. Fulop-Miller, *Jesuites*, 346.
50. Janssen, X, 214.
51. *Ibid.*, 103, 110.
52. 165.
53. 32.
54. 30.
55. 24.
56. 334-41.
57. 345.
58. 386-90.
59. 215.
60. 219.
61. 589.
62. 594.
63. Wedgwood, 81.
64. Nosek, V., *Spirit of Bohemia*, 99f.
65. Michelet, IV, 389n.
66. Wedgwood, 171.
67. *Ibid.*, 255.
68. Fletcher, *Gustavus, Adolphus*, 300.
69. Robinson, *Readings*, 345.
70. Fletcher. 283.
71. Guizot, *History*, IV, 160.
72. Wedg Wood, 353.
73. *Ibid.*, 360.
74. 450.
75. 207, 256-7, 410.
76. 475.
77. 516; *Camb. Mod. History*, IV, 418.
78. Lutzow, 311; *Camb. Mod. History*, IV, 418.
79. *Ibid.*, 417.,
80. Renard and Weulersee, *Life and Work in Modern Europe*, 294.
81. Jordan, G. J., *The Reunion of Churches*, 15.
82. Wedgwood, 412. Ogg, *Europe in the Seventeenth Century*, 168.
83. Wedgwood, 413.
84. *Ibid.*, 229.
85. *Camb Mod History*, IV, 688.

CHAPTER XXII

1. Thorndike, L., *History of Magic and Experimental Science*, VI, 160-5, 221, 239-40,

- 295; IV, 247; Garrison, F., *History of Medicine*, 37.
2. Voltaire, *Age of Louis XIV*, 18.
3. Smith, P., *History of Modern Culture*, I, 428.
4. Berry, A., *Short History of Astronomy*, 195.
5. Jackson, C., *Old Paris*, 25.
7. Smith, P., *Modern Culture*, I, 427.
7. Janssen, XII, 346.
8. Ibid., 329.
9. Los Angeles Times, July 2, 1958.
10. Janssen, XVI, 372-6, 495; XII, 325, 351
11. Lea, *Inquisition in Spain*, IV, 243-4.
12. Vacandard, E., *The Inquisition*, 199.
13. Singer, Chas., *Studies in the History of Science*, I, 213.
14. Lea, IV, 235,
15. Michelet, IV, 183-6.
16. Janssen. XI, 388.
17. Id., XVI, 398, 478.
18. Lea, *History of the Inquisition of the Middle Ages*, III, 549.
19. Janssen, XVI, 416.
20. *Camb. Mod. History*, V, 758 (not 9,000, as in IV, 423).
21. Janssen, XVI, 512, 424.
22. Lea, *Inquisition in Spain*, IV, 246; cf. Janssen, XVI, 506.
23. Montaigne, *Essays*, III, xi, 285.
24. Ibid , 286.
25. Smith, *Culture*, I, 453.
26. Ibid.. 454; Dampier, *History of Science*, 157.
27. Janssen, XVI, 390.
28. Janssen, XI, 379.
29. Evelyn, *Diary*, I, 139.
30. Putnam, *Censorship of the Church of Rome*, II, 237-69.
31. In Haydn, *Counter-Renaissance*, 531.
32. Hallam, *Literature*, II, 44,
33. Sandys, Sir John, *Companion to Latin Studies*, 855.
34. Putnam, G. H., *Books and Their Makers*; II, 96.
35. Masson, David, *Life of John Milton*, IV, 164.
36. Nosek, *Spirit of Bohemia*, 110.
37. Paulsen, F., *German Education*, 136.
38. Janssen, XIII, 277,
- 39, Galileo, *Discoveries and Opinions*, ed. Stillman Drake, 77.
40. Singer, *Studies*, 407.
41. Wolf, A., *History of Science, Technology, and Philosophy in the Sixteenth and Seventeenth Centuries*, 47; Singer, *Studies*, 412f.
42. Bell, E T., *Men of Mathematics*, 55,
43. Butterfield. *Origins of Modern Science*, 67,

44. Galileo, *Il saggiaiore*, in *Discoveries and Opinions*, 237.
45. Cooper, Lane, *Aristotle, Galileo, and the Tower of Pisa*, 14; Dampier, 143.
46. Janssen, XV, 281,
47. Wolf, 327.
48. Mumford, L., *Technics and Civilization*, 440.
49. Wolf, 544-5; Usher, A. P. *History of Mechanical Inventions*, 303.
50. Descartes, *Principia philosophiae* Part IV, in Wolf, 351.
51. *En Br.*, I, 689d.
52. Galileo, *Dialogue concerning the Two Chief World Systems*, Dedication. p. 3
53. Michel, *Rembrant*, I, 123.
54. Mumford, L., *The Condition of Man*, 213.
55. Janssen, XIV, 69.
56. *Ibid.*, 83,
57. 80.
58. Castiglioni, *History of Medicine*, 561.
59. Garrison, 307.
60. Janssen, XIV, 81.
61. Montaigne, *Essays*, tr. E. J. Trechmann, II, 222, quoted in Craig, Hardin, *The Enchanted Glass*, 44.
62. Garrison, 291-2.
63. *Ibid.*, 226.
64. Descartes, *Discours de la méthode*, Part VI, p. 62, in
٣. ١٣٣٤ الحضارة
- Vartanian, *Diderot and Descartes*, 18.
65. Montaigne, *Essays*, III,x, 262.
66. Putnam, *Censorship*, I, 128-9; Belloc, H., *How the Reformation Happened*, 281; Fülöp-Miller, *Jesuits*, 399; Smith, P., *Culture*, I, 43,
67. Camqanella, Letter to Galileo, Jan. 12, 1611, in Smith, *Culture* I, 45.
68. Buckle, I, 101, Thorndike, VI, 42.
69. Gade, *Tycho Brahe*, 35.
70. *Ibid.*, 187.
71. Kesten, H., *Copernicus and His World*, 346.
72. Whewell, *History of the Inductive Sciences*, I. 290-3.
73. Hogben, *Science of the Citizen*, 207; Kesten, 353.
74. Dampier, 139.
75. Berry, 194.
76. In Inge, *Christian Mysticism*, 298.
77. Galileo, *Dialogue concerning the Two Chief World Systems*, 105 (end of First Day).
78. Aristotle *De coelo*, 4.2. 309, in Cooper, L., *Aristotle, Galileo, and the Tower of Pisa*, 64.
79. Lucretius, *De rerum natura*, II, 230-1.
80. Leonardo da Vinci, *Codex*

- Atlanticus*, fol. 123ra, in Cooper, 69.
81. In Cooper, 47.
82. Viviani in Cooper, 26.
83. Ibid., 29-31.
84. Galileo, *Two Chief World Systems*, 147.
85. Galileo, *Dialogues concerning Two New Sciences*, 103.
86. Galileo, *Il saggiaiore*, in *Discoveries and Opinions*, 274.
87. Ibid., 276-7.
88. Kesten, 348.
89. In Singer, *Studies*, 228.
90. Letter of Jan. 30, 1610, in Singer, 232.
91. Walsh, J. J. *The Popes and Science*, 393; Wolf, 29.
92. In Singer, 251.
93. Kesten, 396.
94. In Smith, *Culture*, I, 53.
95. Singer, 240.
96. Fulop-Miller, *Jesuits*, 397.
97. Singer, 240.
98. Fulop-Miller, 398.
99. Ibid.
100. Ibid.
101. Kesten, 371.
102. Galileo, *Discoveries and Opinions*, 177.
103. Ibid., 180.
104. 183.
105. Drake in Galileo, *Discoveries and Opinions*, 217.
106. Singer, 252.
107. Kesten, 375.
108. Wolf, 36.
109. Kesten, 379; Singer, 258.
110. Galileo, *Two Chief World Systems*, 5.
111. Ibid., 460.
112. Kesten, 388.
113. Singer, 269.
114. *En. Br.*, IX, 98ob.
115. Ibid., Wolf, 37.
116. Viviani in Singer, 279.
117. Kesten, 93.
118. Ibid., 395.

CHAPTER XXIII

1. Janssen, XVI, 132-4.
2. Robertson, *Freethought*, 483.
3. Ibid., 484.
4. Mousnier, *Histoire générale*, IV, 203.
5. Ibid., 201.
6. Owen, John, *Skeptics of the French Renaissance*, 676.
7. Ibid., 578-9.
8. Ibid.
9. 584.
10. 580.
11. Charron, Pierre, *Of Wisdom*, I, 61, 74, 79-80.
12. Owen, 598.
13. Cf. Charron, in Pascal, *Pensées*, ed. Havet, introd. xii.
14. Bury, *Freedom of Thought*, 75.
15. Owen, 570.
16. Singer., D. W., *Giordano Bruno*, 22.

17. Ibid., 24.
18. Owen, 274.
19. Bruno, *La cena de le ceneti*, Dialogue IV, in Singer, D. W., 33
20. In Owen, 274
21. Singer, *Bruno*, 137.
22. Ibid, 35.
23. Symonds, *Catholic Reaction*, II, 53-4.
24. Owen, 125.
25. Singer, *Bruno*, 146.
26. In Owen, 294.
27. Cassirer, *Philosophy of the Enlightenment*, 41.
28. Bruno, Dedication to *De la causa, principio et uno*, in Singer, *Bruno*, 103.
29. Thorndike, *Magic and Experimental Science*, IV. 425-7.
30. Owen, 290-3,
31. Singer *Bruno*, 161.
32. Symonds, *Catholic Reaction*, II, 62.
33. Kesten, 323.
34. Singer, *Bruno*, 166.
35. Ibid., 172.
36. 179.
37. Owen, 390.
38. Ibid., 399.
39. 400.
40. Symonds, 128; Kesten, 328.
41. Tr. J. A. Symonds in Van Doren, *Anthology*, 599.
42. Campanella *City of the Sun*, in *Ideal Commonwealths*, 147.
43. Ibid, 157.
44. 164.
45. 168
46. Murray, R. H., *Erasmus and Luther*, 443.
47. Ranke, *Popes*, II, 13.
48. Carlyle, R. W., *Medieval Political Theory*, VI, 341.
49. Campbell, *The Jesuits*, 379.
50. Mariana, *The King and The Education of the King*, i, 2.
51. Ibid., i, 10.
52. Ibid, Preface, p. 108.
53. Ibid, iii, 15.
54. In Laski, *Political Thought in England, Locke to Bentham*, 85.
55. Mariana, *The King*, i, 1.
56. Ibid., iii, 2.
57. i, 6, pp. 144-9.
58. Ibid.
59. Bodin, *Method for the Easy Comprehension of History*, 11.
60. Allen, *Political Thought*, 395.
61. Bodin, *De republica*, i, 4, in Allen, 408-9.
62. Ibid., 410.
63. Bodin, *De republica*, i, 6.
64. Ibid., i, 9.
65. Ibid., vi, 4, in Dunning, *Political Theories from Luther to Montesquieu*, 107.
66. Ibid., in Allen, *Political Thought*, 436.

67. In Allen, 406.
68. Bodin, *Method for the Easy Comprehension of History*, in Allen, 399.
69. Allen, 400-1.
70. Blok, III, 463
71. Grotius, *Prolegomena*, in Dunning, 161.
72. Grotius, *Rights of War and Peace*, I, i, 10. p. 21.
73. *Ibid.*, I, ii, 1,
74. II, xxii,
75. I, xvii,
76. II, xxvi.
77. Lange, F, E., *History of Materialism*, I, 266,
78. France, A., *Elm Tree on the Mall*, 13,
79. Russell, B., *History of Western Philosophy*, 558,
80. Fīcher, K., *Descartes*, 194f.
81. *Discours*, Part III, in Descartes, *Selections*, 27.
82. *Ibid.*, p. 38,
83. Faguet, *Dix-septième siècle*, 6-7.
84. Descartes, *Principia philosophiae*, I, 71, in *Meditations and Principles of Philosophy*, 168
85. *Discours*, Part II, in *Selections*, 12.
86. Descartes, *Meditations*, II, in *Selections*, 96,
87. *Discours*, Part IV, and *Meditations*, II, in *Selections*, 29, 99,
88. St, Augustine, *De Trinitate*, x, 10,
89. *Meditations*, II, in *Selections*, 106.
90. "Rules for the Direction of Mind," VIII, in *Selections*, 69.
91. *Meditations*, III, in *Selections*, 125.
92. *Ibid.*, 154.
93. *Ibid.*, 89.
94. *Principia philosophiae*, I, xxxix.
95. *Meditations*, IV, in *Sélections*, 127.
96. *Discours*, IV, in *Selection* 30.
97. *En. Br.*, VII, 249d.
98. *Ibid.*
99. Lévy-Bruhl. *History of Modern Philosophy in France*, 29.
100. *Discours*, in Vartanian, *Diderot and Descartes*, 16,
101. Fischer, *Descartes*, 406.
102. In Smith, *Culture*, I, 194.
103. Smith, D. E., ed., *Isaac Newton*, 18.
104. Fischer, 229.
105. Garrison, *History of Medicine*, 258.
106. *Selections*, 222-47.
107. Aubrey, *Brief Lives*, 95.
108. Fischer, 231.
109. Fūlop-Miller, *Jesuits*, 124.
110. Fontenelle, *Digression sur les anciens et les modernes*, in Fellows and Torrey, *Age of the Enlightenment*, 57.
111. Lévy-Bruhl, 33.
112. Vartanian, *Diderot and Descartes*, 205 and *passim*.